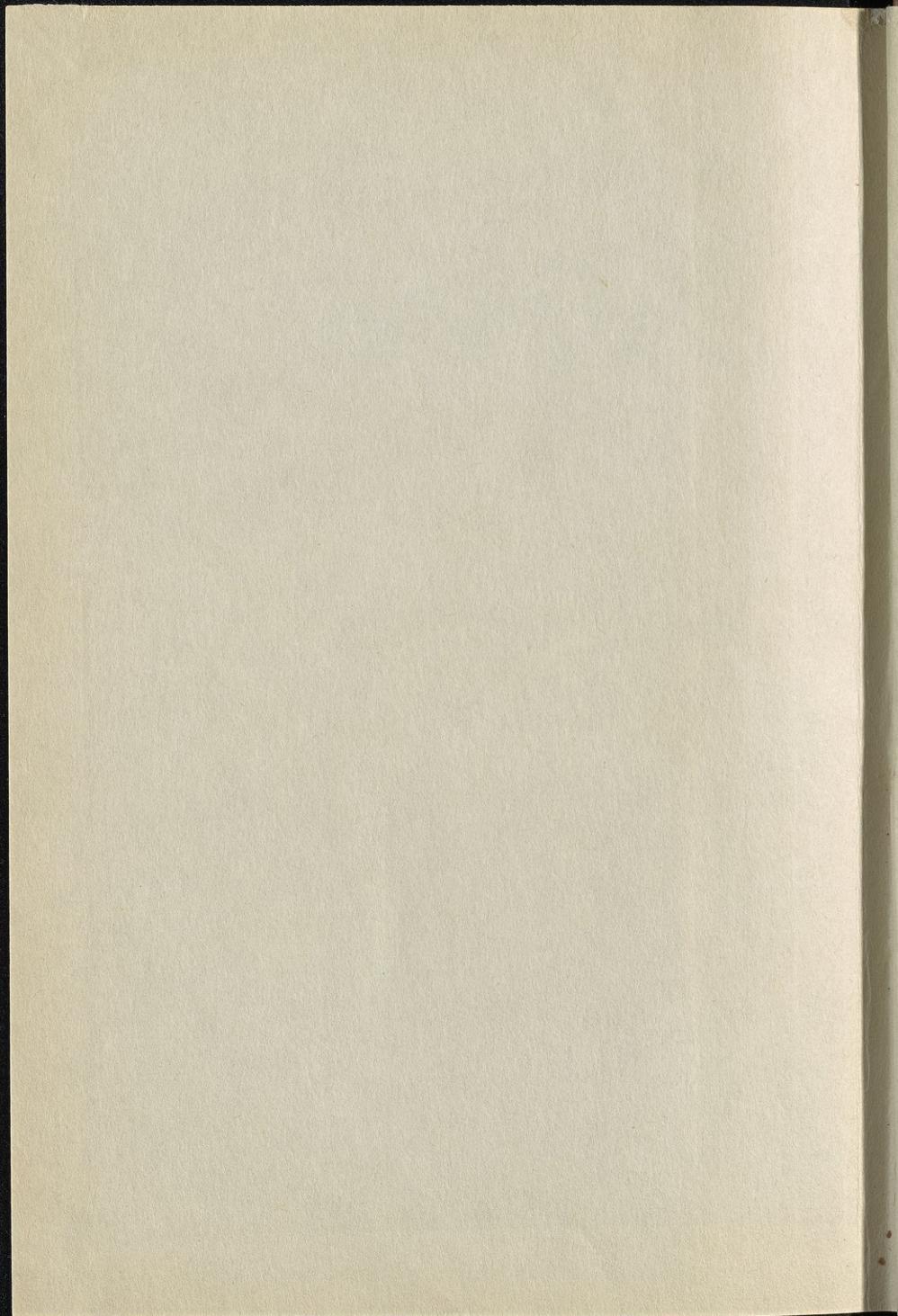


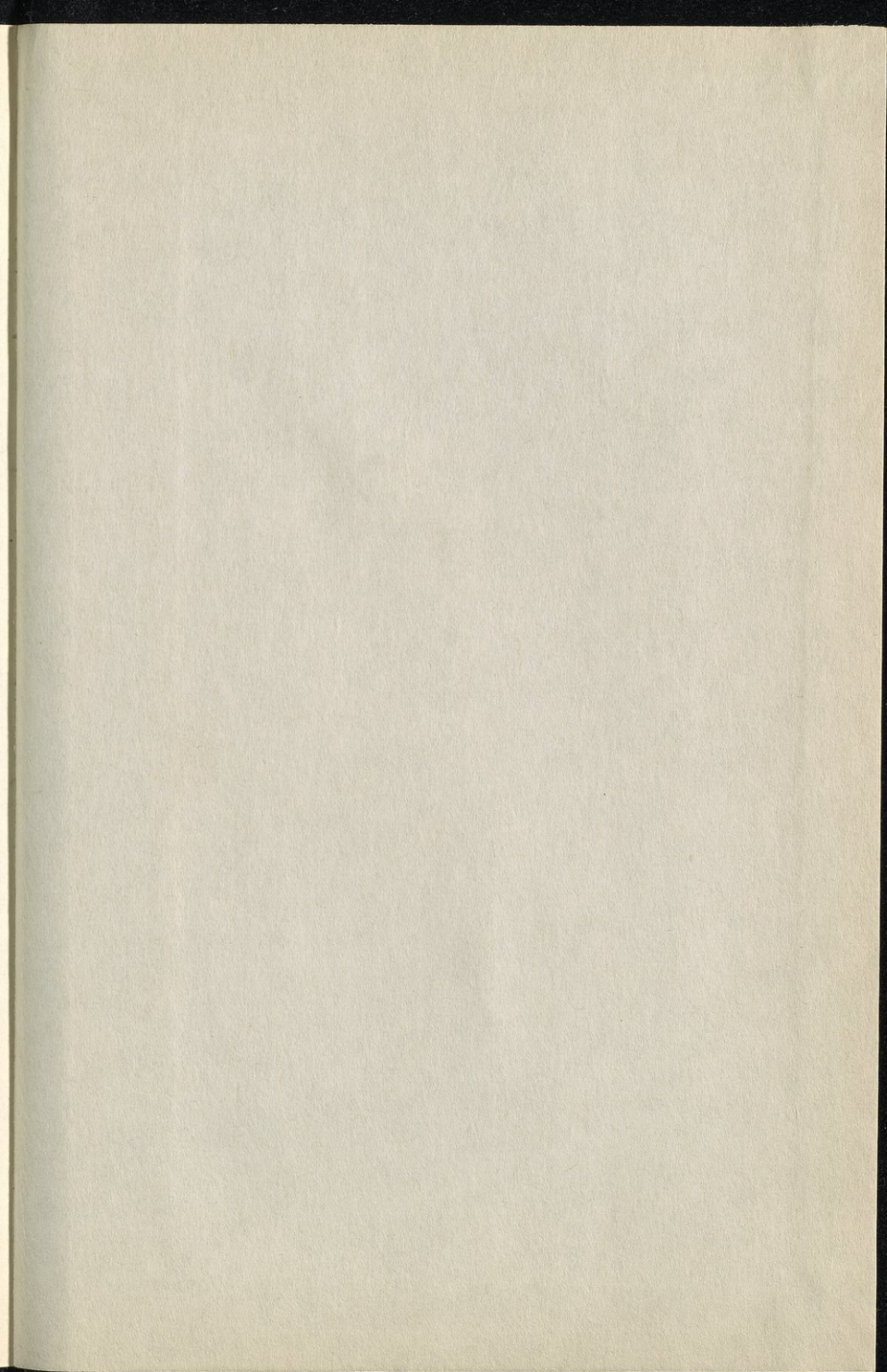
Columbia University
in the City of New York

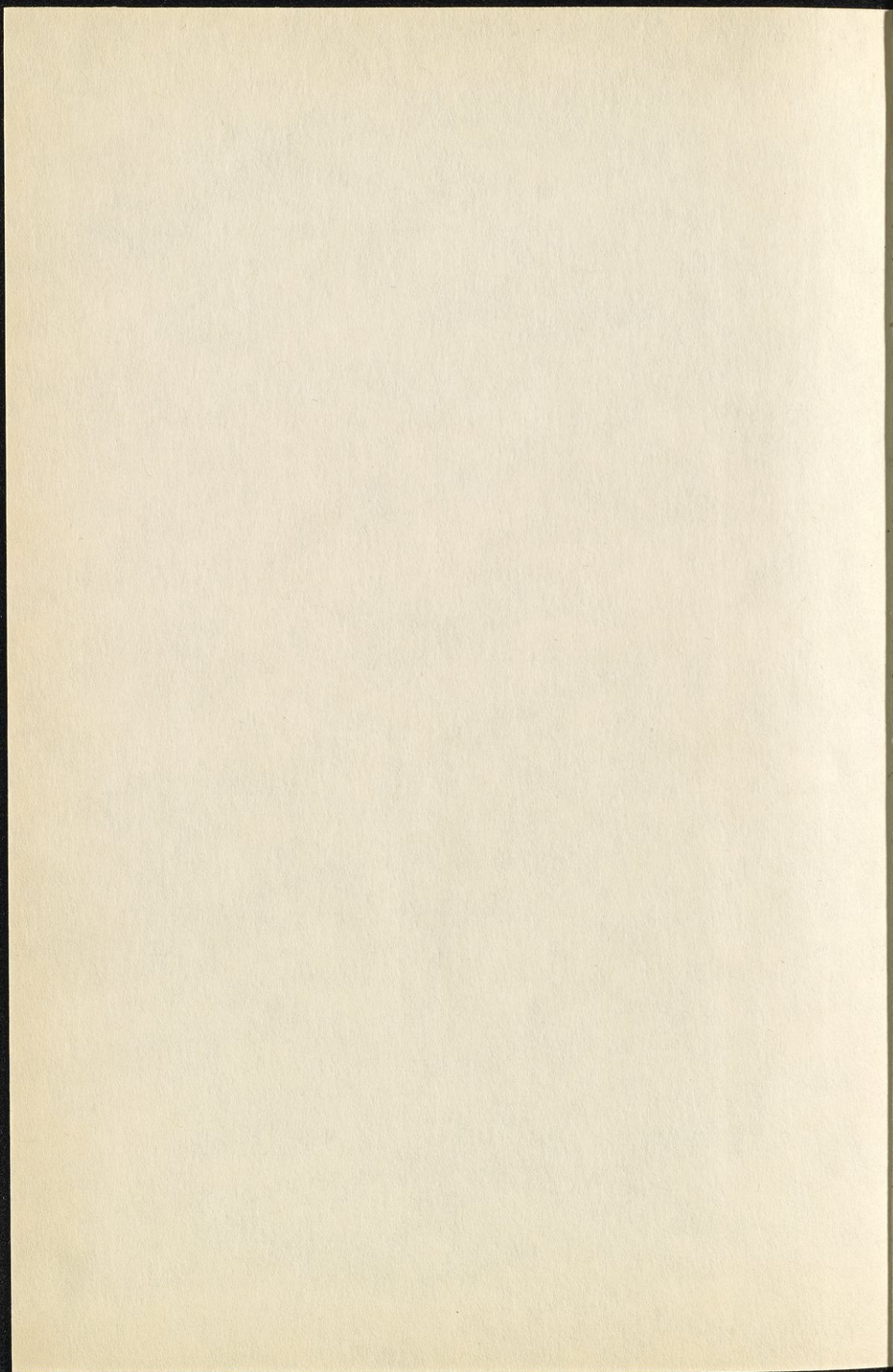
THE LIBRARIES

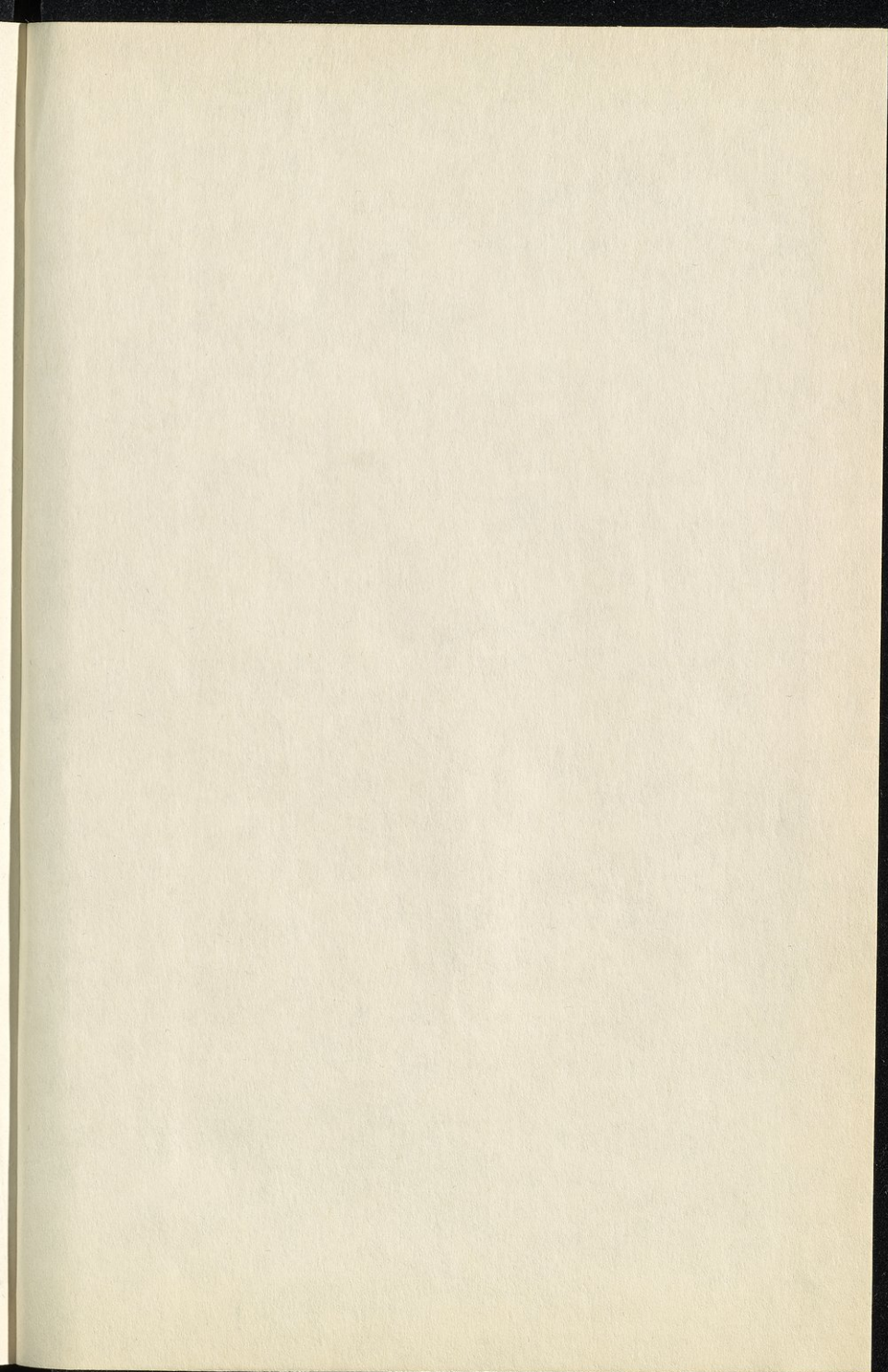


GIVEN BY
THE PUBLISHER









فهرس الكتاب

صفحة		صفحة	
	مولد العلم التجريبي في القرن السابع عشر		فهرس الكتاب
٨١	الآراء الاستطلاعية التطننية ، والفروض التمهيدية ، والمشروعات التصورية	٥	مقدمة المترجم مقدمة المؤلف
٨٤	التجريب		الباب الأول
٨٧	امتحان الاستنتاجات بالتجريب	١١	المواطن والعلم
٩٠	أهداف التجريب العلمى واقتراضاته	١٩	تقاليد البحث العلمى
٩٣	الدرجة الاختبارية فى العلم وفى الفن العملى	٣٤	العلم مناقش منظمة منسقة
٩٦	العلم والتكنولوجيا		الباب الثانى
١٠٣			ما العلم
	الباب الرابع	٤٧	العلم والحقيقة ؛ نظرة مرتاب
	كيف نشأة فكرة الضمط الجوى	٥٣	زيادة الكفاية فى المشروعات التصورية
١٠٦	حيدة عن الموضوع : شبان وهواة	٦٠	فروض يقرها العقل على فطرته
١٢٣	اختراع المضخة الفراغية	٦٣	العرفان المتراكم
١٢٧	تجارب روبرت بوييل	٦٩	التقدم فى الشئون العرفانية والأمر العملية
١٢٩		٧٢	
	الباب الخامس		الباب الثالث
	أطرزة متكررة فى البحوث التجريبية	٧٧	المنهج العلمى المزعوم
١٤٧			

صفحة	
٢٥٤	لافوازية كيف اهتدى
٢٥٨	القياسات الكمية والأخطاء العرضية
	النظرية الفلوجستونية : سدت
٢٦٠	الطريق دون أخرى جديدة
٢٦٤	اكتشاف الأكسجين
٢٧٢	آخر موقف وقفته نظرية الفلوجستون
٢٨٠	النظرية الذرية الكيماوية كيف نشأت

الباب الثامن

	دراسة الأحياء الحية : التاريخ
٢٩٤	الطبيعي وعلم الأحياء التجريبي
	دراسة بستور للتخمير بحسبانها مثلا
٣١٨	لعلم الأحياء التجريبي

الباب التاسع

	الملاحظة والتجريب في علم الأحياء :
	أمثلة مقتبسة مما قام حول التولد
٣٢٩	الذاتي من جدال
٣٣٣	تجربة المقارنة
	السبب والمسبب في البيولوجيا أو علم
٣٣٨	الحياة
	جدل القرن الثامن عشر حول التولد
٣٤٣	الذاتي غير المتجانس
٣٥٦	مناظرة بستور وبوشيه

صفحة	
١٥١	أمثلة من تجارب بويل : انتقال الصوت في الفراغ
١٥١	أثر طريقة للعمل تستجد
١٥٤	ما أداه بويل من الخدمات في الطرق التجريبية
١٥٨	الدور الذي لعبته المصادفات :
١٦١	كشوف جلفاني
١٦٢	اختراع فلما البطارية الكهربائية
١٦٧	اكتشاف الأشعة السينية
١٧٠	اكتشاف الغازات النادرة
١٧١	

الباب السادس

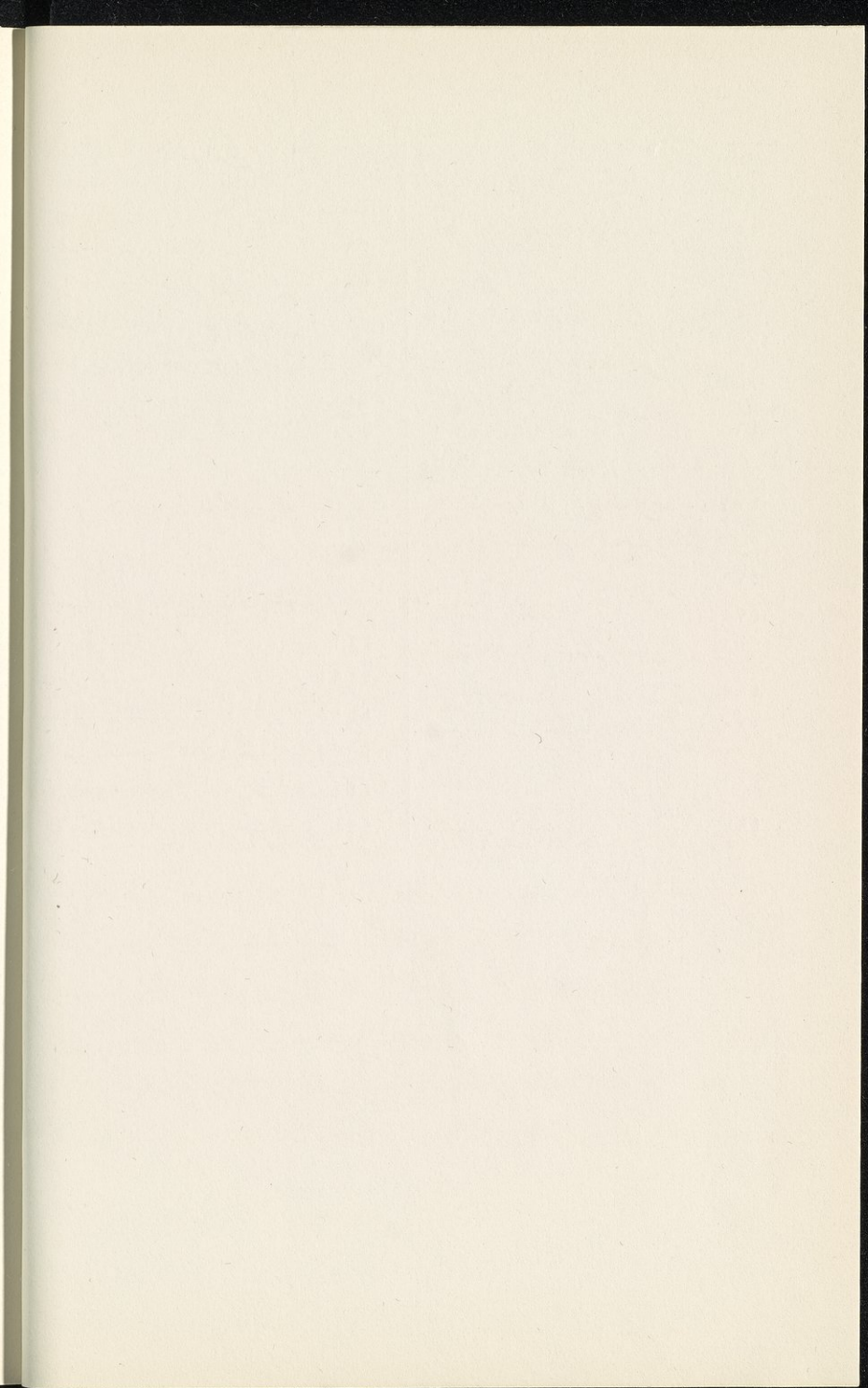
١٨٣	التدليل الرياضي والتجريب الكمي
	قواعد الادروستاتيكا : حقائق
١٩٢	تسبقها تعاريفها
٢٠٨	قانون بويل
٢٢١	أدوات القياس وخطورتها
٢٣١	الحقائق الرياضية والمعرفة المحتملة

الباب السابع

	أصل مشروع تصوري : الثورة
٢٣٦	الكيماوية
٢٤١	معنى النظرية الفلوجستونية وخطورتها
٢٤٧	بين الكشوف العلمية ما يغفل إغفالا
٢٥١	صعوبة التجريب بالغازات

صفحة	
٤٥٢	الدور الذى تلعبه الجامعات
٤٥٧	لماذا نطلب للعلم زيادة من مال
	الباب الثانى عشر
٤٦١	العلم والاختراع والدولة
٤٦٨	العلم والدفاع القومى
	مسائل خاصة بتقدير الأبحاث
٤٧١	الموجهة إلى إنتاج السلاح
	مال الاتحاد الفدرالى للبحث العلمى
٤٧٦	البحث
٤٧٨	العلم والسياسة
	العالم الاجتماعى والقيم الجارية فى
٤٨٣	المجتمع
٤٨٦	رجال العلم والحكومة
٤٩٧	الفهرس الأيجدى

	الباب العاشر
صفحة	
٣٦٥	دراسة الماضى
٣٨١	حول أهداف الجيولوجيا
٣٩٥	الطبيعة الأرضية ، علم تجريبي
	تقدم فى الفنون التطبيقية : فى
٤٠٠	الجيولوجيين وطرائقهم
٤٠٨	أصل الأحياء ونشأتها
	الباب الحادى عشر
٤١٨	أثر العلم فى الصناعة وفى الطب
	مراتب العلم والاختراع كيف تغيرت
٤٢١	وتبدلت
٤٢٩	العلم والصناعة : الموقف الحالى
٤٣٩	مسائل فى التنظيم
	الطب والصحة العامة : طيف من
٤٤١	العلوم الطبية
٤٤٥	الباحث وفق برنامج ، والباحث الطليق



مقدمة المترجم

أتقدم للقارئ في هذه المقدمة بثلاث كلمات ، كلمة عن المؤلف ، وكلمة عن الكتاب ، ثم كلمة عن الترجمة .

* * *

أما عن المؤلف فهو الأستاذ الدكتور جيمز برينت كونسنت ، رئيس جامعة هربرد ، من عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٥٣ . وهربرد من أقدم جامعات الولايات المتحدة وأكبرها وأبعدها ذيادة صيت . وهو الآن المندوب السامى الأمريكى لألمانيا الغربية ، اختاره لهذا المنصب أيزنهور ، رئيس الولايات المتحدة . وفى إدخال رجال العلم هكذا إلى مناصب السفراء ، بله الحكام ، معنى لا يخفى على المتبعين لتطورات الأمور فى هذه العصور الحديثة .

ولد الرجل بولاية ماساشوست ، من الولايات المتحدة ، حيث توجد جامعة هربرد . ولد عام ١٨٩٣ . وتعلم فى هربرد . ونال درجاته العلمية منها ، ومن هذه درجة دكتوراه فلسفة Ph.D. ، نالها عام ١٩١٦ . ونال من بعد ذلك درجات للشرف أخرى من جامعات أمريكية وأخرى غير أمريكية . بدأ حياته معلماً للكيمياء . ثم صار رئيس قسم الكيمياء بجامعة هربرد عام ١٩٣١ . ولم تمض عليه سنتان فى هذه الرئاسة حتى استدعى للرئاسة الكبرى ، رئاسة تلك الجامعة . وكانت له خدمات عامة جليلة أخرى

منها رئاسة معهد ركفلر ، ورئاسة مجلس الوصاية على أموال كرنيجي لتقديم التعليم . وهو عضو في جمعيات كثيرة .

وهو مؤلف لبضع من الكتب الفنية في الكيمياء وفي العلوم عامة . ومن مؤلفاته هذا الكتاب الذي بين أيدينا . وقد بيع منه في الولايات المتحدة إلى اليوم فوق الـ ١٥٠,٠٠٠ نسخة ، بنسبة نسخة لكل ألف من السكان . فلو أن الظروف تشابهت ، والحاجات تقاربت ، لوجب أن يباع منه في مصر والشرق العربي ٤٠٠٠٠ نسخة .

* * *

أما عن الكتاب فهو كتاب كتب للناس عامة ، فهو كتب للمعلم والمهندس والطبيب ، وهو كتب للمحامي وللقاضى والأديب ، وهو كتب لرجل الزراعة ورجل التجارة والصناعة ، ولرجل الإدارة . إنه كتب لكل مواطن في كل وطن من أوطان هذه الدنيا الحديثة قام العلم الحديث فيه عماداً لكل ما يجري فيه من شؤون هذا العيش . وهو كتب ليفهم كل هذه الطوائف ما العلم ، في عصر ملك العلم فيه زمام كل شيء ، فملك وسعة الحياة وضيقها ، وملك سعادتها والشقاء ، وملك حتى الوجود والفناء . ولقد سلك المؤلف في سبيل إيفهام الناس ما العلم سبلا عدة :

منها أنه اختار أحداثاً كبرى في العلم . . . مواقف حاسمة انجلت عن فتوحات في العلم عظمى فأخذ يصف كيف وقعت ، وأى العقبات الفكرية التي كانت قائمة في عصرها تخطت أو تنكبت ، وكيف هي إلى الإزهار فالإثمار تدرجت . وهو يضرب من ذلك الأمثال بما هو أمس الأشياء بالناس ، الهواء ، كيف انكشف ضغطه ، وكيف انكشف

بالتقياس على شتى الارتفاعات تدرجه . وهذا البحر الهوائى الذى يحيط
بسطح هذه الكرة ، هذه الأرض ، كيف شابهت فيه الضغوط نظائرها
فى بحر الماء ، وكيف خالفت .

ومن كشف الضغط ، ضغط الهواء ، ينتقل إلى علاقة بين ضغطه
وحجمه ، نعرفها اليوم عرفان اليقين ، وما كانت بذلك . ونصوغها اليوم
فى قانون أسميناه قانون بويل . وهو يصف ما قام فى سبيل كشفها من
صعوبات عملية ، وأخرى فكرية . وكيف منها خرج من بعد ذلك
البارومتر . وهو يدرج فى كل ما يصف مدرج القصاص ، وهو يؤرخ
الأفكار ويؤرخ الناس .

وقد يخرج قليلا عما يقص لينتجى بقارئه ناحية يذكر له فيها كيف
لعبت المصادفة المحضة دورها فى بعض الكشوف فكأنما جاءت تقف
أمام أعين كاشفيها ليروا ، أو تدق عند آذانهم ليسمعوا . ويذكر من
ذلك كيف كان كشف الكهرباء مصادفة ، وكشف الأشعة السينية
مصادفة ، وكشف غازات الهواء النادرة ، كالهليوم والنيون والأرجون ،
مصادفة .

ثم هو يعود إلى قصة الهواء ليستتمها ، فيصف كيف دُرس اشتعال
الأشياء فيه ، وكيف أخطأ فهم الدرس دارسوه . وكيف اشتبك العلماء
وتطاحنوا دهرأ ، بل قل قرناً ، وبقوا فى عماهم لا يهتدون . ثم يشاء الله
أن تتفتح أعينهم على الحق فى الهواء ، واشتعال الأشياء فيه ، فى الوقت
الذى تتفتح فيه أعين الخلق على معنى الحرية ، بقيام الثورة الفرنسية .
فيكون من الحدث الأول مولد الكيمياء الحديثة ، أولدها الكيمائى الفرنسى

لافوازيه . ويكون من الحدث الثاني مولد الديمقراطية ، أولدتها الصدور المكروبة والدماء المسكوبة . ويقهقه القدر وهو يجمع بين الحدثين جمع اختلاف ما كان ليأتلّف أبداً . فتقوم الثورة ، أم الحرية ، تقطع بالجيلتين رأس لافوازيه ، أبي الكيمياء الحديثة كما نعرفها اليوم .
ومن الحقل الطبيعي ينتقل المؤلف إلى الحقل الحيوى ، ليضرب منه الأمثال ، ويصف فيه الحاسم من المواقف . ومما وقف عنده من ذلك ، فأطال وقوفاً ، كيف كشف المكروب رجاله . وما كان كشفاً سهلاً . كان كشفاً تعرّث فيه الفكر طويلاً كما تعرّث في الهواء .

ويقف المؤلف فيما يروى لنا قليلاً ليتحدث عن الحيدة في العلم والنصفة عند العلماء . يتحدث عنهما ليهزأ بهما ، وليقول إن العلماء كبعض الناس ، فيهم أهواء وهم ميول ونوازع . وإن تكن عندهم حيدة فهم يخلعونها عند أبواب معاملهم . وإن تكن هناك حيدة صارت عندهم في المعامل عادة ، فقد بذر بذورها الأولى في القرون السالفة القديمة أهل الفكر من كل ضرب ، والفلاسفة والأدباء ، لا العلماء . ثم هو يأخذ يصف دنيا العلم الحاضرة ، وما فيها من ترابط بالجمعيات ، وترابط بالمجلات ، وترابط بالذوات ، وأن كشفاً يقع في جانب من جوانب الدنيا لا تلبث أن تتجاوب به في جوانب الأرض الأصداء . ثم هو يربط كل هذا بالحيدة العلمية التي جاءت فرضاً على كل عالم يعمل في أى حقل من الحقول ، بسبب امتداد هذا النظام على كل الحقول ؛ وما كان منه من هيمنة على العلماء وسيطرة هي اختيار في حكم اضطرار .

ثم يدخل المؤلف في علم الأرض وطبقاتها ، في الجيولوجيا ، ويقارن

بينها وبين التاريخ. ويذكر ما يصح في التاريخ وما لا يصح ، وما لا بد أن يبقى الإنسان منه في ريبة دهرأ . وهنا يمس الدين ، الذي هو دينه ، مسأ رفيفأ ، بحسبانه بعض التاريخ ، فيكشف عما يكشف عنه الباحثون فيه ، من كشوف ، هي ككشوف الآثار ، جديدة . وقد يرضى عنه القارئ أو لا يرضى . ولكن من المحقق أنه سوف يخرج منه بكسب عقلى لا شك فيه . وقد يجد فيه المؤمنون كثيراً من راحة وطمأنينة .

ثم هو يدرس علاقة ما بين الصناعات التي نشأت بالخبرة والعلم الحديث ، فيجد منها ما سبق العلم الحديث ، ويجد منها ما خلقه العلم ، فالعلم سابقه . ويصف كيف يغزو العلم الصناعة ، وتغزو الصناعة العلم ، في أيامنا هذه .

وهو لا يفوته أن يذكر العلم في الدولة ، فيحدد واجب هذا نحو هذه ، وواجب هذه نحو هذا .

ولست بمستطيع تعداد كل ما قال الرجل النابه وما هدف إليه ، فهو قد قال الكثير وهدف إلى الكثير . ولا سبيل إلى معرفة كل هذا إلا بقراءة الكتاب . وهي قراءة يبدأها القارئ فيحسب أن بينه وبين الكاتب نزاعاً ، ثم هو يزيد قراءة فيقل نزاعاً ، ويزيد اطمئناناً ، ويزيد إيماناً بما يقول الكاتب . ذلك أن الكاتب له آراء مبتكرة ، الكثير منها الجديد الذى يدغدغ الفكر ، فيقف عنده مترقبأ متوثبأ ، ثم هو يتخاذل عن رضأ . وهو من أجل هذا كان هذا الكتاب من الكتب التي تقرأها فيبقى لها في نفسك آثار وأعقاب ، وتدخل إلى رأسك معان منه قائمة باقية لم تكن فيه ، تصير من محصول فكرك الدائم .

ولقد وددت لو ترك المؤلف الأبواب الثلاثة! الأولى فلم يتناولها إلا بعد أن يكون قد تناول سائر الأبواب . إنها أبواب ثلاثة ممتعة حقاً تتناول تقاليد البحث العلمي ، وتتناول العلم منسجماً في العالم منظماً . وتدخل في معنى الصور الذهنية والمشاريع التصورية ، والفروض والنظريات ، وفي نظرية المعرفة ذاتها . وهي مواضيع خلت ، مصيباً أو مخطئاً ، أن القارئ قد يكون أقدر على استيعابها بعد قراءة سائر الكتاب .

والمؤلف لم يسم كتابه « مواقف حاسمة في تاريخ العلم » ، وإنما هو سماه في طبعة « في سبيل العلم » . وسماه في طبعة أخرى : « العلم ورأى السواد من الناس » . ولكنه في نص الكتاب ذكر أنه إنما يصف من العلم مواقف حاسمة . ومن هذه اشتقت اسم الكتاب . وهي مواقف حاسمة في تقدم العلم لا شك فيها .

* * *

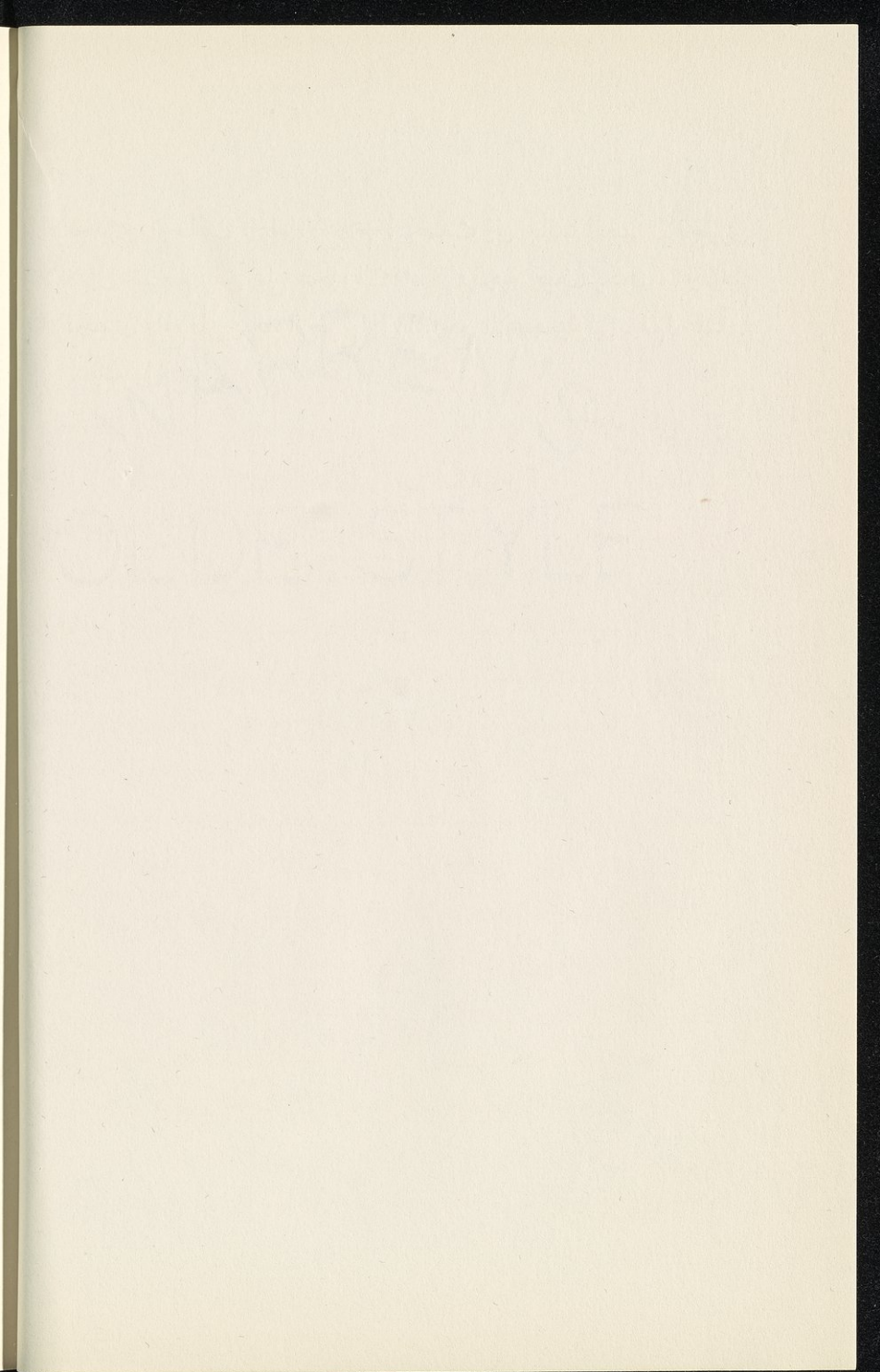
ولقد رأيت أن أؤرخ للعلماء ورجال التاريخ ، من أقدمين ومحدثين ، الذين ذكرهم المؤلف في كتابه استتماماً للفائدة . كذلك علقته بالتفسير على بعض المصطلحات وبعض المعاني التي قد تستبهم على بعض القراء . فكل ما في هوامش الكتاب لا تبعة لصاحب الكتاب فيه .

* * *

أما الترجمة فقد ذهب فيها ، على الدقة الزائدة ، مذهب التحرر ، وجنحت فيها إلى النفع إذا هو عارض التقليد . وكان لا بد في كتاب يحكى عن العلم كهذا من ابتداع كلمات ، فابتدعتها ، فوجدت من الفائدة أن أذكر إلى جانبها لفظها الإنجليزي لفائدة من عرف وألف اللفظ

الإنجليزية . كذلك أسماء الأعلام ، وضعت إلى جانبها لفظها الإنجليزي
لأننا إلى اليوم لم نتفق على هجاء الأسماء الإفرنجية كيف يكون ، والاسم
الإنجليزي نافع لمن يريد الرجوع إلى المراجع الأعجمية ليزاد منها علماً .
والله ولي التوفيق

أحمد زكى



مواقف حاسمة في تاريخ العلم

نشر بالاشتراك مع
مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر

مَوَاقِفُ حَاسِمَةَ فِي تَارِيخِ الْعِلْمِ

تأليف

جيمس ب. كونانت

رئيس جامعة هارفارد السابق

ترجمه وقدم له ووضع هوامشه

الدكتور أحمد زكي

مدير جامعة القاهرة

ملئزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

893.785
C74

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بشراء حق الترجمة من أصحاب هذا الحق

This is a translation of "Science and
Common Sense" by James B. Conant.
Copyright 1951, by Yale University Press.

Publisher's Gift

NOV 3 1955

مقدمة المؤلف

في عام ١٩٤٦ كان لي الحظ السعيد في إلقاء مجموعة من المحاضرات في جامعة « ييل » (Yale) ، هي محاضرات « تيرى » (Terry) . وفي هذه المحاضرات عملت كل ما يمكن عمله لإفهام الناس من شئون العلم فوق ما فهموا ، أولئك الذين ليس في نيّتهم أن يتخذوا من العلم مهنة ، وكل ما عندهم من العلم - على أحسن تقدير - أشياء تلقّوها في برنامج أوبرنامجين في كلية . والحل الذي اهتديت إليه لهذه المسألة التربوية ، على بساطتها وعلى صعوبتها ، يمكن تلخيصه في اقتراح بتدريس أصول « الاستراتيجية والتكتيك العلمى » بواسطة سلسلة من تواريخ وقائع ، يعرضها العارض ويفسر ما جرى فيها من ذلك . ولأوضح ما عنيّت اضطررت إلى الإتيان بالقليل من الأمثلة البسيطة ، أحدها ما كشف « روبرت بوييل » من أمور الهواء ، وآخر ما كشف « فلتنا » في الكهرباء وثالث عن الثورة الكيماوية المتصلة باسم « لافوازيه » . ثم خطر لي أن أن أجمع هذه الحالات الثلاث ، على ما بها من تعجّل واختصار ، وأن أضيف إليها آرائى الخاصة التى تتصل باستراتيجية العلم وتكتيكه ، وأن أعرضها على الجمهور في صورة كتاب صغير ، نُشر فعلا ، وأسميته « فى فهم العلم . تفسير تاريخى له » (On Understanding of Science)

(An Historical Approach) فلما عرضت مسألة إعادة طبع هذا الكتاب من أشهر سلفتي ، ظهر لي أن الكتاب في حاجة إلى شيء أكثر من تنقيح . إن الكتاب في طبعته الأولى هدف إلى غايتين . فأول هدف هدفت إليه أن أعطي القارئ العام بعض فهم لطرق العلم ، وثاني الهدف أن أخلص لمدرس الكلية كيف يصنع في حمل بعض المعارف إلى طلابه . فلو أنني أردت أن أزيد مقترحاتي في تعليم العلم لغير العلميين بحثاً ، إذاً لوجب عليّ أن أعرض لما حدث في السنوات الخمس الأخيرة في هذه البلاد في تعليم العلم بالمدارس ، وهذا يؤدي بي إلى ذكر ما وقع في هذه الناحية من تقدم ، وهو ذكر لا يتم إلا بمناقشة لا لذة لأحد فيها خارج نطاق التعليم ولغير رجال هذه المهنة . هذا من جانب . ومن جانب آخر كانت خبرتي اتصلت ببرنامج ظل ثلاث سنوات يُعطي لطلبة ما دون درجة البكالوريوس في جامعة هارفرد (Harvard) ، وهو جزء من مشروع يهدف إلى إعطاء شيء من العلوم الطبيعية لمن لم يتخصصوا فيها ، لقصد ثقافي بحت . وكان من أمر هذه الخبرة أنها غيرت من آرائي بعض الشيء ، وزادت أمثلي من الوقائع العلمية التاريخية زيادة كبرى .

من أجل هذا رأيت أن لا أنقح هذا الكتاب الصغير وأن لا أزيد فيه بتوجيه الخطاب به إلى نوعين من القراء مختلفين . وبدلاً من ذلك رأيت أن أكتب كتاباً أكبر كثيراً عن المناهج العلمية ، أوجه فيه الخطاب إلى القارئ العام . وقد أبقيت في هذا الكتاب على تلك الأجزاء من الكتاب القديم التي ظلت متصلة بهذا البحث حتى بعد تغييره وتحويره . أما المسائل التي تتصل بتعليم العلم فلم أكد أبقى على شيء منها . وكل من يهتم

بمعرفة ما جرى لبرنامج خصّص للمستجدين في الجامعة بقصد إعطائهم فهماً للعلم والعلماء، عليه أن يقرأ كتاب (Case Histories in Experimental Science). إن هذا الكتاب الحاضر يجري متوازياً بعض الشيء مع ذلك البرنامج على الصورة التي اتصلت به عليها، ولكنه لا يعطى صورة كاملة عما جرى. ومع هذا فإنني أرجو أن يعطى هذا الكتاب ملخصاً كافياً للمواطن المزدهم بالعمل عن كيف يجري العلماء فيما هم فيه من مسالك العلم.

إن الطريقة التي يعرض بها العارض أمراً على الجمهور تختلف حتماً، كل الاختلاف، عن طريقة يعرضه بها في فصل من طلبة بجامعة. إن قول من قال «إن التربية هي كل ما يتبقى للمرء بعد أن ينسى كل ما عرف» يدل على قسوة في الدراسة واجبة، لولاها لكانت دروس الجامعات سطحية التأثير فكأنها محاضرات تُساقى في ناد نسائي. ولكن القارئ العادي غير الطالب، فطريقة العرض له تختلف عن تلك اختلافاً كثيراً. والذي يُعرض عليه لا يكون إلا ملخصاً مختصراً، وهو لو أراد أن يستزيد ليملاً ما يكون في الذي حُصّل من فجوات، فهو مستطيع ذلك بمجهوده الشخصي، وذلك عن طريق التحدث إلى الخبراء، أو عن طريق الكلمة المطبوعة.

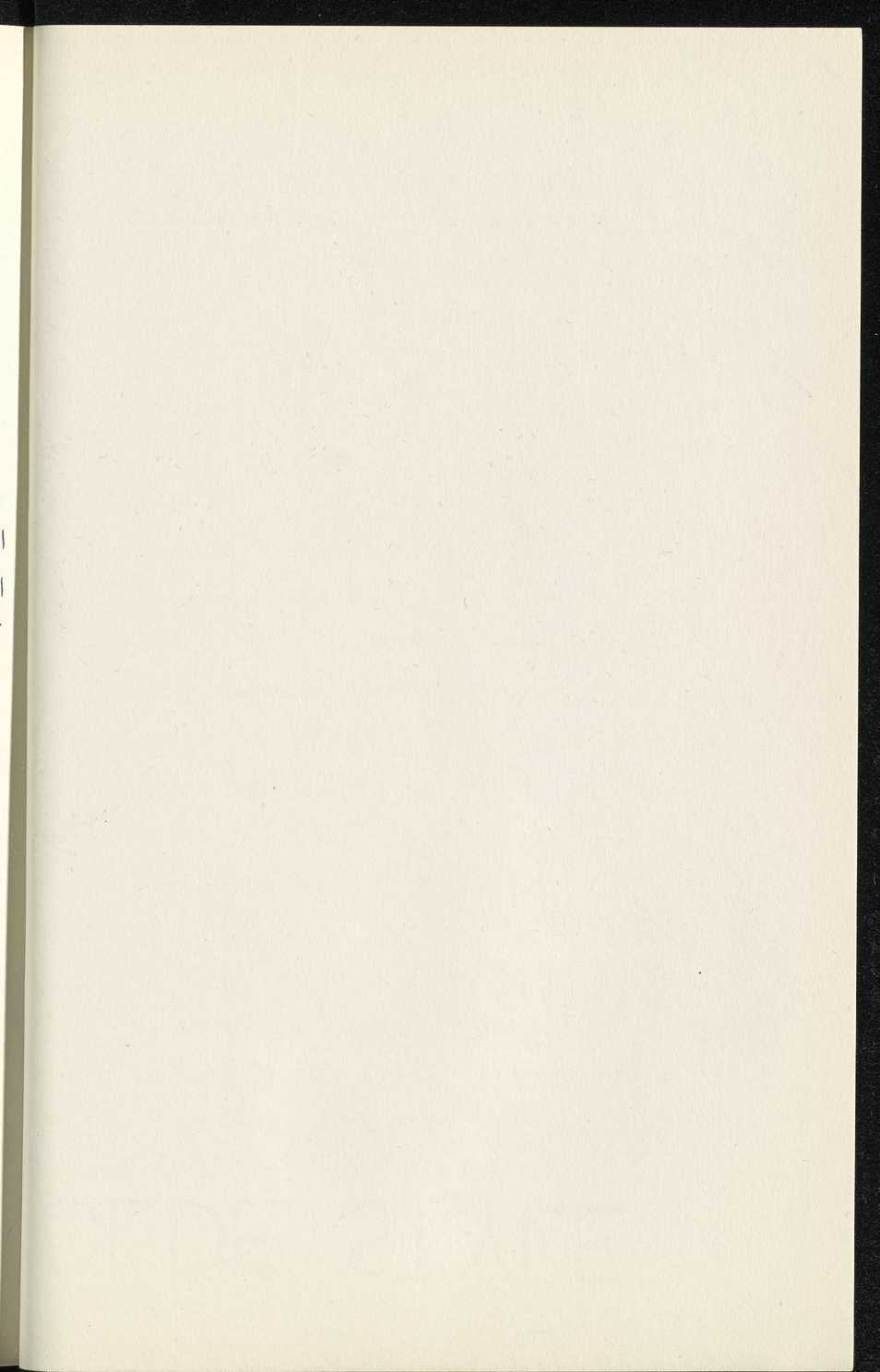
إن كل ما في الأبواب التي بهذا الكتاب، عدا ما في الباب العاشر (دراسة الماضي)، هو في جوهره ما ألقيته أكثر من مرة على طلبة ما قبل الدرجة. وإذاً فلا حاجة بي إلى القول بأنه نتيجة لهذه الخبرة النافعة قد غيرت من آرائى، وحوّرت من أسلوبي وطريقة عرضي

تحويلاً كبيراً . وفعلت هذا أكثر من مرة . فهنا الكتاب إذاً يمثل أثر الطالب في المدرس . وهو يمثل أكثر من ذلك أثر جماعة من مدرسين في مؤلفه . ذلك أنى في أكثر تلك السنوات الأكاديمية الثلاث التي ذكرت كنت أنتهز فرصة الغداء فأجتمع بمن أعانوني في هذا البرنامج فأحدثهم فيه . وإلى هنا النقاش يُعزى كل جديد في هذا الكتاب لم يكن في سابقه . ومن البين أنى لا أستطيع أن أرد هذا الفضل مجزئاً إلى كل من أسداه . وسيجد كل واحد من هذه الجماعة في هذه الكتاب الجديد ما لا يرضاه رأياً ، على هذا دلت حرارة المناقشات التي دارت . ومن الأمور الندى ذكرت ما لا يمكن أن يكون فيه إجماع في الرأي . ومع هذا فأنا معترف للجميع بالفضل ، جملة وفردى . لهذا أنتهز هذه الفرصة لأعبر فيها عن عرفان الجميل للأستاذ أوون (Gwilym E. Owen) بكلية أنطاكية Antioch ، وللأستاذ «رولر» (Duane Roller) بكلية «واباش» ، وللأستاذ المساعد «وطسن» (Fletcher G. Watson) بجامعة «هارفرد» ، وللأستاذ المساعد «ناش» (Leonard K. Nash) بجامعة «هارفرد» ، وللدكتور «كون» (Thomas S. Kuhn) بجامعة «هارفرد» ، والدكتور «كلارك» (Charles L. Clark) والدكتور «جروس» (Eugene P. Gross) ومشروع هذا الكتاب كله الندى بدأته من أربع سنوات ما كان ليكون لولا مساعدة نلتها من شاب نابِه مؤرخ للعلم هو الأستاذ المساعد «كوهين» (Bernard Cohen) . وهو مستمر يعطيني من عونهِ طيلة السنوات الثلاث الماضية . وإني أشكر المستر رولر Duane H.D. Roller معزتي في تحضير مسودات الأبواب التسعة الأولى . وأخيراً ،

وليس آخرأ ، أهدي الشكر لزوجتي ، جريس رتشاردز كونانت
 (Grace Richards Conant) لمعونتي في المسودات وفي قراءة تجارب
 الطبع .

جيمز بريانت كونانت كمبردج ، ماساشوست

١٢ أكتوبر عام ١٩٥٠



الباب الأول

المواطن والعلم

هذا كتاب أوّلى ، ينظر في مناهج العلم التجريبي ، وكاتب هذا الكتاب يفرض في قارئه أن عنده الرغبة في أن يطلع على ما يعمل رجل العلم في معمله ومختبره ، وعلى أساليب يتخذها لبلوغ غايته . ويفرض كذلك في قارئه أنه لا يعلم إلا القليل من مبادئ العلوم الطبيعية .

والغرض من الكتاب تعريف القارئ بالطرق التي يسلكها رجال الطبيعة ، أو الفزياء كما يسميها بعض العرب ، ويسلكها رجال الكيمياء ورجال الكيمياء الحيوية ، ورجال علم الحياة التجريبي للوصول إلى غاياتهم . وكذلك إطلاع القارئ على ما بين مجهودات هؤلاء العلماء والتقدم الحاصل في فنون الصناعة المعروفة بالتكنولوجيا ، وفي الزراعة ، وفي الطب ، من علاقات .

أو بتعبير آخر هذا دليل المواطن إلى طرق العلم التجريبي . والحديث فيه موجّه إلى كل مواطن ذكى يهتم بكل ما يقضى به البرلمان في الشؤون العلمية ، وذلك بحسبانه رجلا ذا صوت في انتخاب أعضاء هذا البرلمان . وهو حديث موجّه كذلك إلى المحامى ، ورجل المصرف ، ورجل الصناعة ، وموظف الحكومة ، ورجل السياسة ، ورجل الصحافة ، إلى كل من

منهم ذو همٍّ بأمور الحياة العملية في منتصف هذا القرن الحاضر ، القرن العشرين . وهم جميعاً ، حيثما وجهوا أنظارهم في الحياة ، سيجدون رجالاً من رجال العلم يعملون ، أو هم سيجدون نتائج أعمال هؤلاء الرجال . ففي الصناعة ، وفي المستشفيات ، وفي محطات التجارب ، وفي الجامعات ، تنشأ كل عام مسائل تُجمل في لفظة « بحث » أو لفظة « تنشئة أو تنمية » أو « فحوص علمية » ، وهي في العادة أيضاً تتضمن لفظتين أقل إغراء من هذه الألفاظ ، هما « الميزانية » و « التكاليف » . فكيف يستطيع إنسان مواطن ، لا خبرة له بالعلم ، أن يقضى فيما يسمع من الكماوى أو الطبيب أو المهندس ، وهو يدافع في تحمس عن مشروع له تُستغل فيه أموال الناس ، أهو يقول صدقاً أم يقول هراء . وهذا أمر يعرض كثيراً ، وكل يوم تقريباً ، لكل عضو من أعضاء مجالس الإدارات للمؤسسات والهيئات جميعاً ، في صناعة أو تجارة أو مال ، وفي المستشفيات والجامعات . وهو يعرض لموظف الدولة ، والنائب عن الأمة ، ولصنوف كثيرة غير هؤلاء من الرجال .

إنه ليس في الدنيا عصاً سحرية تجعل من رجل ، من غير رجال العالم الحديث ، رجلاً من رجاله ، أو خبيراً من خبرائه ، في يوم وليلة . ومع هذا فالرجل غير العالم يستطيع بالاطلاع المتواصل أن يقدر بعض التقدير وجهة نظر رجل المعمل ، وأن يفهم بعض طرائقه وتصوره لما يعرض له من مسائل . ولقد كسب كثير من المواطنين ، بالاطلاع المتواصل ، قدرة حتى على نقد بعض الأعمال العلمية التي تتصل بشأن من شئون ما هم فيه من أعمال وأشغال . كسبوها من وقائع وقعت ،

تركزت في أذهانهم معالم بيئة ، هي مراجع يرجعون إليها كلما أحيل إليهم
مقترح جاء من معمل ليروا فيه رأياً .

وقد يجد البادئون حياتهم المهنية فيما نعرض في الصفحات القادمة
من طرائق العلم شيئاً من نفع . وأما غير البادئين ، وأعني بهم أولئك الذين
قضوا في مهنتهم زمناً طويلاً ولكن لم يتصلوا أثناء ذلك بالعلماء والمهندسين
فهؤلاء أيضاً سيجدون في أنفسهم رغبة في التعرف إلى طرق العلم الحديث ،
وفي كسب ما كسبه الآخرون من طول ما اتصلوا بالعلم والعلماء في سبيل
المهنة التي يمتنون . وغير هؤلاء وهؤلاء ، أرى أن كل مواطن ، إذا كان
به الكفافية من شباب وأمل وثاب ، قائد محتمل للمجتمع الذي يعيش
فيه . فإن هو صاره ، فستقع عليه تبعات في أحكام يصدرها ، أو نفقات
ينفقها ، وقد تتصل هذه بالصحة العامة و الطب . أو إن
هو كان رجلاً من رجال الأعمال ، أو رئيساً في نقابة عمال ، فقد يفرض
عليه منصبه أن يقضى في أمور تقتضى عرفانه بالعلم ، وما يطبق فيه العلم
في الحياة . وحتى إذا هولم يصير إلى شيء من ذلك ، وبقي فرداً متواضعاً
من أفراد الناس ، فسوف يواجه باعتباره ناخباً موقفاً لا بد له فيه من
أن يقضى في أمر له خطره في حياة البلاد . مشروع من المشاريع الكبرى
التي تمولها الدولة مثلاً . فهنا سيجد الحاجة أكبر الحاجة إلى تفهم مثل
مثل هذا المشروع بمحصول من تفهم العلم لا بد سبق . وقد يكون
من هذه المشاريع ما يكره . وقد يكون منها ما يجب . ومنها
مشاريع تتصل بجهاز الحرب وما أخرج العلم من مهلكات لبني الناس .
مسائل كثيرة تواجهنا حينما تلتفتنا ، تتصل بالعلم وأنتيجة العلم ، قد يكون فيها

إعطاء الموت ، وقد يكون فيها إعطاء الحياة ، وقد يكون فيها إعطاء الألم ، وقد يكون فيها إسداء الشفاء ، ليس لنا مهرب منها ، ذمناها أو حمدناها . فنصيحتي إلى كل مواطن ، فيما بقي من هذا القرن ، أن يتزوّد لأداء واجبه لوطنه بفهم العلم وتفهم العلماء بقدر المستطاع .

وهنا قد أسمع سائلاً يسأل ، ماذا تعنى تماماً بفهم العلم وتفهم العلماء ، فيما يختص بغير العالم ؟ وجوابي على هذا السؤال أني وجدت في خبرتي الخاصة أن الباحث العلمي الناجح ، في أي فرع من فروع العلم ، سواء منه البحث والتطبيقي ، عندما يواجه مسألة علمية يريد حلها ، حتى في حقل جديد من حقول العلم لا يجمله كل الجهل ، إنما يواجه هذه المسألة بوجهة نظر له خاصة ومزاج خاص . فإدراك هذه النظرة والامتزاج بهذا المزاج هو ما أسميه « فهم العلم » . وهو شيء آخر مستقل كل الاستقلال عن معرفة الحقائق العلمية ومعرفة الطرائق التي تستبج في هذا الحقل الجديد الذي يدخل إليه . إن أكثر المواطنين ثقافة وأكثرهم ذكاء ، قد يحضر نقاشاً علمياً بين علماء ، يفوته إدراك النقط الأساسية في هذا النقاش لما فاته من التمرس بالبحوث العلمية وكسب الخبرة فيها . وهو لن يفوته هذا لجهله بحقائق العلم ، ولانبهام اللفظ الفني الذي يتحدث به العلماء ، ولكن يفوته على الأكثر لجهل أصيل فيه بالندى يستطيع العلم تحقيقه والذي لا يستطيعه ، ثم بالبلبلية التي تعتريه من جراء ذلك أثناء النقاش في خطة رسمت لتحقيق غاية . إن الندى يعوزه أن ليس به ذلك الحس الرقيق الدقيق ، الدخيل الخبيء ، الذي يهدي الباحث إلى إحكام الخطة بلوغ الغاية ، وهو كحس القائد الذي مرن على التدبير لجيشه

ليبلغ به النصر آخر الأمر. لقد صادفت في العشر السنوات الأخيرة أمثلة كثيرة من هذه البلبلة التي تعترى غير العلماء. وإن صح حدسي وصدق تشخيصي (وهذا فرض من فروض هذا الكتاب الأولى) فإنى أجد العلاج لا يكون بإشاعة الحقائق العلمية بين سواد الناس. فمعرفة الحقائق العلمية غير فهم العلم، ولو أن الشينين لا يتعارضان. وإنما العلاج يكون بابتداع وسائل يتوسل بها المتوسلون إلى إعطاء الرجل العادى فكرة عن الحيل التي يحتال بها العلماء لبلوغ الغايات، وكيف يخططون لها ويرسمون. ولن يستطيع أحد أن يختصر الطريق فيبلغ بغير العلم من هذا الأمر ما يبلغه العالم، ولكن فى ظنى أننا نستطيع أن نفعل الكثير لتضييق الشقة التي تفرق بين العالم وغير العالم، بسبب أن الأول له العلم مهنة، بينما الثانى، أعنى المواطن الذكى، لم يطلع من العلم إلا على ما أخرج من نتائج. ولتضييق هذه الشقة قد نقترح على كل مواطن أن يتفرغ من عمل حياته بضع سنوات يقضيها فى زيارة معاهد العلم ليحظى من العلم ما نريده أن يحظى. وقد نرتب له، مثلاً، بناء على هذا، أن يقضى الستة الشهور الأولى قياماً إلى جانب قائد من قادة البحوث، فى معمله، بمصنع من المصانع الكيماوية الكبرى. ثم قد نقترح عليه بعد ذلك أن يصنع مثل هذا فى مصنع من المصانع الإنتاجية للأدوات والآلات الكهربية، ثم أن ينتقل من بعد ذلك إلى جامعة، إلى معمل بها للطبيعة^(١)، للفيزياء (Physics) أو الكيمياء ثم ينتهى مطافه بزيادة مستشفى، أو معهد

(١) لفظة مصرهى الطبيعة، وسائر العرب يقول الفيزياء والفيزياء أوضح وأبعد عن الالتباس، فى كتاب كهذا تذكر فيه علوم طبيعية شتى. وعندئذ نحفظ بلفظة الطبيعة لفظة Nature

يستنبطون فيه طرقاً لاستخدام الفحم جديدة. ونحن نستطيع أن نأتى من أمثال هذه الاقتراحات بأشتات مترادفات ، كلها يهدف إلى رؤية العالم وهو يعمل وحيثما يعمل . وهى قد تختلف فى تفاصيلها . وقد نختلف نحن فيها فنقول إن الأفضل لهذا المواطن ، لبلوغ تلك الغاية ، أن ينفق أكثر وقته فى الجامعات . أو أن الأفضل أن ينفقه فى معامل المصانع ومختبراتها . ولكن من المحقق أننا سنتفق جميعاً على أن مواطناً ، حتى لو جهل كل الجهل ما يدرس فى المدارس من فزياء وكيمياء وعلم حياة ، إذا هو اتبع برنامجاً كالذى وصفناه ، فسوف ينتهى بعد سنوات قليلة إلى مقدار طيب من تفهم العلم وتفهم طرائقه .

اقتراح جميل لا شك فيه . ولكن دونه مصاعب ، بصرف النظر عما ينفقه المنفق فيه من وقت ثمين . ومن هذه المصاعب أن بحاث العلم لا يرحبون فى معاملهم بالزائرين ، لأنها تشغلهم عما هم فيه قائمون . ومنها أن المعامل ليس فيها كل يوم ما يلذ ، ويلزم عندئذ ترتيب الزيارات بحيث تقع فى الأيام التى فيها ما يستأهل زيارة ، وهيئة الزائرين حتى لا يسألوا العلماء إلا أسئلة ناضجة يتسع وقتهم لإجابتها ، وتكون من القصر بحيث يطيقون عليها صبراً . كذلك لا بد من استيحاء أهل السحر طريقة نعالج بها أمر النذين يتخلفون من الزائرين عن زيارة موعودة لعرض موقوت . طريقة سحرية نستطيع بها أن نغرى العلماء بتكرار ما عرضوا ، تماماً كما نفعل فى الأفلام وتكرار عرضها .

قد أكون بالغت فيما اقترحت ، وذهب بى الخيال مذهبه ، وذهبت بى المداعبة . ولكن غرضى لا بد قد استبانه كل من قرأ عنوانات هذا

الكتاب من الفهرس قبل قراءته . فالذى أقترحه هو استبدال هذه الزيارات ، زيارات المعامل والمصانع والمستشفيات والجامعات وما إليها ، برحلة من صنف آخر . هى أخذ بيد القارئ والوقوف به على بعض حوادث التاريخ ، تاريخ العلم . وهو سيجنى من هذه الرحلة ما قدرنا أنه يجنيه من تلك الزيارات تماماً . أو لعل « تماماً » لفظة أشد مما قصدت . فالذى عنيته أن شيئاً مما قدرنا أنه يجنيه من تلك الزيارات قد يجنيه من مناقشة طرائق اتباعها العلماء لتقديم العلم فى الذى مضى من قرون . والحصول الذى سيجنيه سيكون على الأقل متناسباً مع ما ينفق من زمن فيه . وإذا اعترض أحد آخر الأمر فقال إني إنما أتخذ أمثلى من أزمنة كانت العلوم فيها فى طفولتها ، وإني أعرض التاريخ الماضى على قوم كل همهم فى الحاضر ، فجوابى عن ذلك سيكون : أن طرائق العلوم لم تختلف ، فهى اليوم كما كانت بالأمس ، وإني لا أجد وسيلة غير هذه تجمع بين البساطة والهدف الذى أهدف إليه .

إن همم العالم ليس فى الحاضر ، وليس هم المواطن الذى ننصحه بالنظر إلى العلم من فوق أكتافه . (وهو نفس المواطن الذى سوف ينظر إليه ملء عينيه إذا هو طلب إعانة من مال) . إنما الهم فى المستقبل ، والتركز إنما هو على المستقبل . وهذا أمر سوف نؤكد مراراً وتكراراً على طول هذا الكتاب . إن الحاضر من همم هؤلاء القوم الذين يُعنعون بالمعارف ، وجمعها ، وبتسجيلها فى كتب كبيرة تعرف بدوائر المعارف . وليس الجمع من همم العلماء . واو أن البحوث جميعها أوقفت ، لو أن الجهود المبذولة لاكتشاف طرق جديدة لعمل الأشياء بغتة تعطلت ، إذاً لفقد

المواطن كما فقد العالم كل لذة في العلم واهتمام به^(١). إن خطر العلم في زماننا هذا في أن شيئاً ما حادث قائم في كل ساعة ، وكل يوم ، في عدد لا يحصى من المعامل والمصانع والمستشفيات ، وأن كل ساعة وكل يوم يأتي بجديد . وهو يأتي بجديد لأن أساليب من أساليب التفكير ، بدأها أفراد من الناس منذ ثلاثة من القرون ، قد تمت وتنشأت وتعمدت واتسعت فجاءت بكل هذا الجديد . وهذه الأساليب قد نسميها مناهج العلم التجريبي . وإنه لمن العسير أكبر العسر محاولة تفكيك تلك المعتقدات الفكرية في أي فرع من فروع العلم ، بقصد تبسيطها لتفهمتها . وهو لو تيسر لضاق عنه كتاب . ولكننا بدراسة حالات من تقدم العلم خاصة ، وقعت في الأحقاب الأولى من تاريخ علم خاص من العلوم ، نستطيع أن نتجنب الوقوع في تلك المعتقدات الفكرية التي هي صفة العلم الحديث ، ومع هذا نصيب مما نبغى مأرباً . ولست بغافل عما في هذه الطريقة من عيب . فيها قد ينسى المرء أن علم اليوم نسجٌ كثيف من خيوط لاعداد لها ، وهي خيوط طويلة ترجع مع السنين إلى الوراء البعيد ، ولكل منها قصة ولكل تاريخ ، وهي في هذا النسج الكثيف يحمل بعضها بعضاً ، ويعتمد بعضها بعضاً . وسوف أعالج هذا العيب بالإشارة دائماً ، عند كل مثل أقتبسه قديم ، إلى ما صار إليه به الحال في وقتنا هذا .

(١) للمؤلف عدة من آراء أصيلة في هذا الكتاب تتردد فيه كثيراً ، يسهل على القارئ فهم الكتاب جملة أن يتنبه إليها . وهذا رأى منها . فعند المؤلف أن الحقيقة التي تخرج من التجربة العلمية ، إذا لم تؤد إلى تجربة أخرى ، فهي حقيقة ميتة . عنده أن العلم متحرك لا ساكن . ديناميكي لا استاتيكي .

تقاليد البحث العلمي

إن الجدل اليوم قائم بين أهل الرأى فى موضوع لا شك خطير يتعلق بالطرق العلمية التى أدى اتباعها فى العلوم الطبيعية وعلوم الحياة إلى كل هذه النتائج المدهشة المعجبة . إنهم يتساءلون : أمن الممكن اتباع هذه الطرق نفسها فى بحث منا شط الإنسان الأخرى للخروج فيها بمثل هذه النتائج الرائعة ؟ وهم يختلفون عن صدق وإخلاص فى الإجابة عن هذا السؤال كهذا : أ يوجد شىء يسمى بالمنهج العلمى يتسع نطاقه حتى يشمل المسائل الإنسانية عامة ؟ وسؤال آخر يختلفون فى جوابه : وتلك العلوم التى نسميها بالعلوم الاجتماعية أهى علوم حقاً وصدقاً ؟

إن الجواب على هذه الأسئلة وأشباه لها له خطورة كبيرة فيما يتعلق بمستقبل كل أمة حرة . فالعلوم الاجتماعية ، وعلما بالحال التى تكون لها فى المستقبل ، له أثر لا ينكر فى توجيه سياسة التعليم فى البلاد ، وكذلك فى جهودات لنا جماعية نبلها لبلوغ غايات مرجوة فى الحقول الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . والرجل من سواد الناس ، إذا أراد أن يحصل على فكرة واضحة من العلاقة القائمة بين الطرائق المتبعة فى طبيعة أو كيمياء أو علم من علوم الحياة ، وبين التعليم ، أو بينها وبين بحوث المسائل الإنسانية المتعددة ، وجب عليه أولاً أن يتفهم طرائق هذه العلوم ، ما هى ، وما طبيعتها . والحق أن هناك لحاجة كبرى إلى توضيح وتصحيح ما يفهم الناس من طرائق العلوم الطبيعية . وهذا الفهم الواضح

لازم لأنه يضع لنا قواعد أصح لنقاش أفضل نهتدى به إلى طرائق
 رشيدة نتبعها في دراسة مختلف المسائل التي تتعلق بالإنسان قصد استجلائها.
 إن هناك رأياً متطرفاً ظل يقول منذ سنوات كثيرة ، في شيء من
 الإلحاح ، بأن المنهج العلمي هو مرادف التعقل النسبي والحيدة في حل
 الأمور^(١). ومن أمثلة هذا ما قاله كارل «بيرسن» (Karl Pearson)^(٢) منذ أكثر
 من ستين عاماً في كتابه «أجرومية العلم» (The Grammar of Science)
 قال : « إن العلم الحديث يمرّ عقل طالبه على الدقة عند تحليل الحقائق ،
 وعلى الحيدة ، فهو ضرب من التربية أصلح ما يكون إلى تكوين المواطن
 الصالح » . وهو يعطى من بعد ذلك نصيحته للرجل العادى فيقول :
 « والذي يطلب من ذلك إنما هو المعرفة الكاملة لمجموعة صغيرة من الحقائق ،
 ثم استبانة ما بينها من علاقات ثم فهم الأشكال الرمزية أو القوانين التي
 تجمع هذه العلاقات وتلخص روابطها . وينتج من هذا أن العقل
 يتشرب المنهج العلمي ، ويتخلص بذلك من الزيغ الفردى في تكوين
 أحكامه - وهذا شرط سبق أن تحققنا ضرورته ، من بين شروط أخرى ،
 لتكوين المواطن الصالح ، المثالي في صلاحه » .

وإني لأختصم وصاحب هذا القول فيما قال عن المنهج العلمي ،
 ولكنني أوجل هذه الخصومة إلى ما بعد ، وأترك الآن على معنيين يترددان

(١) للمؤلف رأى في المنهج العلمي والحيدة التي اشتهر بها . وهو رأى من آرائه الأصلية
 التي تتردد في هذا الكتاب . والرأى عنده أنه لم يكن في تاريخ العلم حيدة .

(٢) عالم إنجليزي في الرياضه ، وفي النشو والوراثة ، ولد عام ١٨٥٧ ، ومات عام

١٩٣٦ . ونشر كتابه المذكور عام ١٨٩٩ .

كثيراً في الجزء الأول من كتابه . أولها قوله إن تحليل الحقائق بدقة وفي حيدة لا يكون إلا في الحقل العلمى . وثانيهما قوله إن معالجة العلوم تكسب العقل مراناً يكتسب منه الحيدة ، لا في أمور العلوم وحدها ، ولكن في كل الأمور .

إنه ليس من شك في أن الدقة والحيدة في تحليل الحقائق شرطان ضروريان في كل بحث علمى . ولكن الذى أقوله هو أن هذا المزاج العقلى لم يبتدعه هؤلاء القوم الذين شغلوا أنفسهم أول شاغلين ببحوث العلم الحديث ، وهم فوق ذلك لم يتنبهوا من أول الأمر إلى خطورته . والذى يراجع التاريخ ، ولو في شىء من السرعة ، أعنى تاريخ العلوم الطبيعية وهى في فجرها الأول ، فسيجد نقاشاً عنيفاً يتدفق كالسيل من أقلام العلماء أكثر مما يجد من نقاش متزن ، رائده العقل والمنطق ، يسيل في هواده من هذه الأقلام . وإن صح ما استنتجته من قراءتى تاريخ العلم في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ، فإنى أرى أن فكرة الحيدة واطراح الميول الذاتية عند أبواب المعامل العلمية ، إنما نشأ بالتدرج . ورأى ضرورتها الجليل من بعد الجليل للذى وجد من سخافات جيل سبقه ومن أهوائه . وعرف أن هذه الأهواء تقف حجر عثرة في سبيل تقدم العلم . فتعلم الدقة وتعلم الحيدة . ونحن لا بد أن نذكر أن العلم ظل في أيدي الهواة حتى دخل القرن التاسع عشر . فهؤلاء الهواة كلما اكتشفوا شيئاً ، كانوا كمن صاد سمكاً ، يبالغ في أعداده ويبالغ في أحجامه ، ويدافع عن هذه الأعداد والأحجام عند منافسيه ومنتقفيه ، فإن حدث أن طالت أسماكه في هذا الدفاع عما قدر لها ، طالت عما يطيقه التصديق ،

فالأمر هين . فكل هؤلاء المنافسين له ، المنتقنين بجهوده ، صادة سمك مثله ، فهم كذلك بالكذب معروفون مشهورون .

لقد غير من هذا الحال إنشاء الجمعيات العلمية ، وازدياد خطورتها ، وإحساس مهنيّ أخذ يتولد بالتدرج على العصور . وقيام رجال عمالقة من رجال العلم ، مثل « جاليليو »^(١) (Galileo) ، سنواضبط النفس عند الحكم الأمور ، فجرى عليه من جاء من بعدهم . وذهب الرجل الذي كان لا يفرّق بين سلاح يستخدمه في نقاش « فلسفي » وسلاح يستخدمه في نقاش سياسي ، وحل محله رجل العلم الحديث الذي لا يعتمد في إقناع خصمه على ما عنده من فصاحة وبلاغة ، ولا يتوسل إلى إخراجة من الميدان بالطعن والمسبة . وأصبح لرجال العلم فيما يختصمون قضية من أهل العلم عدول ، وذوو إحاطة ، لا يشفع عندهم إلا التقارير الدقيقة التي تتضمن أقل مقدار من حرارة العاطفة . وأغنى بهؤلاء وهؤلاء رجال العلم ، وأهل العلم ، عندما يتحدث بعضهم إلى بعض ، أو يشكو بعضهم إلى بعض . ولست أعنى الكبار من العلماء الذين تصدوا لتبسيط العلم للناس ، ونشره بين الكافة ، من أمثال « هكسلي »^(٢)

(١) هو العالم الإيطالي الشهير ، ولد في بيزا عام ١٥٦٤ ، ومات عام ١٦٤٢ . وكان أستاذ الرياضة في جامعة بيزا ، ثم جامعة بادوا . وله الكشوف المعروفة الخاصة بالبندول ، والأجسام الساقطة ، وفي الفلك . وكانت آراؤه في الفلك سبباً لاصطدامه بالكنيسة ومحاکمته . وهو يعد من آباء العلم الحديث .

(٢) هو جوليان هكسلي ، عالم الأحياء الإنجليزي ، وهو حفيد هكسلي الكبير ، عالم الأحياء الذي عاصر دارون ، وأخ ألدوس هكسلي الكاتب الروائي . ولد جوليان عام ١٨٧٧ ، ولا يزال حياً . وله غير بحثه العلمية كتابات في العلم شعبية كثيرة .

(Huxley) ، فهؤلاء يدخلون في زمرة رجال التربية على التحقيق .
 إلى أتساءل : هل أعد يا تُرى مغالياً في قولي إذا أنا قلت إن رجل
 العلم اليوم ، مهما بلغت حساسيته ، ومهما اشتدت أو حتى اضطربت
 عاطفته ، فهو مسيطر على هذه الحساسية ، ملجم لهذه العاطفة ،
 ملتزم الدقة في معمله ، وملتزم الحيدة ، وأنه سهل عليه إجماعها ، وسهل
 التزامها بسبب هذا الجو الاجتماعي الذي ضربه العلم حول رجاله وبجائته؟ إن
 تقاليد العلم الذي ورثها ، وإن الأجهزة التي هو مستخدمها ، والدرجة
 العالية من التخصص الذي هو بالغها ، ورجال العلم الذين هم حوله
 قائلون يشهدون بما يصنع ، ويصمتون أو لا يصمتون إذا هو نشر ما
 اكتشف ، فصدق أو حاد ، كل هذه عوامل تجعل الحيدة في أمور علمه
 أسهل الأمور عنده ، فهو يدرك الخطر الذي يدرك رجل التجربة
 (experiment) أو رب الملاحظة (observation) ^(١) إذا هو مال . وهو
 قد سمع عن فلان أو فلان ماذا صنع بنفسه لما تشبث عناداً
 بملاحظات خاطئة ، أو بنظرية طلع عليها الغد فإذا هي نظرية فاسدة .
 ولكن هذا الرجل ، رجل العلم ، رجل المعمل ، لا يكاد يترك معمله من
 ورائه ، حتى يجوز عليه ما يجوز على الآخرين من ركوب هواهم ، وقد

(١) التجربة والملاحظة مصطلحان علميان . أما الملاحظة ، ونعني بها الصرفة ،
 فهي إدراك ما يجرى في ظاهرة ما ، لا نستطيع ، أو لا نود ، أن نتحكم في ظروفها . أما التجربة
 فإدراك ما يجرى في ظاهرة نحن أحدثنا ونستطيع تغيير ظروفها . فراقبة الكواكب ملاحظة .
 وإشعال شمعة في حيز محصور من الهواء تجربة . ولا دخل للجهاز الذي نستعمله في التفرقة بين
 الملاحظة والتجربة . فالتلسكوب لم يمنع مراقبة القمر أن تكون ملاحظة .

يكون أسرع إلى التحرر بسبب ما فرض عليه العلم في معمله من حبس وكتب. فلا غرابة إذا نحن رأينا من رجال العلم رجالاً هم في خارج مهنتهم أقل من غيرهم من الناس حيدة وانضباط نفس. على أن تجربتي أنا الخاصة تقضى بأن رجال العلم رجال كسائر الرجال ، وهم موزعون بين السخف والعقل ، وما بينها من درجات كدرجات الطيف ، كما توزع سائر الخلق . فمن إذاً هؤلاء الرجال الذى سبقوا الأوائل من رجال العلم الذين وضعوا في القرن السادس عشر والسابع عشر للعلم الحديث قواعده الأولى من دقة في البحث وحيدة ؟ من إذاً هؤلاء الأولون الذين كانوا آباء لمن خلفوا من بعدهم ، بالفكر لا بالدم ، من أبناء من أمثال «كوبونيكس» (Copernicus)^(١) «وجاليليو» «وفيساليوس» (Vesalius)^(٢)؟ إنهم ليسوا ذلك

(١) كوبرنكس هو العالم الفلكى الشهير ، ولد عام ١٤٧٣ م ، ومات عام ١٥٤٣ . تعلم الطب واللاهوت والقانون متنقلاً بين كراكاو وبولونيا وبادوا . وعلم الرياضة والفلك في روما . ثم ذهب إلى بروسيا وهناك أنجز عمل حياته الضخم . ولم ترقه صورة صورها البطالسة عن الكون وأجرامه ، جعلوا فيها الأرض مركزاً وسائر الأجرام حولها تدور . ولم ترقه لتعتقدها ، وهو يرى أن الطبيعة من شأنها البساطة والنظام . فجاء بنظريته الشهيرة التي تجعل من الشمس مركزاً ، وحولها تدور الكواكب ، ومنها الأرض . فهذه هي المجموعة الشمسية . ولكوبرنكس في الفلك آراء هامة أخرى . ونشر كتابه الشهير الذى أسماه «في دوران الأجرام السماوية» ، في عام ١٥٣٠ وظل الكتاب محرماً لا يقرأه كاثوليكي زماناً طويلاً .

(٢) فيساليوس عالم في التشريح ، باجيكى ، ولد عام ١٥١٤ ومات عام ١٥٦٤ . درس العلم في بلجيكا وفي باريس . وعلمه . وكانت جامعاتهما من المحافظة بمكان . وكان من حظه أن اختصم مع رؤسائه فخرج إلى إيطاليا ، إلى بادوا ، فعين أستاذاً بها . وهناك أدخل لتوّه إصلاحات جائحة . ونشر رسالته الشهيرة عام ١٥٤٣ وفيها وضع تشريح الجسم الإنسانى على أسس متينة . وهو يعد بحق أب التشريح الحديث .

النفر الذى عالج التجربة على انفراد وفى اغتباط ، ولا أولئك الذين تفننوا فى ابتداع الآلات فزادوا بها رويداً رويداً محصول الإنسان من المعارف التجريبية فى القرون المتوسطة . إن هؤلاء ورثوا حقاً من جاء بعدهم الكثير من الحقائق ، والكثير من الوسائل التى يتوسل بها الإنسان إلى بلوغ غايات عملية نافعة ، ولكن ليسوا هم الرجال الذين ورثوا الناس روح البحث العلمى ولا مزاجه .

إنه للبحث عن هذه الروح وعن هذا المزاج ، وللكشف عن المنابع التى تفجرت منها الغيرة الجديدة التى دفعت بالبحوث العقلية إلى أن تكون منظمة متسقة مرتبة ، يجب أن نتوجه إلى عقول من عقول بنى الناس قليلة ، شربت حتى ارتوت من سقراط ومن تعاليمه ، وإلى طلاب للمعرفة سابقين كشفوا عن ثقافة الإغريق والرومان أول كاشفين . وكان كشفاً بدائياً كالحفر عن بعض ما خلف القدماء من آثار . فى الحقبة الأولى من عصر النهضة (Renaissance) قام حب الحقيقة والبحث عنها يدفع الناس للكشف عنها متحمسين متجردين ، وكانوا أكثر اهتماماً بالإنسان والذى صنع منهم بالطبيعة الجامدة وما حوت . وفى أثناء هذه القرون الوسطى زاد اهتمام الناس بكل محاولة استخدم أصحابها فيها عقلهم نقاداً فى غير هوى ، نقاداً فى غير خوف . ووصل هذه الشعلة ، وقام يرعاها ، حتى لا تنطفىء ، كتاب واصلوا الكتابة فى شئون الإنسان ومسائله . وفى الأيام الأولى لذلك العصر ، عصر النهضة ، كان الباحثون عن الإنسان ، وفى مسائل الإنسان ، والكاشفون فى سبيلهم هذا عما كشفوا من علوم الإغريق والرومان ، كانوا أقرب المثل إلى ما نصف اليوم من معنى الحيدة

يتخذها البحوث منزهةً ومزاجاً . ولم يكونوا في زمانهم يهتمون ببحوث ما نسميه اليوم بالعلوم الطبيعية . لم يكن يهتم بها حتى الرجل المثقف فيهم . وبقي هذا الحال إلى أن جاء البحث العلمي الحديث يستهوى عقول الرجال ، ثم هو يخضعها إخضاعاً . فالبحوث العلمية ، كما نفهمها اليوم ، كانت تضيع بينهم كما تضيع الحصاة في ماء البحر ، إلا أن تتصل اتصالاً وثيقاً بالذي خالوا عند ذلك من علوم الكون .

وقد نتساءل : كيف أخذ البحث العلمي الحديث يستهوى عقول الرجال ؟ ثم كيف أخذ يخضعها إخضاعاً ؟ وهو تسأل من أصعب أسئلة التاريخ إجابة . وهو ليس له جواب بسيط . فكل عرض للذي جرى من الأحداث في فجر العلم الحديث لن يسلم من خطأ بسبب ما قد يؤكد جانباً دون جانب من العوامل الكثيرة التي كانت تعمل معاً لتشكيل عصرنا هذا الحديث . ولقد سمعت رجلاً من مؤرخي الثقافة بالعصور الوسطى يقول إن « الإنسانين » (humanists) ^(١) لم يكن لهم نصيب أصلاً في تكوين العلم الحديث ، حتى قال إن مناشطهم كانت على الأرجح شراً عليه لا خيراً . ومع هذا فلو قال لنا آخر إن كشف « الإنسانين » لآثار القدماء ، للذي كتب القدماء ولروح كانت فيهم ،

(١) هم أصحاب مذهب « الإنسانية » ، وقد هدف إلى العودة بالإنسان إلى كرامته الفردية بتحرير فكره وتوسيع علمه ومعارفه . وهو مذهب نشأ في ختام القرون الوسطى ، في القرن الرابع عشر ، وانتهى في القرن السادس عشر . وبدأه جماعة من أهل الفكر والشعر ضاقوا بما فرض عليهم رجال الدين ورجال الأقطاع من قيود في الفكر والعمل تزرى بالإنسان . وكانت وسيلتهم إحياء العلم القديم ، علم الإغريق والرومان . وكان موطن الحركة إيطاليا . ومن رجالها بترارك ، ودانتي ، وبوكاشيو ولورنسو دي ميديشي .

هو وحده السبب الذى به تنشأ العلم الحديث ، لقلنا إنه قول ذو غلو شديد .

إنه لا شك فى أن « جاليليو » أفاد كثيراً ، من رأى ومن روح ، بالذى قرأ وهو شاب مما كتب أرشيميدس . ومن هذا الحدث يستطيع المرء أن يقول إن ذلك العصر ، عصر النهضة أو عصر إحياء العلوم ، لعب دوراً فى إنعاش العلم الحديث غير صغير . وإن كتاب أرشيميدس هذا ما كان ليقع فى يد رجل آخر له من العبقرية ما « لجاليليو » ، إذا كان هذا الرجل وُلد قبل أن يولد جاليليو بثلاثة قرون . لأنه لم يكن لهذا الكتاب عند ذلك وجود . فالذى أوجد هذا الكتاب إنما هو عصر إحياء العلوم . فأول ترجمة لاتينية لهذا الكتاب ترجمها « وليم مربةكه » (William of Moerbeke) وطبعت عام ١٥٤٣ . وكهنا الكتاب أثراً كتاب فى أعمال « هيرو الإسكندرية » (Hero of Alexandria)^(١) ، نشرت ترجمته اللاتينية فى عام ١٥٧٥ وأثار ما أثار من اهتمام بعلم السوائل المتحركة والماء Hydraulics .

ولكن أخطر من كل هذا فى تنشئة العلم الحديث ، أى أخطر من كشف ما كان عند الأقدمين من ضروب العرفان ، بل أخطر من اختراع آلة الطبع التى كان لها أثر بالغ فى نشر المعارف ، تلك الروح الوثابة ، روح المغامرة العقلية التى اتسمت بها جمهوريات المدن الإيطالية

(١) رجل من أبرع رجال الإغريق القدماء فى الرياضيات والميكانيكا . قيل إنه عاش بين عام ١٥٠ ، ١٠٠ قبل الميلاد . وقيل إنه عاش فى النصف الثانى من القرن الأول بعد الميلاد .

وهي في أوج مجدها . ودليل هذه الروح ما قصه «فاسارى» (Vasari) ^(١) عن «فيليبو برونيليشى» (Filippo Brunelleschi) ^(٢) . وهذه القصة تقوم عندى دائماً ترمز إلى ما كان في ذلك العصر ، عصر النهضة ، من حب للمعرفة لا يقف عند حد ، ومن طاقة للخلق والإبداع تميز بها ذلك العهد . وهو حب ، وهى طاقة ، انتهتا إلى إشراق شمس العلم الحديث . حكى الحاكى قصته قال : « بعد شهرين من عودته ، وقف « برونيليشى » (Brunelleschi) ذات صباح في ميدان القديسة « مارية دلفيورى » (Maria del Fiore) بفلورنسا ، وكان معه «دوناتو» (Donato) وفنانون آخرون . وكانوا يتناقشون فيما نحت القدماء من التماثيل . وقص عليهم دوناتو قصة رحلته إلى «أرفيتو» (Orvieto) ، وكيف غادرها إلى «كورتونا» Cortona وذكر لهم أنه بمروره بتلك البلدة رأى تابوتاً عتيقاً من حجر ، عليه رسم محفور . وكان التابوت من أجمل وأندر ما رأى الرأى . فما كاد

(١) فاسارى ، الرسام بالنزيت والمهندس المعمارى الإيطالى المعروف ، ولد عام ١٥١٢ ومات في فلورنسا عام ١٥٧٤ ، تخرج فيمن تخرج على يد العبقرى العالمى الشمير ميشل أنجلو . وله في المعمار والنقش آثار معروفة في فلورنسا ، بلد الفن الجميل . ولكن أكثر ما اشتهر به أنه مؤرخ الفنانين . ظهر مؤلفه القيم الخالد في تاريخ الفن الإيطالى والفنانين الإيطاليين عام ١٥٥٠ . وأعيد طبعه عام ١٥٦٨ ، بعد تنقيح وزيادة . وهو يضمه كثيراً من الحوادث الممتعة .

(٢) برونيليشى هو المهندس المعمارى الإيطالى . ولد في فلورنسا عام ١٣٧٧ ، وإليه تعزى فكرة الرجوع بالفن الإيطالى ، من الغوطى ، إلى الإغريق والرومانى . ومن آثاره الكبرى قبة كاتدرائية سنتا ماريا بفلورنسا ، وهى مثل هندسى تاريخى رائع . وله بفلورنسا غير هذه آثار . مات عام ١٤٤٦ .

يسمى «برونيليشى» ما سمع ، حتى هاجه الشوق ، ورحل من ساعته ، وعلى هيئته ، وفى عباءته وقبقابه ، رحل إلى كرتونا ، دون أن ينبس لصحبه بكلمة ، يحدوه التحرق إلى رؤيته شيئاً مما خلق الفن جميلاً .

وفى مثل هذا الصدد كتب « شارلس سنجر » (Charles Singer) فى كتابه « تاريخ قصير لعلم الحياة » (Short History of Biology) : « إن دراسة النبات بدأت صادقة منذ العصر الذى اجتمعت فيه عوامل ثلاثة ، حركة البحث عما خلف الإغريق والرومان ، والفن الجميل فى عصر النهضة ، وإتقان فن الطبع . وهكذا بدأت كذلك دراسة جسم الحيوان .»
 إنى أرى أن العلم صار يولد بعضه بعضاً لما تحولت الحميرة ، التى تمثلت فى النهضة الإيطالية ، فتنشأ منها أجناس انتشرت فى أجيال من الشباب جديدة عديدة . إن الناس تحولوا عن الفن الجميل ، وعن الحفر عن قديم الآثار ، وعن الأدب ، وتركزوا على دراسة النباتات وتركيبها ، ودراسة الحيوانات ، وعلى النجوم ، وعلى الآلات وكل وسيلة آلية . ووجدت هذه البذور الجديدة أرضاً كانت من قبل جرداء ، فوافقتها ، ونمت فيها وازدهرت . ووجد أقوام ، أقل حساً بالشعر ، وأقل تأثراً بالفن ، من سكان العواصم الإيطالية ، وجدوا فى هذه الدراسات الجديدة هوى فشاركوا فى زئاط قوم فرحوا بما كشفوا من أسرار الجسم الإنسانى على الأرض ، أو من أسرار النجوم فى السماء ، أو بما استبانوا من غوامض ما فى الأجسام وهى تسقط ، أو بما اهتموا إليه فخلقوه فى الهواء من فراغ . وجاء «جاليليو» وكان له «روح فيليو برونيليشى» .
 وجاء «بويل» Boyle وأصحابه ، رجال أكسفورد عام ١٦٥٠ والذى

بعده، وشا ركوا «جاليليو» في الكثير من خلاله ، ولكني لا أكاد أتصور جمعهما في مكان واحد وزمان واحد، مع «فيليبو برنيليشي» ، ليكون لهم صاحباً ويكونوا له صحاباً. فهم كانوا أقرب إلى «ملتن» Milton^(١) وكانوا أشباهاً له في أكثر من وجه .

وإن صح تفسيري هذا السابق للتاريخ ، إذاً لكان «بترا رك» Petrarch^(٢) «وبوكاشيو» (Boccacio)^(٣) ومكيا فيلي

(١) جون ملتن هو الشاعر الإنجليزي الشهير ، ولد بلندن عام ١٦٠٨ م ومات عام ١٦٧٤ . ودرس في جامعة كمبرج سبع سنوات ، وفي بيت والده ستاً . ورحل إلى أوربا وقابل كبار رجالها ، والتقى بجاليليو . وكان ثائراً على نظم عصره . وقتل شارل الأول ملك إنجلترا ، وجاء كرومويل يحكم البلاد حكماً أشبه بالجمهوري ، فنصره ملتن ، وكتب يعزز النظام الجديد . ومات كرومويل ، وعاد شارل الثاني فارتيق العرش فاختنق ملتن ، وأفلت من المشنقة أخيراً . وكان قد عمي ، وسنه ٤٧ عاماً . وقضى ٢٢ عاماً وهو أعمى . وفي عماء كتب قصائده الخالدة ، اللجنة المفقودة ، والجنة المستعادة ، فكان بهما وبغيرها أشعر رجال العصر قاطبة .

(٢) بترا رك ، الشاعر الإيطالي العظيم ، ومن آباء النهضة الأوروبية ، الرينيسانص ، ولد عام ١٣٠٤ ، ومات عام ١٣٧٤ . رحل مع والده إلى فرنسا ، وبدأ يتعلم على القرب من أفنيون ، بفرنسا . وتعلم بعد ذلك في مونت بلبيه وبولونيا . وفي أفنيون التقى بالفتاة الحسنة التي خلدها بشعره ، والتي خلقت في نفسه الشعر . وكانت فتاة طاهرة ومتزوجة ، ولكنه لم يفتأ السنين يتابع حبه العذرى . وماتت وظل حبه حياً . قال لامرتين عنه إنه أكبر شاعر عاطفي . وكان يكره ما كان سائداً في زمانه من قيود على الفكر ، وعلى التعليم . فدعا إلى الرجوع إلى ما خلف اليونان والرومان . ومع هذا كان ذا دين وذا ورع معروف .

(٣) بوكاشيو ، القصصي الإيطالي الشهير ، والشاعر . كان صديق بترا رك . وأحب مثله . وجرى حبه في قصصه ، في سلسلة بطلتها مارية . وشارك بترا رك في البحث عما خلف الإغريق والرومان من آداب ، في عصر النهضة الأول ، عصر الإنسانيين ، الهيومانيست . وكان من أول دعاة . ولد عام ١٣١٣ ومات عام ١٣٧٥ م .

(Machiavelli) (١) « وإراسمس » (Erasmus) (٢) أقرب إلى أن يكونوا آباء العلم الحديث من القدماء من الكيماويين، أصحاب الأكسير وحجر الفلاسفة. كذلك « رابيليه » (Rabelais) (٣) ومنتاني Montaigne (٤)، اللذان بثّتا روح النقد الفلسفي، يجب عدّهما من هؤلاء الآباء السابقين. وليس من آباء العلم السابقين نعد طلاب المعارف العتيقة وحدهم، من عصر النهضة، ولسنا نعد منهم نفرّاً قليلاً من أهل الشك

(١) ماكيافلي، سياسي إيطالي، ومؤرخ. موطنه فلورنسا. حكم فلورنسا، بوصفه سكرتيراً للنظام القائم بها، ١٤ عاماً. وكان نظاماً جمهورياً. كان ذلك من عام ١٤٩٨ إلى عام ١٥١٢، وعندها عادت أسرة ميوتشي تحكم. وحوكم، ودخل السجن، ثم أطلق سراحه. ثم اعتكف يكتب. وله مؤلفات كثيرة. والمشهور عنه أنه الرجل الذي فرق بين السياسة والأخلاق، وأبى أن يقبل في سبيل سياسته اعتراضاً أساسه الأخلاق. ولد في فلورنسا عام ١٤٦٩ ومات عام ١٥٢٧.

(٢) إراسمس، رجل آخر من رجال النهضة، ولد في روتردام بهولندا عام ١٤٦٧. ومات عام ١٥٣٦. وبدأ راهباً، ثم تحلل رويداً رويداً. وسافر إلى أوروبا وإنجلترا. وحضر عهد الإصلاح الديني، وعاتبه مارتن لوثر على هواته في أمر الإصلاح. والحق أنه هاجم النظم القائمة، ولا سيما الرهبنة، ولكنه كان أكثر هجوماً على الجهل، وعلى عبودية الفكر. وشارك الهيومانست، « الإنسانيين »، بعلمه الواسع وثقافته النادرة.

(٣) رابيليه، الكاتب الفرنسي الضاحك الساخر الشمير، ولد عام ١٤٩٠ ومات عام ١٥٥٣. دخل الرهبنة. ثم تخفف منها أخيراً. ودرس الطب وطبب. ولكنه مشهور بنقده— كل سلطان جائر فاسد قائم. وخشى حكم السلطان فيما يكتب فاحتفى وراء الفكاهة. ومع هذا لم يجد نشر ما يكتب سهلاً.

(٤) منتاني، الكاتب الفرنسي، ذو المقالات الشهيرة. فأدبه أدب المقالة. ولد عام ١٥٥٣ ومات عام ١٥٩٢. وتعلم اللاتينية قبل أن يتعلم الفرنسية. ونشأته الأولى مجهولة. وفي عام ١٥٧١ اعتكف في قصر آبائه وقضى أيامه في الدرس والتأمل. وكتبه، وهي تتضمن المقالات المتفرقة، في دروب من الحياة شتى، هي دائماً من أحب الكتب إلى الفرنسيين.

صمدوا فلم يتزحزحوا عما ارتأوا ونعدهم وحدهم ، ولكن إلى هؤلاء
وهؤلاء يجب أن نضم طائفة من المكتشفين للأرض أمعاء ، وآخرين من
أهل السياسة بحثوا عما رأوه الحق وثبتوا عنده ، فهؤلاء جميعاً هم آباء
كل من جاء من بعدهم واحتذى حذوهم ، واعترضه السؤال من بعد السؤال
فطلب له بالبحث جواباً صادقاً شافياً ، متجنباً ما أمكنه الميل والهوى ،
متوخياً الحيدة ما أمكنته الحيدة . ثم أهل العلم الحديث ، أين يقعون من
هؤلاء ؟ إنهم في حسابي من بعض ما نسل هؤلاء الآباء والأجداد .
وإخال أنهم هاجروا من بعد ذلك إلى أرض بكر ذات خصب وذات
نماء ، هي أرض العلم ، فزرعوها ، فأثمرت ثمراً كثيراً . ثم ذهب هؤلاء وجاء من
بعدهم خلف قنسى على آثارهم ، وجرى على تقاليدهم ، ففيسرت له كل الأمور .
فن الخطأ إذاً تمجيد العلماء للذي فيهم من حيدة ، بحسبان أنهم بدأوها .
فما هم ببادئها . والخير عندي ، لنشر معنى الحيدة ، وقلة الزيف والهوى ،
بين الناس ، أن نفتش بين هؤلاء الناس ، من غير أهل العلم ، عن ذلك
النفر القليل الذي استطاع في أوسط المصالح الإنسانية المشتبكة ،
وارتباكاتها المتعقدة ، أن يفكر في شجاعة وأمانة وفطنة ، وأن يخرج
من التفكير بنتائج لم يرع في استخراجها صالح نفسه ، أو صوالح من
يدين لهم بولاء كائناً ما كان ، ثم هو ينطق بها على الملأ غير خائف
ولا هياب ، ثم هو يتشبه بها ويجعل منها قاعدة عمله التي ليس عنها محيد .
إن القول بأن كل تحليل للحقائق مؤسس على الدقة والحيدة مثل
للطريقة العلمية ، قول يؤدي إلى اختلاط ، أى خلط ، في سبيل فهم
العلم ، والقول بأن دراسة العلم هي أحسن الوسائل لتدريب الشباب على

الحيدة عند تحليل الحقائق في المشكلات الإنسانية قول أقل ما يقال فيه إنه فرض فيه شك كثير . وأولئك الذين يقولون بأن عادات الفكر الذي اكتسبها رجل العلم في معمله ، ونظراته التي تعودها في إجراء علمه ، يمكن نقلها والانتفاع بها إلى مناطق أخرى غير منطقة العلم من مناشط الإنسان ، قول يحتاج القائلون به إلى دعمه بالحجج الكثيرة المجهدة .

إن أكره ما أكره تقديس العلم كما تقديس الأصنام . ومع هذا فأنا أرى أنه من المرغوب فيه كثيراً أن يفهم الناس أكثر مما فهموا كيف يعمل العلماء ، والطرائق التي يتبعون . إن أمثلة من العلم كثيرة قد انتشرت بين الناس أى انتشار ، وأثارهم أية إثارة ، وأرثهم أن العلم وطرائق العلم وسائل ناجحة في حل الكثير من المشكلات . ويترب على هذا شئء لا بد منه ، ذلك أن تعطى المدارس وأن تعطى الكليات طلبتها فكرة أكثر اتساعاً وأكبر وضوحاً عن هذه الطرائق العلمية كيف تولدت ، ومن بعد ذلك كيف تنشأت واتسعت . إن باحث العلم يعمل اليوم تحت قيود مصنوعة وهو في معمله أو مختبره^(١) يعمل في غير وعى من هذه القيود مما ألفها ، وهو من أجل هذا يحلل ما يجد من حقائق في برود تحليلها يكاد أن يكون عملاً راتباً من أعمال الروتين . وقد أدى هذا الأسلوب من العمل إلى نجاح من بعد نجاح ، فأثر في الرأي العام بذلك تأثيراً بالغاً . ففهم هذا الأسلوب على حقيقته يفيد الناس في تدعيم العناصر الصالحة في الحقول الأخرى من

(١) المعمل عند المصريين هو ما تجرى فيه التجارب العملية ، في مدرسة أو جامعة ، أو غير ذلك . والمصنع هو ما تصنع فيه الأشياء للأسواق كمصنع حامض الكبريتيك ، ومصنع الصابون . ومن الشعوب العربية من يسمى هذا المعمل مختبراً . ويسمى المصنع معملاً .

حياتهم المدنية . وحقيقة هذا الأسلوب لا يمكن أن تفهم إلا إذا تصورناه نتيجة لتطور اجتماعي نبتت أصوله التاريخية وامتدت في القرون الثلاثة الماضية . والناس ، فوق حاجتهم إلى فهم شيء عن طرائق العلم ، هم في حاجة إلى فهم العلم ، كيف يعمل ، بحسبانه مغامرة من مغامرات الإنسان على هذه الأرض .

العلم مناشط منظمة منسقة

إن العلوم الطبيعية وعلوم الحياة تتألف اليوم من مجموعة من المبادئ والنظريات ، مشتبك بعضها ببعض ، ومن مقادير عظيمة من الحقائق مصنفة مبنية . وهي إلى جانب ذلك أنتجة لمنظمة حية . إن النظريات والقوانين والفروض والحقائق جميعاً يجدها الواجد في دور الكتب ، وفي المتاحف من نباتية وحيوانية وغير ذلك . ولكن كل هذه الأشياء مخلفات مماركم الزمان . وهي ودائع ميتة لا حياة فيها . وإنما غير الميت من العلم هو ذلك النشاط الذي يرتبط في أذهاننا ، لا بالشئ الذي سبق أن اكتشفته المعامل والمختبرات ، بل بالشئ الذي لم تكتشفه بعد ولم يكتشفه القائمون بالتجارب فيها . هو مجموعة ما عند هؤلاء المجرئين من خطط ، ومن آمال ومن أطماع هي سائرة في سبيلها إلى التحقق أسبوعاً من بعد أسبوع ، وشهراً من بعد شهر ، وعاماً من بعد عام . إن هذه لهي جوهر العلم الحديث . وإن هذا المثل واضح ، يضربه المرء للشئ

يكون في أجزائه غيره في مجموعته ، وغيره كثيراً . ومن الأدلة على هذا أنك لو حلت غداً بين الآلاف من العلماء الناهيين إلى معاملهم ، فنتعهم من أن يتصل بعضهم ببعض ، وأن يتصلوا في سهولة ، إذاً لقضيت على العلم الحديث قضاء مبرماً .

إن هذا الأمر أعقد مما قد يتصور الرجل من سواد الناس ، وأخطر مما يقدر . إن الناس تجهل أو هم ينسون أن العلم اليوم نشاط موزع بين العديد من العلماء ، وهو بينهم منظم . إنها منظمة إنسانية هائلة . وإلى جهل الناس هذا ، أو نسيانهم إياه ، تردّ مقالات كثيرة تقال في الناس سخيفة ، وأعمال يجريها الناس خاطئة . وإلى هذا الجهل ترجع ثقة مدهشة يعطيها الناس بغير حساب للدجالين ، يدجلون وهم واعين في دجلهم أو غير واعين . وإليه يرجع تصديق الناس خرافات مما يحكيه العجايز ، فتدرج في الناس على أنها حقائق مما أخرج العلم وأثبت العلماء . ومن الناس من يسوى بين نتائج العلم وأعمال السحر . فهذا رجل يقول لك في جد إنه يعرف رجلاً يستطيع وهو على بعد ميل أن يصفر صفرة يوقف بها محرك سيارة . وهذا آخر يحكى لك عن رجل يؤمن به ، غير ذي علم أو خبرة ، يستطيع أن يصنع لك مطاطاً من قمامة في خطوة واحدة . هذا إلى كثير مما تسمع في حقل الطب من صنوف من العلاج يلبسونها ثوب علم كاذب ، ومن أدوية وعقاقير لم ينزل الله لها في أي داء من سلطان .

إن المرء لا يلام إذا هو مر على خطأ في أمر يتصل بقواعد علم الطبيعة أو الكيمياء أو علم الحياة فلم يدركه . وليس منا ، ممن اشتغلوا

بتدريس هذه العلوم أو كتابة كتب فيها لسنوات عديدة ، من لم يجد نفسه في حاجة إلى مراجعة بعض الحقائق فيما يدرس أو يكتب ، وإلى تنقيحها مسيرة للعلم في تقدمه ، ومطابقة لما يأتي به العلم من جديد . ومع هذا فالمرء منا لا يكاد يسمع بخطوة جديدة مزعومة في العلم حتى يأخذه منها أول ما يأخذ ارتياب . لعل الخطوة كاذبة . ويأخذ يعدد لنفسه ما صادف هو في عمله من خطوات كواذب . ولكنه يحس في قرارة نفسه أن الريبة سوف لا تطول ، وأن الأمر سينكشف بعد حين قليل ، إلا أن تكون هذه الخطوة الجديدة التي خطاها العلم من الخطوات النوادر التي تتضمن انقلاباً . وهو يعلم أن هذه الخطوة الجديدة ، هذه الحقيقة الجديدة ، لا بد آخذة سبيلها إلى النشر ككل الحقائق عندما تكتشف ، وسوف يقرؤها العلماء في كل بقاع الأرض . وإن كانت هي حقيقة ذات خطر ، فسوف يعالجها العلماء بالبحث وبالنقد . ولن يفلت من أيدي العلماء حقائق من التي تثير الفكر إثارة أو حتى من تلك التي لا تجذب الأنظار إلا لفتاً .

ولن تقف الحال بهذه الحقيقة المكتشفة المزعومة حتى يعاد الذي جرى بها من حساب حاسب ، ويعاد الذي أجرى لها من تجربة مجرب . فحقيقة كهذه سوف يترتب عليها نتائج أخرى . وتستخرج منها معان أخرى ، في نفس الحقل من العلم أو في حقول مجاورة متصلة . وسيستع العلماء هذه النتائج المترتبة ، وهذه المعاني المستخرجة ، ليحققوها ، فإن هي لم تتحقق حكموا على الحقيقة الأولى المكتشفة المزعومة بأنها حلم آخر من الأحلام الكواذب ، وسيبلغ الحكم إلى صاحب هذا الحلم آخر

الأمر ، وسيكشف خطأه وينتشر تصحيحه . أو لا يكون شيء من ذلك فيترك الأمر حتى ينسى .

إنى أستطيع أن أكتب مجلداً كبيراً عن أمثال هذه الأخطاء التي وقعت في تجارب علم الطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان ، تلك التي وجدت سبيلها إلى النشر في المائة عام الماضية . وأستطيع أن أكتب كذلك مجلداً آخر كبيراً كهذا أسجل فيه ما تجمع في المائة عام الماضية من آراء لم تشر أبداً ، ومن أحكام مطلقة ونظريات ناقض بعضها بعضاً .

إن الحقيقة الخطيرة التي يخرج الناظر بها في التاريخ الحديث للعلوم التجريبية (منذ عام ١٨٥٠ مثلاً) هي وجود رابطة من أفراد متواصلين أقرب التواصل ، يستجد الرأي عندهم فينتشر بينهم أسرع انتشار ، ويكتشف الكشف فما أسرع ما يولد كشوفاً ، والخطأ يذيع بينهم ، والفكرة غير السليمة ، فلا يفتأ على الجملة أن يكون لكل هذا تصحيح وتصويب . وهذه الرابطة الوثيقة كثيراً ما يفوت خطرها أولئك الذين يتحدثون عن العلم وهم لم يمارسوه . وفات خطرها السياسيين حتى في الولايات المتحدة فتقدموا باقتراحات غاية في الغرابة ، أدى بهم إليها جهلهم بأن ما يخرجهم العالم الواحد يصبح ملكاً لآلاف العلماء ، وأن الفكرة الجديدة ، تتلخح بأفكار في رؤوس العلماء ، فتنتج أفكاراً جديدة وهكذا دوليك . وكما فات خطر هذه الرابطة العلمية أهل السياسة في الولايات ، فات كذلك قادة روسيا فعمدوا على ما يظهر إلى تغيير طبيعة العلم بحسبانة منشطاً لا يقوم إلا جمعياً بين فرق العلماء . كذلك يجب أن نذكر أن العلم لم يكن مهنة يمتنها الرجال إلا في عصرنا هذا الحديث ، وأن كثيراً من

الكشوف التي تقدم بها العلم إنما جاءت على أيدي رجال هواة^(١) .
وفي الأمثلة التي سوف نوردتها في هذا الكتاب لإيضاح طرائق العلم سوف
لا نلقى فيها إلا القليل من الرجال الذين اكتسبوا رزقهم من بحث في العلم
أو حتى من تدريسه .

ويستطيع المرء أن يقول في إجمال إن العلم الحديث بدأ في الجامعات
الإيطالية في القرن السادس عشر ، وانتعش في هذه البيئة الإيطالية إلى
نحو منتصف القرن السابع عشر ، ثم انتقل مركز النشاط بعد ذلك
إلى باريس ولندن . وتقل أهمية الجامعات بعد ذلك فلا تعود إلى خطورتها
إلا في القرن التاسع عشر . والقرن السابع عشر والقرن الثامن عشر كانا
عصر الجمعيات العلمية ، لا سيما الجمعية الملكية بلندن (Royal Society of
London)^(٢) ، وأكاديمية العلوم بباريس (Académie des Sciences)
وخطورة الجمعية الملكية وأكاديمية العلوم كانت في أن هاتين الهيئتين
الرسميتين بدأ منهما تكوين الهيئات الكثيرة غير الرسمية التي اشتغلت
بالعلوم . إن الجمعية الملكية خرج بها مرسوم للملك شارل الثاني بعد

(١) هذه فكرة أخرى للمؤلف أصيلة متكررة في الكتاب .

(٢) الجمعية الملكية بلندن ، أقدم جمعية علمية في بريطانيا العظمى ، ومن أقدم
الجمعيات العلمية في أوروبا . غرضها دراسة العلوم الطبيعية والتشجيع عليها . بدأت نادياً
يضم هواة في العلم ، في عام ١٦٤٥ ، يجتمعون للمدارسة فيه . ولما اعتلى شارل الثاني العرش ،
بعد موت كرومويل ، أنشأ الجمعية بمرسوم . كان هذا في عام ١٦٦٢ . وقد أدت الجمعية في
القرن الثلاثة السالفة أكبر الخدمات ، وكاتبها واحتفى بها كثير من الباحثين . وسجلاتها
سجلات في تاريخ العلم عظيمة . وهي إلى اليوم مستشار الحكومة البريطانية في شؤون العلوم .
ومن رؤساء الجمعية كان نيوتن ، ودائي ، وهكسلي ، وكلفن ، ولستر ، وراي .

استرجاعه الملكية في إنجلترا ، وهي استرجعت في عام ١٦٦٠ بارتقاء شارل الثاني للعرش . ولكن هذه الجمعية نشأت قبل ذلك ، أنشأها غيرة نفر من العلماء الهواة حطت بهم مقادير السياسات الحزبية في العهد الذي ضاعت فيه الملكية ، عصر «كرومول» (Cromwell) ، في مدينة أكسفورد (١٦٥٠ - ١٦٦٠) . ونشأت الأكاديمية ، أكاديمية العلوم بباريس ، عام ١٦٦٦ ، أنشأها لويس الرابع عشر بناء على نصيحة «كلبير» (Colbert)^(١) . والأب الروحي لهاتين الهيئتين ، أو أبوهما الفكرى ، جرت عادة القول بأنه «فرانسيس باكون» (Bacon)^(٢) ، ذلك لأنه في قصته الخرافية التي لم تتم ، تلك التي أسماها «الأتلانتس الجديدة»

(١) كلبير ، وزير فرنسا المالى العظيم ، ولد عام ١٦١٩ ومات عام ١٦٨٣ . جاء فوجد الفساد فى الحكم ، والسرقه فى الضرائب ، والاختلال المالى الذى لا حد له ، والخزانه الفارغة . ففضى حياته يصلح ، ويدفع ، فى كل جهة ، ولا يبالى . فنظم الضرائب ، ونظم الصناعة وهو أنشأها . ونظم التجارة . واللطف أنه أنشأ ثلاث أكاديميات ، منها أكاديمية العلوم . وبعد أن أسدى ما أسدى لأمته ، مات مغضوباً عليه من الملك ، ومن الناس ، ممن شقوا بأصلاحاته .

(٢) فرانسيس باكون ، الكاتب الفيلسوف السياسى الإنجليزى ، ولد فى لندن عام ١٥٦١ ، ومات عام ١٦٢٦ . تقلب فى أحضان السياسة ، فكان عضو برلمان ، وصاحب مناصب فى الحكومة عليا ، ومقرباً من الملكة اليزابيث حيناً ، ومبعداً حيناً . ولم يكن فى حياته السياسية ذا استقامة ولا ذا وفاء . ولما فرغت أطماعه أخيراً من الحكم والحكام ، وتفرغ للإنتاج أنتج ما أبقى ذكره على الدهر مقروناً بالشكر . إن حياته الخاصة تنقص ما كتب . ومن حيث العلم هو صاحب الرأى فى الطريقة الاستقرائية التى تقول لا بد من جمع الحقائق أولاً ، ومن التجريب ، قبل التفلسف ووضع النظريات . وله فى الأخلاق كتابات رائعة .

(The New Atlantis)^(١) ، ونشرت عام ١٦٢٦ عقب موته مباشرة ، وصف بينا سماه « بيت سليمان » جمع فيه طائفة من البحاث والفلاسفة يتباحثون ويتشاورون . إن باكون من أكبر المؤيدين الشارحين المعارضين « للفلسفة التجريبية الجديدة » ، ولكنه لم يفهمها قط كل الفهم ، ولم يتفق أن عالج التجريب بنفسه قط . والظاهر أن أول الهيئات التي خرجت وفقاً لما تصوره باكون فيما وصف من قصته الخرافية ، كانت تلك الجمعية التي أنشئت في روما عام ١٦٠٠ وسميت أكاديمية «دي لنسي» (Academia dei Lincei) . وكان «جاليليو» عضواً في هذه الأكاديمية . وقد وصفت حتى في ذلك العام الباكر ، عام ١٦١٢ ، بأنها جمعية توجه جهودها ، في جد ونشاط ، إلى دراسات جديدة ، لم تدرس بعد إلا قليلاً . ولم يمض على هذا غير جيل واحد حتى قام تلاميذ جاليليو بمدينة فلورنسيا فأسسوا أكاديمية «شيمينتو» (Cimento)^(٢) عام ١٦٥٧ . وانتعشت هذه الأكاديمية عشر سنوات في رعاية رجلين أخوين من أسرة «ميدتشي»

(١) الأتلانتس هي الجزيرة التي زعم أفلاطون أنها كانت ثم اختفت في البحر ، وكانت تعيش عليها أمة عظيمة . أما الأتلانتس الجديدة فقصة باكون .

(٢) أكاديمية شيمينتو أى التجريب تأسست في فلورنسا في عام ١٦٥٧ ، أسسها ليونارد دي ميدتشي ، وهو أخ الجرانديوك فرديناند الثاني . ويدل اسمها على هدفها ، فقد كان قيامها لمغالبة الأسلوب العقلي البحت السائد في مجالات الفكر في ذلك الزمان . فصار هدفها : - التجريب الأول ، ثم النظر والفكر من بعد ذلك . ولم تعش إلا ١٠ سنوات ، وفي هذه العشر صنعت كثيراً ، يراه اليوم أهل هذا العصر في سجلاتها وهي حافلة ببحوث الهواء ، وضغط الهواء ، وبحوث الماء الخ . وكان من أظهر أعضائها تورشلي .

الشهيرة (Medici) (١)، هما الدوق الأكبر فردناند الثاني، وليوبلد، وكان كلاهما تلميذاً لجاليليو. وكانت هذه الأكاديمية، أكاديمية شيمنتو، وشيمنتو معناها التجربة، أشبه بمعهد أبحاث في القرن العشرين منها بجمعية علمية في القرن السابع عشر. لأن أعضائها قاموا على التعاون بإجراء تجارب سوف نتحدث عنها في باب قادم.

ونشأت هاتان الجمعيتان العلميتان الإيطاليتان، هاتان الأكاديميتان على غرار النوادي الأدبية التي قامت وترعرعت في عصر النهضة، في حجر ثقافتها. ونظر في تاريخ الجمعية الملكية بلندن، وأكاديمية العلوم بباريس، فنتبين شيئاً من اللبس في أغراضهما. كانا يهدفان في شيء من الإيهام إلى هدفين. الأول أن يجتمع في ظلهما رجال يجرون التجارب وفيها يتعاونون. والثاني أن يجعلوا من الهيئتين مكاناً يجتمعون فيه، ويؤدون بالمدى وجدوا من نتائج تجاربهم، ومن غرائب ما لاحظوا من الظواهر، ثم هم في هذا كله يتناقشون. وكانت المجهودات كلها مجهودات أفراد. أما الجمعية الملكية فلم تعنها الحكومة الإنجليزية بشيء، إلا اعترافاً بها ومباركة لها، فلم تستطع أن تبلغ من الهدفين المذكورين إلا أن تكون على الأكثر مركزاً للمداخلة والنقاش. أما أكاديمية العلوم فقد خص ملوك فرنسا أعضائها بمنح، كانت تنقطع ثم تعود، لمدى قرن من الزمان،

(١) ميدتشي أسرة إيطالية ناهية، موطنها فلورنسا، أو الجمهورية الفلورنتينية بإيطاليا، ارتفعت إلى ذروة المجد والثراء عن طريق التجارة، وإلى الحكم. ورعى كبراءها الأدب والفن والعلم، كإبراً من بعد كابر، في القرن الرابع عشر، فالحامس عشر، فالسادس عشر.

ومنحوها من الرعاية ما كانوا يمنحون أهل الفن من الفنانين الرسامين والأدباء . وقد قامت هذه الجمعيات العلمية بتنظيم رحلات ، قامت هي بالنفقة عليها ، ومنها ما كان له خطر يندكر في تاريخ العلم . ولكن الخطر الأكبر لهذه الجمعيات كان فيما أخذت تنشره كل منها من مجالات تخرج بانتظام يزودها أعضاء الجمعية بما يعن لهم من أفكار ، وما يخرج في تجاربهم من نتائج . حتى لقال «هكسلى» Huxley^(١) عن إحداها، وهي المجلة التي انتظمت تقارير الجمعية الملكية، (Transactions of the Royal Society) والتي ابتداءً نشرها في عام ١٦٦٥ ، قال عنها : « إنه لو أتلفت كل كتب العالم ، سواها ، لبقيت أسس العلم الطبيعي صامدة لم تهتز ، ولوجدنا فيها سجلاً للتقدم الفكرى الهائل الذى حدث في القرنين الماضيين ، ولو أنه عندئذ يكون سجلاً بطبيعة الحال غير كامل » . قال «هكسلى» هذا في القرن التاسع عشر . وإني لأشك كثيراً في أن يوافقه اليوم على ما قال علماء العلوم التي يغلب فيها الوصف ، كالكيمياء العضوية وعلم المعدنيات (mineralogy) .

وقبل تأسيس هذه الجمعيات العلمية ، وقبل أن تبدأ هذه الجمعيات بنشر مجلاتها بانتظام ، شهرية أو ربع سنوية ، لتحتوى نتائج مما ابتدع أعضاؤها ، كانت الخطابات وسيلة تناقل أخبار الكشوفات العلمية . وقد يحدث من وقت لآخر أن باحثاً عالماً ينشر كتاباً صغيراً يضمه

(١) هو هنرى توماس هكسلى ، عالم الأحياء الإنجليزى ، ولد عام ١٨٢٥ ومات عام ١٨٩٥ ، نشأ طبيياً ثم تحول إلى العلم ، وتقلب في مناصب علمية ، وإدارية علمية كثيرة ، وكان سكرتير الجمعية الملكية عام ١٨٧٢ . وقد عاصر دارون وناصره مناصرة كبرى .

أفكاره ويجمع فيه ما انتهى إليه من تجارب . واتصلت عادة نشر هذه الكتب ، بدلا من النشر في المجالات ، إلى أواخر القرن التاسع عشر . ولكن في هذه الأثناء زاد خطر المجالات العلمية عاماً من بعد عام . واليوم لا تُنشر الكتب إلا لتلخيص أبحاث سبق نشرها في المجالات ، أو لتوسيعها والإسهاب فيها . واليوم صارت المجالات ، لا الكتب ، هي المصادر التي يطلع منها المطلع على ما يجريه العلماء ، ويبدلون جهودهم فيه ، عند حدود ما بين المعلوم والمجهول من العرفان .

وقد يتراءى لغير الخبير العارف أنه من المستحيل على رجل أن يجوع سبيله بين هذه النشرات التي تملأ عشرات الألوف من الصحف كل عام ، وأن يهتدى فيها إلى ما يريد . والحق أنه عملٌ مجهد ، ولكنه أبعد ما يكون عن استحالة ، وأبعد من أن يدعو إلى اليأس ، عند باحث جعل من ديدنه أن يتابع ما يظهر في المجالات التي يسميها العلماء بالحرارية . وقد سهل هذا أنه منذ بدء القرن العشرين أخذت العلوم تتفرع ، وأخذت الفروع تتقسم ، وبلغ التفرع مدى بالغاً . ومع أن مجالات الجمعيات العلمية ظلت تقبل للنشر موضوعات واسعة التنوع ، إلا أن المجالات المتخصصة في فروع العلوم وأقسامها نشأت باكراً حتى كان منها ما ظهر في النصف الأول من القرن التاسع عشر . ومن أجل هذا يستطيع الباحث اليوم أن يتابع ما يجري في موضوعه هو الخاص بالاطلاع على عدد قليل جداً من المجالات هي كسر صغير مما ينشر الناشر للعلماء . ومما سهل على الباحث متابعة العلم أن العلم الآن يلخص ، وهو يفهرس في استيعاب وإتقان . وتنشر في بعض فروع دوائر معارف تلخص فيها النتائج تحت

عنوانات مناسبة هادية . ومن هذه الأشياء كلها يستطيع الباحث المبتدئ في وقت قليل أن يتعلم كيف يصل إلى ما يريد في مراجع العلم . وشيء ثالث سهل على الباحث العالم الوصول إلى ما يريد ، ذلك أن ما ينشر في موضوع يشار فيه إلى ما سبق أن نشر في ذات الموضوع استتماماً للإحاطة واستكمالاً . وهذه عادة قد استقرت عند كتاب العلم وناشريه . وأخيراً يأتي عند النشر محرر المجلة الناقد ، الفارق بين الثمين من النتائج والحسيس ، وما هو في الموضوع وما هو غير ذي موضوع . ومن أكوام الموضوعات التي ترسل للنشر يستطيع أن لا يُخرج إلى النشر إلا النافع ، ويمنع الحثالة . ومع هذا فهذه طريقة لا تخلو من أضرار . ففي التاريخ أكثر من مثل لبحث مبتكر ، كان غير مألوف شكلاً ، حثاً ببعض محرري المجلات ، ممن غلبت عليهم المحافظة مزاجاً ، إلى رفضه فتمعوا نشره إما لحسانهم إياه خاطئاً أو بعيد التصديق . ولكننا من جهة أخرى نرى اليوم أن المجلات كثرت واختلفت ، وكل الندى يخشى منها ، لا الامتناع عن النشر ، ولكن تأجيله بعض الوقت . والعارفون يقولون إن محرري هذه المجلات ليسوا في أحكامهم صارمين ، وأنهم أقرب إلى تفويت الكثير من الغث منهم إلى حبس السمين .

ولن نتحدث الآن عن تسجيل المخترعات والكشوفات العملية ، فالحديث عن هذا نرجئه إلى ما بعد الحديث في ما بين العلم والبحث والعلم التطبيقى من علاقات ، وذلك في الباب الأخير . فهناك تكون المناسبة حانت لكلمة تقال في الاختراع والتسجيل . ولكنى الآن أريد أن أوكد أن إيصال الخبر العلمى إلى ذويه قد بنى اليوم على أساس متين ، وقد

فصل تفصيلاً يمتنع معه أن يبقى خبر اكتشاف ذى بال لا يصل إلى أسمع الناس . ولو أن العلم كان كبعض السحر ، إذ لا تمتنع الناس عن إفشائه ، ولظلت منه أسرار باقية عند أفراد يكتمونها ، وهم قد يعرضون على الناس ما تصنع الأسرار ، ولكن لا يفضون الختام عنها . وحتى في الكيمياء ، حتى إلى القرن الثامن عشر ، لما بدأت الكيمياء الحديثة تتخلص من ربة الكيمياء العتيقة ، كيمياء الإكسير وحجر الفلاسفة ، احتفظ الناس فيها ببعض إجراءات تجريبية سرّاً إلى حين . واليوم تغير الحال ، إلا فيما يختص بأسرار العلم التي في الصناعات . فكل شيء في العلم منشور . أو هكذا خلنا جميعاً ، قبل عام ١٩٤٠ . فمنذ هذا العام أخذ يخرج علم جديد في النرة ، يتصل اتصالاً وثيقاً بإنتاج السلاح ووسائل الدفاع ، جعل من قصة العلم ، كيف انطلق وتحرر ، وتحررت بالنشر أخباره فلم يكن عليها رقيب أو رقباء ، قصة في حاجة إلى تعديل كثير يقلق بال العلماء . وكما يقال في العالم الغربي عند ذلك ، يقال في الشرق ، فيما وراء الستار الحديدى .

وسوف نعود إلى نقاش هذا الشذوذ الذى وقع في منتصف القرن العشرين . إلى نقاش هذين الضربين من الخروج عن القياس . وسوف نستعرض في باب قادم منزلة رجل العلم ، كيف اختلفت على القرون . وعلاقة ما بين العلم والسياسية وهى موضوع جدير بالحديث ، وهى من هم الناس في أحاديثهم الجارية . وعلاقة ما بين العلم والمجتمع شاق كل من اشتغل بصوالح المجتمع العامة . إن قليلاً ممن تناولوا هذه العلاقة بالبحث في السنوات الثلاثينية الأولى من هذا القرن خطر في بالهم عند ذاك شيء من

تلك المشاكل التي عرضت للعلماء والمجتمع كليهما بسبب ابتداع القنبلة
 الذرية من جهة ، وبسبب اشتداد الدكتاتورية في الكرملين من جهة
 أخرى . إن النقاش في هذه المسائل وأمثالها ممتع ، ولكنه لا يثمر إلا إذا
 سبقه شيء من فهم العلم . والآن فلنتوجه إلى طرائق العلم لتتعرفها ،
 بل الأولى أن نتوجه أولاً إلى العلم ، لنستطيع أن نجيب جواباً شافياً عن
 سؤال السائل : ما العلم ؟

الباب الثاني

ما العلم

للعلم تعاريف كثيرة يستطيع المرء أن يملأ بها عدة من صفحات . ومع هذا فالرجل العادى عنده فكرته الواضحة عن العلم . فإذا أنت ذكرت له العلم ، ذكر بذكره هؤلاء الرجال الذين يعملون فى المعامل والمختبرات والذين كشفوا الكشوف التى جاءت لنا بالصناعة الحديثة وبالطب الحديث . ومن الناس من ينال من العلم ويحط منه ، إما تصريحاً وإما تلميحاً ، وتبحث عنده عما يفهمه من العلم ، فتجد أن هذه اللفظة تثير فى ذهنه أول ما تثير استخدام الناس للعلم فى الحروب ، وعلى الأخص استعمال القنبلة الذرية المدمرة فيها . ومن الناس من يريد أن يروج فكرة أو بضاعة فى الناس ، فيسميها علماً ، ليقبل الناس عليها اعتماداً على ما شاع من فوائد العلم وما درت نتائجه على الناس من خير ، لا سيما فى الطب . واختصاراً يستخدم الناس لفظة « العلم » ولفظة « العلمى » ليتدعوا حجة لديهم ، يختلف معناها ويختلف مغزاها تبعاً لما عندهم من جنوح وميول وأهواء . ولعل ما سوف يقرأه القارئ بعد هذا لا يختلف عن هذه القاعدة .

إن الغرض الأول من كتابة هذا الكتاب إنما هو إطلاع الرجل العادى على ما يجرى فى معامل العلم الحديثة وإفهامه إياه ، عساه أن يربط ما يعلم

من هذا بصنوف من نشاط الحياة أخرى مما قد تنطبق عليه صفة العلم أو لا تنطبق . وهذا الجنوح الذى يبدو منى إلى معالجة العلوم ، ومعالجتها فى صورها التجريبية ، له مبرراته التى لا شك فيها ، حتى والموضوع موضوع عام ، هو موضوع — العلم والناس — . ومن هذه المبررات أنه لا يوجد تعريف للعلم يخلو من الطبيعة والكيمياء ، وعلم الحياة التجريبي ، وأنه لا سبيل إلى إنكار أن التقدم السريع الذى وقع فى هذه الحقول الثلاثة ، وما تلاه من تطبيق كل هذه المعارف المستحدثة فى شتى شؤون العيش ، هو الذى أعطى للعلم مكانته فى هذه المدنية الحاضرة .

على أن اقتصر المرء على معالجة العلوم التجريبية لن يعطيه جواباً شافياً للسؤال الذى سألناه أولاً ، أعنى ما هو العلم ؟ ذلك أن الآراء لا تلبث ، حتى فى هذا النطاق المحدود ، أن تختلف فى الوسائل والغايات التى تتصل بمناشط العاملين فى هذه العلوم . وينشأ هذا الاختلاف من تباين أصيل فى الحكم على طبيعة العمل العلمى ، ولكنه ينشأ أكثر من رغبة كاتب أو مؤلف فى توكيد جانب من جوانب العلم ، ومجرى العلم فى تقدمه ، يؤكد سواه غيره .

ومن أمثلة هذا الاختلاف رأيان ، بل نظرتان ينظرهما الناظر إلى العلم . نظرة ترى العلم شيئاً ثابتاً جامداً ، ونظرة ترى العلم شيئاً متحركاً دائم الحركة .

والنظرة الأولى ، النظرة الإستاتيكية ، نظرة الثبوت والجمود ، تضع فى بؤرة الصورة ، من العلم ، ذلك الجزء الذى يحتوى القواعد والقوانين والنظريات ، ومعها ذلك الفيض العظيم مما كشف العلم ، ونظم ، وانتظم

من حقائق . والعلم عند أهل هذه النظرة وسيلة غايتها تفسير غوامض هذا الكون الذى نعيش فيه . وتعجبهم تلك الكثرة التى وجدوا ، فيحمدون الله على ما آتاهم . ونحن إذا اعتبرنا أن العلم صرح من معارف مترابطة متراكمة ، ولا شىء غير هذا ، لم تفقد الدنيا شيئاً من منافع العلم ، فى الحقول التطبيقية والحقول الثقافية ، حتى إذا أغلقت كل المعامل العلمية غداً . وهو صرح سيظل غير كامل ، لا شك فى هذا ، ولكنه سوف يكفى عندئذ أولئك الذين ينظرون إلى العلم فيرون أنه وسيلة لتفسير غوامض الكون . وسيرضون عن هذه الحال . ولكنى أتساءل: إلى أى زمن يدوم هذا الرضا ؟

أما النظرة الأخرى ، النظرة الديناميكية ، فترى العلم شيئاً غير ثابت ولا جامد . تراه شيئاً متحركاً . تراه نشاطاً متصلاً . وكل ما جمع العلم من حقائق ، فأخطر ما فيها أن منها يستطيع الباحث أن يثب إلى حقائق أخرى . وهذا النظرة ترى أن المعامل إذا أغلقت ، فإن العلم يذهب بندها بها . والحقائق والقواعد والقوانين والنظريات تظل فى مواضعها فى الكتب ، تظل على أرففها من تلك المتاحف التى هى من ورق ، وتصبح أشياء لا معنى لها ، وتصبح أقوالاً لا سند لها ، لأن السند لا يكون إلا بالتحقيق وإعادة التحقيق . وكيف يكون تحقيق وقد غابقت المعامل؟! لقد قلت فبالغت ، وهكذا تعمدت . ولكنى أعود فأقول إنه ليس أحد ، إلا من ملكت سورة الحجاج زمامه ، يستطيع صادقاً أن يدافع عن أى من النظرتين ، النظرة التى ترى العلم شيئاً جامداً ، وتلك الأخرى التى تراه شيئاً متحركاً . فكلتاهما نظرتان متطرفتان . والذى دعانى إلى (٤)

المبالغة ما أراه فيما يُعرض من العلم في المدارس وفي الكليات وعلى الجمهور ، فهو يُعرض أشكالا جامدة لا تعرف الأسانيد . وهذا يميل بالمواطن ، غير واع ، إلى ناحية واحدة من تصور العلم دون الناحية الأخرى . يميل به إلى نظرة الثبوت والحمود . بينما عالم المعمل إنما يقوم فيه ليكشف عن جديد . والمواطن لا يمكن أن يفهم ما يعمل العالم في معمله ، ولا كيف عمل السابقيه من العلماء في تقديم العلوم منذ القرن السادس عشر إلى اليوم ، إلا إذا هو مال عن نظرة ترى العلم ثابتاً جامداً ، إلى نظرة تراه متغيراً متحركاً . هذا على الأقل ميل نفسي وهوها ، ولن أحاول إخفاءه . وإذا يكون تعريفى للعلم شيئاً كهذا : إن العلم عبارة عن سلسلة من تصورات ذهنية (concepts) ، ومشروعات تصورية^(١) (conceptual schemes)

(١) ليس في هذا الكتاب أكثر وروداً من هاتين العبارتين ، لهذا لزم الوقوف لإيضاحهما أول الأمر . أما التصور الذهني أو الصورة الذهنية ، فهي المعنى المجرد الذي يدركه العقل من شيء . وهو نقيض ما تدركه الحواس . فالصورة الذهنية لكبرى هي تلك التي تبقى منه في الذهن بعد رؤية عدد كثير من الكراسي ، وفي هذه الصورة الذهنية لا يبقى إلا الأصل المشترك بين الكراسي من صفات . والمهم هنا هو التجريد . ومن الناس من يتسهل في استعمال هذا التعبير فيطلقه على أي معنى أو أي فكرة .

أما المشروع التصوري فهو نظام يتخيله الذهن قائماً به تتفسر جملة من حقائق وقوانين ، وهو يجمع بين أشباتها في نسق واحد . ومنه الفرض العلمي . ومنه النظرية العلمية . ومن أمثال ذلك النظرية الذرية وهي تتخيل أن الأجسام تتركب من ذرات لها ولها . . . والذي أولد هذا الخيال ، هذه النظرية ، حقائق الكيمياء وقوانينها . والنظرية تعود فترتد إلى هذه الحقائق فتفسرها . وتستجد حقائق فتفسرها فتزداد بذلك قوة ، أولاً تفسرها فتكسب ضعفاً . ولفظ مشروع تتضمن هنا معنيين : معنى النسق أي النظام ، ومعنى التوثيق . والنظرية لا شك مؤقته ولو ازدادت على الأيام قوة .

مترابطة متواصلة هي جميعاً أنتجةً لحديثين ، الملاحظة والتجريب ، من شأنها أنها تثمر الحديد من الملاحظة والحديد من التجريب . وأنا في هذا التعريف أؤكد هذا « الإثمار » . إن العلم مغامرة رائدها الظن والتظن . وصحة الفكرة الجديدة التي تنشأ في العلم ، وقيمة الحقيقة التي تكشف عنها التجربة ، محكّهما ومقاسهما أن تلد الفكرة الفكرة ، وأن تؤدي التجربة إلى تجربة . فالعلم على هذا التصور ليس مطلباً يبحث عن اليقين غاية ، ولكنه على الأصح مطلب نجاحه يتوقف على درجة استمراره واطراده واتصاله .

إن هذه الجملة الأخيرة قد يقرأها بعض الناس فيحسبون لأول وهلة أني أقول إن النشاط العلمي فن من فنون الجنون . وسيتساءلون : لم هذا الجري الهالع وراء تصورات ذهنية ، ومشروعات تصورية ، لا يكون تحقيقها جميعاً إلا بمقدار ما يلدن من تصورات أخرى ومشروعات أخرى ، لا يكون تحقيقها هي الأخرى ، إلا بتصورات جديدة تولد ، ومشروعات تستجد ، وهلم جراً ، إلى ما لا نهاية له . وسيقولون : أليست هذه النظرة الديناميكية إلى العلم ، النظرة التي ترى العلم شيئاً غير ثابت ولا جامد ، بل تراه شيئاً متحركاً ونشاطاً متصلاً ، أليست هذه النظرة نظرة المنهزم ، اللهم إلا إذا كنت سوف تبرر العلم بما ينشأ من تطبيقه ، بذلك وحده (وأنا لست من هذا الرأي) . وسيقولون : ولم لا تقول في صراحة ما قاله قبلك الكثير من العلماء ، فيما مضى من أحقاب وقرون ، إن رجال الطبيعة ورجال الكيمياء إنما يبحثون في الكون غير الحى ليكشفوا عنه مم تركب ؟ وليعلموا عنه كيف يعمل ؟ وأنا أقول

إن صح هذا الذى يقولون هدفاً ، إذأً لكان للعلم نهاية يقف عندها ، على الأقل جدلاً ، وإذأً لتوقف العلم عند بلوغ هذا الهدف ، عند الكشف عن الكون مم يتركب ، وكيف يعمل ، وإذأً لأغلقت المعامل وانصرف الباحثون لأعمال فى الحياة أخرى . وسوف تقول يا قارئى : هذا كلام معقول ، أما هذا الهراء الآخر الذى يتحدث عن تصورات ذهنية ومشروعات تصورية يلد بعضها بعضاً ، فأشياء تشغل العلماء عن كشف الحقائق الحققة التى هى عماد العلم وركازه .

والحق أن هذه مسائل ليس من السهل حلها . إن بحثها فى تعمق واستفاضة لا يكون إلا فى كتاب منفرد تكتبه فرقة من الفلاسفة . وأقول فرقة عمدأً ومن بعد ترو ، لأنه لا يوجد جواب واحد لمسألة من هذه المسائل . وقد كان فى استطاعتى أن لا أعرض لهذه المسائل فى كتاب ككتابى هذا ، غرضه عرض الطرائق العلمية عرضاً أولياً ، لأنها مشاكل من همّ الجهابذة الأعلام الذين من شأنهم معالجة المعرفة ، ما معناها ؟ وهل يمكن حقأً لبنى الناس أن يعرفوا شيئاً ، أى شىء ؟ ومع هذا ، فإنى أجد أن الفكرة الشائعة بين الناس ، عما يعمل العلماء ، تتصل فى شىء من الإبهام بمعنى الكون ، وبكشف حقيقته ، ولهذا وجب على أن أخصص بعض فقرات أخرى أبرر بها الحذر الذى أدعو إليه عند معالجة ما يخرج العلم من نتائج .

العلم والحقيقة؛ نظرة مرتاب

إن من مقاصد كتابي هذا، أني بردّ العلم إلى ما يعقل الرجل العادي، في تفكيره اليومي، أستطيع أن أفهم هذا الرجل في يسر ما يصنع العلماء. إن هناك فكرة شائعة مؤداها أن العلم صار رياضياً، وهكذا مجرداً نظرياً، وصار فنياً إلى درجة انقطع عندها من زمن بعيد ما بينه وبين فكر الرجل العادي من روابط. والحق أن الثورة التي وقعت في علم الطبيعة، علم الفيزياء، في القرن العشرين، إنما كانت على الأكثر بسبب أن العلماء عادوا إلى آراء مما يقبل العقل في بساطته وعلى سليقته، وزادوها تأملاً وتدبراً، فكان من جراء ذلك انقلاب كاسح في تصور هؤلاء العلماء للفضاء وللزمن. ولكن الرجل العادي لا يمكن أن يبدأ تفهمه العلم بالدخول في هذه المسائل العويصة، كالنسبية (Relativity) (١)

(١) النظرية النسبية، إن صح أنه يمكن تفسيرها في كلمة، فهي محاولة تفسير أنتجه العلم الطبيعي وتنسيقها على أساس أن الحركة التي يمكن أن يلحظها الإنسان إنما هي حركة نسبية، وهي وحدها النوع الواحد الوحيد من الحركة الذي يمكن اعتباره في بحث قوانين الطبيعة وفي وضعها. ويطبق أينشتين هذه النظرية على قوانين الكهرباء والضوء، فيجد أنه إذا أريد تطبيقها على هذه الظواهر، وكذلك على قواعد الميكانيكا، وجب تغيير قوانين نيوتن عن الحركة. إن الفرق الذي يحدثه هذا صغير في كل السرعات العادية، ولكنه ليس بالصغير في بعض الظواهر الفلكية حيث كل شيء هائل كبير، ولا في الظواهر الديناميكية الكهربائية حيث كل شيء هائل، صغير وكبير.

والنظرية الكمية نظرية الكوانتم أو النظرية القنطامية (Quantum Theory) ^(١) إذاً لاختبل واختلط وضل ضللاً بعيداً . من أجل هذا نقترح له النقيض من ذلك . نقترح أن نبدأ له بالعلاقة التاريخية التي كانت بين العلم وبين الرأى الباده الفطرى المشترك بين الناس (Common sense) ^(٢) ثم ننتقل من هذه إلى استعراض وجوه العلم الحديث ، وهى عديدة مختلفة . وإنى آمل أن طريقتى هذه ، طريقة الحذر المرتاب ، والأسلوب الذى اتبعه فى تحليل طرائق العلم ، لن تقوم حجرة عثرة فى سبيل من يريد أن يتابع من بعد ذلك بالقراءة استطلاع أى وجه من وجوه العلم الحديث .

(١) النظرية القنطامية ، إذا أمكن تفسيرها فى كلمة ، فهى نظرية نشأت فى مخاصمة قواعد الميكانيكا الكلاسيكية . ولناخذ الحركة مثلاً . فالجسم المتحرك ذو السرعة المتغيرة تفرض فيه النظرية الميكانيكية أنه ينتقل من سرعة إلى سرعة إلى سرعة فى تواصل مستمر ، كالمنحدر المستوى ، لا يحس المزلق عليه بانتقال من سرعة إلى سرعة . أما النظرية القنطامية فتقول إن هذا التغير فى السرعة يقع على درجات كدرجات السلم . فإذا نحن لم ندرك هذه الدرجات فبسبب صغر الفرق عند الانتقال من درجة إلى درجة ، فهى لا تحس . أو بسبب أن الحالة القائمة هى حالة استاتيكية تنتظم عدداً كبيراً من الأنظمة الصغيرة ، والذى يظهر لناظرها وملاحظها ، وحتى الذى يقيسها فى تجربة مثلاً ، إنما هو متوسط هذه الأنظمة جميعاً .

(٢) هذه العبارة كثيرة الترداد فى هذا الكتاب ، وهى موجودة فى اسم الكتاب نفسه ، ومعناها أصلاً العتق أو الحس أو الفهم المشترك بين الناس . ولكن يضاف إلى هذا المعنى ظلال من معان . فهى قد تعنى الرأى الباده الذى يأتى لفكر الناس بالبدية ودون توقف كثير . - وهى قد تعنى « الشئ المعقول » . وإذا وصفت التجربة بهذه العبارة فهى التجربة التى يجرى فيها المحرب على أسلوب الفطرة وعادة السواد من الناس . فهم إذا انبهم عندهم شئ واستغلق فالطريقة البادئة هى « اكسر وافتح وانظر » ، بدون تخطيط أو تدبير أو استعمال نظريات أو تفلسف أياً كان .

إن الذى يريد أن يبسط العلم اليوم للناس لا يستطيع أن يكتب كما كتب الكتاب فى القرن التاسع عشر، وذلك بسبب ما كشفه علماء الطبيعة علماء الفيزياء ، فى هذا القرن الحاضر من كشف . إنه مما لا شك فيه أن العلم فى وقت ما ، حول عام ١٩٠٠ ، قد سلك طريقاً جديداً غير مسلوكة بالمرّة ولا منظور . لقد دخلت العلم مراراً نظريات ثورية، واكتشفت فيه مكتشفات تاريخية ، ولكن ذلك الذى حدث فيما بين عام ١٩٠٠ ونحو عام ١٩٣٠ كان شيئاً يختلف عن هذه النظريات وهذه المكتشفات كل الاختلاف . إنها نبوءة عامة تنبأ بها العلماء من تجاربهم ، وتنبؤوا بها فى اطمئنان وثقة ويسر ، قد فشلت . وهذا الحادث فى ذاته ، هذا الفشل ، يكفى تبريراً لى فيما أقول به من أن الواجب علينا أن ننظر إلى كل نظريات العلم وتفسيرات العلم على أنها أشياء مؤقتة يعوزها الخلود . ولسوف يجد الكثير ، ممن يدركون معنى ما أصاب علماء الفيزياء من تغيير وجهة ، أن التعريف الوحيد للعلم الذى يمكن أن يقبل فى ظلال هذه الحوادث إنما هو هذا الذى يقول بأن العلم « مجموعة من مشروعات تصورية تتولد من التجارب العلمية ، وتثمر التجارب » .

قال الأستاذ «بردجمان» (Bridgman) من زمن قريب، «إن عالم الفيزياء أصيب ، فى أول هذا القرن العشرين ، بما يمكن أن يسمى أزمة عقلية فرضتها عليه التجارب بالذى أخرجته من حقائق ، ليس فقط لم تكن منتظرة، بل كانت عنده مما لا يتصور إمكانه أبداً. وكان الأستاذ «بردجمان» يتحدث أصلاً فى ظواهر السرعة العالية، تلك الظواهر التى وجدت لها فى النظرية النسبية الخاصة مشروعاً تصورياً يمتظمها ويفسر غوامضها.

وليس يقل عن هذا غرابة ، في رأى رجل مثلى ، ليس عالماً في الطبيعة ، ولكن كان من حسن حظه أن يستمع إلى علماء الطبيعة أكثر من أربعين عاماً ، ما وقع فيما يتصل بدراسة الضوء ، المرئى منه وغير المرئى وتلك قصة ذلك باختصار :

كثير من الظواهر الضوئية البسيطة يمكن تفسيرها بنظرية (أى بمشروع تصورى) يتصور الإنسان فيها الضوء كأنه حركة موجية . وبعض هذه الظواهر يمكن تفسيره بنظرية أخرى يتصور الإنسان فيها الضوء على أنه شعاع من نور يتألف من دقائق تجرى فيه متلاحقة على خط سوى . وكانت هذه النظرية ، نظرية الدقائق (Corpuscular) هي أقدم النظريتين ، وكان مكانها في العلم راسخ . حتى إذا جاء عام ١٨٠٠ ، حدث فيه أو ما فيها حوله من أعوام ، أن كشفت التجارب عن ظواهر يصعب تفسيرها ، إن لم يتعذر ، إلا بالنظرية الموجية (Wave theory) ثم ما انتصف القرن التاسع عشر حتى اطمأن العلماء إلى هذه النظرية ، النظرية الموجية ، كل اطمئنان . ومع هذا ، فقد حدث عام ١٨٧٠ ، أن أستاذاً من أساتذة جامعة «هرفرد» (Harvard) ، فى عقله مس من خبال ، ظل يؤمن بنظرية الدقائق تلك ، ويقول : «إن السبب فى أن الناس تؤمن بالنظرية الموجية هو أن الذى يؤمنون بنظرية الدقائق قد ماتوا» .

وبقيت هذه الدعاية حية فى جامعة «هرفرد» حتى عام ١٩١٢ . ولكن حتى فى هذا العام أحس الناس بأن الذين ظلوا يتمسكون بنظرية الدقائق لم يفعلوا ذلك حباً لتقديم يعز على المرء تركه وإسلامه . فقد صار من

الواضح عندئذ أنه توجد ظواهر كثيرة في امتصاص الضوء (Absorption) وانبعائه (Emission) لا يمكن تفسيرها تفسيراً مرضياً إلا بنظرية الدقائق الضوئية . ووقع العلماء في حيرة . ولا أشك أبداً في أنهم جميعاً ، في ذلك العام ، منذ أربعين عاماً ، توقعوا جميعاً ، بل أيقنوا أن الخروج من هذه الحيرة ليس إلا مسألة زمن ، وأن الغد كفيف ، بتجارب مختارة ، تسهل المعضل وتحل المشكل حلاً موفقاً . ولقد أذكر أني سمعت في تلك الأيام عمدة في عالم البصريات (Optics) ، بجامعة «هرفرد» ، يقول في محاضرة إن الضوء لا يمكن أن يكون موجات ودقائق في آن واحد ، إنه إذاً السخف . وعاد يؤكد لسامعيه أنه لا بد أن تجرى تجربة حاسمة تقضى قضاء مبرماً بين النظريتين المتنافستين . وها نحن بعد عام ١٩٥٠ ، ولم تجر تلك التجربة الحاسمة المرجوة بعد ، وإني لأشك في أن أجدر اليوم كثرة من العلماء تؤمن بأن هذه التجربة الحاسمة المرجوة لا بد آتية . إن الظن الغالب الأغلب أنها لن تأتي أبداً . والرأي اليوم في تفسير الضوء أن هناك مشروعين تصوريين ، يفسران ظواهر الضوء جميعاً ، وظلا يفسرانها منذ عشرات من السنين ، أحدهما يفرض وجود دقائق ، وبها تنفسر بعض هذه الظواهر ، والآخر يفرض وجود الموج ، وبه تنفسر الظواهر الأخرى . وليس في احتمالات اليوم تجربة يمكن ابتداعها تقضى في أمر الضوء ، أهو دقائق أم موجات .

وقد يحسن بي هنا أن أطالع القارئ بما قالته « دائرة المعارف البريطانية » في طبعتها الرابعة عشر في عام ١٩٢٩ تحت مادة « ضوء Light » . بدأ الكاتب مقاله بما يأتي :

« قد ينتظر منا أن نبدأ الحديث في الضوء بالتحدث عن حقيقته ، وبعد تحقيق ذلك ننتقل إلى خواصه . ولكن هذه الطريقة مستحيلة . لأن الضوء من المعاني الأصلية الأولى التي يعجز عن الوصول إليها أي معنى آخر أو معان أخرى نسخرها لتفسيره . فطبيعة الضوء لا يمكن التعريف بها إلا بتعداد خواصه ، وبناء هذه الخواص على أبسط الأسس الممكنة . وبما أن هذه الأسس تعجز عن إدراكها خبرة هذه الحياة ، فقد وجب أن نعبر عنها بصورة من صور المنطق البحت ، أعني بالرياضة وعلى هذا سوف نصف كيف يعمل الضوء ، مستعينين بالتشبيهات والاستعارات ، وهذا الوصف هو « حقيقة » الضوء إذ لا شيء يمكن سواه . »

فهذا ما قاله عالم في الطبيعة ممناز في عام ١٩٢٩ ، وإني أقتبسه لأعزز به رأي المنبث في طول هذا الكتاب وعرضه . وأحب أن أقارن هذا المقال بنظيره في نفس دائرة المعارف هذه ، في طبعها الحادية عشرة ، في عام ١٩١١ ، وقد كتبها فلكى ، ولكنه لا شك كان يعرض فيما كتب رأى علماء الطبيعة ، علماء الفيزياء ، في تلك الأيام . قال الكاتب ، بعد أن ذكر أن الضوء يمكن تعريفه بما يجد المرء من أثر له في نفسه ، قال : « أما تعريفه الموضوعي ، بصرف النظر عن أثره في ذات رائيه ، والتعرف على حقيقته ، فهنا هو الهدف الأقصى للأبحاث الضوئية » .

من هذين المقالين ، مقال عام ١٩١١ ، ومقال عام ١٩٢٩ ، نرى كيف انتقل الاهتمام بمعرفة حقيقة الضوء ، إلى الاكتفاء من هذه الحقيقة بالذى يذكر من خصائص الضوء . إنها نقلة ظاهرة حتى لمن لا يعرف من الطبيعة شيئاً .

وقد يحس من يقرأون كلامي هذا من رجال الطبيعة الأحدثين أني لم أنصف التاريخ ، وأنى مررت مرّ الكرام على تطوّر معتدّ في علم الطبيعة لم تكن فيه هذا البساطة والسهولة . ولكنى إنما أريد ، بمقابلة رأى للعلماء في حقبة برأى غيره في حقبة أخرى ، أن أبرز الصعوبات الكبرى التي يلقاها من يطلب تعريف العلم اليوم بألفاظ ألفها العلماء منذ خمسين عاماً .

وإنى أسأل أصدقائي العلماء الذين لا يرضون عن مزاجي هذا المتشكك ، وعن هذه الريبة المتفشية في هذه الصفحات ، أسألم كيف يمكن الفرد منا أن يتحدث في سهولة عن « حقائق الأشياء » بينما هو مطالب قسراً بالخنجر عندما يتحدث عن أمر ظاهر السهولة « كحقيقة الضوء » . وفوق هذا ، أليس الخير ، من الوجهة التعليمية البحتة ، وطلباً للسهولة ، أن يبدأ هؤلاء الذين لا يألفون العلم ألفة العلماء ، أن يبدأوا بالشك ، لينتهوا بالحقائق تلتقى في روع الناس وكأنها اليقين ؟ ثم أليس هذا خيراً من أن يبدأوا بهذا اليقين المزعوم ، لينتهوا بالشكوك والريب . إن القارئ الذي ينتهي من قراءة هذا الكتاب ، ويجد في قلبه الشك فيما أنتج العلم ، ثم هو يريد أن يعيد إلى قلبه الإيمان ، فسوف يجد كل العوامل تعمل على إعادة هذه الثقة وهذا الإيمان ، وكيف لا ، وكل حقائق العلم تلتقى على الناس إلقاء الأحكام التي فرغ القضاة منها فليس عليها تعقيب ولا لها استئناف وأخيراً أذكر أن هؤلاء العلماء الذين يتلقون نتائج العلم الطبيعي بأقل مقدار من الشك لا بد هم معترفون معي بأن تاريخ النظريات دل على أنه ما من نظرية جديدة ابتدعت إلا ووقف الناس منها ، عدا

مبتدعها والمناصريها ، موقف الحذر الشديد . لهذا أطلب إلى القارئ ، وهو يتابعني فيما أعرض من طرائق العلم التجريبي ، ممثلاً لها بأمثلة أقتبسها من تاريخ العلم ، أطلب إليه أن يحمل في قلبه أكبر مقدار من الشك فيما سوف يسمع من إيضاح وتفسير .

زيادة الكفاية في المشروعات التصورية

والآن فلنعد إلى الحديث عن العلم ، نتحدث فيه حديث الطبع والقطرة بالأسلوب الذي يجوز في أفهام الناس عامة . إنى لا أحسب أن هناك حاجة إلى التدليل على أن الإنسان بدأ يجرّب أولاً طلباً لنتائج عملية ينتفع بها انتفاعاً ، ومن تجربته هذا العملى التفعى خرج إلى التجريب العلمى . فهذه بديهية من أولى البديهيات التى يعقلها كل الناس . ولكن أكثر منها أصالة فى التعقل الإنسانى أن الأجيال من العلماء الذين سلفوا ، بعد أن أخرجوا من نتائج تجاربهم ما أخرجوا ، وبعد أن بنوا عليها من المشروعات الفكرية والنظريات ما بنوا ، وحسنوا فيها ما حسنوا ، إن تلك الأجيال من العلماء إنما درجوا فى كل هذا على الأسلوب نفسه الذى يدرج فيه الطفل الوليد ليتعرف ، فى حياته الجديدة ، على الناس والأشياء . وحتى التجريب العلمى نفسه ، بصرف النظر عما تلاه من تنظيم وتفكير وتفسير ، يمكننا ، إذا نحن فرضنا صحة النظريات الشوثية الجارية ، أن نربط بين هذا التجريب وما حاوله الرجل البدائى من التعرف إلى

دنياه ، ثم نقل ما عرف منها ، عن طريق اللغة ، إلى ما تلاه من أجيال .
 كتب «وليم جيمز» (James) من زمان يقول : « إن حياة الإنسان
 العقلية ما هي ، في الكثير الأكثر منها ، إلا نقل ما يجده بطريق الحس
 في اختباره لدنياه إلى تصورات ذهنية تقوم بديلاً منها
 وكل كتاب جديد يخرج إنما يسجل بالألفاظ اللغوية تصوراً ذهنياً جديداً
 يبلغ من الخطورة بمقدار ما يستطيع أن ينتفع به الناس . ومن هنا تتولد
 إلى جانب دنيا الحس دنى للفكر عديدة ، تربط أجزاءها روابط كثيرة .
 منها دنيا المعقولات العامة التي لا يكاد يجد الناس فيها جدلاً . ودنيا
 الواجبات المادية التي لا بد أن تؤدي . ودنيا الرياضيات ونختص بالأشكال
 خالصة بحتة . ودنيا الأخلاق وقضاياها . ودنيا المنطق . ودنيا الموسيقى وهلم
 جرا . وكلها دنى من معان جردها الإنسان وعممها ، واشتقها من أصول
 حسية له قديمة نُسييت من طول ما مضى عليها الزمن . ثم هي تعود لمتخرج
 بهذه التجارب الحسية القديمة الحديثة التي يجدها الإنسان الآن في يومه
 وسوف يجدها في غده كلاهما ، من مدركات مجردة معممة
 فكرية ، ومن مدركات حسية ، يختلط بعضهما ببعض ، ويندوب بعضهما
 في بعض ، ويلقح هذا منها ذاك وذاك هذا ، ومن اختلاطهما ومن توالدهما
 ينشأ معنى العيش . ومنهما ، ومنهما معا ، يُفهم الواقع بتمامه . وهما لنا
 كالرجلين ، لا بد منهما لنا معاً للسير في الحياة » .

إن العلم التجريبي يمكن اعتباره منشطاً يزيد في كفاية التصورات الذهنية
 والمشروعات التصورية التي ترتبط بصنوف خاصة من المدركات الحسية ،
 وهو منشط يؤدي إلى أنواع من مناقش أخرى . والعلم التجريبي ، على

هذا الاعتبار ، هو بعض الذكاء الإنساني العام بل امتداد له . فالذكاء العام بدوره إن هو إلا محصول الناس من تصورات ذهنية ومشروعات تصورية أثبتت الخبرة الإنسانية أن لها نفعاً عظيماً في حياة البشر . ومن هذه التصورات الذهنية والمشروعات التصورية ما نقل إلى العلم نقلاً ، ثم قلّم هنا ، وشذب هناك ، فكان منه نفع طويل بعيد . ومع هذا فقد علمتنا الثورة الحديثة التي وقعت في علم الطبيعة ، علم الفيزياء ، أن أخطاء كثيرة قد تقترف بسبب نقص في الدقة التي يجب علينا أن نتوخاها في تحديد معنى تلك الصور الذهنية التي تنتسب للذكاء العام ، وتحديد ما بحيث يستطيع صاحب التجربة العلمية أن يدرك حقيقة الهدف الذي يهدف إليه من تجريب . ونحن حتى في الأمثلة البسيطة التي نوردتها فيما بعد ، سوف لا نغفل الإشارة إلى هذه الصعوبات . ولكن على القارئ أن يطلب في غير هذا الكتاب ما قد يطلبه من جواب لسؤاله : ماذا يكون أثر ما يخرج هذا القرن الحاضر من نتائج تجريبية ونظريات علمية في الخطوط الكبرى للفلسفة التي تهدف إلى تفهم الإنسان هذا الكون الذي فيه يعيش ويحيى .

فروض يقرها العقل على فطرته

في كل ما سنعرض له في الأبواب القادمة سوف نسلم بكثير من المشروعات التصورية التي يميزها العقل بفطرته . مثال ذلك أننا سوف نسلم بوجود أشخاص غير أشخاصنا نستطيع أن نتفاهم معهم . وسوف نسلم بوجود أشياء تحتل مكاناً في فضاء له على الأقل أبعاد ثلاثة بالمعنى الذي وضعه علم الهندسة الذي تعلمناه في المدارس . وسوف نفرض فوق ذلك أن لهذه الأشياء وجوداً مستقلاً عن يرونها من الناس . كذلك لا بد من فرض أن الطبيعة ثابتة في سلوكها وتخلقها ، وأن ظواهرها لا بد أن تعود كلما عادت الظروف والأسباب التي أنتجتها . فهذا فرض أساسي للعلوم قاطبة . وهو فرض آخر من فروض العقل الفطري أعطى للعلماء أرضاً ثابتة رازكة مطمئنة يبنون عليها ما يبنون . وهو فرض سلم به الأوائل من أهل التجربة في عصر النهضة كما سلم به من سبقهم من المحققين قبل بزوغ فجر العلم الحديث .

ومع هذا فالذي يتابع التاريخ العقلي لأوروبا ، من عام ١٣٠٠ إلى عام ١٧٠٠ ، يجد من القول ما يملأ صفحات عدة إذا هو أراد أن يعرض إلى ما اختلف فيه العلماء فيما أسموه « دنيا الأشياء » أو « الدنيا الموضوعية » . ومن أجل هذا ، وعلى الرغم من غضب قد أثيره في صدور أولئك الذين أكثر همهم بحث الأسس الماوراء الطبيعة لعلم القرن السابع عشر ، فإنني أجازف فأقول إن التجارب الذي دعا إليها

العقل بفطرته ، للتعرف على الأشياء كيف تتطبع وتتخلق ، كانت مقدمات لا بد منها للعلم التجريبي (ولو أنها غير كافية) .

كتب « أجريكولا » (Agricola)^(١) كتابه عن التعدين في القرن السادس عشر ، ووصف ما في المناجم من عفاريت وأرواح أقزام ، ووصف إلى جانب هؤلاء ما في المناجم من أدوات للتعدين وطرائق . ولكنه كان من الحذر بحيث قال إن هذه العفاريت وهذه الأرواح الأقزام لا تشترك في عمل المنجم اليومي ، فلا تحمل خامته من بطن الأرض إلى ظهرها كما يعتقد الناس . فهو قد أعطى هذه المخلوقات وجوداً ، ومع هذا لم يحقق لوجودهم عملاً .

والإيمان بأن الظواهر الطبيعية تعود فتتكرر إذا تكررت أسبابها شيء سلم به قواد الحروب زماناً طويلاً قبل أن يجيء جاليليو . فهم قد عنوا بدراسة مسالك القنابل في الهواء إذ تطلق فيه ، وما كان هناك معنى لهذه الدراسة لولا إيمانهم بأنها تعود إلى نفس هذا المسالك إذا ما أطلقت في نفس ظروفها الأولى . كذلك علماء التشريح في بادوا (Padua) ، ذلك النفر من أهل القرن السادس عشر الذين توفروا على تقديم هذه

(١) هو جورج أجريكولا ، ألماني ، رجل علم . ولد عام ١٤٩٠ ومات عام ١٥٥٥ . ويعتبر أباً لعلماء المعادن والمعدنيات . نشأ طبيباً ، بعد أن درس الطب في إيطاليا . وعاد إلى ألمانيا يمارس الطب في منطقة تكثر فيها المناجم ويكثر التعدين . وكان هدفه من ذلك أن يملأ وقت فراغه بدراسة المعادن ليجعل من الحقائق المبعثرة فيها علماً . ودرس استخراج المعادن ، الفلزات ، بالصهر . وله مؤلفات كثيرة باللاتينية في كل ذلك ، وفي الجيولوجيا . وهو واضع أسس هذا العلم .

الناحية من العرفان، عرفوا إلى أى مدى يمكنهم أن يعتمدوا على انتظام الطبيعة في سلوكها، وعلى أن شيئاً من بناء الجسم وجدوه في جثة هم لا بد واجدوه، هو نفسه، في جثة أخرى. وكهؤلاء زراع الأرض من قديم الزمن، فلولا ملاحظات فطرية لهم، وفرضهم ذلك الفرض الفطري من ثبوت الأرض على ما عرفوا من طباعها، ما استطاعوا للأرض فلاحه ولا حصداً حصداً. إن بعض رجال التاريخ يرون أن الفلسفة التجريبية للقرن السابع عشر إنما نشأت في حجر نظام فلسفي يتصل بما وراء الطبيعة، وأنه لولا هذا النظام الماوراء الطبيعة ما كان تجريب ولا كان علم. ومن الكتاب الحديثين من يرى أنه ليس بين الملاحدة (Atheists) واللاأدرين (Agnostics) (١) من كان في قلبه من إيمان باطراد الطبيعة واتساقها ما يكفي لممارسته العلم وتجاريب العلماء. إنه عمل في غاية الصعوبة محاولة تحليل ضمائر الناس لنبحث فيها عما بها من فروض تفترضها أنفسهم دون وعي منهم. إنه لاشك في وجود إيمان مضمّر باطراد الطبيعة وثباتها على طباع واحدة في قلوب من يصنعون العلم، وأنه إيمان لا يقل عنه

(١) اللاأدرى هو الرجل الذي يقول لا أدري في كل موضوع يتصل بما وراء الطبيعة، ومنه فكرة الله، ومنه أصل الوجود، ومنه الخلود. وهو لا ينكر شيئاً من هذا، ولكن حكمه في كل هذا معلق. وحجته في ذلك أن العقل لا يستطيع أن يدرك إلا ظواهر الحياة وما يتصل بها. والذي ابتدع هذا الاسم لهذا المذهب هو العالم الإنجليزي هكسلي، وقد مر ذكره. والمعنى قديم، تناوله الفيلسوف الألماني « كنت » في نظريته للمعرفة، ولكن هكسلي زاده شرحاً لا سيما فيما يتصل بظواهر الطبيعة في العلم الحديث. على أن المذهب اتخذ أطواراً أخرى بعد هكسلي. فالمعرفة، حتى العلمية، لم تبلغ بعد عندهم مبلغ اليقين. ومؤلف هذا الكتاب يمس هذه الفكرة في أكثر من موضع من هذا الكتاب.

إيمان أقوام يقضون حياتهم في ممارسة الفنون العملية ، وأقوام قضوا حياتهم في مثل هذا قديماً ، قبل طلوع فجر العلم التجريبي الذي انبثق منذ ثلاثة قرون . إننا في الأبواب القادمة سنبحث في تجارب تكررت مراراً وأتت بنفس النتائج في حدود الأخطاء التجريبية المعتادة . وسنفرض أن الظروف والشروط الواحدة ستؤدي دائماً إلى ظواهر واحدة في إجمالها وتفصيلها . ومن الناس من يعتبر هذا الفرض إيماناً بغير برهان ، وإن صح هذا فهو إيمان لا يزيد عن إيمان في فروض مثله يفرضها صاهر المعدن وزارع الأرض وربان السفينة ورافع الماء بالمضخة ونافخ الزجاج ، وأصحاب سائر الحرف على تعددها واختلافها . فهذا العرفان العملي حصل من قديم ، وتأكد وتحقق عند الناس من قديم ، وقبل أن يهتم العلماء ببحث الأشياء واستكناهاها . ولسوف أخطر وأستخدم في طول هذا الكتاب وعرضه لفظة « الحقيقة » ، وهي لفظة مريبة هرابة ، وسأستخدمها ، ليس فقط لأعني بها نتيجة خرجت بها تجربة ، ولكن لأعني بها كذلك ذلك المعنى العام الذي مؤداه أن تجربة تؤدي على نسقتها ، وبشروطها ، لا بد أنها تنتج نفس نتائجها . مثال ذلك أني سوف أسمى « حقيقة » أن المضخة الماصة ترفع الماء دائماً إلى ارتفاع ٣٤ قدماً إذا شغلت عند مستوى سطح البحر ، ولا ترفعه فوق ذلك . ولست أدري كيف يستطيع المرء أن يتجنب أن يسمى هذا « حقيقة » . وتمشياً مع التحذير الذي سبق سأتجنب أن أسمى حقيقة « أن الأرض التي نعيش عليها يحوطها بحر من هواء له ضغط نشأ عما بهذا من ثقل الهواء ، ولو أني أنا نفسي لا أشك أنه حقيقة . إني في بحث كالذي نحن فيه أفضل أن أسمى هذا المنطوق ،

لا حقيقة ، ولكن تفسير فكرى محتمل . وهو تفسير عندما وضع لأول مرة لم يختلف فى جوهره عن المنطوق الذى يقول : « إن نواة الذرة تتألف من بروتونات ونيوترونات » ، وهو قول لا يزال كثير من العلماء يعدونه فرضاً أو نظرية ، لا حقيقة ثابتة .

ولقد تقرأ مقالا شعبياً فى العلم يقول فيه صاحبه : « إن علم الفيزياء الحديث قد أثبت أن المنضدة الخشبية ليست فى الحقيقة إلا مجموعة من من الكترولونات وبروتونات ونيوترونات » . وقوله « فى الحقيقة » قد تحمل فى بعض الأذهان معان مضللة كبيرة . وكان خيراً له ، وآمن له ، لو أنه قال : « إن التصور الذهنى المرتبط بلفظ منضدة تصور نافع فى دنيا الناس ، وعلى فهمهم الفطرى العادى . وقد استخدموه جميعاً وانتفعوا به فى غير عسر ، إلا الفلاسفة . وهؤلاء لم يجدوا بها عسراً إلا حين يتفلسفون . وكذلك التصور الذهنى المرتبط بلفظ الخشب تصور نافع فى الحياة اليومية العملية ، وهو محدد تحديداً كافياً بحكم ماضى الخشب قبل أن يكون خشباً . وفوق هذا يجوز التعبير عما وقع للخشب من تحولات كيمياوية ، بذكر مادتين يحتويهما ، تسمى إحداهما بالسليولوز وتسمى الأخرى باللجنين أو الخشبين ، وقد تريد فتفسر هاتين المادتين بما صوره العلم من ذرات جمعها فيما سماه جزيئات . وعدا هذا فإنى لا أرى وجهاً من الوجوه ينفع بالخشب فيه بذكر أنه يتألف من الكترولونات وبروتونات ونيوترونات . وغير هذا بالطبع أن يكون الحديث عن اليورانيوم لا الخشب » . واختصاراً أرى أن « حقيقة » كثير من النظريات التى يضعها العلماء لا تثير صعوبات فوق تلك التى تثيرها « حقيقة » معنى المنضدة

أو معنى تلك المادة التي نسميها خشباً. والواقع أن درجة الحقيقة التي نحسها نحن للأشياء والمعاني ، سواء كنا علماء أو غير علماء ، تتوقف على درجة ألفتنا لما تثيره هذه الأشياء والمعاني في أذهاننا من صور. وهذه الألفة بدورها تتوقف على مقدار ما أفدنا من ثمراتها على الزمان الطويل. أما عما يتنبأ به العلم أن يقع ، فأمر ككل أمور الحياة غير العلمية ينوقف ثبوته على ما به من احتمال. فالمسألة على ما يظهر ليست إلا احتمالاً ودرجة احتمال. ونحن في حياتنا اليومية لا نتردد في المخاطرة بآخر قرش لدينا رهاناً على أن الحجر الذي يقذف به القاذف في الهواء لا بد هو عائد إلى الأرض. ومن الفلاسفة مدرسة تقول بأن كل ما نتوقعه من أحداث يومنا ، ويقع في روعنا موقع الثبوت ، ليس إلا شيئاً محتملاً كبير الاحتمال ، ومع هذا فالتحدث عن الماضي ، والتنبؤ بالمستقبل ، والقواعد التي على وفقها تتتابع الأحداث ، كل هذا مشغلة الشاكين المدغلين في شكهم من الفلاسفة. ولسوف نأتي في الباب العاشر من هذا الكتاب ، في شيء من الاختصار ، على بعض نتائج مما يؤدي إليه الشك والتشكك على درجات منه مختلفة. ذلك لأنه لا يسهل على القارئ المتعطش الذي لا يرويه القليل ، فهم الطرائق التي يجري عليها رجل العلم في معمله كالجمع بين إيمان الحيوان (وهذا تعبير سنتاينا Santayana)^(١)

(١) هو جورج سنتاينا، فيلسوف أمريكي وشاعر ، وأستاذ الفلسفة بجامعة هارفرد من عام ١٨٨٩ إلى عام ١٩١٢ ، وبعد هذا العام ترك الجامعة وترك أمريكا ، إلى أوروبا ينتقل فيها ليزداد علماً . من أصل أسباني . وله مؤلفات قيمة عدة تدور حول الفكر أو حول الجمال وحول الشعر .

في دنيا الرجال والأشياء ، وبين التشكك في العلم . وعلى كل حال ، خلط كهذا بين الإيمان والشك ، سيتخلل ما سوف نحكيه من مجهودات رجال قلائل في العلم نوابه .

العرفان المتراكم

وقبل أن نترك هذا الباب ، باب « ما العلم » ؟ ، يجب أن نترث قليلاً لننظر رأى قوم يرون أن العلم لا بد أن يشمل مجموعات عديدة هائلة من مناشط الإنسان . ولقد سبق أن أبديت أسبابي في اعتقادي أن العلم من الأنفع ألا يطلق إلا على عدد غير كبير من هذه المناشط . وأما العدد الأكبر فأفضل أن يسمى « بالعرفان المتراكم » . وإذاً يكون من العرفان المتراكم العلوم الطبيعية وعلوم الحياة ، وكذلك الرياضة والمنطق الرمزي وفقه اللغة وعلم الآثار وعلم الإنسان والأجناس وقسم كبير من الدراسات التاريخية أيضاً . ويستطيع المرء في هذه الصنوف من العرفان أن يؤكد أن تقدماً عظيماً وقع فيها في القرون الثلاثة الأخيرة الماضية ، ولكنه لا يستطيع أن يؤكد مثل هذا فيما يختص بالفلسفة والشعر والفنون الجميلة . وإذا أنت شككت فيما أقول ، وسألتني أن أقوم درجة التقدم حتى في العلوم الأكاديمية ، إذاً لكان جوابي أن أطلب إليك بدوري أن تبعث إلى الحياة كل عاهل مضى من رجال هذه العلوم ، وتعرض عليهم ما استجد منها ، ثم تسأله رأيه فيما استجد ، أتقدماً كان أم غير

ذلك . ولن يشك أحديهما سوف يكون عليه جواب « جاليليو » ،
 « ونيوتن »^(١) ، وهرفي (Harvey)^(٢) ، والسابقون الأولون في علم
 الإنسان والأجناس وعلم الآثار . وغير هذا إطلاقاً سيكون جواب
 « ميكلا أنجلو » (Michelangelo) ورمبرنت Rembrandt^(٣) ودانتى^(٤)

(١) هو السير إيزاك ، أو إسحق ، نيوتن ، العالم الإنجليزي الأكبر ، ولد في عام
 ١٦٤٢ ومات في عام ١٧٢٧ . تعلم في كمبرج ، وانتخب رقيقاً بها ، ثم أستاذاً للرياضة في
 عام ١٦٦٩ ، وسنة ٢٧ عاماً . وانتخب عضواً في الجمعية الملكية عام ١٦٧١ ، ثم رئيساً لها
 في عام ١٧٠٣ ، وظل ينتخب رئيساً لها كل عام حتى وفاته . وفي عام ١٦٨٩ انتخب عضواً
 في البرلمان ممثلاً لجامعة كمبرج . أما أعماله فأشهر من أن تذكر ، فهو مكتشف قانون
 الجاذبية ، وصانع قوانين الحركة ، وحساب التفاضل والتكامل . وفي الضوء كان أكبر ما
 كشف العلاقة بين انكسار الضوء وألوانه . ومن أشهر مؤلفاته البرنسيبيا ، في الفلك والديناميكا
 وهي من المؤلفات التاريخية الخالدة .

(٢) هو وليم هرثي ، الطبيب الإنجليزي ، كاشف الدورة الدموية . ولد عام ١٥٧٨
 وتعلم في كمبرج . وفي نحو العشرين ، أى عام ١٥٩٩ ، ذهب إلى جامعة بادوا ، بإيطاليا ،
 ليتعلم الطب . وكان بها أشهر مدرسة للطب في أوروبا . ومنها أخذ درجة الدكتوراه في
 الطب وعاد إلى إنجلترا عام ١٦٠٢ . وأقام في لندن يعمل في مستشفى برثولوميو . نشر على
 العالم كشفه للدورة الدموية في رسالة عنوانها « في حركة القلب والدم في الحيوان » ، طبع عام
 ١٦٢٨ في أمستردام . وعين أخيراً طبيباً للملك جيمس الأول ، ثم شارل الأول ، وصاحبه إلى
 جامعة أكسفورد ففتحته درجة الدكتوراه . وبسقوط حكمه وقتله وما جرى بعد ذلك من
 أحداث دموية ، نزع هرثي إلى لندن وبقى بها إلى أن مات عام ١٦٥٧ .

(٣) رمبرنت أشهر الفنانين الرسامين من المدرسة الهولندية ، ولد عام ١٦٠٦ ومات
 عام ١٦٦٩ .

(٤) دانتى أكبر شعراء إيطاليا ، وهو صاحب « الكوميديا الإلهية » المشهورة .
 ولد في فلورنسا عام ١٢٦٥ ، ونشأ وأحب وكتب الشعر في « بتر بس » رمز جماله في الوجود
 وانقسمت فلورنسا إلى حزبين ، البيض والسود ، وناصر هو البيض ، وغلب السود ،

وملتن وكيتس Keats^(١) . وغير هذا سيكون جواب «توماس أكويناس»
 (Aquinas) و«اشبينوزا» و«لوك» و«كنت»^(٢) . وقد نجادل يوماً كاملاً فيما
 قد يقضى به فنان أو شاعر أو فيلسوف من كبار الرجال الذاهبين إذاهم
 اطلعوا على ما نحن فيه من فن أو شعر أو فلسفة ، أتأخرت هذه الفنون
 من بعدهم أم تقدمت ، ثم لا نخرج من بعد هذا الجدل على شيء .
 وحتى الكثرة التي تتفق على رأى في هذا اليوم ما كانت لتتفق وتكون
 بهذه الكثرة لو أنها نظرت في مثل هذا الأمر قبل خمسين عاماً .

إني أحس الخطر في إدخال معنى التقدم والتأخر في التحدث عن
 صنف من صنوف العرفان . لهذا أسارع فأقول إني لا أريد أن أقدم فئة

فزولوا قتلا في البيض ، وحرقوا منازلهم . وحكموا على دانتى بالنفى ثم بالحرق حياً . ولكنه كان
 خارج فلورنسا فنجا . ولكنه نجا ليعيش عيش الطريد طول حياته ، ولم يدر أحد بالضبط
 أين ذهب . ولكنه قال « ذهب إلى كل بلد ينطق بهذا اللسان . وقال « ما أشق على المرء
 صعود السلام ليأكل الخبز من أيدي الأعراب » . وأخيراً أنهكه التشرد ، والمرض فملقاه
 يموت عام ١٣٢١ ويدفن في رافنا ، حيث توجد رفاته إلى اليوم .

(١) جون كيتس هو الشاعر الإنجليزي ، ولد عام ١٧٩٥ ومات شاباً عام ١٨٢١ .
 مات بالسل ، فلما أحس بالنهاية ذهب إلى نابل فروما ومات ودفن هناك . قال عن أسابعه
 الأخيرة ، هذه ليست من حياتي ، ولكنهما بعد موتي » . أى أنه فقد الحياة حياً - .

(٢) هؤلاء أربعة من الفلاسفة: أما أكويناس ، فيإيطالى وراهب ودارس وفيلسوف ،
 ولد عام ١٢٥٥ ومات عام ١٢٧٤ . وأما اشبينوزا فهو الفيلسوف الهولندى ، ولد عام
 ١٦٣٢ ومات عام ١٦٧٧ . طرد من الكنيسة فخاف العيش في أمستردام ، فرحل إلى لاهاي
 وفيها تعلم نحت الزجاج وصناعة العدسات . وما كسب عاش . أما لوك فهو الفيلسوف
 الإنجليزي ، ولد عام ١٦٣٢ ، ومات عام ١٧٠٤ . ثم « كنت » وهو الفيلسوف الألماني
 الكبير ، ولد عام ١٧٢٤ ومات عام ١٨٠٤ . وقد تأثر كل من جاء بعده من الفلاسفة بفلسفته .

قليلة من صنوف العرفان على سائر فئاته . ولا أريد أن أتخذ من تقدم حدث في فرع من فروع المعرفة سبباً في تشريفه وتمجيده . فأنا على التمييز من ذلك أرى أن صنوفاً من العرفان لا تدخل في معنى العرفان المتراكم بناء على تعريف قدمته لهذه العبارة ، لها من الوزن عن التقدير ما ترجح رجحاناً كبيراً سائر الصنوف لخطورة لها في حياتنا نحن معشر بني الناس . وأود لو أزيد في إيضاح هذا المعنى ، ولكن أخشى الخروج عما نحن فيه . ولكن بحسبي أن أسأل سؤالين . كم مرة في حياتنا اليومية ندخل الخطير من نتائج العلم في الخطير من أحكامنا ، فنغير من هذا وفقاً لهذا ؟ وكم مرة في حياتنا اليومية تتأثر هذه الأحكام أو لا تتأثر بما استوعبناه ، واعين أو غير واعين ، من شعر أو فلسفة ؟ إن الدكتاتور إذا ما أراد أن يغير من آراء أمة تقرأ وتكتب ، جاز له أن يترك أهل العلم وما هم بسبيله من علم ، أما أهل الفلسفة وأهل الفن وحملة الأقلام فلا بد له من كسبهم أو تحطيمهم . خطتان هو لا بد راكب إحداهما .

التقدم في الشؤون العرفانية والأمور العملية

والآن فلنعد إلى « العرفان المتراكم » . إننا إذا أردنا أن ندخل إلى حظيرة العرفان المتراكم صنوف المعرفة التي أصابها التقدم ، ولا ندخل صنوفاً أخرى للذى أعوزها من ذلك ، وجب علينا أن ندخل إليها قدراً هائلاً من العرفان العملي إلى جانب العرفان النظري . إن لفظ التقدم ، فيما

يختص بالمناسط الإنسانية ، يثير في ذهن الرجل غير الأكاديمي ، لا قوانين الحركة الثلاثة التي قررها «نيوتن» ، ولا نظرية الكم ، نظرية «الكوانتم أو القنظام» (Quantum) ، ولا معادلة «أينشتين»^(١) ، وإنما يثير صوراً مما خلق العصر من عقاير واستحدث من سيارات وراديو وأجهزة استقبال . إن الفرق بين التحسين يصيب الفنون العملية وبين التقدم يصيب العلم أمر سنعالجه مراراً وتكراراً في هذا الكتاب ، والفرق بين الكشف العلمي والاختراع قد يكون طفيفاً في قليل من الحالات ، ولكن الناس تخلط بين تاريخ الفنون العملية وتاريخ العلم وتطوره ، فتسبب بذلك سوء فهم للعلم كثير . إن الفرق بين التقدم البنى يقع في الحيل الميكانيكية أو العمليات الكيماوية (كاستخراج المعادن وصناعة الصابون) والتقدم البنى يقع في العلم ، سيكون موضوع معالجتنا في شيء من إسهاب في صفحات قادمة . أما في علوم الحياة ، فالذى يتصل بالتقدم العلمى فيها ليس الصناعة ، ولكن الزراعة والتجارة من جانب ، والطب من جانب آخر . إن الفنون العملية ظلت تتقدم العلوم زماناً طويلاً ، ولم يحدث إلا في السنوات الحديثة جداً أن الكشوف العلمية أثرت في الفنون أكثر من

(١) هو العالم الرياضى الفزيائى العظيم ، صاحب نظرية النسبية . ولد في ألمانيا عام ١٨٧٩ ، من والدين إسرائيليين ، وتعلم في ميونخ وميلان وزوريخ . وفي هذه الأخيرة - شغل مناصب للأستاذية في جامعتها التكنولوجية الشهيرة إلى عام ١٩١٤ . وفي هذا العام دعى إلى برلين ليكون رئيس معهد القيصر وهلم للفزياء . وفي عام ١٩٢١ نال جائزة نوبل ، وفي عام ١٩٢٥ نال مدالية الجمعية الملكية بلندن . وبعجى هتلر إلى ألمانيا قبل رئاسة المدرسة الرياضية في معهد الدراسات العالية بجامعة برنستن بالولايات المتحدة ، وعينوه رئيساً طول حياته . وهو هناك حتى يعمل إلى اليوم .

تأثير الفنون في العلوم . كان الأستاذ «ل . ج . هندرسن» كثيراً ما يقول إنه ، فيما قبل عام ١٨٥٠ ، صنعت الآلة البخارية للعلم أكثر مما صنع العلم للآلة البخارية . وليس هناك بالطبع من شك في أن المعارف جمعت منذ فجر التاريخ ، وبوبت ، وهضمت هضماً لخدمة الأغراض العملية ولكن ليس في دراسة تاريخ هذه المعارف ، وتاريخ تطورها ما يفيدنا في دراسة العلم ، كيف اعترك وكيف تطور . ذلك لأنها لا تكون جزءاً من العلم ، بصرف النظر عن أنه لولاها ما كان علم . وعلى مثال هذا يستطيع المرء أن يقول إن ما حدث في بعض الأمم من تقدم في فن الحكم ، وفي معاملة المجرمين ، وفي نشر التعليم ، وفي تقريب الفرض المتفاوتة بين الناس ، وفي سائر وجوه الإصلاح الاجتماعي ، كل هذا لا يعد جزءاً من العلوم الاجتماعية . إن أمثال هذه التطورات تنتسب إلى علم الإنسان بالقدر الذي تنتسب به التطورات الحادثة في العمليات الصناعية وفي وسائل النقل إلى العلوم الطبيعية (ولو أن الإجماع اليوم قل عما كان فيما يختص بالحاجة الماسة إلى بعض هذه التطورات الاجتماعية) . وإن صحت هذه المقارنة استطاع كل من يهتم بدراسة طرائق العلوم الاجتماعية أن يدرس كيف تنشأت العلوم الطبيعية والعلوم الحيوية مما عرف الزارع في حقله والصانع في ورشته وهو يؤدي واجب يومه . وسيجد في هذه الدراسة نفعاً يفيد ، في تلك . وسيجد نفعاً أخص في دراسة الطب الحديث كيف تنشأ من عادات للناس في الطب جروا عليها في الخولى من الأيام .

ولا بد أن القارئ قد فطن إلى أن التعريف الذي أوردته للعلم

لا يخرج الدراسات الخاصة بالإنسان . ومع هذا فليس في نيتي أن أوغل في مناقشة مسائل العلوم الاجتماعية ولا الطرق التي تتبع فيها . والصفحات القادمة خصصت كل التخصص تقريباً للعلوم الطبيعية وعلوم الحياة . ولكن فيما يتصل بالماضي (الباب العاشر) سوف أفرق بين العلم والتاريخ . فإن صحت هذه التفرقة ، فقد يجد القارئ فيها علاقة بتلك الدراسات التي وضعوها عند جدولة فروع العرفان تحت العنوان المعروف بالعلوم الاجتماعية لحاجة قضى بها هذا التقسيم . إن العرفان الإنساني المتراكم يمكن تقسيمه وتبويبه وجدولته بأكثر من طريقة ، وقد يتراءى لي أن التاريخ ، كالرياضيات ، يجب أن يحتل في هذا التقسيم باباً وحده . ومع هذا فكل تقسيم لن يخلو من شيء من إيهام . خذ مثلاً علم النفس فهذا العلم يعده الناس بين علوم الحياة ويعدونه أيضاً بين العلوم الاجتماعية . وعلم الإنسان والأجناس anthropology يمكن نسبته إلى علوم الحياة ونسبته إلى علوم الاجتماع . فمن حيث إن دراسة الإنسان تشبه من بعض الوجوه دراسة سائر الحيوان ، يصبح علم الإنسان علماً يتقبل نفس طرائق علوم الحياة لدراسته واستكناها . ومن حيث إن دراسة الإنسان اتضحت فيها وجوه للبحث جديدة ، تطلبت معاني جديدة ، وطرائق للبحث جديدة ، خرج عنها علوم جديدة كعلم النفس الاجتماعي ، وكعلم الإنسان الاجتماعي ، وكعلم الاجتماع ، فقد صار لعلم الإنسان وجهة اجتماعية لا شك فيها ، وصار لهذه العلوم استقلال ذاتي لا شك فيه . وليس في الإمكان الآن الحكم في مقدار ما بين طرائق اتبعت في دراسة هذه العلوم ، والطرائق المعروفة المتبعة في دراسة العلوم الطبيعية ،

من تشابه ، فهذا أمر لا يزال معلقاً ، وسأعود إليه في الباب الأخير من هذا الكتاب . وسوف أقول بقول القائلين بضرورة دراسة الإنسان بحسبانه حيواناً اجتماعياً . ونحن الذين نقول بهذه الضرورة ، ولنا أمل عظيم في تقدم هذا العلم ، نعتقد أن بين طرائق دراسة هذا العلم ، علم الإنسان ، وطرائق العلوم الطبيعية تشابه لا بد من اعتباره . فإن صح هذا ، فكل ما نتحدث عنه في هذا الكتاب ، وهو لا يتعلق إلا بعلم الكيمياء ، وعلم الطبيعة وعلوم الحياة ، سوف لا يخلو من فائدة للرجال البحاث الذي يهدفون إلى زيادة فهم الإنسان وفهم ما يخلق من مجتمعات .

الباب الثالث

المنهج العلمى المزعوم

ومن محاولة تعريف العلم ننتقل الآن إلى موضوع ليس أقل منه خلافاً ، ذلك المنهج العلمى . إن الذين يفضلون استخدام كلمة العلم لتشمل كل مناقش العرفان فى الدنيا يميلون إلى الإيمان بوجود منهج يسمونه المنهج العلمى . ومن هؤلاء فئة قليلة تذهب إلى أبعد مما يذهبون ، فهم لا يؤمنون بوجود منهج علمى فحسب ، بل يزيدون فيرون أن بالإمكان تطبيقه فى ضروب كثيرة من الشئون العمليّة . مثال ذلك أن عالماً ممتازاً من علماء علم الحياة قال من وقت غير بعيد « إن الرجال والنساء الذين تمرسوا بالعلم وألقوا المنهج العلمى لا يلبثون إذا عرض لهم أمر أن يسألوا على التو عن الدليل » . وكان هذا العالم يشير ، لا إلى أمور العلم ، ولكن لكل المشاكل الهندى يصادفها الناس كل يوم فى المصنع وفى المكتب وفى اجتماع سياسى .

ورد الفعل عند سماع قول كهذا أن يسأل السامع الأستاذ الجليل من أين جاء بالدليل على هذا ؟ ولكن لعل هذا سؤال جدلى لا محل له . والمهم فى قول كهذا أنه يرينا أن فهماً للعلم فهمة «بيرسن» (Pearson) ، ونشره فى كتابه أجرومية العلم (The Grammar of Science) ^(١) لا يزال

(١) هو كارل بيرسن ، عالم الرياضه ، وعالم التناسليات ، الإنجليزى ، ولد

يحتل من عقائد الناس موضعاً . ففي طول هذا الكتاب يتحدث بيرسن عن العلم بحسبانه أنه تقسيم حقائق وتبويبها . وهو في ملخص الباب الأول من كتابه يقول : « إن المنهج العلمى يتميز بالأمور الآتية :

(١) تقسيم الحقائق فى دقة وحذر وملاحظة العلاقات التى بينها وتداعياها .

(ب) اكتشاف القوانين العلمية بمعونة ما فى الإنسان من خيال خالق .

(ح) نقد النفس وإجازة صحة ما تجيزه العقول السليمة على السواء .
ولن يجد المرء ما يجادل فيه فيما يختص بالفقرتين ب ، ح ، فليس فيهما الكفاية من التفاصيل التى تبعث على الجدل . ولكنى أخالفه كل المخالفة فيما جاء بالفقرة (ا) . إنها وجهة النظر الغالبة فى كتابه ذلك . ويخيل إلى أن من يقرأ هذا الكتاب الشهير ممن لم يكن له خبرة بالبحث العلمى ، أو كانت له خبرة قليلة ، سوف يخرج من بعد قراءته بفكرة عن طرائق العلم خاطئة .

إن العلم لو كان من السهولة بحيث وصف هذا الكتاب الممتع ، فكيف حدث أن العلماء تخبطوا طويلا قبل أن يتبينوا مسائل من مسائل العلم لها من الوضوح والألفة نصيب كبير . إن العمل العظيم الذى قام به « نيوتن » (Newton) اكتمل فى ختام القرن السابع عشر . والمثقفون فى فرنسا وفى إنجالترا تحدثوا فى العقد الأول من القرن الثامن عشر عن

عام ١٨٥٧ ومات عام ١٩٣٦ . وله مؤلفات كثيرة . وكتابه المذكور هنا نشر لأول مرة عام ١٨٩٩ ، ثم نشر عام ١٩٠٠ وعام ١٩١١ .

المجموعة الشمسية في لغة أقرب ما تكون إلى لغة تدرس بها هذه المجموعة في المدارس في أيامنا هذه. وقوانين الحركة وتطبيقها في الميكانيكيات كانت شائعة عند ذلك مفهومة. وكان المنتظر بعد هذا ، أن ظاهرة عادية مألوفة ، كظاهرة الاحتراق ، تصاغ صياغة واضحة نسبياً بمجرد أن يتوجه بالبحث إليها العلماء ويتفرغوا. ولكن الذي حدث أن عمل الأكسجين في الاحتراق لم يتوضح إلا في أواخر العقد الذي بدأ به عام ١٧٧٠. ومسألة شبيهة بهذه ، هي مسألة انبعاث الحياة من ذات نفسها ، فكرة التولد الذاتي ، ظلت تنتظر إيضاحاً إلى عام ١٨٧٠. ومسألة ثالثة ، هي مسألة النشوء. «فدارون» (Darwin)^(١) أقنع نفسه بنظريته ، ثم أقنع العلماء ، وأخيراً أقنع الجمهور المثقف. وأقنعهم بسبب ما ابتدع من نظرية تصف كيف حدث ، أو يمكن أن يكون حدث ، ويحدث هذا النشوء. واليوم نجد أسس هذه النظرية ، نظرية النشوء ، فيما يختص بالنباتات الأرقى والحيوانات ، قائمة تكاد لا تجد من يرتاب فيها. ومع

(١) هو شارلس روبرت دارون ، عالم الأحياء الإنجليزي ، صاحب نظرية النشوء الشهيرة. ولد عام ١٨٠٩. كان أبوه طبيباً وجمده طبيباً. وتعلم في جامعة أدنبره وجامعة كبرج. اهتم بالتاريخ الطبيعي من صغره. وخرجت السفينة الشهيرة «بيجل» إلى رحلتها العلمية عام ١٨٣١ وعادت عام ١٨٣٦ بعد أن لفت حول المعمورة ، وعليها دارون خبيراً للأحياء. وعاد بذخيرة عامية كبيرة ، كانت مصدراً لكثير من كتاباته. وتزوج عام ١٨٣٩ وعاش من بعد ذلك في الريف عيشة العمدة الريفية وقضى وقته في. الدرس وفي عام ١٨٥٩ نشر كتابه الشهير «أصل الأجناس» ، فقلب به علم الأحياء رأساً على عقب. ودافع اسمه في العالم العلمي. وفي هذا الكتاب عرض كامل للنشوء مطبقاً كاملاً لأول مرة في النباتات والحيوانات. وأخذ يكتب ويؤلف إلى أن مات عام ١٨٨٢.

هذا فتخليه للنشوء كيف يحدث ويحدث قد تغير اليوم تغيراً يحمل المرء على أن يقول إن نظرية قديمة قد ذهبت وحل محلها شيء جديد .
ثم مسألة رابعة ، مسألة الحياة على هذه الأرض ، كيف نشأت ، مسألة لا تزال إلى اليوم غامضة كغموضها عند دارون وفي أيامه .

إن الذين يستخرجون معارفهم من الكتب الدراسية ، إذ يقرأونها ، لا يدركون ما صادف العلماء ، حتى أكبرهم ، في طريقهم من مضاعب ، في كل الأحقاب . كانت حياتهم جهاداً بين ملاحظات خاطئة ، وأحكام مطلقة مضللة ، وصيغ لتضمين المعاني والمبادئ غير كافية ، ومن فوق ذلك الزيغ والهوى يتلصص إلى الباحثين السابقين غير واعين . وهي حال ينساها المتحدثون الشارحون للمنهج العلمي المزعوم ، الذين استهوتهم البحوث التجريبية من وجهتها المنطقية لا وجهتها النفسانية الإنسانية . إن العلم ، كما سبق أن عرفته ، جزء من مجموع عرفان البشر المتراكم على الزمان . والبحوث التي جرت في هذا الميدان الأكبر ، من نظرية ومن عملية ، تجمعها عندنا سمة واحدة ، هي حس بالتقدم الذي كان ، وهي لا تكشف شيئاً عن مناشط الرجال الذين زادوا معارفنا وتقدموا بالزمان . والذي يقدم على صياغة شيء يسمى بالمنهج العلمي ، يجمع فيه عدة من قواعد ، وعدة من أساليب يزعم أنه جرى عليها هؤلاء الرجال فيما صنعوا ، من رياضيين إلى مؤرخين إلى علماء آثار إلى فقهاء لغة إلى علماء طبيعيين وآخرين حيويين ، إنما يغمض عينه عن حيوية كانت في هذه المناشط اختلفت باختلاف الحقل الذي كانت تعمل فيه . وحتى في حقل العلوم التجريبية ، ما أسرع ما يخدع المرء

عن نفسه فيُعجب إعجاباً بالذى يقرأ عن طرائق اتبعها الأولون السابقون من رجال هذا الحقل غالى الراون في تبسيطها غلوّاً كبيراً .

ولست غافلاً عن أنه من السهل أن يرمى أى تعريف للنشاط العلمى بأنه بالغ البساطة ، وأن هذا الرامى إذا هو حاول أن يجد خيراً من هذا التعريف واجهته صعاب . ولكن أمراً واحداً أحسب أن سيوافقنى فيه كل المؤرخين الحديثين للعلوم الطبيعة تقريباً ، معارضين بذلك «كارل بيرسن» (Karl Pearson) ، وذلك أنه لا يوجد شىء واحد يشار إليه وحده فيقال هذا هو المنهج العلمى ولا شىء سواه . إذ لو وجد هذا الشىء لكشفت عنه دراسة تاريخ الطبيعة والكيمياء وعلم الحياة التجريبي وهى العلوم التى إليها مردّ ما عند الناس من ثقة فيما يجريه العلماء ، وفيما يتبعون من أساليب . ولكن هذه العلوم لم تكشف . إنها لم تكشف طريقة يقال إنها واحدة وحيدة ، كشف بها الرجال شيئاً جديداً .

مولد العلم التجريبي فى القرن السابع عشر

إنى أنظر فى تاريخ العلم ، وأنظر فى ذلك النشاط الذى تفجر بغتة فى القرن السابع عشر ، وأسماه رجال ذلك العهد بالفلسفة الجديدة ، وأسماه الفلسفة التجريبية ، فأرد إلى أصول ثلاثة مجتمعة ، إلى تيارات ثلاثة من تيارات الفكر والعمل . وقد أسمى الأول التفكير الاستطلاعى

التظني (Speculative) (١) ، وأسمى الثاني بالاستدلال الاستنتاجي (deductive reasoning) ، وأسمى الثالث بالتجريب فيما اتفق ، وبغير تدبير ولا تخطيط . التجريب الاعتباطي الفطري . أما التيار الأول والثاني فيتمثلان في ما كتبه وخلفه أهل المعرفة في العصور الوسطى . ففي هذه العصور ، من القرن الحادى عشر إلى القرن السابع عشر ، اشتغل أستاذ القانون والدين ، ومدرس الرياضة والمنطق ، اشتغلوا جميعاً بإيجاد طرق رشيدة لتنظيم بها أفكار العقل عامة ، وبتنشئة الفن المنطقى ، وهم باشتغالهم هذا قد وسعوا بعض السعة آراء الإغريق القدماء في فلسفة أو رياضة ، ووضعوا أسس علم الميكانيكا ، وهو من بين فروع علم الطبيعة الأول الذى لبس لباساً عصرياً .

والاستدلال الاستنتاجي (deductive reasoning) يتوضح فيما نذكره مما تعلمناه من الهندسة السطحية في المدارس ونحن صغار . ففي هذا العلم نعطى بديهيات أو فروضاً ، ومنها نستخرج بالمنطق نتائج في الهندسة كثيرة . وكما في الهندسة فكذلك الحال في أفكار أخرى ، استطاعية تظنية ليس بها هذا القدر من الضبط والربط كالذى في الأفكار الهندسية ، وهذه الأفكار استطاعية التظنية تعالج بالاستدلال الاستنتاجي ، بنفس عمليات المنطق هذه ، إلا أنه كثيراً ما يعوزها الدقة التى تكون لها وهى تعمل في الرياضيات . ولكن المهم أن نلاحظ ، أننا في استدلالنا في النطاق الهندسى ، أو في نطاق الأفكار

(١) هو أول ما تتخيل عن أسباب ما ترى من الظواهر .

الاستطلاعية التطنينية ، نستخدم عمليات عقلية يُعتقد أنها كافية نفسها بنفسها ، فلا نحتاج فيها إلى الرجوع إلى الحياة ، ننظر فيها ونلاحظ منها . إن أحداً لا يحس في نفسه وهو يركب في ذهنه نسقاً من أمثال هذه الآراء النظرية التطنينية ، الذي يذهب فيها المرء مع الخيال منذهبه ، أنه في حاجة إلى ملاحظة أشياء هذه الأرض الجالمة ليتم بناء هذا النسق .

إن الذي حدث في القرن السادس عشر هو انبثاق فلسفة جديدة ، فلسفة تجريبية جديدة ، دفع أهل الفكر ، وأهل الفراغ ، إليها شوق جديد طارئاً إلى النواحي العملية من الحياة ، وإلى تفهم ما يجري فيها ، من زراعة ، إلى طب ، إلى رفع ماء بمضخة معدن ، إلى عمل قنبلة لمُدفع وإنك لو اجدت تاريخ العلم ، في باكورتته ، مليئاً بالمثل الكثيرة التي فيها لا يكاد العالم أن يلاحظ شيئاً ، في فن من الفنون ، أو حرفة من الحرف ، حتى يقترح هذا عليه مسألة يراوده الفكر إلى حلها . وحل مسألة علمية كهذه أمر يختلف كل الاختلاف عما كان جرى إلى هذا العهد من تجريب بدائي اعتباطي قام به الزارع في حقله أو الصانع في مصنعه فيما يعرض من مسائل . إن العنصر الجديد الذي دخل على الفكر كان الاستدلال الاستنتاجي (deductive reasoning) واستخدامه فيما يعرض من أمور . وكثيراً ما شفَعوا هذا بكلية فكرية أو أكثر جاد بها الفكر النظري التطنيني لعصور أسبق . وانتقل هم الناس من الغرض القريب الذي يهدف إلى تهذيب آلة أو تحسين عملية إلى الغرض البعيد ، أعني فهم ما يتضمنه هذا من ظاهرة أو ظواهر . وأخذت الصور الذهنية المبتدعة

تنال من الخطر ما تناله الاختراعات المبتكرة . والتقى حذق الصانع ومهارة مبتكر الآلة بالمنطق الرياضي الذي كان سمة أهل العلم والعرفان في ذلك الزمان . ولكن كان لا بد من مضي أجيال حتى يمكن الجمع بين الاستدلال الاستنتاجي ، والتجريب العملي ، واستخدامهما معاً للبحث في كثير من الحقول التي تفتحت لهما من بعد ذلك .

الآراء الاستطلاعية التطنئية ، والفروض التمهيدية ، والمشروعات التصورية

عرفنا العلم في الباب السابق بأنه : مجموعات منسقة مترابطة من تصورات ذهنية (Concepts) ومشروعات تصورية (Conceptual Schemes) نشأت من التجربة ومن الملاحظة ، وهو يدفع صاحبه من تجربة إلى تجارب ، ومن ملاحظة إلى ملاحظات ، ولا يقف عند واحدة أبداً .
والمشروع التصوري عند صياغته في أول الأمر يمكن اعتباره فرضاً تمهيدياً كبيراً . ومع هذا فيمكن المرء أن يستنتج منه مستنتجات كثيرة يصلح كل منها ليكون أصلاً تخرج منه بالفكر والمنطق مستنتجات يمكن اختبارها بالتجربة . فإن كشفت التجربة عن صحتها في حالات كثيرة تجمعت بذلك الأدلة على صحة الفرض التمهيدى الكبير . ثم لا يلبث هذا الفرض بتراكم الأدلة على صحته أن يكون مشروعاً تصورياً جديداً . ثم يكون لهذا المشروع التصورى الجديد حياة تقصر أو تطول ،

وفقاً لما يستنتج منه الناس من مستنتجات تجوز الامتحان عند التجربة أولاً تجوز .

وفي إجراء التجربة التي تمتحن بها المستنتجات اتضح للعلماء ، كلما تقدم العلم ، أنه لا بد من إيضاح معان تجري على الألسنة في آراء الناس ، غير واضحة ، ولا بد من زيادتها إلى جانب الإيضاح دقة ، لا سيما فيما يتعلق بقياس الأشياء . وأوضحوا هذه المعاني غير الواضحة أو استبدلوا بها جديداً غيرها . فهذه هي التصورات أو الصور الذهنية الجديدة التي كثيراً ما يكون لها من الخطر مثل الذي للمشاريع التصورية الكبيرة العريضة . ولكم يحدث أن سؤالا تجريبياً بسيطاً ، ظهر بسيطاً لأول وهلة ، ثم تعذر أن يجاب عنه بنعم قاطعة أو بلا . والفرض التمهيدى العريض يظل من بعض هواجس الفكر إلى أن يربطه رابط بأنتجة التجارب فتقيم أوده ، فرضاً تمهيدياً ، أو مشروعاً تصورياً من بعد ذلك . إنه لا بد لفهم العلم من فهم العلاقة التي تكون أو هي كائنة بين الظنون الفكرية العريضة ، التي هي من بعض هواجس الفكر ، وبين ما يتخرج منها من مشاريع تصورية عريضة كبيرة . ولنوضح ما نغني بعرض خاطف للنظرية الندرية . فقد خال القدماء أن الوحدة التي تتألف منها المادة عندما تنقسم ، والتي يقف عندها التقسم ، هي الذرة . ولكن هذه الفكرة ، إذا عبر عنها هكذا إجمالاً ، لا يمكن اعتبارها إلا هاجسة من هواجس الفكر ، وخاطرة من خواطره ، وظننا من ظنونه ، ولا يمكنها أن تدخل العلم فتكون خيطاً من نسيجه إلا إذا هي صارت أساساً لفرض عام عريض يصاغ صياغة تأذن بالعمل به من بعد ذلك ،

فيمكن منه استنتاج أشياء ، تنصاع للتجربة ، فإما أن يتحقق صحتها ، وإما أن يتحقق خطؤها . وهذه الهاجسة ، وهذه الخاطرة ، وهذا الظن الخاص بالذرة ، لم يرق إلى أن يكون مشروعاً تصورياً ، أو فرضاً تمهيدياً أو نظرية ، إلا من بعد أن كشف «دالتن» (Dalton) ^(١) ، في نحو عام ١٨٠٠ ، عن قيمته في تفسير نتائج التجارب الكمية التي بدأها من قبله رجال الثورة الكيماوية ، وهذا مثل للفرض التمهيدي تترأى أصوله واضحة من خلال التاريخ ، ولكن كثيراً من هذه الفروض والنظريات تتعمى أصولها فلا يدري الإنسان كيف جاءت الرأس الذي ابتدعها .

وأعظم الفروض التمهيديّة الكبرى التي جاء بها التاريخ نشأت في رؤوس رجال أولين سابقين سابقين نتيجة لعملية ذهنية نعب عنها أحياناً ، بأنها « مسة من عبقرية » أو « خاطرة ملهمة » أو « ومضة من خيال باهر » وقلما يتبين فيها الناظر أنها كانت نتيجة تمحيص للنتائج كلها أو تحليل منطقي لها أو محاولة منظمة لصياغتها صياغة أدت إلى ما انتهى إليه صاحبها . ولقد فاتت هذه الحقيقة ، أكثر الفوت ، «بيرسن» (Pearson) ، وكثيراً من الذين كتبوا عن المنهج العلمي في القرن التاسع عشر . فلقد شاقهم تصنيف الحقائق التي وقعوا عليها ، واستخراج القضايا الكلية

(١) هو جون دالتن ، الكيماوي الإنجليزي . ولد عام ١٧٦٦ ومات عام ١٨٤٤ . اشتغل بتدريس الرياضة ١٢ عاماً بمدينة كندال بشمال إنجلترا ، ثم انتقل أستاذاً للرياضة بالكلية الجديدة بمنشستر . وبقى في منشستر وأخذ ينشر مقالاته العلمية من عام لعام . وفي عام ١٨٠٨ أعلن نظريته الكيماوية المعروفة تحت عنوان « نظام جديد في الفلسفة الكيماوية » ، فذاع اسمه في أوروبا بسببها .

منها ، حتى عدّوا أن هذا ، وهذا وحده ، هو كل ما في العلم . واليوم
انقلب الأمر إلى نقيضه ، وعاد البندول يطلب أقصى مداه يميناً بعد أن
نال أقصى مداه يساراً ، وأخذ الكتاب ، بعضهم ، يتركزون على الأفكار
الضرفة يستخرجونها ويداورونها ويحاولونها ، أى يتركزون على العلم النظرى .
وكالاتجاهين ، وكلا الطرفين ، من يهتم بالحقائق وتصنيفها ، ومن يتركز
على الأفكار الخالصة الجديدة واستخراجها ، ينال من خطر التجربة في
العلم ويخط من قدرها . وهذا حال فى رأى يخرج بالعلم عن مجراه التاريخى
وأسوأ من هذا أنه يخلط الأمر على الرجل غير العالم الذى يهتم بالعلم وبالذى
يحيطه من العلم ومن مناشطة . ومن أجل هذا ، ومن أجل هوى قوى فى
نفسى ، ترانى فى هذا النقاش ، أوكد ثم أوكد ما بين التجارب والنظريات
وبين النظريات والتجارب ، من علائق .

التجريب

سبق أن ذكرنا أن عناصر العلم ثلاثة ، تفكير استطلاعى تظنى ،
واستدلال استنتاجى ، ثم تجريب عملى .
وقد ناقشنا بصفة عامة كيف تنشأ الفروض التمهيدية الكبيرة العريضة
وكيف تنشأ من هذه استنتاجات يمكن بالتجربة إثباتها أو نقضها .
ولا بد قد فهم مما قلناه أن التجريب بحسبانه فناً ، سبق العلم فى
الوجود ، ذلك العلم الحديث الذى انبعث ابتداءً فى القرن السابع عشر . فإن
صح هذا ، فهذه أول صلة تصل العلم بخبرة السواد من الناس . وقد يكون

من المفيد الآن أن أتوخي تحليلاً مفصلاً للتجريب الذى يجرى بين سواد الناس كل يوم . لأنى أأمل من ذلك أن أرى القارئ أن الإنسان فى تجريبه من كل نوع ، يبتدىء بأبسط صور هذا التجريب ، ذلك التجريبُ فى حياته اليومية ، ثم هو يتدرج من ذلك درجاتٍ متصلات إلى أن يصل آخر الأمر إلى التجريب العلمى الدقيق . فالتجريبان أصلهما واحد ، ولكنهما مختلفان . إنهما طرفان لشيء واحد ، ولكن ما أكثر ما اختلفا . ولفهم العلم حق فهمه يجب أن نفهم حق الفهم كيف تختلف التجربة العادية اليومية لفرد من سواد الناس ، عن التجربة العلمية يؤديها فرد عالم .

إنى لا أشك أن القارئ قد صادف فى حياته تعريفات عدة يُعرّف بها أصحابها ما يفهمونه من معنى المنهج المزعوم . ولقد قرأت أنا كذلك شيئاً من هذا ، وإنى هنا أسوق مما قرأت وصفاً للمنهج العلمى أحسبه صادقاً فى أكثر الحالات (لا فى كلها) . وعند صاحبه أن المنهج العلمى يتألف من ستة أشياء ، من ست خطوات :

- ١ - يصادف الرجل مشكلة يتعرف بها ويحدد أغراضه فيها .
- ٢ - يجمع كل الحقائق المتصلة بموضوعها (وكم فى معنى هذا «الاتصال بالموضوع» مزلفة لصاحبه) .
- ٣ - ثم هو يصوغ فرضاً مؤقتاً تمهيدياً يكون أساساً للعمل .
- ٤ - يستخرج من هذا الفرض استنتاجات لو صحت صحح الفرض الذى خرجت منه .
- ٥ - يكشف عن صحة هذه الاستنتاجات بالتجربة الفعلية .

٦ - وبناء على ما تخرجه التجربة يقبل الفرض أو يعدله أو يرفضه .
 وإن صح أن هذا هو كل ما هنالك عن العلم ، إذاً لحاز للمرء أن
 يوافق على ما قاله أحد الأحياء ممن يؤمنون بالمنهج العلمي حيث يقول
 « إن العلم ، بحسبانه منهجاً ، يبدأ بعرض أسئلة واضحة ، تقبل الجواب ،
 يكون القصد منها توجيه ما يجربه الإنسان من ملاحظات أو تجارب .
 ثم هو يجربها في هدوء ، وفي حيدة . ثم هو يقرر عما صنع تقريراً يبذل
 فيه كل ما يستطيع من دقة ، ويكتبه بصيغه تجعل منه جواباً لتلك
 الأسئلة الأولى . ثم بعد ذلك تستعرض الفروض التي كانت قائمة قبل
 إجراء هذه التجارب أو الملاحظات ، فتلغى أو تعدل في ظل هذه
 النتائج » .

أن الفرد منا إذا نظر إلى ما يصنع في الحياة إذا ما صادفته مشكلة
 طائرة ، (مثل سيارة له أبي محركها أن يتحرك) فإنه واجد فيما اقتبسنا
 من قول صاحبنا العالم وصفاً لما يفعل هو لقاء هذه المشكلة الطائرة وما فعل
 لقاء أمثالها . كذلك لو أننا عرضنا أمر هذا المنهج العلمي على نفر من
 الشباب الفطن ، كما عرضه صاحبنا العالم ، إذاً لقال قائلهم : « وماذا في
 هذا المنهج من جديد . إنه منهجنا طول الحياة ، وإن كان هذا هو المنهج
 العلمي ، فنحن كنا إذاً علماء طوال الحياة ونحن لا ندري » . وهذا قول
 أشبه بقول أحد أشخاص الرواية الكوميديّة لموليير Molière ، حين عرف
 ما النثر بعد جهل . قال : إذاً أنا كنت أقول النثر طول حياتي ولا أدري !

امتحان الاستنتاجات بالتجريب

ولكن هل معنى هذا إذاً أنه لا فرق في منهج يسلكه العالم في حل مسأله ، ومنهج يسلكه الرجل العادى في حل مسائل العيش ؟ للإجابة على هذا لا بد لنا من مثلين أحدهما نقتبسه من العلم ، والآخر من مجارى العيش ، ثم ن فصلهما تفصيلاً . ونقارن بينهما ، فيكون الجواب الذى نبتغيه . أن أسلوب العمل الذى تنشأت عليه الحرف والفنون العملية على مر العصور إنما كان ، أساساً ، اختباراً ، يمارسه الناس ، ينبجج أو يفشل ، ومن الفشل يتعلم صاحبه تصحيح أخطائه . وهذا الأسلوب معروف فينا ، مألوف إلى يومنا هذا . وقد نسميه اختباراً . ولتمثل لذلك بمثل صغير غير خطير ، رجل جاء بابا فوجد مغلقتاً ، ووجد على الأرض إلى جانبه حلقة مفاتيح . فأخذ يختبر ومقصده فتح الباب . ويبدأ بمفتاح وهو يقول لنفسه إن هذا المفتاح إذا دار فى القفل فسوف أدرك إن كان هذا مفتاح هذا الباب أو لم يكنه . سوف أدرك صحة الفرض ، أن هذا المفتاح مفتاح هذا القفل ، أو بطلانه . فقوله « إذا » ، يردفها « سوف » نمط من أنماط الفكر الذى يأتية الرجل منا معاداً مكرراً فى كل يوم من حياته . والفرض الذى يتضمنه هذا المثل فرض محدود السعة من حيث إنه يتصل بحالة واحدة ، هى حالة المفتاح الواحد الذى هو قائم بتجربته . لهذا لزم أن نسمى هذا الفرض فرضاً تمهيدياً محدوداً

(Limited Working Hypothesis)

ولنتقل من هذا المثل العادى الصغير إلى مثل من التجريب العلمى .
ولنأخذ بالنظر فى الدور الذى يلعبه الفرض التمهيدى المحدود فى امتحان
فكرة علمية بمعمل . ذلك لأنك لو جمعت كل الكتاب الذى كتبوا
عن المنهج العلمى ، واختلفوا فيه اختلافاً كبيراً ، إذا لأجمعوا على أن
اختبار صحة استنتاج مستخرج من فرض واسع (ومن الناس من يسميه
نظرية) هو على الأقل من بعض العلم .

إننا فى الباب التالى سندرس فى شىء من التفصيل بضع أمثلة من
مثل هذا الإجراء . ولكن بحسبنا الآن أن نسبق هذا الدرس ، أن نسبق
قصة الضغط الجوى التى سوف تدرس بالتفصيل ، بالتركز على تجربة
واحدة منها . ولا يهمنا أى تجربة نختار ، لأن الذى نريد أن نركز
عليه منها إنما هو الخطوة الأخيرة منها ، تلك التى تتصل بالنتائج التى
تخرج وما نصنع بها .

لنفرض أن رجلاً قام إلى الفرض العام ، الذى يقول بأننا نعيش
فى بحر من الهواء هو الذى يسبب الضغط ، يريد أن يصله بتجربة
خاصة لها جهاز خاص . ولنفرص أن لهذا الجهاز حنفية ، بإدارتها
تختتم التجربة . وهو يقول لنفسه عند إدارة هذه الحنفية « إذا صح تفكيرى
وصحت خطى ، فأنا عند فتحى الحنفية فسوف يحدث كذا وكذا » .
وهو يفتح الحنفية بعد ذلك ، ويسجل ما يرى . وعندئذ يستطيع أن
يقول هل حققت هذه التجربة فرضه أم نفتته . ولكننا إذا تروينا فى الأمر ،
وتوخينا الدقة فى القول ، لوجدنا أن الذى تحقق أو انتفى ، بفتح الحنفية ،
ليس الفرض العام الواسع ، وإنما هو فرض خاص ضيق . وهذا الفرض

الضيق الخاص يمكن صياغته بقول صاحبه « إذا أنا فتحت الخنفيه ،
 إذاً لحدث كذا أو كذا ». وتحقيق هذا الفرض الضيق ، الزائد الضيق ،
 لا يكون إلا بتكرار التجربة وبخروجها إلى نفس النتيجة ، والفرض
 عندئذ يعتبر حقيقة تجريبية . والنتيجة التي تخرج من التجربة ترتبط
 عادة بالمسألة الأصلية بعمليات غاية في التعقد من فكر ومن عمل ،
 وهي بدورها تدخل في الموضوع تصورات ذهنية أخرى ومشاريع تصورية
 أخرى . إن النظر في هذه العمليات المعقدة سيكون من بعض دراستنا
 لما نورد في الأبواب القادمة من أمثلة « للعلم في تنشئه » . والشئ الذي
 أود تأكيده هنا هو وجود سلسلة معقدة من التفكير بين النتائج التي
 يستخرجها المستخرج من الفرض العلمى العريض العام ، وبين ما يخرج من
 التجربة من نتائج . وسوف نرى مرّة من بعد مرّة ، كم من افتراضات
 نفترضها ، وواعين وغير واعين ، تدخل هذه السلسلة المعقدة من التفكير .
 وليأذن لى القارئ الآن أن أنتقل فجاءة من رجل العلم وتجربته ،
 إلى رب البيت فى جراحه أو ربة البيت فى مطبخها ، أو هاوى اللاسلكى
 وهو يلهو بجهاز استقباله . فالسيارة إذا حركناها فلم تتحرك ، فقد عرضت
 لنا منها مشكلة ندور لحلها على احتمالات كثيرة تأتي من بعض ما تعلمنا
 عن السيارات عامة ومن حالة هذه السيارة خاصة . ونبتدع لإخفاق
 تحركها سبباً . نبتدع له على الأقل فرضاً نبني عليه عملاً . كأن نفرض
 أن خزان البنزين قد فرغ . ونبداً نجرى تجربة تكشف لنا عن صحة الفرض
 بناته . فإن صح فقد اهتدينا إلى ما طلبنا وسرنا على مقتضاه . (وعلى هذا
 فكم مرة ضللنا بسبب هذا ، بأن كان لتوقف السيارة أكثر من سبب

واحد . فلعل خزان البنزين فرغ ، ولكن كذلك فرغت البطارية الكهربية . ولنفترض أن هذا الفرض البسيط هदानا إلى أن نجرب إدارة محمول أو ربط أسلاك بعد محاولات أخرى شتية سبقت . ويقول صاحب التجربة لنفسه « والآن ، في آخر الأمر ، سوف أدير المحول (أو أربط الأسلاك) ، وسوف يجرى محرك السيارة عند إدارته . ويدير المحرك فيدور المحرك (أو لا يدور) . والخلاصة أن الذي ثبت أو لم يثبت إنما هو فرض صغير محدود لا يكاد المرء أن يفرق بينه وبين ذلك الفرض الصغير المحدود الآخر الذي قام بتحقيقه رجل العلم على ما سبق أن وصفنا . فهكذا العلم ، والتعقل العام المشترك بين الناس ، يلتقيان . ولكن لاحظ أنهما إنما يلتقيان في آخر المطاف . في صياغة آخر عملية من عمليات الفكر . أما إذا نحن سرنا القهقري من هذه العملية الفكرية النهائية إلى ما سبقها من عمليات ، فسوف تظهر بينهما فروق واضحة ، هي فروق في الأهداف ، وفيما ينشأ من فروض جانبية ، ومن افتراضات أخرى .

أهداف التجريب العلمي وافتراضاته

أما من حيث الأغراض ، فأنت مثلا تريد أن تحرك محرك السيارة إذا توقفت السيارة وامتنع محركها عن السير . أو لعلك تريد جهازك اللاسلكي ، جهاز استقبالك ، أن يعمل . إنك تهدف إلى غاية عملية . وصاحب التجربة العلمية يريد أن يمتحن صحة استنتاج أخرجه من مشروع

تصورى (من نظرية) . فهذان لا شك هدفان مختلفان .

ولكننا لا نقف بالترفة بين تجربة العلم ، والاختبار الفطرى ،
 مما يصنع الناس ، فى حياتهم اليومية ، عند هذا الحد ، عند هذا الفرق
 مهما كان كبيراً . فالمشروع التصورى عند العالم ، نظرية العالم ، تُختبر
 بالتجربة التى أجراها العالم وهى مع ذلك التى أولدت التجربة التى بها تختبر .
 وهذا يعود بنا إلى تعريفنا العلم ، وتوكيدنا فى هذا التعريف ما يخرج
 مشروع تصورى جديد من ثمرات جدد ، هى التجارب العلمية . إن
 أهل الحرف الذين قاموا على مر القرون بإحسان الفنون العملية ، جروا
 على مثل ما أجرى أنا وتجربى أنت عليه اليوم عندما يلتقى كالانا مشكلة
 عملية فى حياتنا الحارية . فههدف الصناع أو الزارع كان هدفاً عملياً ، والحافر
 له على بلوغه كان عملياً كذلك ، ولو أن الهدف كان بحق أعم وأوسع
 من هدف الرجل إذ يسعى لتحريك محرك سيارة . والعمال فى العصور
 المتوسطة جربوا ، وأحياناً خلقت تجاربهم أثراً فى فنهم باقى ، ذلك لأن
 أقرانهم اقتبسوا ما أنتجوا من ذلك وضمّنوه فناً لا يزال على الأيام ناشئاً .
 ولكن هذا العامل ندر أن اهتم باختبار ما قد ينتج عن فكرة عامة من
 نتائج . والفكرة العامة والتفكير المنطقى لم يكونا من شأنه ، ولكن من شأن
 أهل الثقافة والعرفان . واستخراج النتائج من المشاريع التصورية ، من
 النظريات ، كان وجهاً من وجوه النشاط التى عرفها الرياضيون والفلاسفة
 فى القرون المتوسطة ، ولم يعرفها عمالها . إنا فى البابين التالين سنأتى بأمثلة
 ترينا كيف التقى الصنفان من النشاط ، نشاط المناطق ونشاط العمال ،
 فى القرن السادس عشر والقرن السابع عشر .

وفرق آخر بين رجل الحرفة المحترف ورجل العلم المحرب ، أن أسلوب رجل الحرفة في عمله كأسلوب ربة البيت في مطبخها . إن كل تجربة جديدة في المطبخ تهدف كما قدمنا إلى غاية عملية عاجلة ، ولكن فوق هذا ، ليس لما يسترجعه ويستذكره المحترف ، أو ربة الدار الطباخة ، مما تعلم من الحقائق الماضية التي تعين على حل المشكلة الحاضرة ، من علاقة ذات بال بأفكار عامة أو نظريات . وإلى القرن التاسع عشر ظل الرجل العملي لا يأبه بالذي تجمع عند العلماء إلا قليلاً . أما في القرن السابع عشر والثامن عشر فضى الاثنان ، الفن العملي والعلم ، في سبيلهما لا يلتقيان أصلاً . وقد نقول إن التجريب في الفنون العملية وفي المطابخ مبنى كله على الخبرة ، ونعنى بذلك أنه بعيد عن أى معنى نظرى . ولكن بما أن النقلة من فن الناس الفطرى إلى العلم إنما هي نقلة تدريجية متصلة ، يصبح من المتعذر استبعاد كل معنى نظرى من الفنون العملية استبعاداً جازماً صارماً دائماً .

وقد يقول القائل في تعزيز هذا إن العامل المحترف كان إنما يعمل فيما يعمل بناء على تصورات ذهنية ومشاريع تصورية هي مسلم بها عنده ، وكذلك أنا وأنت فيما نلتقى من مسائل الحياة ، وإن هذه التصورات الذهنية والمشاريع التصورية ثروة على المشاع عامة ، يشترك فيها السابقون من الناس واللاحقون ، ويشترك الأحفاد والأجداد ، وإنها لا تختلف في أصولها عن تصورات ذهنية ومشاريع تصورية « أثبتها » العلم إثباتاً قاطعاً .

وأنا أومن بالذى يقول هذا القائل ، ولكن كإيماني بأن أشعة الطيف

دون الحمراء لا تختلف في الأصل عن الأشعة السينية ، كلاهما نوع من أنواع الطاقة التي تشع ، ولكن لا يستبدل أحدهما بالآخر استبدالاً محسوساً نافعاً . كذلك الأفكار التي تدور في رؤوس السواد من الناس تختلف في أكثر من وجه عن الجزء المجرد من العلم . إنه في المائتين من السنين الماضية دخل الكثير من العلم إلى رؤوس السواد من الناس ، واختلط بتفكيرهم حتى صار جزءاً مما عنه يصدر . ومع هذا فللكل جيل ولكل فئة من الفئات الثقافية في الناس ، حاضرين وذاهبين ، منظار ينظرون به إلى الوجود . ولو أن علماء الإنسان والأجناس ، وعلماء تاريخ الثقافات ، جمعوا صوراً تصورها الناس عن الوجود ، لوجدوا بينها الكثير المشترك ، كما وجدوا بينها الكثير المقتري . فإن نحن وجدنا اليوم الرجل الحديث يسلم ، وهو يعمل في جراح سيارته ، بأمور يعدها جده غير معقولة ولا ممكنة ، فلا يمكن أن يتخذ هذا دليلاً على أنه لا فرق بين آراء يعمل بها السواد من الناس ، ونظريات يعمل بها الرجال العلماء . على الرغم من اعترافنا بأن بين الاثنين ، بين المنطقتين ، منطقة واسعة مائعة تجمع بين الحالين على درجات متفاوتات .

الدرجة الاختبارية في العلم وفي الفن العملي

الدرجة الاختبارية^(١) (empiricism) تعبير وقعت عليه وأنا أنظر

(١) الاختبارية كلمة من أكثر الكلمات تكراراً في هذا الكتاب والاختبارية empiricism في الفلسفة مذهب يقول بأن المعرفة يكتسبها العقل عن

فما بين العلم وبين التكنولوجيا^(١) والطب من علائق ، وهو تعبير أفصده به الدلالة على أى حد تنبئ معرفتنا ، وهى صنوف ، على المشروعات الفكرية العامة ، على النظريات . والتعبير نافع أيضاً فى

طريق الحواس فيما يختبر من الأشياء ، فلولا هذه الإدراكات الحسية ما كانت معرفة . وعندهم أن العقل كاللوحة البيضاء وأن المدركات الحسية تكتب على اللوحة ما تشاء . والمعرفة تتألف من آلاف الألوف من هذه المدركات الصغيرة . والمذهب ينكر أن العقل يستطيع أن يحصل المعرفة عن طريق آخر ، بالبداية . والمذهب توجد جذوره عند الإغريق . ولكنه عاد إلى الانتعاش بما كتب فلاسفة الإنجليز فى القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، وعلى الأخص لوك ، فهو أول من نظم المذهب . ومن الأحدثين جون ديوى .

والاختبارية فى الطب مذهب قام فى عهد جالينوس مؤداة أن على الطبيب أن يحسن ملاحظة ما يرى من ظواهر الصحة وظواهر المرض ، وأن يجمع كل ما يستطيع أن يجمع من ذلك ليكون عنده طب وحكمة ، وأن الطب لا ينال بالتفكير النظرى . وصلة هذا بالمذهب الفلسفى العام قريبة .

ثم انقلب هذا المعنى حتى صار وصف الطبيب فى اللغة الإنجليزية ، بأنه اختبارى ، ذم . فمثل هذا الطبيب يأخذ الطب بالمشاهدة ، لا بالدراسة ولا بالعلم الحديث وتجارب العلم الحديث .

ومؤلف هذا الكتاب يستخدم اللفظ فى معنى قريب من هذا . فهو يستخدم الاختبار فى مقابلة التجربة . فالاختبار عنده ما يكتسب من مشاهدات وملاحظات وغير ذلك والناس فى سبيل الحياة . أما التجربة ، فيقصد بها العلمية ، التى تنظم عمدا لامتحان شئ ما ، يخرج من فروض العلم ومن نظرياته . مثال ذلك أن الاهتداء إلى استخراج الحديد من خاماته قبل أن تعرف الكيمياء كان اختباراً ، وهدى إليه اختبار ، أما كشف أن العناصر تتحد بنسب ثابتة فهدت إليه التجربة ، العلمية . ومن التجربة العلمية الملاحظة العلمية . وأكثر الأمثال به شئ من اختبار وشئ من تجربة ، وعلى هذا جاء المؤلف بفكرة الدرجة الاختبارية .

(١) التكنولوجيا هى العلم الصناعى ، وهو مجموعة المعارف المنسقة للحرف الصناعية لا سيما الكبيرة منها كصناعة النسيج واستخراج المعادن .

رأى عندما ننظر في تاريخ العلوم وتاريخ الفنون العملية في الثلاثة القرون الأخيرة . وأنفع من هذا وذلك نفعها للرجل العادى ، الرجل الغير العالم ؛ فقد تعينه على استبانة ما اختلط في ذهنه من علائق ما بين العلم البحت والعلم التطبيقي ، وما انبهم عنده من معانيهما . إن العلم والتكنولوجيا — الفن الصناعى — قد اختلط ببعضهما البعض في المائة الأخيرة من السنين اختلاطاً جعل من العسير حتى على القائمين بالعمل في الحقلين أن يتميزا الدور الذى قامت به النظريات فيما هم فيه قاعون . ومع هذا فأى رجل ألف العلوم الطبيعية ، وألف الصناعات الحديثة ، لا يتردد في القول بأن تطبيق النظريات العلمية في الصناعات المختلفة يختلف مقداراً اختلافاً كبيراً باختلاف هذه الصناعات .

ولإيضاح هذه الفكرة ، وهى فكرة ذات بال عندى ، دعنى أياها القارئ أقارن بين صناعتين ، صناعة الأجهزة البصرية وصناعة الإطارات من المطاط . ففي الصناعات البصرية نجد أن تصميم العدسات والمرابا للمكروسكوبات والتلسكوبات والكمرات بناه مصممها على نظرية للضوء كشفوا عنها منذ مائة وخمسين عاماً ، يُعبّر عن وجوهها المختلفة بعبارات رياضية بسيطة . فبمعونة هذه النظرية ، مضافاً إليها بعض تقديرات لخواص الزجاج المستخدم في هذه الآلات ، يمكن بالدقة حساب ما تجريه هذه الأجهزة البصرية . وبما أن العلم النظرى قد كمل كل هذا الكمال في حقل البصريات ، فباستطاعتنا أن نقول إن الدرجة الاختبارية في هذا النوع من علم الطبيعة درجة واطئة حقاً . أما صناعة إطارات المطاط فتختلف عن هذا اختلافاً كبيراً . فليس في هذه الصناعة نظرية

تقارن بنظرية الضوء نستخرج منها أساساً رياضياً نستنتج منه كم نخلط من هذه المادة وهذه لنتيج مطاطاً طبيياً . إن التفاعل الكيماوى الذى يأتى من بعد هذا الخلط لهذه المواد بالمطاط تفاعل لا يستطيع أحد إلى الآن أن يصوره تصويراً نظرياً . إن فى هذا التفاعل يدخل الكبريت ، وتدخل مواد أخرى تعرف بالمسرعات التفاعل accelerators . أما الكبريت فالمعروف من قديم أنه لا بد منه لحدوث التفاعل ، ولكن عمله بالضبط وعمل المسرعات غير مفهوم إلا قليلاً إلى اليوم . والعملية كلها نشأت بالتجربة البدائية ، فالخطأ فيها ، فتصحيح الخطأ والأخطاء ، وتكرر هذا حتى اهتدى الإنسان إلى نتيجة بها من المعرفة ما فى طبخة بارعة يطبخها طابخ ماهر . فى هذه الصناعة نجد الدرجة الاختبارية عالية ، ومعنى هذا ، بقول آخر ، ان كيميائ المطاط لم يحظ بالبحث النظرى من تفهمها إلا بالقدر القليل .

إن كل التعابير النسبية فى حاجة دائماً إلى أعيرة ترد إليها . ونحن نستطيع ، بدون الدخول فى التحليل الفلسفى للمعرفة التى يكتسبها سواد الناس بالفطرة (ويدخل فيها المعرفة بفن كفن الطبخ أو نفخ الزجاج أو صياغة المعدن كما عرفها العصور المتوسطة) نحن نستطيع بدون هذا ، أن نضرب مثلاً للمعرفة فى الدرجة الاختبارية أصل ما تكون بالفنون التى جاءت قبل مجيء العلم الحديث ، وبالطبخ الذى يقع الآن فى مطبخ حديث . فى هذه الفنون ، وفى الطبخ ، تبلغ الدرجة الاختبارية ، مقدرة تقدير اعتبار ، مائة فى المائة . وهى تبلغ صفراً أو شيئاً قريباً من الصفر فيما يعمل المسآح وهو يسمح أرضه . فأكثر عمل المسآح يبنى على فرع

واحد من فروع الرياضة ، أعنى علم الهندسة ، والقليل الأقل منه على ما فى أجهزته من صنع وفى تشغيلها من دقة . أما الاختبارية فى عمل المساح فىذ كترنا بها غيابها . فالذى لا يعرف من القراء إلا القليل عن العلم والتكنولوجيا (الفن الصناعى) عنده الآن مثلاً يمثلاً له طرفى النشاط فى الميدانين ، فمثل طباح الفندق العظيم ، ونشاطه مبنى مائة فى المائة على الاختبارية ، ومثل المساح وهو يحمل أدوات مسحه ، ونشاطه لا يكاد يبنى على الاختبارية فى شىء أصلاً ، وإنما هو مبنى على المعرفة النظرية ولا شىء غيرها .

وسوف نعود من حين إلى حين إلى هذه العلاقة بين هذين الطرفين المتباعدين ، علاقة ما بين المعرفة العلمية وأوجه النشاط العملية للصانع وللزارع والطبيب . وسوف نرى أن التقدم فى العلم ، والتقدم فى الفنون العملية ، جرى التقدمان معا لحقبة طويلة مدهشة من الدهر دون أن يتصل مجراهما إلا فى القليل . فنحن لو قدرنا أن العلم الحديث ولد فى عام ١٦٠٠ أو حول ذلك ، بغض النظر عما سبق هذا العام من أنتجة ، قد تعد من بعض العلم ، تمتد إلى العتيق من الزمان ، لا استطعنا أن نقول إن الفنون العملية قضت بعد ميلاد العلم مائتى عام أو أكثر قبل أن تهبأ لها أن تستفيد من العلم شيئاً . والرأى عندى أن العلم لم يصبح ذا خطر فى الفنون العملية إلا بعد أن بدأت صناعة الكهرباء وصناعة الأصباغ فى نحو عام ١٨٧٠ .

ولنختتم هذا الحديث بأن نقول إن درجة الاختبارية فى أى حقل من الحقول العملية تتوقف على كم من مساحته دخلها العلم فصاغ مسائلها

في صيغ مشاريع ذهنية عامة ، أعنى نظريات .
 ودخول العلم فيها إنما يكون لتقليل ما فيها من اختيارية ، بزيادة
 الذي بها من نظرية .

إن العلم إذا عاجله معالجه بصرف النظر عما يكون له من علائق بالأمور
 العملية سمي بالعلم البحت أو الصرف . ولكن لهذه الصفة أصداء كثيرة ،
 ليست كلها مما يستساغ في الأذن ، تُشعر بأن هناك فروقاً في القيم بين
 العلماء الذين يعنون بالعلم مجرداً ، والعلماء الذين يعنون به مطبقاً . لهذا
 كثيراً ما يوصف هذا العلم ، لا بأنه بَحْتٌ ، ولكن بأنه أساسي . وظنى
 أن أكثر نشاط العلماء اليوم ، وأخطر نشاطهم ، متجه إلى خفض نسبة
 الاختبارية فيما هم فيه قائمون . والفارق بين جماعة من العلماء وجماعة أخرى
 إنما هو ما يحفزهم من حوافز . فالذين يشوقهم العلم بحسابه علماً ،
 ولا شيء غير هذا ، تستهويهم الإشارة تأتيهم بأن هذا الجانب أو ذلك
 مؤذن بشمرات كثيرة ، فما أسرع ما يستجيبون . إنهمهم توسعة العلم النظري
 والمد في حدوده . وآخرون من العلماء همهم الأول في فن من الفنون
 العملية ، العتيقة عتاقة الإنسان ، قد لبس ثوباً عصرياً . فإن كان هذا
 الفن بعض فنون الصناعة ، كعلم استخراج المعادن ، اهتموا في توسيعه
 توسيعاً نظرياً كاهتمام أقرانهم في الجامعات . وهم يحاولون كذلك خفض
 ما به من اختبارية ، ولكن في مساحات محدودة ولأغراض عملية . والطب
 كاستخراج المعادن ، غير أن هدف الطبيب ليس استخراج معادن
 أحسن ، ولكن رجال أصح . وكلاهما يعمل في حقل عملي .
 وانتصف القرن العشرون ، وجاء عام ١٩٥٠ فواجهنا بحال أبعد

ما تكون عن البساطة . فمذ ثلاثة قرون كان للصانع خبرته التي ظلت زماناً تجري على الاستهزاء بالخطأ عند التجريب . وكان إلى جانبها أسلوب الرياضى الاستنتاجى فى التفكير . فاقترن الاثنان قراناً تولد منه على الزمن جيل فجيل فجيل . وانتهت الولاىد اليوم بأن رأينا العالم التطبيقى يدخل إلى الصانع ، وهو فى مبادلته ، وفى فحمة وسواده ، يعينه فى مجهوده . وهو فى سبيل معونته يجد نفسه قائماً وجهاً لوجه أمام شىء يتبينه ويتفحصه فإذا به أحد القدماء من أجداده . إذا به الخبرة القديمة التي لا يدعها شىء من الفكر النظرى . وهو فى معمله بالمصنع كثيراً ما يطلب منه أن يقوم بتجربة لغرض عملى يجربها على أسس من نتائج الخبرة الفطرية ، لا العلمية ، كالتى كان يجرب على مثلها الصانع فى تلك الأزمان البعيدة الحالية . يحدث هذا على الأخص فى تلك الفنون التي فيها درجة الاختبارية عالية . وهو على هذه الأسس الفطرية يجرب ويستخدم أحدث الأجهزة العصرية . وهو فى هذا لا شك يحاول أن يقلل من درجة الاختبارية ، ولكن عليه واجب آخر أعجل من ذلك ، ذلك الانتهاء من تجربته بتحسين الفن ، بمقدار ما لديه من معرفة ومن وسيلة . واختصاراً أقول إن التقدم فى العلم والتقدم فى الفنون العملية يسيران اليوم متعاونين جنباً إلى جنب .

العلم والتكنولوجيا

هذا الباب مخصص للبحث في المنهج العلمى المزعوم ، وقد تركزتُ فيه على التقدم فى المعرفة العملية . وفى هذه الأثناء أتاحت لى الفرصة للتحدث فيما وقع فى الفنون العملية من تقدم ، وعلى الأخص أسلوب الصانع الفطرى ، أسلوب التجريب فالخطأ فالانتفاع من الأخطاء . وقد رسمت بذلك للتقدم الذى حدث فى العلم والتكنولوجيا - الفن الصناعى - فى المائة والخمسين الماضية من السنين صورة بينة على ما أعتقد فيما يختص بالعلم ، ولكن ينقصها بعض صفات الإيضاح فيما يختص بالتكنولوجيا . ذلك أنى قصرت فيما أعتقد فى إشعار القارئ بالمجهودات الهائلة التى قام بها العلماء لتطبيق العلم فى الحقول العملية الكثيرة . واختصاراً أنا لم أقل شيئاً أو لم أقل إلا القليل عن الهندسة وما كان لها فى التقدم الذى حدث من خطر . وهذا التقصير سوف يسد خلله بعض السداد ما تأتى به الأبواب القادمة ، ولكن لن ينبى بحق العلوم الطبيعية ، مطبقة فى الحقول العملية ، أى بحق الهندسة التطبيقية ، إلا تاريخ مفصل لكل من فروعها - لكل من الهندسة المدنية والميكانيكية والكهربائية ، والكيمائية ، والملاحة الجوية . إنه بدون هذا التاريخ لا يكون للألفاظ والتعاريف قواعد ثابتة ترتكز عليها . إن المهندسين الأوائل كانوا رجال حرب ، وجاء من بعد ذلك أعمال المساحة ورسم الخرائط وإجراؤها فى غير الحربى من الأغراض - ومن ذلك خرجت الهندسة المدنية وصارت مهنة . وبقى المهندس المدنى ،

حتى دخل القرن التاسع عشر وتتابعت منه سنون عديدة ، بقي هو الرجل الذى يسمح وينبئ الجسور ويصنع الترع والطرق ، وإلى جانب كل هذا كان من عملة شئون الآلات والمكنات . والرجل الشهير « واط » (١) Watt ، الذى لا تذكر الآلات البخارية وما صنعت للمدنية إلا ذكر اسمه بذكرها ، هذا الرجل كان يعده أهل زمانه مهندساً مدنياً .

إن تحسين الآلات البخارية وسائر صنوف الآلات والمكنات ، فما بين عام ١٧٠٠ ومن منتصف القرن التاسع عشر ، كان من عمل رجال أسموا أنفسهم مخترعين أو مهندسين . والذين قاموا بصناعة أجهزة جديدة ثم أقاموها ، كانوا من رجال الأعمال ، وكثيراً ما كانوا إلى جانب ذلك مخترعين ، وكثيراً ما اعتبروا أنفسهم مهندسين . وكان علم الميكانيكا فى ذلك الزمن قد بلغ مبلغ العلوم ، ولكن به درجة من الاختبارية متوسطة . وكان هؤلاء الرجال العمليون يعملون كما يعمل صناع القرون الوسطى ، بطريقة الخطأ ثم الانتفاع من الأخطاء ، ولكن كثيراً ما كان فى إمكانهم أن يستعينوا بالمبادئ الفطرية والحسابات الرياضية . وانتهى الأمر ، للذى بلغته أعمالهم من خطورة ، أن صارت الهندسة الميكانيكية

(١) هو جيمز واط ، المخترع الأستكتلندى ، وأشهر المهندسين الإنجليز . وهو الذى اخترع الآلة البخارية تقريباً على الصورة التى هى عليها اليوم ، بعد أن سبقه إليها كثيرون . وهو بدأ صانع أجهزة بجامعة جلاشجو . وجاء وهو بها آلة بخارية لإصلاحها فهاله ما بها من قصور ، ومن استهلاك وقود . ومن ذلك الحين أخذ يدرس خواص البخار ، ويحسن فى الآلة ثم يحسن . وانتهى الأمر به إلى أن كان شريكاً فى صناعة هذه الآلات البخارية المستحدثة . وكان عملها قبل واط مقصوراً على تحريك المضخات فصارت من بعده للمضخات ، بغير المتاعب المنهكة القديمة ، وكذلك لتحريك الآلات . ولد واط عام ١٧٣٦ ومات عام ١٨١٩

فرعاً قائماً بنفسه . وفي نفس الوقت ، أى في منتصف القرن التاسع عشر ، صارت الهندسة الكهربائية فرعاً قائماً بذاته ، يطبّق العلم فيه في الصناعة . واليوم يقوم المهندسون بتصميم الآلات والمكينات وبنائها وبناء كل جهاز من كل صنف يهدف إلى غاية عملية ، وذلك في كل الصناعات . وبدون المهندسين تتوقف مدنيتنا الصناعية . ومنهم من يتصل أكثر من غيره بالأعمال الجديدة في الصناعات ، تلك التي نسميها أعمال التنشئة ، وفيها يتعاون المهندسون والعلماء التطبيقيون . أو لعل الأحسن من هذا أن نقول إن رجالاً تدربوا مهندسين كثيراً ما يتقدمون بالعلم التطبيقي بإنقاص ما فيه من اختبارية . وعلى عكس ذلك أن رجالاً تدربوا علماء كثيراً ما عملوا في تقديم الفن مهندسين .

إن اهتمامي بأن أوضح للقارئ شيئاً من كل ما يتعلق بالموقف العصري الحديث زاد فغلبني على هدف آخر رجوته ، ذلك إعطاء القارئ فكرة عن العلم التجريبي الحديث خيراً مما عنده وأكثر . إن القدر الذي يشترك فيه العلماء والمهندسون في مناشطهم ، والحد الذي يمكنهم أن يبلغوه في تعاونهم ، شيئان ليس من السهل التحدث فيهما إلى من لم يألف أسلوب البحث فيما يجرون من تجاربهم . لهذا لزمني أن أوّجل الحديث في مسائل هي اليوم عاجلة ، مثل تنظيم العلم والهندسة في الحكومات وفي الصناعات ، إلى أن آتى على وصف أمثلة من التاريخ تمهد إلى ما نطلب مما لا نستطيع له الآن فهماً . لا بد من التركيز على الفلسفة التجريبية الجديدة التي استجدها القرن السابع عشر قبل أن ندرس كيف دخلت وامترجت وانتسجت في الشؤون العملية ، شؤون هذا العصر الذي نعيش فيه .

الباب الرابع

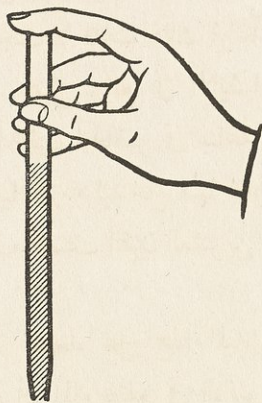
كيف نشأت فكرة الضغط الجوى

يعرف الناس من زمان بعيد أنه لا بد ، لتفريغ برميل ، من وجود ثقبين فيه ، ثقب في أعلاه ؛ وثقب في أسفله . فمن الأسفل يخرج السائل ، ومن الأعلى يدخل الهواء .

كذلك عرف الناس أن فى الاستطاعة مصّ سائل فى أنبوبة ليعلو فيها فإذا أنت مصصته ، فسددت الفتحة العليا من الأنبوبة بأصبعك ، بقى السائل فى الأنبوبة فلم يخرج منها هابطاً ، إلا إذا رفعت أصبعك عن فتحتها العليا . وعلى هذا ابتدعت الأنبوبة الماصة (شكل ١) . وهذه المشاهدات وأشباه لها عالجها الناس وناقشوها من قبل عهد أرسطو . والتفسير الذى كان يسوقه الناس قبل القرن السابع عشر لإيضاح هذه الظاهرة كان شبيهاً بما يقول اليوم أكثر الناس فى إيضاحها . « إنه لا بد من وجود فتحة فى أعلى البرميل ليدخل منها الهواء ، وإلا بقى السائل فى البرميل فلم يخرج » . وبالطبع قد يعترف الرجل اليوم ، أو تعترف المرأة ، بعد نقاش ، بأن إيضاحاً كهذا إيضاح عائم ، تعوزه الدقة ، وهو أو هى قد يعدّل أو تعدل من هذا الإيضاح فتقول : إن دخول الهواء فى البرميل من أعلى ، كان نتيجة لجرىان السائل منه من أسفل . وقد تؤدى زيادة من النقاش ، فى لطافة وسماحة ، إلى استخراج شىء عن معنى الضغط

الجوى وعمله فى هذه الظاهرة . والذى لا يزال يذكر من الناس ما تعلمه فى المدارس قد يقول فى ذلك : إن الذى يمنع السائل من الخروج من البرميل ، أو من الماصة ، إنما هو الضغط الجوى . والقصد من رفع أصبعك عن أعلى الماصة ، أو عن الثقب بأعلى البرميل ، إنما هو الإذن للضغط الجوى بأن يعمل على سطح السائل ، وإذا يتساوى الضغطان بأعلى السائل وأسفله ، وإذا يهبط الماء فيخرج لنفس السبب الذى يسقط به حجر إلى الأرض » .

أما أهل العرفان فى القرون المتوسطة فلهم فى إيضاح هذه الظاهرة طريق آخر . فأنت لو سألتهم فيها لقالوا لك ، وعنوا ما يقولون بالحرف ، إن الثقب الذى فى أعلى البرميل إنما هو لدخول الهواء إلى البرميل . لأن



(شكل ١)

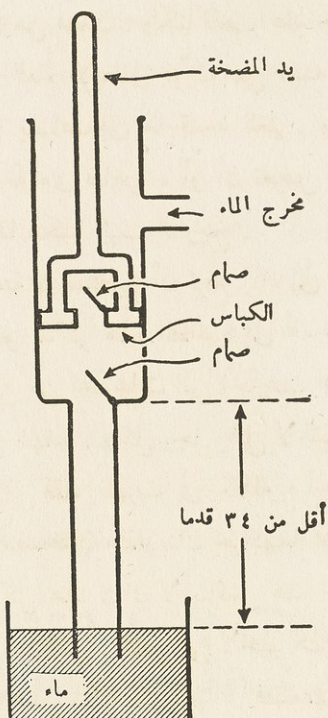
ماصة: إذا مصصت سائلا إلى أعلى أنبوبة صغيرة ، وسددت أعلاها بأصبعك ، لم يخرج منها السائل

عندهم أن العالم ملىء فرضاً ، وأن خروج السائل من البرميل يحل محل هواء خارج البرميل . فلا بد أن يهياً مكان لهذا الهواء الخارج . ولا يكون هذا إلا بدخول هواء من أعلى يحل محل الفراغ الحادث .

وأقنع هذا التفسير المبني على فرض « أن العالم ملآن دائماً » كثيراً من السائلين ، على الأجيال . وقد كان هذا الفرض جزءاً من تعاليم أرسطو على النحو الذى فهمه منها طلاب العلم وجهابذته فى القرون الوسطى . ونحن نستطيع أن نوفى هذا الرأى قسطه من التقدير ، ولكن ذلك يحتاج إلى أبواب فى هذا الكتاب كثيرة . ولكننا نجتزئ بأن نقتبس جملة مما كان يقول « الأرسطاليون » عندما يتحدثون ، تلك أن « الطبيعة تكره الفراغ » . وقد اعتمدوا على هذا المبدأ الفيلسوفى فى إيضاح أن الخمر لا تخرج من برميلها إذا لم يكن به إلا ثقب واحد بأسفله . قالوا إن الخمر إذا خرجت لأحدث ذلك فراغاً ، والطبيعة تأبى الفراغ . وهذا عندى أسلوب جميل رائع فى الإيضاح قد يكون معادلاً تماماً لإيضاح يقوله رجل هذا القرن الحاضر فى ساعة يغفل فيها عن دقة التعبير إذ يقول إن الفتحة العليا لازمة ليدخل منها الهواء . ومعنى هذا أن الرأى الباده لسواد الناس فى منتصف القرن العشرين فيه كثير من الأرسطالية والناس لا يدرون .

ونحن نستطيع أن نعتمد على هذا المبدأ القائل بأن الطبيعة تكره الفراغ لنفسر به كيف أن الماء يرتفع فى الأنبوبة عند المص ، أو كيف أن مضخة ماصة تحدث رفع الماء . إن تلك المضخة الماصة ، تلك الآلة العتيقة التى كانت من زمن غير بعيد جزءاً متمماً لكل مطبخ بكل

بيت ، تعمل عمل الأنبوبة الماصة تماماً . إنك بتحريك يد المضخة إنما ترفع الكابس، الذي بأنبوبتها . فإذا كان هذا الكابس حابساً ، رفع الماء معه . أو مصه كما قد نقول أحياناً . ولماذا يرتفع الماء هكذا ؟ لأن الطبيعة تكره الفراغ . هكذا قال الأرسطالين . وبقول الأرسطالين هذا آمنت أجيال من الفلاسفة كثيرة .

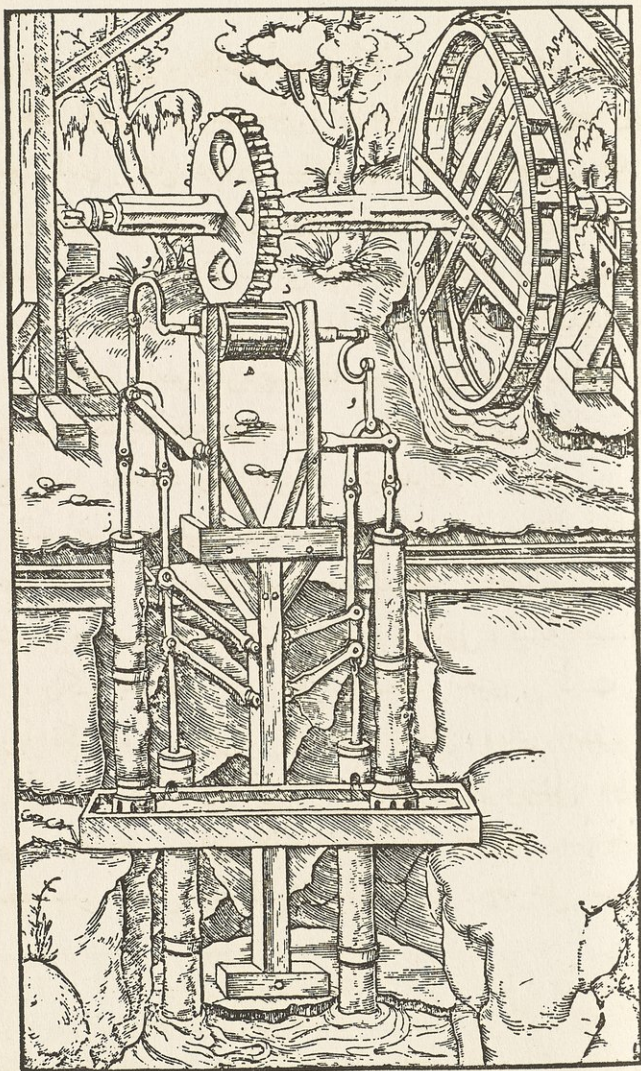


(شكل ٢)

مقطع رأسى لمضخة ماصة ، أو رافعة ، بسيطة . فإذا صعد الكابس فيها ، صعد وراءه الماء .

وأول صعوبة ظهرت في هذا التفسير ظهرت فيما كتبه « جاليليو » في مکتوبه الذى سماه « محادثات تتعلق بعلمين جديدين » وقد نشر في عام ١٦٣٨ . فقد ذكر فيما كتب ، ذكراً عابراً ، أن المضخة لا ترتفع بالماء إلا إلى ارتفاع معلوم . ولن نقف عند التفسير الذى قدمه لهذا ، فهو قد بناه على شبه ضعيف ، ظاهر الضعف ، بين انقطاع عمود من ماء وانقطاع سلك من معدن . ولكننا نقف عند حدث جدير بالوقوف عنده ، ذلك أن هذا العالم الإيطالى فوت على نفسه بذلك أن يقدم للعلم شيئاً جديداً عظيماً ، يضاف إلى ما قدمه للعلم . وفي هذا عبرة للذين يعتقدون أنه يكفى أن تراءى ظاهرة ، أو أن تعرض مسألة ، لعالم ، حتى يجد جوابها حاضراً . فما هكذا أثبت التاريخ .

إن المضخة الماصة لا تستطيع أن ترفع الماء إلى أكثر من ٣٤ قدماً . وقد أشار جاليليو وهو يذكر هذه الظاهرة إلى أنه عرفها من عامل . إن هذه المضخات لم تكن من المخترعات التى اخترعت في عهد « جاليليو » ، فقد عرفها قرون قبل عهده . وكل رجل عملى لا شك عرف قصور هذه المضخات من قديم ، فقد ظهرت في مقالة « أجريكولا » الشهيرة في التعدين ، ظهر فيها مضختان متقاربتان يحركهما محرك واحد (شكل ٣) ومن العجيب ، مع كل هذا ، أن لا يناقش هذا القصور في المضخة ، قبل زمان « جاليليو » ، مناقش . فلعل من لاحظ هذا من قبل « جاليليو » ، عزاه إلى ضعف في نفس الآلة وتركيبها ، فضعفها هو الذى أبى عليها أن ترفع الماء فوق ما رفعت . ويعزز هذا الظن أن مكابس هذه المضخات وصماتها لم تكن عندئذ بمكان عظيم من حيث الإتقان .



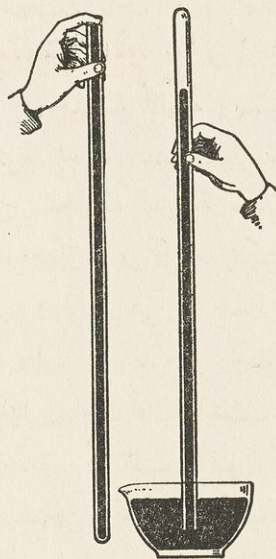
(شكل ٣) رسم إيضاحي من كتاب أجريكولا في التعدين ، بالقرن السادس عشر ،
يوضح عمل مضختين في نزع الماء من المناجم

ولكن ظني الأكبر ، والذي أرجحه أكثر ، هو أن هذا السكوت عن ذكر هذا القصور في المصنخة ، وإغفال مناقشته ، يرجع إلى البون الشاسع الذي ظل دهوراً يباعد بين العامل والعالم . فقد كان العمال يشغلون المناجم ، ويصهرون المعادن ، ويحركون المصنخات ، ويدخلون التحسين في الآلات التي بها يعملون عن طريق الخبرة الفطرية . وإلى جانب هؤلاء العمال ، وبعيداً عنهم ، كان الأساتذة وجهابذة القصور يشتغلون بالعلوم الرياضية يقدمونها ، وبالاستدلال الاستنتاجي ، ويعلم الميكانيكا يخلقونه وهو جنين . والعلم التجريبي لم يخلق إلا عندما اجتمع العامل بالعالم ، والتقى التياران المتباعدان .

والذي أضاعه جاليليو ، وجده تلميذه « تورتشيلي » (Torricelli) (١) .
 ففي عام ١٦٤٤ ، أي ستة أعوام بعد أن نشر « جاليليو » عن المصنخة ما نشر ، وبعد وفاته بستين ، كتب « تورتشيلي » كتابه تضمنت آراء عامة ، ولكنها محددة ، عن الجو والضغط الجوي . كانت مشروعاً تصورياً فكرياً ، أو نظرية ، في دور التخلق . وبأى وصف وصفت هذه الآراء ، تلك التي أبديت في مكاتبات جرت بين « تورتشيلي » و«الكردينال ريتشي » (Ricci) ، فهي لا شك كانت مقاطعة صريحة للرأي الأرسطاليسي القائل بأن الطبيعة تكره الفراغ . إنه على أسلوب ما ،

(١) هو العالم الرياضي الفزيائي الإيطالي ، تعلم الرياضة في روما وتأثر بما كتب جاليليو ، والتقى به في فلورنسا ، وعمل كاتباً له ، يكتب ما يمل عليه ، ثلاثة أشهر كانت الأخيرة في حياة جاليليو . وخلف جاليليو أستاذاً للرياضة في أكاديمية فلورنسا عقب موته . ولد عام ١٦٠٨ ومات عام ١٦٤٧ ، أي بعد موت جاليليو بخمسة أعوام .

وفي تاريخ لم يسجل ، قد رأى أن الحد الذي ترفع إليه المضخة الماء فلا تزيد عنه ، أعني ٣٤ قدماً ، قد يكون هو مقياس ما للجو من ضغط . وهو ناقش المسألة فقال : إذا كانت الأرض يلفها بحر من الهواء ، وإذا كان الهواء مما يوزن ، فله إذا ثقل ، تحتّم بذلك أن يضغط هذا الثقل على الأشياء التي على الأرض جميعاً ، كما يضغط الماء في بطن البحر .



(شكل ٤)

الأنبوبة مليئة كل الماء بالزئبق . ثم يسد طرفها المفتوح بالإصبع . ثم تقلب الأنبوبة ويغمس طرفها المفتوح في الزئبق في صحن من الزئبق . فإذا ترك الإصبع طرف الأنبوبة سقط الزئبق فيها ثم توقف سقوطه عند ارتفاع نحو من ٣٠ بوصة

ثم هو يستخرج من هذا الفرض استنتاجاً ، ثم هو يلجأ إلى التجربة ليحققه . فعنده أن الضغط الجوي ، إن صح أنه يحمل عموداً من الماء طوله ٣٤ قدماً ، فهو لا بد حامل عموداً من الزئبق طوله ٣٤ ÷ ١٤ أى $2\frac{2}{7}$ قدماً ، مادام ان الزئبق أثقل من الماء ١٤ مرة تقريباً . استنتاج لاشك قابل للتحقيق بالتجربة . وجرب وحقق ، وتحقق من صحة ما زعم : حدث هذا على الظن حول عام ١٦٤٠ ، وفي فلورنسا بإيطاليا . وتسمت هذه التجربة العظيمة باسمه ، وباسمه سترتبط إلى الأبد .

فإذا كان من بين قرأى من لم ير هذه التجربة تجرى ، فلينهض من ساعته ، وليذهب إلى مدرسة ثانوية ويستهوى مدرساً للطبيعة فيها أو للكيمياء حتى يقوم بإجراء هذه التجربة أمامه ، أو يأذن له بأن يجربها . إنها من التجارب البسيطة القليلة التي أحدثت في العلم ثورة ، وهى تجرى بأقل جهاز ، وبأقل ما يمكن من حذلقة فى رياضة أو علم (شكل ٤) . وإليك هى : خذ أنبوبة من الزجاج ، قطرها عرض إصبع ، وطولها ٣ أقدام ، وأحد طرفها مغلق . واملاها بالزئبق ملاً . ثم سد طرفها بإبهامك أو بسبابتك ، ولا تحبس بين أصبعك والزئبق هواء ولوفقاعة واحدة . ثم اقلب الأنبوبة واغمس طرفها بالأصبع الذى هو عليه فى زئبق بصحن . ثم أخرج أصبعك ودع الزئبق حرراً يفعل ما شاء . ويشاء الزئبق أن يهبط فى الأنبوبة إلى ٣٠ بوصة أو نحوها ثم هو يقف فلا يهبط فوق ذلك . وماذا فوق عمود الزئبق بعد هبوطه ؟ إنه الفراغ ! ! وهو حقاً فراغ كالذى صنعه « تورتشلى » يوم أجرى تجربته المشهورة . فأنت أجريت التجربة التى أجرى . وفعلت فوق هذا . إنك

صنعت بارومترا . صنعت جهازاً يقاس به ضغط الهواء . وأنت إذا كنت تعيش في موضع على سطح الأرض ، قريب مستواه من مستوى البحر ، فأنت واجد أن عمود الزئبق هذا طوله ٣٠ بوصة أو نحوها . وإذا كنت تعيش في مكان من الأرض أعلى من سطح البحر ، فإنك واجد لهذا العمود الزئبقى طولاً أقل من ٣٠ بوصة . وأنت لوراقبت هذا الزئبق من يوم ليوم ، لوجدت أن طوله وهى بالمكان الواحد يتغير على الأيام . وهذا ما وجد تورثلى أيضاً بعد ما أجرى تجربته الأولى بقليل . إن هذا التغيير في الضغط الجوى أمر هو اليوم معروف مألوف ، ومع هذا فقد مضى أكثر من قرن قبل أن يبدأ الناس في أن يدركوا علاقة ما بين طول البارومتر والضغط الجوى .

هكذا ابتدع تلميذ جاليليو أداة جديدة ، وهكذا حقق بها استنتاجاً استخرجه من فرض تصورى من فروض العلم عريض ، وهكذا أوجد فراغاً ظل الأرسططالين دهرأ ينكرون وجوده . والذي يهم دارسى مناهج العلم من هذه التجربة هو أنها مثل بسيط لتحقيق نتيجة واحدة ، أنتجناها بالفكر ، من فرض عريض أو نظرية كبيرة . إنا من الوجهة التاريخية لا نستطيع أن نؤكد أن هذا الفرض العريض سبق هذه النتيجة ، سبق هذا الاستنتاج الواحد الصغير ، لأنه ليس في سجلات التاريخ ما يصف لنا كيف جاءت تورثلى فكرته عن الضغط الجوى أو تجربته لتحقيقها . ولكننا نرجح غاية الترجيح ، من قراءة المناقشة التى سجلها التاريخ لأستاذه العظيم في شأن المصخة الماصة ، إن فكرة الضغط الجوى هى السابقة على التجربة عند تورثلى .

إن الذى يحمّر العقل فى تاريخ تقدم العلوم أن كثيراً من الأفكار الانقلابية فيه وصل إليها أصحابها بطرائق ما كان يحدسها العقل أبداً . إن القليل جداً من السابقين فى العلم وصلوا إلى ما وصلوا إليه من كشف عن طريق استدلال منطقي منظم . إن أكثر الذى وقع أن بارقة وهاجة برقت فى خيالهم ، أو فكرة عابرة لمعت فى خاطرهم فأضاءت لهم الطريق من حيث لا يحسبون . وكثيراً ما سلكوا هذا الطريق أول الأمر بخطى غير واثقة . وسوف نرى ذلك مفصلاً فى مثل من الأمثلة التاريخية الكبيرة ، تلك نظرية لافوازيه عن الاحتراق ، وكيف تدرجت حتى استقرت .

رأى « تورشلى » رأيه هذا عن الضغط الجوى . ثم هو يستنتج من فرضه هذا العام العريض نتيجة ، ثم هو يحقق هذه النتيجة بالتجربة ، ثم هو بهذه التجربة يصنع أول بارومتر عرفه التاريخ ، أول جهاز قاس به الإنسان ضغط الهواء الجوى . ولم يلبث هذا أن حدث حتى جاء عالم رياضى فرنسى يستنتج من هذا الفرض العام العريض نتيجة ثانية ، ثم هو بالتجربة يحققها . وكان هذا العالم الرياضى الفرنسى « بسكال » ، « بليز بسكال » (Blaise Pascal) ^(١) . وكان رجلاً عجبياً فى التاريخ ، فى تاريخ العلم الحديث وفى تاريخ العلم اللاهوتى ، فقد كان قسيساً .

(١) بسكال هو العالم الفرنسى والفيلسوف والرياضى ، ورجل اللاهوت أيضاً ، ولد عام ١٦٢٣ ومات عام ١٦٦٢ . برع فى علم الهندسة صغيراً ، وكتب وهو فى سن السادسة عشر رسالة عن القطاعات المخروطية أدهشت ديكارت . ثم هو تابع دراسة اللغة والمنطق والفيزياء والفلسفة فى جهده أضر بصحته ضرراً صاحبه طول حياته . وبحث فى موازنة السوائل وفى الهواء الجوى ووزنه . وفى وعام ١٦٥٤ دخل دير بورت روابال . وخرج منه ليعتزل فى باريس ومات مريضاً محطماً .

وعرف بتجربة «تورتشلى» من الكاتب الباريسى ، الأب مرسن (Mersenne) (١) فقام لتوّه يعيدهذه التجربة فى مدينة روان (Rouen) . وصنع ما صنعه تورتشلى ، ومن مجموعة من أنابيب أقام بارومترا من الماء ، وأثبت أنه فوق عمود من الماء طوله ٣٤ قدماً لا يوجد إلا الفراغ . ولكنه فعل أكثر من ذلك . أنه قدم للعلماء وجهة نظر جديدة : إذا صح أننا نعيش فى قاع بحر من الهواء يضغط علينا ، إذا لشابه بحر الهواء هذا بحر الماء ، وشابه ضغط الهواء ضغط الماء . وكان بسكال وأهل عصره يفهمون الماء وضغط الماء . وكانت قوانين الأدروستاتيكا (hydrostatics) ، قوانين علم توازن السوائل ، قد صيغت فى القرن الذى سبق . وجاء بسكال وشرحها شرحاً جميلاً فى كتاب . قال إن الضغط فى داخل حوض من الماء ، وتحت سطح ماء فى بحيرة أو بحر أو محيط ، يتوقف على عمق النقطة التى عند الضغط فى حوض أو بحيرة أو محيط . والأسماك التى تأخذ ترتفع من قاع البحر إلى سطحه يقل ضغط الماء عليها كلما ارتفعت . فإذا صح أننا نعيش فى بحر من الهواء نحف الضغط كلما علونا فيه ، كما يخف فى البحر . وكان «تورتشلى» ابتدع البارمتر ، لا من ماء ، ولكن من زئبق .

وطلب بسكال إلى ابن أخته « بريار » (Perier) أن يقوم عنه بقياس ضغوط الجوى على ارتفاعات فى الهواء مختلفة فى جبل بفرنسا الوسطى .

(١) هو الأب مران مرسن ، رفيق ديكارت فى التلمذة . وكان عالماً فى الرياضة ، واشتغل فى آواخر حياته بالبحث العلمى فى الرياضة والفيزياء والفلك . ودافع عن ديكارت لدى نقاده من رجال الدين . ولد عام ١٥٨٨ ، ومات عام ١٦٤٨ .

وعدّ بسكال هذه التجارب ، هذا المقاسات للضغط على هذه الارتفاعات ، أكبر امتحان لصحة النظرية ، نظرية الضغط الجوى . قال فى كتاب كتبه عام ١٦٤٧ : إن التجربة التى أجراها توريشلى بملء أنبوبة زجاج مملوءة بالزئبق ثم قلبها وغمس طرفها المفتوح فى حوض من الزئبق ، تجربة تدعو المرء إلى الاعتقاد بأن الذى يقيم هذا العمود من الزئبق فلا ينصب فى الحوض ، ليست كراهة الطبيعة للفراغ كما قال الأرسططاليون ، ولكنه عمود الهواء فى الجو . وهذا العمود هو الذى يوازن عمود الزئبق فلا يسقط . واستطرد «بسكال» يقول : ومع هذا فرأى القدماء عن كراهة الطبيعة للفراغ قد يثيره المجادلون فى تفسير هذا الظاهرة . وإذاً وجب إجراء تجربة توريشلى عند قمة جبل وعند سفحه ، فى رأسه وعند قدمه ، فإذا قصر عمود الزئبق عند الرأس ، وطال عند القدم ، إذا ثبت أن وزن الهواء الجوى هو وحده السبب فى حمل عمود الزئبق ، وصلب عوده ، وليس كراهة الطبيعة للفراغ ، ذلك أنه من غير المعقول أن تكون كراهة الطبيعة أشد عند سفح الجبل منها عند قمته .

واستجاب ابن أخت بسكال إلى رجاء بسكال ، وأجرى التجارب فى سبتمبر عام ١٦٤٨ . وكانت النتائج المتوقعة . فكان ارتفاع عمود الزئبق فى أنبوبة توريشلى فى رأس جبل «پوى دى دوم» (Puy-de-Dôme) ^(١) أقل منه عند سفحه بنحو ثلاث بوصات . وفى جانب الجبل ، بين السفح والقمة ، كان ارتفاع الزئبق أعلى منه عند الرأس وأقل منه عند السفح . وجاء التقرير عن هذا التجارب يقول : إن التجربة أعيدت عند

(١) فى الغرب من ليون ، فى فرنسا .

رأس الجبل ، فى مواضع خمسة منه ، بعضها فى العراء وبعضها المحجوب عن السماء ، وواحدة أجريت وسحابة تمر بالرأس مرّاً ، ولم تغير هذا الأوضاع من النتيجة شيئاً . وفى هذه الأثناء كان رجل يقعد عند سفح الجبل بتجربة كهذه ، فوجد أن عمود الزئبق لم يتغير (إن ضغط الجو فى هذه الفترة لا بد أنه ظل ثابتاً فلم يتغير) .

استنتج ثان هذا إذاً استخرجه «بسكال» من هذا الفرض الحديد ، فرض أن الجو بحر من هواء ، له ضغط ، ثم جرت التجربة قاطعة بتحقيقه . أو هى على الأقل كانت قاطعة عند بسكال . والحق أننا نحن أيضاً قد نغرى بالقول ، بعد ما كان لتجربة ذلك الجبل من نجاح ، إن فكرة «تورتشلى» عن الجوقد بلغت مبلغ المشروع التصورى الكبير ، مبلغ النظريات . ومع هذا فنحن قد نخاصم تورتشلى فيما كان من فكرته ، ونخاصم بسكال فى الثقة التى أكسبتها إياه تجربته . إن تاريخ العلم منذ زمن «بسكال» إلى اليوم كشف لنا عن خطورة الاستنتاج الواحد ، نستخرجه من فرض عام ، ثم نحققه بالتجربة ، فنثبت صحته ، فإذا بنا نضفى هذه الصحة ، لا على هذا الاستنتاج الواحد وحده ، بل على الفرض أو النظرية بحذافيرها !

إنه من النافع أن نعود بالحديث إلى التجربة التى خالها «بسكال» ودفع إلى ابن أخته « پريار » بأجرائها لنقول إن هذه النظرية الجديدة ، هذا المشروع التصورى الحديد ، الذى ابتدعه «بسكال» ، لا يمكن التدليل عليه بالتجربة المباشرة ، ولو أننا كثيراً ما نسقط هذا السقطة فتحدث عادة كما لو كانت هذه النظرية قابلة للبت فيها بالمباشر

من التجريب . إن قليلا من النظريات ، من الفروض ذات المجالات الواسعة ، يمكن تحقيقه بالمباشر من التجريب .

إن بين الفرض التصورى ، وبين الذى تثبته التجارب ، سلسلة من الاستدلال طويلة كثيرة الحلقات . وقد يترأى ما أقول من ذلك تافهاً ، وما هو بتافه . إن كثيراً من العثرات العلمية وقع عند حلقة من هذه السلسلة الاستدلالية الطويلة . فهذا الطريق ، ما بين الفرض وبين التجارب التى تهدف إلى تحقيقه ، به أشواك تتمزق فتدمى بها قدم الدليل من بعد الدليل . فقد يجد المحرب فى التجربة ما يحسبه مرتبطاً بالنظرية التى يهدف إلى تحقيقها ، وما هو بمرتبط على الصورة التى يراها . وسنعود إلى هذا فى أحوال أخرى تأتى فترى كيف تضلل التجربة مجربها . ولو أنه كان لنا أن ندخل فى علم الطبيعة ، علم الفزياء ، فنحاول تفسير ما وقع فى فزياء القرن العشرين من مصاعب ، إذا لواجهنا مثل هذا الذى نتحدث عنه ، من علاقة ما بين النظريات وتجاربها ، من صعوبات ، ولكن فى شىء قليل من التغيير . وإذا لوجدنا أن الظنون التى حسبتها ، على البدهاة وعلى الفطرة ، مما يسلم به الناظر فيما بين النظريات وما أجرى فى سبيل التدليل عليها من تجارب ، هذه الظنون وهذه المسلّمات كان لا بد من تغييرها ومن تحويرها عندما جئنا نبحث فى السرعات وهى كبيرة غاية الكبر ، وفى دقائق الأجسام وهى صغيرة غاية الصغر^(١) .

ولنعد الآن إلى تجارب « بريار » ، ولنفحصها فى شىء من الدقّة ، وذلك لصلتها الوثيقة بمنطق التجريب والتجربة . إن الاستنتاج الذى

(١) انظر ما ذكرنا عن النظرية النسبية بصفحة ٥٣ .

استخرجه بسكال من مشروعه التصورى الحديد ، من نظريته ، يمكن صياغته هكذا : « إن الأرض إذا كان يحيط بها حقاً بحر من هواء ، وكان هذا الهواء له وزن ، إذاً لتتج عن هذا أن يكون ضغط الهواء عند رأس الجبل أقل من ضغطه عند قاعدة الجبل » . ولا بد لترجمة هذا الاستنتاج إلى تجربة خاصة تُجرى ، من إجراء عملية عقلية فى الذهن غير قصيرة . إذا كان عمود « تورنتلى » مقياساً صادقاً للضغط الجوى ، ثم أجرينا هذه التجربة المذكورة عند رأس الجبل ثم عند قدمه ، إذا لكان طول العمود الزئبقي عن الرأس أقل منه عند القدم ، على شرط أن لا يتدخل فى الأمر عامل يؤثر فى الضغط الجوى أثناء ذلك أو فى طول العمود الزئبقي .

إن « إذا » و « على شرط » فى حديثنا هذا لهما خطورة كبرى . إن « بربار » أراد أن يسد باب واحداً للخطأ ، ذلك احتمال تغير الضغط الجوى وهو يجرى تجاربه ، فأقعد رجلا عند قاعدة الجبل يرعى أنبوبة من زئبق خشية أن يتغير ضغط الجو فيتغير ارتفاع الزئبق . وباب آخر أراد أن يسده ليؤكد لنفسه أن طول العمود الزئبقي مقياس صادق للضغط ، ذلك ما قد يكون فى الزئبق من فقائيع هواء . فعمد إلى الزئبق فأخرج منه كل فقاعة محتملة من هواء . (ذلك أن فقاعة واحدة تصعد من عمود الزئبق إلى ما فوقه من فراغ تنزل بعمود الزئبق نزولاً محسوساً) . إنه لم يصف لنا كيف فعل هذا . والحق أن تطابق نتائج هذا التطابق المطرد يجعل من الريبة طبعه ، أن يرفع حاجبيه عجباً . وأنا نفسى أميل إلى أن أعتقد أن « بريار » غلبه تحمسه لنجاح التجربة على زيادة حرصه فى توخى

الدقة . ولكن لا ضرورة للدخول في موضوع كهذا على طرافته ، ويكفي أن نقول في هذا الصدد إن الدقة في إجراء التجارب وفي تسجيل نتائجها في عام ١٦٤٨ لم تكن بلغت ما بلغته في أيامنا هذه . أجرى « بريار » عدة من تجارب عند عدة من مواضع ، واتبع في إجرائها عدة من قواعد صاغها لنفسه في حذر . والذي نظره فرقمه في كل مرة إنما هو فرق ما بين سطحي زئبق من ارتفاع . وأغلب الظن أنه استخدم مسطرة مقسمة إلى بوصات ، مقسمة كل بوصة منها إلى اثني عشر جزءاً . والمنطق الذي اتبعه « بريار » وهو يقوم بتجاربه هذه كان منطق الصانع أو منطق ربة البيت عندما يعمدان إلى التجريب لاكتشاف طريق جديد إلى هدف عملي . فقد قال « بريار » : « إذا أنا أجريت تجربة « تورثشلي » في هذا الموضع ، ولم أخطئ في إجرائي ، ولم تتدخل أسباب مجهولة فتؤثر في طول العمود الزئبقي ، (وهذا فرض مقصور على هذه الحالة ذاتها) ، فأنا لا شك واجد ارتفاع الزئبق في هذا الموضع أقل من ارتفاع يجده القاعد عند قاعدة الجبل الآن يقيس ارتفاع عمود الزئبق هناك . فكل الذي عرفه « بسكال » وعرفه بريار من هذا الأمر أن عمود الزئبق قد يكون أقصر عند رأس الجبل منه عند قاعدته ، لأسباب عدة : منها أن كثافة الزئبق وكثافة الهواء قد تتغيران (كان معنى الكثافة في عصرهما قد بدأ يتكون) . ومنها أن المسطرة قد يتغير طولها بالارتفاع بها في الجو بضعة آلاف من الأقدام . وبريار نفسه أدرك أن المكان الطلق والمكان المغلق قد يختلف تأثيرهما في عمود الزئبق . وكذلك السحابة السيارة . وهو قام بإجراء التجربة في داخل كنيسة صغيرة ، وفي خارجها ، وحين كان الجو صحوً ، وحين

كان ماطراً . حاول بكل ذلك أن يكشف أثر عوامل متغيرة في نتائج التجربة ، ومع هذا ظل يخرج منها على نتائج واحدة .
 والمهم في هذا الموضوع هو وجود عوامل متغيرة كثيرة في تجربة تجرى لامتحان استنتاج يخرج من فرض أو نظرية . أما فيما يختص بتجربة « بريار » بالذات ، فكل الذي جرى من البحث في هذا الصدد من بعد ذلك لم يكشف إلى الآن عن عوامل متغيرة تنقص ما خرج عليه بريار في تجاربه « الوصفية » من أن عمود الزئبق في أنبوبة تورثلى أقصر عند قمة الجبل منه عند سفحه .

حيدة عن الموضوع : شبان وهواة

إنى أقترح أن أقف قصة ما كان من أمر الهواء في القرن السابع عشر لأعرض في اختصار مثلاً من ظاهرة لا تفتأ تتكرر في تاريخ العلم الحديث . وأعنى بهذه الظاهرة ما يطغى على العلم من حين إلى حين من اهتمام بالغ بوجه من وجوه العلم ، تتبعه دراسات مركزة واسعة تنتشر بدورها في العالم العلمى فلا تكاد أن تدر منه شيئاً . إنها فكرة جديدة ، أو اكتشاف جديد ، أو هو جهاز من الأجهزة جديد ، يفتح حقلاً من حقول العلم فيتكاثر فيه فالحوه . ويدخله الباحثون أفواجاً ، ويتقدم العلم في هذا الحقل تقدماً سريعاً عجيبياً . ثم تتخاذل الهمم ويقل في هذا الحقل الإنتاج . ثم تعقب ذلك فترة خمود وانتظار . إن هذه الظاهرة تتصل اتصالاً غير قليل ، على ما أعتقد ، بالرغبة المعهودة في الشباب

في أن يختلفوا مع أسيانهم فينصرفوا عنهم طلباً لحقوق للبحث جديدة أخرى . وهذا بالضبط ما حدث في دراسة الضغط الجوي في منتصف القرن السابع عشر . ذلك أن « تورتشلي » كان عمره ستة وثلاثين عاماً يوم بعث كتابه المشهور إلى الكردنال « رتشي » (Ricci) و« بسكال » كان عمره أربعة وعشرين عاماً عند ما رسم لابن أخيه تجارب الجبل ، جبل بوى دى دوم . و« بوييل » (Boyle) ، وقد أوشكنا أن ندرس ما صنع في أمر الهواء ، كان عمره اثنين وثلاثين عاماً لما بدأ دراسته للهواء .

ويجب أن نذكر أن هؤلاء الرجال ، هؤلاء الشبان ، كانوا هواة ، ولا شيء غير هواة . فلم يكن بعد جاء الوقت الذي وجد فيه العلم التجريبي مسكناً في الجامعات . وكان على الزمان أن يمضي قرنين كاملين قبل أن توجد معامل الأبحاث وتنشأ المعاهد . نعم أن « جاليليو » كان أستاذاً في جامعة « پدوا » (Padua) ، ولكنه كان آخر رجل أنتج للعلم من هذا المركز الشهير للمعارف الحديثة الناشئة ، أو كاد أن يكونه . وعاش بوييل (١)

(١) هو روبرت بوييل ، صاحب القانون المشهور في علم الطبيعة ، وهو المسمى بقانون بوييل . ومن الغريب أن هذا القانون تسميه الأمم الأوربية قانون ماريوت (Mariotte) ، لاختلاف في الأسبقية إليه . ولد بوييل في قصر لزموور ، بأرلنده ، فقد كان أبوه إرل كورك ، وذلك في عام ١٦٢٧ . وتعلم الفرنسية واللاتينية طفلاً . ودخل مدرسة إيتين الشهيرة وهو ابن ثمانية . وسافر إلى فرنسا برفقة مدرس له وهو ابن أحد عشر . وزار إيطاليا وهو ابن ١٤ عاماً ، فمضى شتاء العام في فلورنسا (عام ١٦٤١) ، وبها جاليليو الشيخ ، على وشك الموت ، فأخذ يدرس ما صنع هذا الرجل العظيم « الراعي للنجوم » . وعاد إلى إنجلترا عام ١٦٤٤ ، وسنه ١٧ عاماً ، فانصرف لدراسة العلوم . ولم يلبث أن اتخذ مكانه من تلك الرفقة من الباحثين التي صارت « الجمعية الملكية » في لندن ، رسم بها شارل الثاني ، عام ١٦٦٣ . واختير بوييل رئيساً لها فأبى لتخرجه من القسم

في جامعة أكسفورد في هذا الوقت الذي نحن ذاكروه ، ولكن هذه الجامعة كانت لمدة قصيرة هي الاستثناء الذي يثبت القاعدة . ذلك أن محط العرفان هذا القديم كان قد امتلأت مناصبه بشبان ، جاء بهم « كرومول » (Cromwell) ^(١) وجيشه . وكانوا خصوم الملكية ، وكانوا على درجات مختلفة من البيوريتانية (Puritanism) ^(٢) ، ولكنهم جميعاً كانوا ممن يقدرون فلسفة « باكون » (Bacon) ويؤمنون بحل المسائل عن طريق التجريب . وذهب « كرومول » ، وعادات الملكية ، وتغيرت شؤون الجامعات مثلما كانت تغيرت أول مرة . والشبان الذين كان « كرومول » أدخلهم إلى أكسفورد ، أقيبل بعضهم ليحلل مكانهم طائفة الأساتذة القداماء ممن ناصروا الملكية .

الذي كان عليه أن يقسمه . وهكذا وهب حياته وثروته للعلم . وفي هذا الكتاب الذي بين يدينا إشارات كثيرة إلى ما صنع . إنما ناحيته الدينية لم تذكر . فهو مع دعوته إلى الفاسفة الجديدة ، محبباً في ذلك دعوة فرانسيس باكون ، لم يتشكك كثيراً في دينه بل زاد به تمسكاً . وفعل أكثر من ذلك . أخذ يدرس اللاهوت ، وفي سبيل ذلك تعلم اللغة العبرانية والسريانية والأغريقية . وفي وصيته ترك مالا ينفق على محاضرات هدفها « الدفاع عن الدين المسيحي ضد غلاة الكفرة من أمثال الجاحدين لله ، والمعترفين بوجوده ، والوثنيين ، واليهود والمسلمين » على أن لا يدخل المحاضر في الخلافات التي بين الطوائف المسيحية . ومات في عام ١٦٩١ .

(١) أليفر كرومول ، حاكم بريطانيا العظمى حكماً كالجمهوري ، بين الملك شارل الأول ، ومن بعد قتله ، وبين شارل الثاني الذي عاد إلى الملك ، أعاده الملكيون بعد وفاة كرومول ، وغير الملكيين طلباً لاستقرار للأمر لم يكن بديلاً منه إلا الفوضى ، ولد عام ١٥٩٩ ومات عام ١٦٥٨ .

(٢) البيوريتانية مذهب مسيحي ، بروستنتيني ، غلا عن البروتستانية في إنجلترا واتهمها بأنها أبققت على الكثير من مشاعر الكليشكة الرومانية . ومن رأيهم في الحياة التفتش ، والتشحم ، واجتناب المباذل ، ووسائل التسلية التي كانت قائمة وقتذاك . وعادوا الدرامة ، فاقص الممثلون بالسخرية منهم على المسرح . وهم الذين ناصروا كرومول في إطاحته بالملكية .

وترك سائرهم الجامعة من ذات نفسه. وما كادوا يخرجون من أكسفورد حتى دخلوا الكنيسة بعد الحديد من إرسائها ، وتولوا مناصب خطيرة ، ولكنهم لم يعودوا إلى أكسفورد. وأكسفورد لم تعد أن تكون للعلم محطاً . والجمعية الملكية (Royal Society) ، التي أسسها وأخرج مرسومها الملكي هذا النفر من العلماء الشبان ، اتخذت لها لندن مقراً .

وفي فلورنسا بإيطاليا حدث مثل ما حدث في إنجلترا . نفر من العلماء الشبان الهواة قاموا في رعاية الدوقات والأشراف يتمون العمل الذي قام به صديقهم تورتشلي ، وكان قد مات موتة باكرة في عام ١٦٤٧ . وكونوا « أكاديمية التجريب » ، واسمها بالإيطالية أكاديمية دل شيمنتو (Accademia del Cimento) ، وظلت تعمل وتثمر في أحسن حال من عام ١٦٥٧ إلى عام ١٦٦٧ في أرض كاثولوكية كاملة الكتلكة ؛ وذلك بعد محاكمة جاليليو الشهيرة وإدانة الكنيسة له . ولكن من الواجب هنا أن نقول إن الظاهر أن الأكاديمية تركت أمر الكون ونظامه فلم تتعرض له .

إن انتعاش هذه الأكاديمية العلمية هذا الانتعاش الباكر حقيقة لا يكاد يسبغها أولئك الذين يبالغون في توكيده الصلة بين العلم الحديث والبروتستنتية .

وبوييل ، يوم توجه إلى العلم ، كان شاباً وكان غنياً . كان ابن رجل عصامي واسع الثراء (إرل كورك العظيم ، وهو إنجليزي كوث ثروته باستغلاله لإرلندا) ، واستطاع أن يكون راعي نفسه ، فكانه . ذلك أن النوع الذي اختاره للتجريب لم يكن قليل النفقة كالذي قام به « بريار » .

كان نوعاً من البحث يحتاج إلى النفقة الكبيرة ، لشراء أجهزة وأجر مساعدين . قال بويل : « إن الدراسة المثمرة للفلسفة التجريبية لا تثمر إلا إذا كان إلى جانب العقل المفكر كيس ملآن بالنقود » . وتابع قوله فقال : « إن على أصحاب المواهب أن يستغلوا أصحاب الثراء من أصحابهم في الكشف عن أسرار هذه الطبيعة » . والذي يقرأ تاريخ حياة بويل يعلم أنه اتبع نصيحته هذه كل اتباع .

اختراع المضخة الفراغية

وعلى ذكر الهواة من العلماء لا بد أن نفرّد هنا بالذكر هاوياً ، هو الذى اخترع المضخة الفراغية (vacuum pump) ، واسمه «أوتو فن جوركه» (Otto von Guericke) . وكان رجلاً من رجال الأعمال ، وكان عمدة بلدة «مجدى بوج» ، ولعب دوراً في الحرب الثلاثينية ، ونهبت بلده انتهاباً فيها ، عام ١٦٣١ . ولعل اهتمامه بالفلسفة التجريبية الحديثة كان ذا صلة باهتمامه بهندسة الحروب . ولسنا ندرى كيف تكونت آراؤه عن الجو وهوائه . وقد يكون قد اهتمدى من ذات نفسه إلى ما كان اهتمدى إليه «تورتشلى» . والمعروف الموثوق به أنه صنع بارومتراً مائياً وبنى أول مكنتة لتفريغ الهواء من وعاء محتويه . ولو أننا نظرنا إلى الوراء لبان لنا بداهة أن اختراعه هذا كان نقلاً عن ذلك الجزء الماص من المضخة الرافعة للماء . فقد حاول «أوتو» بمضخة من النحاس الأصفر أن يخرج الماء امتصاصاً من برميل مليء كل الملاء بالماء ، وذلك بدلا من أن يستخدم

مكبساً. يجرى في اسطوانة يرفع بهما عموداً من الماء كما فعل الناس لرفع الماء بالمضخات المائية من قرون خلت . وصنع أشكالاً مختلفة لاختراعه هذا . وصاحب مجهوده هذا ما يصحب مجهود السابقين البادئين المجاهدين من بعض نجاح وبعض خيبة . ولم ينجح في مسعاه إلا عندما حاول أن يخرج الهواء كما يخرج الماء من وعاء مغلق ، ثم انتهى بأن أخرج الهواء وحده . كذلك وجد أن من الضروري أن يكون الوعاء من معدن ، وأن يكون كروياً حتى يقاوم ضغط الهواء الناتج عليه . وما جاء عام ١٦٥٤ حتى استطاع أن يجرى تجربته الشهيرة



(شكل ٥)

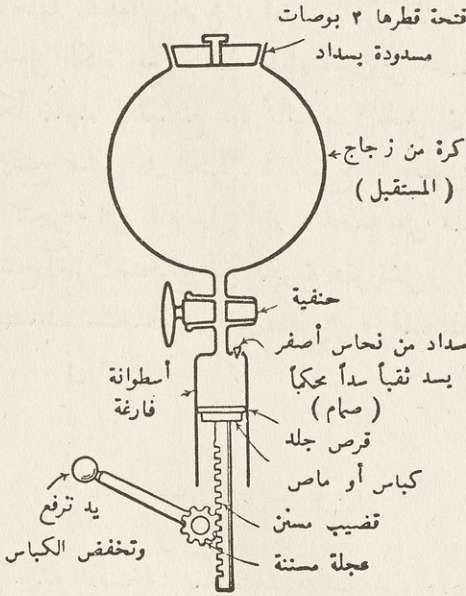
نصفا كرة مجدى برج ، التى صنعها أوتو فن جوركه

تجربة نصفي كرة مجدى بورج ، أجراها أمام البرلمان الإمبراطورى مجتمعاً فى مدينة « راتس بون Ratisbon » ببافاريا (شكل ٥) . نصفاً كرة من البرنز ، جمعها وطابق بين حرفيهما فى إحكام شديد ، تكونت منهما الكرة ، وبداخلها الهواء . أفرغ « أوتو » الهواء الذى بها . وبخروج الهواء من داخل الكرة وقع ضغط الهواء الخارجى وحده على النصفين فماسكا تماسكاً شديداً لم تستطع قوة ثمانية من الخيل أن تفصل بينهما . وأدخل الهواء بفتح صنوبر فى الكرة ، فما أسرع ما انفصل نصفها . إن هذه التجربة التى قام بها « أوتو » هكذا على هذا الملاء قد تعتبر تحقيقاً لاستنتاج آخر استخراج من نظرية «تورتشلى» . ولكن أهم من هذا لما نحن بصدد استخدامه « روبرت بوييل » لهذه المضخة ، مضخة « فون جوركة » ، فى تجاربه .

تجارب روبرت بوييل

علم بوييل بهذه المضخة الجديدة من كتاب نشره أستاذ من الجزويت بجامعة «فرتزبرج» (Wurzburg) عام ١٦٥٧ . فهكذا كانت الأخبار العلمية تصل إلى العلماء ، اعتباراً ومصادفة . وما علم بوييل بهذه المضخة حتى رأى فيها وسيلة لتحقيق استنتاج آخر مستخرج من المشروع التصورى الذى ارتآه «تورتشلى» عن الهواء ، أى من نظريته . وجمع بوييل بين المنطق والخيال الحبيب ، وبهما هدف إلى ما هدف إليه . وما كان هدفه إلا طرازاً من أطرزة الفكر تكرر لدى كثير من الباحثين (٩)

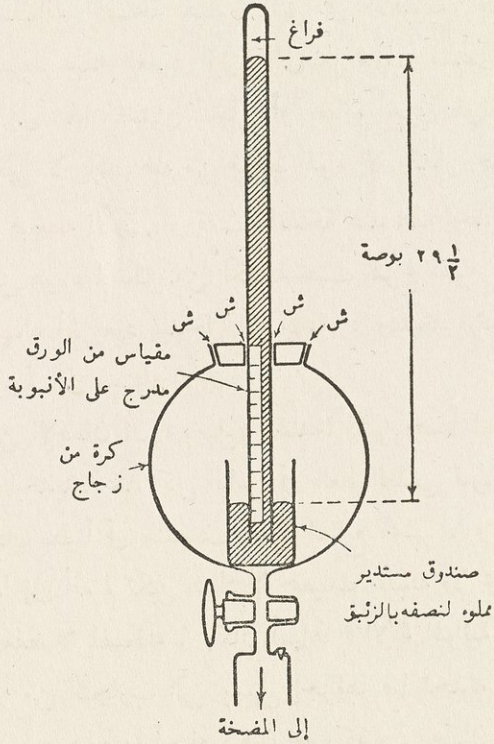
الناجحين في الثلاثة القرون الماضية . يتبدع مبتدع أداة جديدة في العلم ،
فما يكادون أن يعلموا بابتداعها حتى يتفتق خيالهم عن طرائق تستخدم فيها
تلك الأداة في إثبات رأى في العلم أو نفيه . والذي هدف إليه بوييل



(شكل ٧)

وصف بوييل كيف تعمل مضخته قال : عند ما نشد الكباس إلى أسفل (والصمام مغلق)
تصبح الاسطوانة بعد أن غادرها الكباس فارغة من الهواء . وعندئذ تفتح الحنفية فيدخل الهواء
الذي بالمستقبل مندفعاً إلى الاسطوانة المفرغة . فإذا أغلقنا الحنفية ، فأغلقنا بذلك المستقبل ،
وفتحنا الصمام ، ودفعنا بالكباس إلى أعلا . . . طردنا بهذا إلى الجوما بالاسطوانة من هواء .
فإذا نحن كررنا هذا فسوف نأخذ من هواء المستقبل إلى الاسطوانة لنُدفع به إلى الجو ،
وفي كل حال ينقص هواء المستقبل شيئاً فشيئاً

باستخدام المضخة أن يعيد في المعمل ما أجراه « پرياز » في الجبل ،
 جبل « پوى دى دوم » . وغير من مضخة « أوتو فون جوركه » بحيث
 استطاع أن يدخل في الوعاء الذى يفرغ منه الهواء ذلك الجزء الأسفل



(شكل ٨)

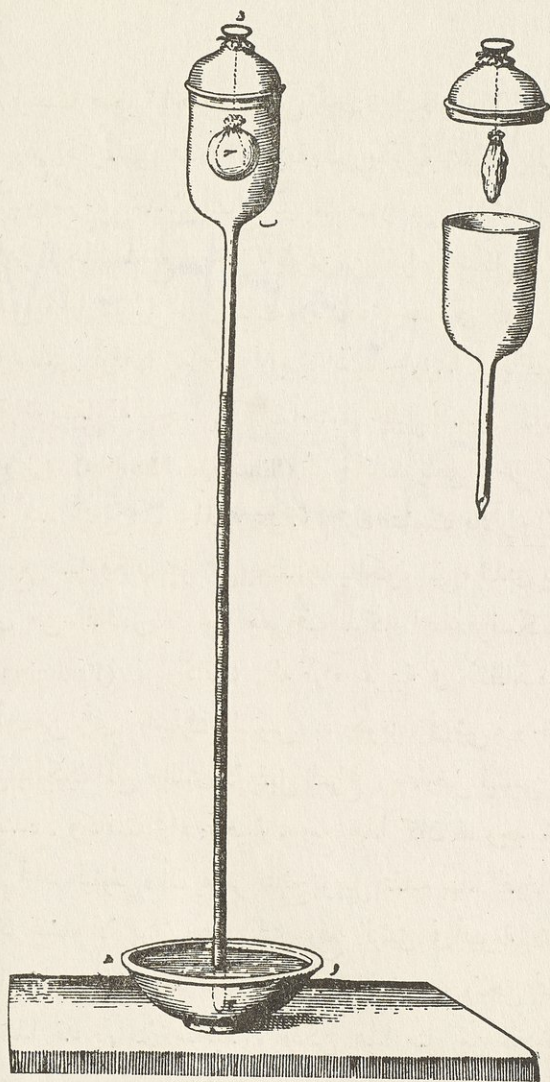
رسم إيضاحى للجهاز الذى صنعته بوييل ليزيل به الهواء من فوق مستودع البارومتر .
 وكورة الزجاج التى بالرسم هى الجزء الأعلى من المضخة . والحروف ش ش تدل على
 المواضع الذى استخدم فيها الشمع ليحكم السد . فإذا اشتغلت المضخة قصر عمود الزئبق

من بارومتر تورتشلى (شكل ٧ و ٨) . وشغل المضخة فأخرجت الهواء من فوق مستودع الزئبق فى البارومتر فانخفض عمود رثبته . قال بلفظه : « ولما تم كل شىء ، حرك الماص إلى أسفل . ونخرج هواء من الوعاء قدر حجم أسطوانة المضخة هبط الزئبق فى الأنبوبة كما توقعنا » . واستطاع أن يهبط بهذا العمود الزئبقى إلى ما قارب مستوى الزئبق فى مستودعه ، لا إلى هذا المستوى تماماً . أو بعبارة أخرى هو استطاع أن يفرغ الوعاء حتى لا يكون فيه من ضغط هواء إلا مقدار جزء من ثلاثة عشر جزء من ضغطه الأول . ووقفت المضخة عند هذا الحد من التفريغ لأنها ، كما ظن هو ، لم تكن من الكفاية بحيث تفرغ الهواء كل إفراغ . ثم هو أذن للهواء أن يعود فيدخل إلى الوعاء ، وعندئذ ارتفع الزئبق فى الأنبوبة بالبارومتر إلى مستواه الأول .

ولقد يظن الإنسان أن «بويل» ، عندما نشر وصفاً لتجربته هذه ، لقيت أفكاره الجديدة عند كل الناس فى العالم العلمى قبولاً . الواقع أن تقدم العلم كان بطيئاً فى منتصف القرن السابع عشر ، ويرجع السبب فى بعض هذا إلى أنه لم تكن هناك لا جمعيات علمية ولا مجلات . نشر بويل وصفاً مفصلاً لمضخته ، وكان أسماها « الآلة الهوائية الجديدة » ، ووصف كثيراً من التجارب التى يسهل إجراؤها فيما تحدته « الآلة » من فراغ . وكان من هذه ما أجراه « فون جوركه » ، وكان منها ما أجراه أعضاء أكاديمية التجريب ، « أكاديمية دل شيمنتو » الإيطالية التى سبق ذكرها . ولم تكن طريقتهم فى إيجاد الفراغ بالطريقة اليسيرة ، فقد أحدثوه فى أعلى أنبوبة تورتشلى بعد أن وسعوا أعلاها حتى يتسع لما يدخلونه فيه

من أشياء ليست صغيرة الحجم ، هي أجهزة التجارب التي يقصدون إلى إجرائها . وهم إذ يقبلون هذه الأنبوبة البارومترية مملوءة بالزئبق ، في مستودع البارومتر ، يحدث الفراغ في ما صار من أعلاها الموسع . لقد صار أعلاها ، هذا الموسع ، خزانة فارغة من الهواء (شكل ٩) .

إن من قرأوا لبوييل ، في ذلك الزمان ، وجدوا في الذي وصف من تجارب ، والذي أردفها به من آراء ، شيئاً جليداً لم يألفوه . وأسرع اثنان من قرائه ينتقدانه تهجماً . وكان أحدهم جليل القلم . كان الفيلسوف «توماس هوبز» (Thomas Hobbes) . وكان يعنى على الجامعات الإنجليزية أشد النعى أنها محافظة عتيقة لم تزل تتشبث بالآراء الأرسطالية القديمة ، ومع هذا فكان هو ممن يعتقدون بالكون الملىء الذي يكره الفراغ وكان الثاني من نقاده رجلاً غير معروف الذكر اسمه «فرانسكس لينوس» (Franciscus Linus) ، وكانت له آراء غريبة في الظاهرة التي رآها «تورتشلى» أول من رأى . واشترك «لينوس» «وهوبز» في شيء واحد ذلك أن كليهما آمن بالكون الملىء الذي لا يقبل الفراغ . وعارض لينوس آراء بوييل بآراء من عنده . وكانت آراء عجيبة ، ومع هذا كان لها وجه يجرى الناس بتصديقها . أراد «لينوس» أن يفسر نتائج بوييل فتقدم بهذا الفرض البدائي : فرض وجود غشاء لا يرى ، هو الذي رفع الزئبق في أنبوبة «تورتشلى» . وسمى هذا الغشاء جبلاً . وقد نعلق على هذا الفرض ، ونحن نمر به مرأ ، فنقول إن هذا قد يتراءى سخيفاً ، ولكن هذا مثل من الفرض يبتدع ابتداءً استجابة لموقف خاص ، وهو إجراء غير نادر الوقوع في تاريخ العلوم . أعنى أن الناقد يجد نفسه في موضع من الجدل لا يحمد



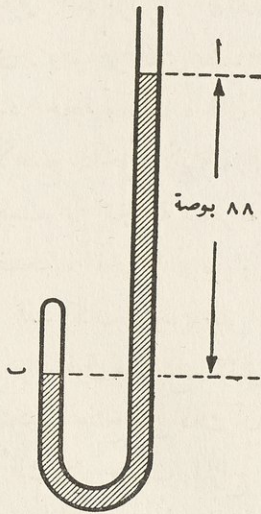
(شكل ٩) جهاز تجربة قامت بها «أكاديمية التجريب» في فلورنسا . وهي ترينا كيف تتمدد المشافة ، أو كيس قابل للتمدد مثلها ، إذا هي وضعت في فراغ تورنتلي

فيخرج منه بفرض خاص كهذا يبتدعه . وفي هذه الحالة بالذات استطاع لينوس ، لدعم فرضه هذا ، أن يأتي بملاحظة يراها الناس معقولة مقبولة . قال ما معناه : ضع إصبعك تسد به أعلى الأنبوبة ، أنبوبة تورثشلي ، وهي مفتوحة الأعلى ، تحس في أصبعك شد الحبل (ومثل هذا يمكن حسه بالأنبوبة الماصة التي بالشكل رقم ١) . فأى حجة تتصل بحس الشخص منا أقوى من هذه وأكثر إقناعاً ؟ إنك فعلاً تحس لحم أصبعك يشد في الفراغ الموجود فوق عمود الزئبق . إن هذا الغشاء الخفي هو الذي يشد لحم إصبعك إلى أدنى . وهو هو الذي يشد عمود الزئبق إلى أعلى !

ورد بوييل على هذه الحجة وأمثالها ، قال إن ضغط الهواء الخارجي هو الذي يدفع بلحم الأصبع داخل الأنبوبة البارومترية . ولكن بوييل كان حريصاً على أن يجيب عن تجربة بتجربة . ورأى أن إجراءه في العمل لتجارب ، بالمضخة ، أجراها « بريار » على الحبل بالأنبوبة البارومترية ، لا تكفي . فقد كان لينوس علق على تجربة بوييل فقال إنه بتفريغ الوعاء ، من هوائه فوق مستودع الزئبق ، شدت هذه الأغشية الخفية الزئبق في هذا المستودع ، ونتج عن ذلك أن انشد الحبل الذي بأعلى أنبوبة البارومتر . والحق أنك إذا أعطيت المزاج اللازم فإنك لتكاد ترى هذا الحبل يعمل كما يعمل الحبل من المطاط ، كلما رفعت عمود الزئبق في الأنبوبة أو خفضته ، بتفريغ الوعاء من هوائه حيناً ، وملئه حيناً .

ولم بوييل في سرعة أن لينوس لا بد فارض فرضاً جديداً يفسر به ثبوت ارتفاع البارومتر ، أو ثباته التقريبي ، عند مستوى البحر . وقد اضطر لينوس بفرض أن هذا الحبل لا يستطيع أن يرفع عموداً من

الزئبق فوق التسع والعشرين بوصة ونصف أو نحوها . وعلى هذا أخذ بوييل يصنع جهازاً بسيطاً لتجربة جديدة ، أنبوبة من الزجاج لواها حتى صار لها شعبتان متوازيتان ، إحداهما طويلة والأخرى قصيرة . والشعبة الأولى مفتوحة الأعلى ، والشعبة القصيرة مغلقة الأعلى (شكل ١٠) . وصب في الأنبوبة ، في الشعبة الطويلة المفتوحة طبعاً ، زئبقاً ، حتى صار فرق ما بين المستويين ، مستوى الزئبق في المستودع ومستواه في



(شكل ١٠)

عند ما مص بوييل الهواء بضمه عند الفتحة « ا » ، ارتفع الزئبق في الشعبة الطويلة . فإذا صح أن غشاء من طرف لسانه هو الذي رفع الزئبق إلى أعلى ، إذ أن لكان هذا الغشاء في هذه الحالة رافعاً عموداً من الزئبق طوله ٨٨ بوصة . وهذا يعارض فرض لينوس الذي يقول إن الغشاء غشاء لا يرى وأنه لا يستطيع أن يرفع عموداً من الزئبق طوله أكثر من ٣٠ بوصة .

الأنبوبة ، ٨٨ بوصة . ثم أخذ يمص الهواء بضمه من فتحة الأنبوبة العليا فوجد أن مستوى الزئبق ارتفع فعلا ارتفاعاً محسوساً . قال بويل : « وهذه ظاهرة لا يمكن تفسيرها بالحبل الذى ابتدعه لينوس ، ذلك أنه هو اعترف بأن هذا الحبل لا يستطيع أن يرفع عموداً من الزئبق طوله أكثر من ٢٩ أو ٣٠ بوصة من الزئبق » .

ومن هذه التجارب ، التى قصدها بويل نقض الأفكار الغربية التى جاء بها لينوس ، خرج بويل عفواً بقياسات حجمية ، خرج منها بقانونه المشهور الذى يصل بين حجم الغاز وضغطه . ولكننا نرجى عمل بويل هذا إلى باب قادم . ولعل من الخير أن نختتم هذا البحث فى هوائيات القرن السابع عشر بذكر تجارب بارعة أجراها بويل يحاول بها عبثاً أن يجد الدليل على وجود ذلك « المائع الخفى » (subtlefluid) الذى فرض الفيلسوف "ديكارت" (Descartes)^(١) وجوده ، وبوجوده آمن كل من اعتنق فكرة الكون الملىء الذى لا يقبل الفراغ أبداً . وذكر هذه التجارب البارعة التى قام بها بويل ، تروق الناظر فى تاريخ العلوم لأنها أخفقت . والمخفقات فى تاريخ العلم قليلة الذكر ، فالذى يذكر فيه

(١) هو رينيه ديكارت ، الفيلسوف الفرنسى الشهير ، ولد عام ١٥٩٦ ومات عام ١٦٥٠ . بدأ حياته فى الهندية ، وحارب فى هولندا وبافاريا . وفى عام ١٦٢١ أقام فى هولندا وانصرف إلى دراسة الفلسفة وأراد أن ينشئ فلسفة جديدة ، على أن ينسى ما سبق من فلاسفة ، بل ما سبق من نفسه ، ومن علمه ومن نشأته ومن ميوله كائنة ما كانت . والكنير يعدونه أول فاتح لباب الفلسفة الحديثة . وإلى جانب الفلسفة درس الرياضة ودرس الطبيعة . وكان الناس فى زمانه ينظرون فى الكون ، فرأى أن الكون ملىء بالآثير وأن الأجرام تتور فيه كالدوامات فى الماء . ودعاه ملك السويد إلى السويد ، وذهب إلى استكهلم ومات فيها .

إنما هي المحاولات الناجحة لتحقيق استنتاجات تستخرج من مشرعات
تصورية أى نظريات قدر لها البقاء .

اتبع « هوبز » الإنجليزى « ديكارت » الفرنسى فاعتقد مثله أن
الكون ملىء بشىء مائع رقيق دقيق هراب غلاب ، أكبر صفة فيه
خفاؤه . وهو قد أدخل فى معتمده هذا الجديده ذلك التفسير الأرسطالى
القديم الذى يفسر لنا حاجة برمبل الحمر إلى ثقل فى أعلاه لكى يندفع
خمره من ثقب فى أدناه . والظاهر أن « هوبز » مال إلى الإقرار بأن بوييل
حينما شغل مضخته الهوائية قد أخرج شيئاً من وعائه الكروى ، ولكنه
أبى أن يعترف بوجود « فراغ حقيقى » .

وكان بوييل رجلاً كثير الحذر ، فى هذه وفى غيرها . فهو لما أثار
هذا الموضوع فى تقريره الأول ، تساءل : أصدقت تجاربه حقاً فى
التدليل على وجود فراغ حقاً فى هذا الحيز الذى انتزع منه الهواء ، فراغ
كامل خال من كل جسم ذى جرم ؟ ثم أخذ يشرح العقبات القائمة
فى سبيل اقتناع من قال لا ومن قال نعم . قال فى تقريره : « إذا نحن
نظرنا من جانب واحد أمكننا القول بأنه على الرغم من إخراجنا الهواء
من الوعاء ، فقد لا يكون وعائنا خال من كل شىء فيه ، ما دام أن
جسمنا تتركه به نراه بأعيننا . وهذا لا يكون إلا أن يكون الوعاء منفذاً لأشعة
الضوء وهذه الأشعة إما انبعاثات جثمانية من جسم مضىء ،
وإما أن الضوء الذى تحمله هذه الأشعة ينتج عن حركات تجرى سريعة
فى مادة خفية مرآقة لا تحس ولا ترى . (وهنا نستطيع أن نعلق على
قول بوييل فنقول إن هذين الاحتمالين فى تفسير ظاهرة الضوء كان يقرؤها

القارئ منذ خمسين عاماً فيدرك طبعاً أن الصحيح أحدهما ، وأنه إن صح احتمال فقد بطل الآخر . ولكن غير هذا الحال هذه الأيام . وإلى هذا أشرنا في الباب الثاني من هذا الكتاب) . واستطرد بوييل في تقريره يقول : « ومن ناحية أخرى نستطيع أن نقول إن هذه المادة الخفية المراقبة ، التي ترى بواسطتها الأجسام ، تنفذ من الجدران الزجاجية للوعاء » . ثم وازن بوييل حجج المتجادلين ، على كل من الجانبين ، وخرج يقول : « ولست بمجتري أن أحتمل الحكم في خصومة صعبة كهذه » .

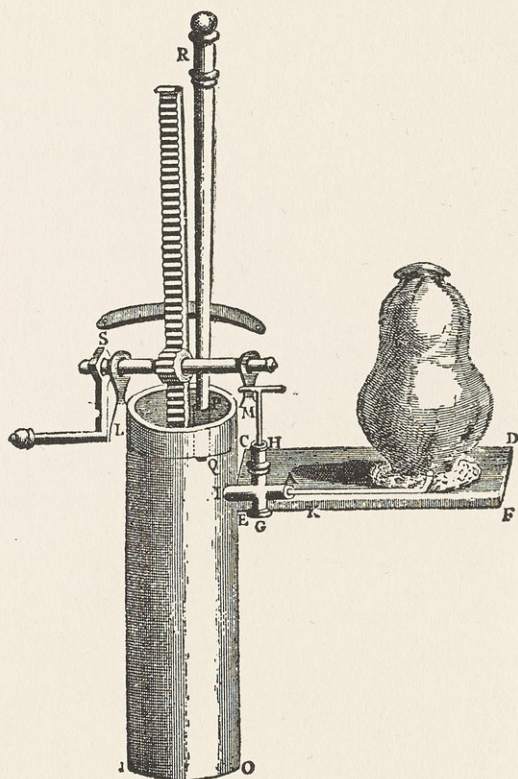
إن بوييل لم يكن باستطاعته ، بمضخته هذه الأولى ، أن يحل مسألة شائكة تتضمن البحث عن « مائع خفي » . ولكنه ما لبث أن ضاق بمضخته هذه فصمم أخرى أحسن منها . وكان لهذه المضخة الجديدة وعاء منفرد يمكن إفراغه . وبهذا الوعاء المنفرد ، بهذا المستقبل ، وبمقياس ابتدعه لقياس ما بقي في هذا المستقبل بعد إفراغه من ضغط ، بهذين خطأ بوييل خطوة واسعة نحو أساليب التجريب كما نعرفها في هذه الأيام . ولست أغالى إذا قلت إن روبرت بوييل كان أب العلم التجريبي الحديث . فهو لم يكن باحثاً بارعاً حذراً فحسب ، بل كان إلى جانب هذا أول رجل وضع المثل الأول للتقرير العلمي كيف يكون كاملاً دقيقاً .

ونشر بوييل في عام ١٦٦٧ تقريراً طويلاً عن كثير من التجارب التي أجراها بمضخته هذه الثانية . ومن هذه التجارب ما سوف نتناوله في الباب القادم . ولكن كلامنا هنا إنما هو عن تلك البضعة من التجارب التي عنوانها « محاولات في بحث المادة الرقيقة الخافية التي ابتدعها ديكرت ،

أو الأثير ، من حيث حسنها وحركتها »

اعترم بوييل عزمًا مؤكداً أن يبحث في فرض عظيم قد نسميه مشروعاً تصورياً ، أى نظرية ، أو لا نسميه . وهذه الصعوبة في التسمية وجدنا مثلها في تسمية الأثير حامل الضوء ، أثير القرن التاسع عشر . والحق أننا نستطيع في شئ من الرحابة أن نجعل من الأثيرين ، أثير ديكارت ، أثير القرن السابع عشر ، وأثير القرن التاسع عشر ، شيئاً واحداً ونسمى هذا الفرض ، فرض الأثير ، فرض المائع الخفى ، مشروعاً تصورياً ، أى نظرية لا يزال لها نفعها ، على الأقل للأغراض التعليمية ، في القرن العشرين .

إنه لا بوييل ، ولا أحد غير بوييل يستطيع بطريقة مباشرة أن يحقق صحة الفرض القائل بوجود « مائع خفى » ، كما لا يستطيع أحد أن يحقق بطريقة مباشرة نظرية تورثلى فيما يختص بالفراغ . وهذا معنى جدير بالاعتبار كل الاعتبار . إن الاستنتاجات لا بد أن تشتق أولاً من المشروع التصورى العظيم ، من النظرية الكبيرة الضخمة ، ثم تصبغ هذه الاستنتاجات بدورها أساساً لسلسلة من التليل تنهى بفرض محدود . وهذا الفرض المحدود هو الذى يمكن تحقيقه عملياً أخيراً ، وتقضى فيه التجربة بنعم أولاً . إن بوييل لا يحلل نتائجه أو يفصل إجراءاته بحيث يفرق في وضوح بين أن يكشف المرء عن وجود « مائع خفى » عام ، وبين أن يكشف عن وجود مائع خاص له بعض صفات خاصة ولكن هذا الفرق (وهو جوهرى) مفهوم ضمناً في نتيجة إحدى تجاربه . ففيها يقول تصريحاً أنه إذا كان فى الوعاء المفرع أثير وجب أن يكون



(شكل ١١)

شكل يوضح الجزء الأعلى لمضخة بوييل الثانية والنصف الأسفل لها كان في جوهره هو النصف الأسفل لمضخته الأولى . وقد قطع السطح CDEF ليظهر لنا الأنبوية AB التي منها يفرغ الهواء من المتقبل إلى الجو عن طريق الصمام HG .

هذا الأثير أرق من الهواء إذا ما رقق الهواء مائة مرة ، وفي معنى محدود كهذا لا يستطيع المرء أن يخاصمه أبداً .

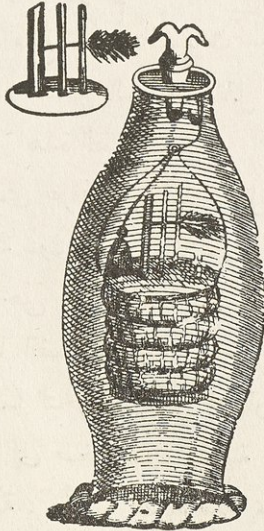
إن الذى فعله بوييل كان باختصار هذا : إنه فرض وجود مائع له صفات خاصة حدد معناها ما تصوره من تجارب . ثم إنه استنتج مما وصف لنفسه من مشروع تصورى أعم وأكثر إبهاماً ، بعض استنتاجات . وهذه الاستنتاجات قادت به بدورها إلى الأسلوب التدللى الذى يقول « إذا فرضنا كذا إذاً وجب أن يكون كذا » ، وقاده هذا الأسلوب التدللى إلى سلسلة من تجارب معينة . وكانت كل نتيجة من نتائج هذه التجارب سالبه . وتراكم هذه النتائج السالبة لهذه التجارب المعينة رجح أن لا يوجد مائع خفى بالصفات الخاصة هذه التى فرضت أنها صفاته . ولكن هذه النتائج السالبة لم تقل بالطبع شيئاً عن وجود مائع خفى له صفات غير هذه الصفات .

إن المائع الخفى الذى عرفته تجارب بوييل هو مائع يشابه الهواء العادى ، وهو فى ضغطه دون جزء من ثلاثين جزءاً من الضغط الجوى أو نحو ذلك . والهواء حتى إذا خفف إلى هذا الحد يمكن تحريكه بضغطة سريعة يضغطها الضاغظ على منفاخ أو من محقن ، والتيار الهوائى الذى يتولد من هذا التحريك يمكن إظهاره والتدليل على وجوده . وقد خفف بوييل الهواء إلى ضغط دون البوصة من الزئبق فى وعاء من زجاج ، وجعل فيه ريشة ، وأثبت أن الريشة يمكن تحريكها فى هذا الهواء الخفف بنفخة سريعة من منفاخ أو محقن (شكل ١٢) .

وقد اضطر بوييل إلى أن يفرض أن المائع الخفى الذى هدف إلى

كشفه كان بحيث أن لا يفرّغ من الوعاء بالمضخة ، أو إذا هو فرغ
فما أسرع ما يعود إليه من خلل السداد . ذلك لأن صفة من الصفات
التي افترضت في هذا السائل الخفي أنه يستطيع أن ينفذ من صماماته ،
أو من فتحات سدها بالشمع ، فيعود إلى الوعاء ، الذي فرغ .

وكان عنده من الأسباب ما يدعوه إلى الظن باحتمال وجود مائع
كهذا له من قوة النفاذ ما وصفناه . وليس هذا بدعاً ، فبويل ، ككل
من قام بتجارب فيها إحداث فراغ ، عرف معنى التنفيس ، ومعنى
ما يحدثه التنفيس من عنت . ولقد ذكر بويل في أول ما كتب عن



(شكل ١٢)

صورة للمنفخ الذي صنعه بويل في محاولته إيجاد شيء يملأ الفراغ أرق وأخفى من الهواء

هذه البحوث أنه ليس من غير المحتمل أن جزءاً من الهواء كان من القدرة على الإفلات بحيث أنه تنفس من ثقب ظنّها غير موجودة .

وقد يميل القارئ إلى أن يعتبر أن ما حاوله بويل من إثبات وجود أثر ديكارت سخفاً وعبثاً صبيانياً . ولكنى أرى أن الذى صنع بويل مثل طيب لسلسلة من التجارب يحسن إجرائها فتعطي أنتجة سالبة مؤداها الحكم على نظرية ما بأنها مما لا يحتمل صحته . وهذه التجارب قد تراءى بدائية في ظل نظريات يؤمن بها العلماء اليوم إيماناً سهلاً . ولكن يجب علينا أن نذكر دائماً أنه ، في حدود ما كان اكتشف من عرفان في القرن السابع عشر ، كان من الجائز جداً في العقول أن هذا الهواء مكون من مادتين تختلف إحدهما عن الأخرى في قدرة النفاذ من الثقب الصغيرة . وهذا الاختلاف في قدرة النفاذ من ثقب نعرفه نحن كل العرفان عند ما نريد أن نفصل مسحوقاً من سائل ، بالترشيح . ولم نذهب بعيداً ونحن نعلم اليوم أن عناصر الهواء ، لا سيما الأكسجين والأزوت ، يختلفان اختلافاً صغيراً في سرعة مرورهما في أنبوبة ضيقة كبيرة الضيق . ولكن هذا الاختلاف الصغير هو من الصغر بحيث لم يكن ليكشف أمره أى جهاز من أجهزة القرن السابع عشر أو حتى من أجهزة القرن الثامن عشر . والحق أننا نعرف اليوم أن الفرق الكبير في « التخصّي » الذى بحث عنه بويل في سبيل الكشف عن ذلك المائع الديكارتي ، لا يمكن أن يوجد في أى مخلوط من غازات . ذلك أن من طبيعة الغازات أن لا تسمح بأن يوجد في خليط منها اختلاف كبير في التوزع كالذى قد يوجد في مخلوط من ماء وجرين دقيق الحبات معلق

فيه ، أو حتى كالذى يوجد فى اللبن أو فى الدم ، وكلاهما أخلاط من ماء وأشياء أخرى . على أن هذا كله لم يعرف إلا بعد قرن من عهد بويل .

ومضى بعد هذا قرن أو أكثر قبل أن يجيء المشروع التصورى الذى نستخدامه الآن فى تفسير كيف يتطبع الهواء ويتطبع سائر الغازات (النظرية الحركية للغازات Kinetic theory) .

إنى فى استعراضى الآراء التى كانت فى القرن السابع عشر فى الهواء وفى الضغط الجوى لم أكد أشير إلى أن الهواء ، على نقيض الماء ، سهل ضغطه . وهذه حقيقة لا يذكر بها اليوم من الناس أحد لشيوعها وبداهتها أما فى القرون الماضية فن الطريف أن يتبين المرء أن هذه الحقيقة نالت قليلاً من الذكر قبل أن ينشر "بويل" نتائج تجاربه هذه . نعم إن "تورتشلى" فى كتاب من كتبه الشهيرة التى وجهها إلى "الكردينال رتشى" (Ricci) أراد أن يصف كيف تنضغط مادة فتضغط على السطح الذى يحملها ، فشبهها بعمود من صوف . ولكن طريقته فى إحداث الفراغ كان من الممكن شرحها بدون ذكر ما للهواء من انضغاط كبير . "وبسكال" يؤكد فى كتاباته الشبه بين ضغط الماء وضغط الهواء . وهو قد ذكر التشبيه بعمود الصوف ، ولكنه نظر إلى الهواء فى أكثر ما كتب على أنه مادة كالماء إلا أنها أقل منه كثافة ، وأقل كثيراً . أما "بويل" فقد أكد مراراً وتكراراً أن الهواء ينضغط ، وأكد ما فى هذه الصفة التى للهواء من خطورة . ووصف الهواء ، فذكر ضغطه ، وأسماه « زنبك الهواء » .

إن الذى يبحث عن مثل بسيط « للتصور الذهنى يخرج من تجربة »

فإنه واجد هذا المثل حاضراً في عودة الفكرة التي تقول بأن الهواء مائع مرن . ذلك أن طريقة «بويل» في إحداث الفراغ اختلفت عن طريقة «تورتشلي» وعن طريقة «بسكال» ، وتضمنت استخدام مضخة . ونحن اليوم ، إذا أردنا أن نحس « بزنبك الهواء » ، فما علينا إلا أن نشغل مضخة هواء . وهذه المضخة ، إن كانت لضغط الهواء ، كالمضخة التي تستخدم في نفخ إطار لسيارة ، فأنت واجد منها ، وأنت تدفع مكبسها إلى أسفل ، بما يشعرك بأنك تدفع عموداً من الهواء مطاطاً . فإن كانت المضخة للأفراغ ، لا للكبس ، فأنت شاعر بمثل ذلك وأنت تدفع المكبس إلى أعلى . والواقع أن فحص أى مضخة لإفراغ الهواء ، بنيت مؤسسة على طريقة «فون جروبيك» (شكل ٧) ، يدل على أن المضخة ما كانت لتعمل لو كان الهواء لا ينضغط كما لا ينضغط الماء . إن التمدد السريع للهواء من الوعاء المفرغ هو الذى يضمن دخوله إلى الأسطوانة المفرغة للهواء بينما يخرج منها مكبسها . وبكل تحريكة كاملة للمكبس يخرج من هواء الوعاء جزء يتوقف مقداره على نسبة سعة الوعاء المفرغ إلى الأسطوانة المفرغة . إن بويل ، وهو رب التجربة العظيم في القرن السابع عشر ، لا يمكن أن يعطى فضل السبق ، على إطلاقه ، إلى فكرة أن الهواء ينضغط ، ولكن الأرجح أنه اهتدى إليها مستقلاً ومن المؤكد أنه أول رجل رأى لها ما لها من خطورة .

إننا إذا وصفنا الهواء والماء وصفاً تقريبياً لقلنا أن الهواء يقبل أن ينضغط سهلاً ، وأن الماء لا يكاد أن يقبل انضغاطاً أبداً . وهذا الوصف ، الذى لا يتعرض للمقادير ، كان نافعاً في وقت كان فيه العلم بادئاً . ولكنه لم

يلبث أن صار غير كاف ، وصار لا بد من تقدير ومن مقادير . وكان لا بد للتقدير من قياس ، ومن دخول الرياضة لتحديد ما يدور في الرأس من آراء مجردة . وانتقل بوييل من آرائه الوصفية عن الهواء إلى تقدير ما به من مرونة . وقد عاجلنا هذا فيما عاجلنا في باب قادم (الباب السادس) أفردناه للحديث في التجارب الكمية وما لعبت الرياضة من أدوار .

الباب الخامس

أطرزة متكررة في البحوث التجريبية

في الباب السابق أتينا على عدة من أمثلة لطراز واحد متكرر من الأطرزة المتكررة في البحوث التجريبية ، يوضح لنا كيف نحقق بالتجربة الاستنتاجات المستخرجة من مشروع تصوري جديد ، أو بلفظ آخر من نظرية جديدة . وهذه الأمثلة ذاتها قامت ترينا كيف يثمر مشروع تصوري جديد فيؤدى إلى تجارب جديدة . فتجربة «تورشلي» ، وصعود بريار جبل بوى دى روم ليجرى فيه ما يجريه ، وتجارب «بوييل» التي أعاد فيها في المعمل ما صنع بريار على الجبل ، كل هذه أمثلة تاريخية للطرزين المذكورين كيف تأديا . وفي كل هذه كان المشروع التصوري ، أعنى النظرية ، مشمراً . وفضلا عن هذا فانتجة التجارب مالت إلى تحقيق ما خالته النظرية من فروض . وعلى النقيض من ذلك أدى بحث «بوييل» عن مائع مستخف هراب إلى نتائج سالبة ، أدت بالبحث إلى التوقف . وعلى هذا وجب الحكم بأن فكرة المائع المستخف على ما تصوره «بوييل» كانت في جوهرها غير مشمرة . وقد ننعها بالبطلان إذا نحن جانبنا الحذر الزائد فيما نقول وما نحكم . وأقل ما نقول فيها إنها فكرة كل ما خرج عنها من استنتاجات لم يستطع تحقيقه . والفكرة التي لا يخرج عنها إلا القليل من الاستنتاجات ، ثم لا يؤدي تحقيق هذه الاستنتاجات إلا إلى

نتائج سالبة ، فكرة لا يمكن على أى أساس أن نسميها مثمرة .
 إنا فى هذا الباب سندرس بضعة من أمثلة بسيطة لبعض الأطرزة
 التى تتكرر فى التجريب العلمى . ودراسة هوائيات القرن السابع عشر
 لا شك لهذا الغرض نافعة مجزية . وفيها أمثلة كثيرة ترينا وجوهاً رائعة من
 وجوه التبصر والتحليل ، والاستقامة إلى الهدف حيناً ، واللف والدوران حوله
 حيناً ، أشبه شىء بالذى يجرى فى ميدان الحرب من كر وفر . إلا أنه
 ينقص هذه الوجوه وجه واحد نفتقده أكبر افتقاد . ذلك أنه من العسير
 أن نجد فى بحوث هوائيات القرن السابع عشر مثلاً للخاطرة الحافظة تشعلها
 العبقرية بغتة فى رأس رجل ، فيقوم لتوه يرسم لنا من جرائها خطوط نظرية
 فى العلم جديدة . لقد جاز ان يكون هذا ما وقع فى رأس "تورتشلى" لما جاء
 بنظرية فراغه ، ولكننا لا نستطيع أن نقول فى هذا شيئاً لأننا لا ندرى من
 تاريخ هذه الفكرة شيئاً . ولكن هذا الوجه الناقص سوف يتأتى لنا
 استتمامه فى الباب السابع ، عند ما نبحث فى الثورة الكيماوية . وبصرف
 النظر عن هذا النقص ، فإننا واجدون كل العناصر الجوهرية اللازمة لتقدم
 العلم عن طريق التجريب فيما قام به "روبرت بوييل" ، وقام به امزامنوه ، من
 بحوث . إن فكرة "بوييل" ، فكرة "زنبرك الهواء" التى ابتدعها ، وذكرها أول
 ذاكر فى مناقشته نتائج تجاربه ، إن هى إلا مثل للصورة الذهنية كيف
 تخرج من تجربة . كذلك الأمثلة عدة ، للآلة مخترع ، أو للجهاز
 يحسن أو يبتدع ، فينتج هذا تقدماً فى العلم غير يسير . ويكفى للتدليل
 على هذا ذكر مضخة فون جروبيك ، والآلات الهوائية المختلفة الأشكال
 التى بناها «بوييل» ، وبارومتر «تورتشلى» . فكل هذه فتحت للتجريب حقلاً

جديداً من بعد حقل جديد . على أن هذه الأجهزة وحدها ، وما يخرج عنها من نتائج وحدها ، لا تؤدي إلى تقدم في العلم . فلا بد لأن تؤدي هذه الأشياء عملها ، وتؤتي ثمارها ، من وصلها بالنظرية الجديدة ، بالمشروع التصوري العام ، وهي تتصل به بسلسلة من بنات الفكر ليس عنها غناء وأنت واجد سلسلة كهذه في التجارب البسيطة ، وهي التي على بساطتها تاريخية عظيمة ، تلك التي ابتدعها « بسكال » و « بويل » ووصفناها في الباب الذي سبق .

وتاريخ الهوائيات هذا الباكر فيه الأمثلة العديدة التي تظهر خطورة التعرف على العوامل المتغيرة التي تحيط بظاهرة أو بتجربة . إنا نستطيع أن نفتح تقرير بويل الذي أسماه « في زنبك الهواء » ، وأن نفتح أى صفحة فيه ، لنجد فيها مادة نصنع منها خطبة نؤكد بها ضرورة التحكم في أمثال هذه العوامل المتغيرة . ولإيضاح هذا سوف نأتى في اختصار على دراسته انتقال الصوت في الفراغ . وهذه الدراسة ستري القارئ نوعاً من التجريب لعب دوراً نافعاً في تقدم البحث العلمي : باحث علمي ، أمامه أداة جديدة أو قديمة دخلها التحسين فتجددت . وينظر إليها فيعلم أنه بها يستطيع أن يعيد تحقيق أمر سبق تحقيقه ، يدفعه إلى ذلك ما يحسه في هذا الأمر من لبس أو إبهام . وعنده أنه لن ينكشف له بالذي يصنع كشف ثوري خطير ، أو على الأقل إن احتمال ذلك جد قليل . والصور الذهنية والمشاريع التصورية الفكرية التي تتصل بما يعترزم أن يصنع أشياء معروفة مرضية عند العلماء مستقرة . ومع كل هذا فالباحث يقبل على ما هو معترزم من تجارب . إنه لا يؤمن بأنها ستؤدي به إلى شيء خطير ،

ولكنه يرى في مسألة بنادتها أنها رُبِطت ولم يحكم رباطها فهو يريد أن يحكمه بربط أطراف له متهدلة . واختصاراً تعرض للبحاث أحياناً حالة لا تتطلب البحث العاجل الخطير ، ومع هذا يقومون ببحثها ، يغيرهم به أن أداة للبحث جديدة حضرت ، وأن أسلوباً جديداً من أساليب الهجوم على مسألة قد توفر . وعملهم هذا لا شك نافع ، فالحكم في قضية من قضايا العلم ، لا يبنى على دليل أو دليلين أو ثلاثة ، وإنما على كثرة من أدلة ، وكلما زادت هذه الكثرة زاد الحكم وثوقاً . وقد يرى بعض القراء أن ما سنورده في الصفحات القادمة من التفاهة يمكن ولكنه من أجل هذه التفاهة سيكون نافعاً . ذلك أنه من الأضرار التي تنشأ من حكاية تاريخ العلم لغير العالم ، بعرض نظريات العلم الكبرى وتصوراته العظمى ، أن يتأثر خاطئاً فيحسب أنه ليس من خطير في العلم غير هذه النظريات وهذه التصورات . كتب «كريسي» (E.S.Greasy) كتابه «الوقائع الخمس عشرة الفاصلة في حروب الدنيا» ، فإذا كان له من أثر في القارئ العادي ؟ خلق في ذهنه صورة شوهاء من تاريخ الحروب . إن الصفحات القليلة القادمة كتبها أصلاً لأوضح بها بضعاً من الأمور المتصلة بحيل العلوم وتحليل بحاثها للوصول إلى أهدافهم ، ولكنها مع هذا سوف تخفف من نظرة القارئ إلى العلم ، تلك النظرة الفخمة الكاذبة ، فإني سوف أضمنها تجارب قام بها «بويل» ليست من الخطورة بمكان .

أمثلة من تجارب بويل

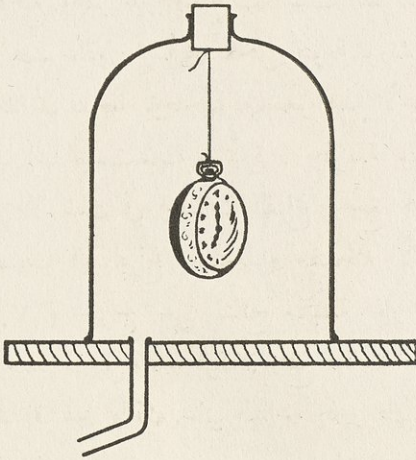
انتقال الصوت في الفراغ :

إنك تقرأ لبويل نقاشه في هذا الموضوع فتحسب منه أن الناس كانوا يعتقدون لعدة من سنين أن الصوت إنما ينتقل في الهواء وبالهواء . ومن هذه الفكرة ينتج طبعاً أن الصوت لا ينتقل في فراغ . والظاهر أن بحاث أكاديمية التجريب بفلورنسا ، (أكاديمية دي شيمنتو) ، وقد مر ذكرها ، عمدوا إلى كشف صحة هذا الرأي بالتجربة . وخرجوا من تجربتهم على رأى غير قاطع . وهذا غير مستغرب بسبب الطريقة التي اتبعوها في إجراء التجربة . فهم علقوا جرساً في داخل أنبوبة تورثلى ، في أعلاها ، فوق الزئبق ، بعد أن نفخوا زجاجها ووسعوا هذا الأعلى . وهذه طريقة أقل ما يقال فيها إنها ليست سهلة ميسرة . وطريقة بويل ، باستخدامه مضخته ، أيسر لا شك في إحداث الفراغ . ومع هذا فهو لما أجرى تجربته عن الصوت في الفراغ باستخدام مضخته الأولى ، في صيغتها الأولى (شكل ٧) خرج على نتائج ملتبسة غير قاطعة كذلك . إنه علق ساعة بخييط داخل وعاء أفرغه . وسمع دقات الساعة قبل إفراغه ، ولم يسمعها بعد إفراغه . ولكنه علق الساعة إذ ربطها بعصاة ، وركن العصاة على جدران الوعاء فسمعها من بعد إفراغ سمعاً يكاد أن يساوى سمعها قبل إفراغ .

ونظر فيما يحتمل من مصادر الخطأ في التجربة فاهتمدى إلى مصادر

فإما أن يكون الهواء لم يفرغ كله من الوعاء ، وأما أن صوت الساعة ينتقل إلى العصاة الصلبة التي حملتها ، ومنها ينتقل إلى جدار الوعاء وهو من زجاج صلب كذلك ، فإلى الهواء في خارج الوعاء .

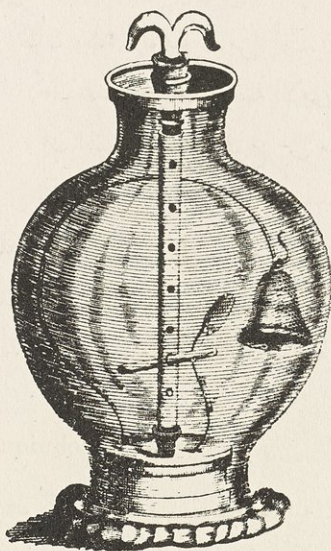
وصنع بوييل مضخته الثانية ، ولها وعاء مستقل ، « مستقبيل » مستقل . وكانت خيراً من الأولى ، فأفعل من الأولى . وعلق في المستقبيل ساعة منبهة ذات جرس مسموع ، وعلقها بخيط ، ثم أفرغ المستقبيل من هوائه فلما حان للجرس أن يبدق لينبهه ، لم يسمع له صوت . ولكن بمجرد ما أذن لبعض الهواء أن يدخل سمع صوت الجرس خافتاً . وأذن للهواء كله فصار الصوت واضحاً مسموعاً ، وكان الجرس لا يزال يبدق (شكل ١٣)



(شكل ١٣)

شكل إيضاحي لجهاز التجربة التي أجريت بوضع الساعة في فراغ . إن الساعة معلقة في وعاء له شكل الجرس ، هو المستقبيل ، ومنه أفرغ الهواء

كان في هذه التجارب كفاية من إقناع ، ولكن بوييل لم يكتف .
 وعاد إلى ظاهرة إسكات صوت الجرس بوضعه في فراغ . وبالجهاز الذي
 بشكل ١٤ استطاع أن يثق جرساً أقامه معلقاً في داخل مستقبل بسلك
 من المعدن نحى . وبإدارة مفتاح في سداد المستقبل من أعلى ، حرك مدقاً
 فلق به على الجرس فرن . قال بوييل : ولما أفرغنا المستقبل من هوائه
 إفرغاً طيباً ، خيل لنا ، وعلى الأخص لبعض القائمين حول التجربة ،
 إنهم في شك مما يجدون . شكوا في أنهم يسمعون الجرس أو لا يسمعون .



(شكل ١٤)

صورة مأخوذة من صورة محفورة في الخشب لجهاز «بوييل» لتجربته التي دق بها جرساً
 وهو في الفراغ

فلما أدخلنا قليلا من الهواء إلى المستقبل ، ثم دققنا الجرس ، بدأنا نسمع الجرس ، ذاك الذي كنا لا نسمعه قبلا ، أو إذا نحن سمعناه فبخافتا .
وبإدخال الهواء أكثر فأكثر صار صوت الجرس أبين فأبين .

إن العاملين المتغيرين في هذه التجربة هما احتمال بقاء هواء في المستقبل من بعد إفراغ ، ثم انتقال الصوت عن طريقة دعامة صلابة تعلق الجرس أو تعلق الساعة بها . أما عن العامل المتغير الأول ، أى بقاء هواء بعد إفراغ ، فقد عمد « بويل » في سبيل كشفه إلى صنع مقياس للضغط يوضع داخل المستقبل عند إفراغه ليقيس به ما بالمستقبل من هواء . ولو أن مقياساً كهذا كان عند « بويل » من أول الأمر إذاً لاستطاع أن يتحكم في هذا المتغير الأول عند إجراء تجربته الأولى . وإذاً لاستطاع أن يقول لنا شيئاً كهذا : « إن الهواء عند ما أفرغ إلى ما دون درجة معلومة ، لم يسمع صوت المنبه عندما رن أو الجرس عندما دق فلما أدخل الهواء فبلغ الضغط درجة كذا ، سمع صوت قليل . إن العامل المتغير ، إذا استطاع المرء تقديره ، بالقياس كان ذلك أو بالوزن ، يقلل ما يدخل بسببه إلى التجربة من غموض قلة كبرى ، ويزيد في العادة بساطة التجربة زيادة كبرى .

أثر طريقة للعمل (technique) تُستجد :

استجد « بويل » طريقة للبحث ، تلك مضخته . ولسنا نريد أن نترك قصة بويل ، وقصة مضخته ، دون أن نخرج منهما بحكمة نافعة أخرى إن الذى يتصفح ما كتب فى وصف تجاربه ، وهو قد كتب كثيراً وأطال كثيراً ، لا يستطيع أن يخرج منها إلا بأن بويل أجرى ما أجرى من

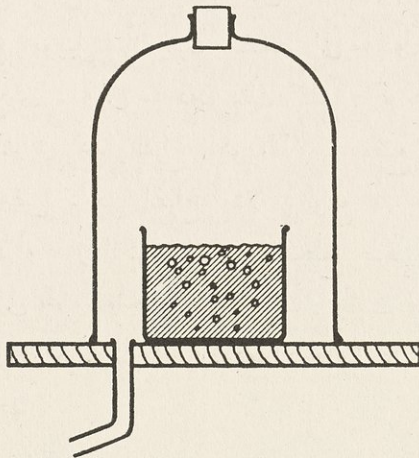
تجارب اعتباطاً وخبط عشواء . وهذا الصنف من النشاط غير المرتب قد لعب درأو حيويًا لا ينكر في تاريخ الطبيعة ، تاريخ الفزياء ، وكذلك في تاريخ الكيمياء . إن مخترع أداة في العلم جديدة ، كمكتشف جزيرة ليس للناس بها علم ولا بمسالكها معرفة . فهو ينزل فيها ، وكل همه أن يسارع فيغتنم كل ما ساقه حظه الجميل إلى اغتنامه منها . وكل ما يرى فيها ، وكل ما يسمع ، يراه خطيراً جديراً بالتسجيل . وهكذا كان « بويل » فهو لم يفتأ أن يسأل نفسه : ماذا يحدث لو وضعت هذا الشيء أوداك في داخل هذا الفراغ ؟ وقبل زمانه صنع رجال أكاديمية التجريب الإيطالية بفلورنسا ما صنع . كذلك صنع فون جروبيك ما صنع . درسوا جميعاً ذاك الفراغ وما يجري فيه . وأغلب الظن أن نتائجهم لم تصل إلى « بويل » فكان على غير علم بها . ولكن ليس من مشغلتنا الآن أمر من سبق إلى هذا أو من تخلف . والمهم عندنا الآن هو ظاهرة هذا العالم المحرب يجرب بينهم وفي كل شيء لينتفع من أدواته الجديدة بكل ما يمكن أن ينتفع به منها . فهو حيناً يمتحن صحة استنتاج خرج من نظرية كبرى كالذي تحدثنا عنه طويلاً في الباب الذي سبق هذا . وهو حيناً يهدف إلى إضافة دليل جديد إلى أدلة سبقت ، على فكرة ثبتت ثبوتاً حسناً ، كتوقف الصوت عن أن ينتقل في فراغ . ولكنه كثيراً أيضاً ما يجري التجربة حباً في التجريب ، لا غيره ، والذي يخرج به منها نتائج مفرقة من العرفان تظل على تفرقها حتى يأتي الزمان الذي يضمها إلى أجزاء من العرفان أخرى تصنع وإياها وحدة فكرية متجانسة كاملة .

إننا بذكر القليل من تجارب « بويل » قد نضرب المثل لبعض صنوف

من التجارب لا غاية لها إلا الاستطلاع ، ثم لما يكون في نتائج تخرج منها من تفرق وتفتت . مثال ذلك أن «بويل» أوضح بطريقة بارعة أن الشمعة لا تحترق في الفراغ ، ولكن يحترق البارود . وبقيت هاتان الحقيقتان مفترقتان حتى ضمهما نظام فكري واحد ، نظرية واحدة ، في أواخر القرن الثامن عشر . كذلك أبت المواد التي حاول أن يحرقها أن تحترق في فراغ ، كما أبت حيوانات صغيرة أن تعيش في مستقبل المضخنة بعد إفراغه ، ومعنى هاتين الحقيقتين أن الهواء ضروري للحياة وللحترق . ولكن بقيت الحقيقتان مفترقتان إلى أن ضمهما اكتشاف الأكسجين بعد زمان طويل . فقد كان مقدرًا للعقل البشري أن يضل ، فذهب بعيداً عن الطريق السوي ، يتحدث عن مادة عجيبة تعرف بالفلوجستون (Phlogiston) ، قبل أن يدرك أنه ضل فيتحسس السبيل إلى الهدى .

ولقد هدف «بويل» أحياناً إلى هدف يقصده بذاته . من ذلك أنه صرف كثيراً من الجهد في تدبير طريقة بها يدير سطحين ، أحدهما فوق الآخر ، في وعاء مفرغ من الهواء . وأدار السطحين ، ثم أسرع فأدخل الهواء إلى الوعاء المفرغ ، وفتح فوجد السطحين ساخنين . ومن هذا استدل على أن حرارة الاحتكاك كما تتولد في الهواء تتولد في الفراغ . ومما هدف إليه قصدا تجربة أراد بها أن يرى ماذا يصنع الماء يوضع في وعاء إذا أفرغ من فوقه الهواء . والظاهر أن قصده كان في أول الأمر أن يرى هل يتمدد الماء بدرجة محسوسة إذا هو أفرغ الهواء من فوقه إفراغاً كبيراً . وبدأ يجرب . بدأ يفرغ الهواء من فوق الماء رويداً رويداً . ولكن ما أسرع ما لقي عنتاً . وذلك أن الماء العادي به هواء ذائب فيه . فإذا خُفّف الضغط

فوق هذا الماء تصاعد إلى سطحه ما ذاب فيه من هواء . وتعمدت المسألة في نظر « بوييل » . وشك أول الأمر في الماء ، في أمر « زنبرك » خال أنه به أو بعبارة أخرى في أمر أن الماء يتمدد كما يتمدد الهواء ، ولو إلى حد قليل محسوس . إن خروج الهواء من الماء على هذه الصورة يخلط الأمر على رائيه ، فيحسب أن الماء يغلي . والماء حقاً يغلي في الفراغ لم يفرغ هواؤه كله . وكان على « بوييل » أن يصبر حتى تتحسن مضخمته فوق ما تحسنت ، ليعرف أن الماء في درجة الحرارة العادية ، يمكن إغلاؤه إذا ما خفض ضغط الهواء فوقه إلى ما دون جزء من ثلاثين من ضغطه العادي (شكل ١٥) ومع هذا فقط ظلت هذه الحقيقة ، معناها ومغزاها ، باقية تنتظر



(شكل ١٥)

شكل إيضاحي لجهاز إغلاء الماء في الفراغ . إنه عند ما يفرغ الهواء من الوعاء الزجاجي ، المستقبل ، يغلي الماء

مع أشباه لها مائة عام حتى أمكن نظمها جميعاً في نظام واحد ، أو عدة من أنظمة فكرية أساسها فكرة الضغط البخارى (vapour pressure)

ما أدّاه «بويل» من الخدمات في الطرق التجريبية :

قضى «بويل» جزءاً كبيراً من عمره يجرى التجارب بمضخته ، بل مضخاته ، ومع هذا فقد تكون شهرته في الكيمياء زادت على شهرته في هذه ، ولكنى أخشى أن أقول إن شهرته في الكيمياء شهرة قد بولغ فيها . وعلى كل حال فسوف نعود فنذكر كتابه الذى أسماه الكيمياء الشكاك (The Skeptical Chymist) . بنى «بويل» مضخته في طرازها الحديد الثالث في عام ١٦٦٩ وأعانه فيها رجل فرنسى اسمه «دينيس پابين» Denis Papin ^(١) . وبهذه المضخة استطاع «بويل» أن ينزل بالضغط إلى ما دون جزء من مائة جزء من الضغط الجوى ، وإلى ما دون ذلك كثيراً . ثم هو أرى الناس أنه يستطيع أن يولد في هذا الفراغ أهوية ^(٢) ، بوضع قطع من شعب المرجان في حامض داخل الفراغ مثلا (الواقع أنه بذلك حضر ثانى أكسيد الكربون أو غاز الكربونيك) . واصطنع طرقاتاً بارعة نقل بها هذا الهواء من وعاء إلى وعاء ، وأجرى عليه تجارب . وأثبت «بويل» كذلك أن السوائل تغلى في درجات من الحرارة دون درجات غليانها العادية إذا قل الهواء فوق سطحها .

(١) پابين فزيائى فرنسى ولد عام ١٦٤٧ ومات عام ١٧١٢ . ساعد بويل في تصميم مفرغته . وساهم في اختراع الآلة البخارية . واخترع القدر المشهور باسمه . وفى عام ١٦٨٧ تعين أستاذاً للطبيعة بجامعة ماربرج .
(٢) غازات .

إن الغريب في تاريخ الهوائيات أن طرائق العمل هذه المستجدة لم تؤثر في مجرى العلم كثيراً . مثال ذلك أن تقطير السوائل في الفراغ لم يأخذ مكانه الراتب عند الكيميائيين ، إلا في القرن التاسع عشر . ومثل آخر ، أن التجريب بالغازات (تلك التي أسماها بوييل أهوية) لم يعتمدوا فيه على الأواني المفرغة إلا في القرن العشرين .

وتساءل عن السر في فوات هذا الوقت الطويل قبل أن ينتفع العالم العلمى بالذى استحدثه «بوييل» من طرائق للبحث في الهوائيات جديدة ، فتعلم أن السبب يوجد على الأغلب فيما في هذه الطرائق وأسلوب العمل فيها من صعوبات . فالمضخات ، كالتى بناها «بوييل» ، كانت في غاية الغلاء . والعمل بالفراغ عمل ثقيل صعب ، وهو كذلك إلى اليوم . ولكنهم ابتدعوا في نحو ذلك الزمان طريقة أكثر خشونة في تناول الغازات ولكنها أبسط ، وأبسط كثيراً ، وتقبلها كل الناس تقريباً ، لبساطتها . تلك طريقة الحوض الهوائى (pneumatic trough) ، وعنه سوف نقول الكثير عندما نتحدث في الثورة الكيماوية . وبقى «بوييل» لا يكتفى أسلوب عمله ، ولا تقتبس في تناول الغازات ومعالجتها طرائقه ، حتى تقدم نفخ الزجاج وفن العمل بالمعادن تقدماً كبيراً ، وحتى تحسنت صناعة المضخات الهوائية عما كانت ، فإذا هي أفرغت أكملت إ فراغاً . وكذلك حتى رخصت أثمانها . حدث في النصف الثانى من القرن التاسع عشر أن اخترع المصباح الكهربائى ، واحتاجت زجاجته إلى تفرغ ، فحث هذا المخترعين على اختراع مضخة تفرغ إلى ما دون جزء من بضعة مئات من الأجزاء من الضغط الهوائى . واليوم لدينا مضخات تفرغ حتى الأوعية

الكبيرة إلى ما دون جزء من مليون من الضغط الجوي ، ودون ذلك كثيراً .
لقد تسهل أمر المضخات اليوم ، وأمر الأفران ، فصار أمره شيئاً عادياً ،
ولولا هذا لما أمكن صنع أنابيب الأشعة السينية ، ولا أنابيب اللاسلكي ،
ولا بناء السيكلوترونات (cyclotrones)^(١) ولا كثير من الأجهزة الطبيعية
ولا الكيماوية التي هي اليوم بعض بضاعة العلماء السهلة القريبة . فعمل
« بويل » ومجهوده الشاق لم يضع عبثاً . لقد أثمر ولو تأخر إثماره وتأخر طويلاً .
ثم كلمة قبل أن نختم الحديث عن « بويل » وعن مضخاته . تلك أن
دينيس باين (Denis Papin) ، مساعد « بويل » ، اشتهر اسمه شهرة لا
بأس بها بأنه مخترع حلقة باين . وما هذه إلا وعاء الطبخ ببخار الماء
تحت الضغط الذي شاع استعماله عند بعض الناس في هذه الأيام .
والطريقة التي ابتدعت بها هذه الحلقة حدسها سهل يسير . لقد درس « بويل »
« وپاين » كيف تتطبع وتتخلق الأشياء في الفراغ . ومن هذه الأشياء كان
العنب وبعض من سائر المأكولات . ولكنهما كذلك درسا تطبعها
وتخلقها في الهواء وهو مضغوط . وعن هذا الطريق جاء إلى علمهما أثر
الضغط في درجة غليان الماء ، وأنه يزيدها كلما زاد . والغريب في أمر
هذه الحلقة ، أنه على رغم من ذكرها في كتب العلم ذكراً متصلاً ، تخلله
بعض إغفال ، بقيت لا تصنع كى ينتفع بها وتستخدم في المطابخ إلا
منذ سنوات قليلة . وهي اليوم جزء من أداة المطبخ تقدرة ربة البيت أى

(١) السيكلوترون هو جهاز هدفه إعطاء الأجزاء المتكهربة المتناهية الصغر سرعة متناهية الكبر تدخل بها إلى ذرات العناصر فتحولها . وهو من الأجهزة الخطيرة الكبيرة التي تبني فتتكلف الألوف ، وكان لها آثار معروفة في بحوث الذرة الحديثة .

تقدير . وهي قد استخدمت أيام ابتدعت في الطبخ أيضاً . فقد ذكر «جون أفلين» (John Evelyn) ^(١) في مذكراته الشهيرة ، بتاريخ ١٥ إبريل عام ١٦٨٢ ، أن أعضاء الجمعية الملكية (Royal Society) تعشوا عشاء طبخ في حلة باين ، وقال : «إن هذا العشاء الفلسفي أشاع المرح بين الأعضاء وسرهم سروراً لا مزيد عليه» .

الدور الذي لعبته المصادفات

إن العلم يصورّ أحياناً كأنه عمل رجال من أهل الرياضيات جابرة ، يجلسون فيحسبون ويضربون ، وبينون الفروض العارمة ، ويشيدون النظريات سامقة ضخمة . وأحياناً هو يصورّ كأنه عمل جاء الناس عفواً ، ووقعت حقائقه بين أيدي الناس صدفة . ونتيجة لهذا يقف القارئ في الكثير من الأحوال حائراً ينظر لا يدري ما حقيقة الدور الذي تلعبه المصادفات ، أو ما يترأى أنه المصادفات ، في تقدم العلم . وهذا يصدق على الأخص فيما ينشأ من طرائق للعمل جديدة ، أو فيما يخرج من التجربة من صور فكرية مستحدثة . وإني أقترح لإيضاح هذا درس تاريخ ما صنع «جلفاني» (Galvani) وقلتا (Volta) في التيار الكهربائي . فهذه الدراسة تكشف لنا عن أن الملاحظة التي تأتي مصادفة قد تؤدي إلى إجراء سلسلة من التجارب حسنة التدبير والترتيب تؤدي بدورها إلى طريقة في العمل جديدة - إلى

(١) كاتب إنجليزي (١٦٢٠ إلى ١٧٠٦) . أهم مؤلفاته تلك المذكرات وهي سجل ممتع لحوادث ذلك الجيل .

صيغة جديدة - أو إلى تصور ذهني جديد ، أو إلى كليهما . وهذه الدراسة تكشف لنا أيضاً كيف أنه في البحث في ظاهرة جديدة ، قد ترسم التجارب وتدبر في غيبة فرض أو نظرية تعين على رسمها وتديريها ، وكل ما يدفع المحرب إلى تجربته أمل في أن تفسيراً للظاهرة لا بد ناتج من هذه التجارب قريباً . وعندئذ فقط يصاغ الفرض أو تصاغ النظرية . وهذا الفرض ، وهذه النظرية ، قد يكونان عامين يشملان الكثير من الظواهر في كثير من الحقول ، وقد يكونان خاصين لا يتعلقان بغير الظاهرة التي عنها المحرب بتجربته . وهذا التصور الفكري المصاغ ، أو هذا الفرض أو النظرية المصاغة ، تؤدي على الأرجح إلى كشف جديدة يكون من شأنها تثبيت هذه التصورات الفكرية على أنواعها ، أو تعديلها أو اطراحها اطراحاً كاملاً .

كشوف جلفاني :

تبدأ هذه القصة بملاحظة لاحظها «لويجي جلفاني»^(١) (Luigi Galvani) وهو طبيب إيطالي وأستاذ بجامعة بولونيا ، قبيل عام ١٧٨٦ . كان يشرح ضفدعاً . وكان إلى جواره جهاز للكهربة الإستاتيكية تستمد منه شرارات كهربائية . ومس الأستاذ أعصاب الفخذ من الضفدع بمشط معدني فانفض الفخذ بغتة . ووقف الأستاذ عند هذا الحدث يتأمله ،

(١) هو جلفاني الطبيب والفسولوجي الإيطالي ، ولد في بولونيا عام ١٧٣٧ ومات عام ١٧٩٨ . عين أستاذاً للتشريح في جامعة بولونيا عام ١٧٦٢ . واشتهر بالتشريح المقارن ، ولكن شهرته تركز أكثر على نظريته في الكهرباء الحيوانية ، وعلى رسالته فيها التي نشرت عام ١٧٩١ .

وأعاده وكرره ، ولم يأذن له بأن يفوت . وتابعه . وهذه هي أخطر ساعة في القصة . إن تاريخ العلم مليء بمثل هذا الحدث ، والنتائج التي ترتبت على التنبيه له والوقوف عنده ، أو فواته ، كانت عظيمة وخطيرة . والباحث في هذا الأمر مثل قائد الجيش الذي تحين له فرصة من عدوه فيتخطفها ، أو لا يتخطفها . غلظة يغلطها العدو ، أو فرجة تظهر في الميدان . قال بستور ذات مرة : إن الفرص لا ينتفع بها إلا المتيقظ لها . وليس أدل على صحة هذا القول مما نحن بصدده . إنه قبل «جلفاني» اهتدى العالم الطبيعي الهولندي سقامردام (Swammerdam) إلى مثل ما اهتدى إليه جلفاني . كشف عن عضلة الضفدع كما فعل جلفاني ، وأمسك بوترها بيد ، ومس عصبها بمشرط باليد الأخرى ، فتقلصت العضلة كما فعلت بين يدي جلفاني . ولكن هذا العالم الهولندي لم يتابع ما وجد من ذلك . وهذا فرق ما بين الرجلين ، وإنه لعظيم . قال جلفاني يصف ما حدث : « كنت قد فرغت من تشريح ضفدع . . . وبينما أنا أنصرف إلى شيء آخر ، وضعت الضفدع على منضدة عليها مكنة كهربائية على بعض بعد منها . . . وحدث أن رجلاً ممن كانوا معنا مس عصب الفخذ من الضفدع بسن مشرطه ، فتقلص كل ما بها من عضل ، أو هذا ما ظهر لنا . وعادت تتقلص بالمس ثم عادت . . . وقال أحد الرجال ، ممن كانوا قائمين بالمعونة في البحث الكهربائي القائم ، إنه حسب أن هذا التقلص حدث كلما أحدثت المكنة الكهربائية شرراً . قال هذا وانصرف عنه يفكر عميقاً فيما كان فيه . ولكن قلبي امتلأ برغبة جامحة في إحداث هذه الظاهرة مرة فمرة ، والكشف عما اختبأ وراءها . »

ولم ينجح جلفاني في الكشف عن كل ما اختبأ وراء هذه الظاهرة ، ولكنه جرى في هذا الكشف شوطاً غير قصير جعل ما تلاه من كشوف أمراً مقضياً . وأجرى تجارب حسنة التدبير والتخطيط حاول بها أن يكشف ما في الظاهرة من « عوامل متغيرة » . ولكن لم يكن عنده فرض أو نظرية بينة المعالم يعمل في نورها . وهذا ما يقع لرجل بارع في التجريب عند ما يلقي على غير انتظار ظاهرة لم تكن تخطر قط في بال . إنه يلقي الظاهرة ، فيريد بحبها ، فتظهر في فكره تواراً عدة من احتمالات ، فيروح يمتحن صحتها . وهو إما يطرحها ، وإما يضمها إلى أمثالها ، ومنها ومن أمثالها يؤلف مشروعاً تصورياً ، نظرية ، تأخذ تزيد وتزيد . وعلى مثل هذا جرى جلفاني . اتجه أولاً إلى الشرر الكهربائي يريد أن يعرف علاقته بتقلص العضل . وهل هذا الشرر ضروري لهذا التقلص . والذي وجد من ذلك عبرة عنه في قوله « وتقلصت العضلات تقلصاً قوياً كلما حدث شرر . ولم يحدث قط أن شرراً حدث ولم يحدث في العضلات تقلص » .

إن العضلات برجل الضفدع ، وأعصابها ، ألقت جهازاً حاضراً بهتكشف شحنة الكهرباء كلما وقعت . ووجد جلفاني أن شرط التقلص لا يتوقف على حدوث الشرر وحده ، وأنه لا بد كذلك من وجود المشروط في يد صاحب التجربة ، وأن تماس يده معدن المشروط مساً . وبهذا ، إذا حدثت الشرارة الكهربائية ، فإن آثارها تنال جسم صاحب التجربة ، ومن جسمه تنتقل إلى المشروط ، فيلبي العصب . وإلى هنا لم يقل الطبيب الطلياني إلا حقاً . ثم حدث حدثٌ من تلك الأحداث غير المتوقعة التي يكون منها بلبله الباحث العلمي أولاً ، ثم هي تتكشف أخيراً عن خير عظيم . حدث أن

جلقثانى وجد أن عضلة الضفدع ، كما تكشف عن الكهرباء ، تكون
هى أيضاً مصدراً للكهرباء . وإذ تصير مصدراً ، تحرك العضلة فتكشف
عما بها هى من كهرباء . فأى باحث لا يتعمى عليه الأمر فيقف حائراً
أمام هذا . وزاد فى الحيرة أن الأسباب التى جعلت من عضلة الضفدع
مصدراً للكهرباء كانت عند ذلك مجهولة ، وصلة العضلة بأى ظاهرة من
ظواهر الكهرباء كانت مقطوعة . كان العامل المتغير فى حدوث هذه
الظاهرة التى كشفها جلقثانى ، وعنى بتسجيلها ، هو نوع المعدن ، بل
المعادن التى مس بها عضلة الضفدع . اكتشف جلقثانى أنه لا ضرورة
لإحداث الشرر الكهربائى فى جهازه إذا ما مس رجل الضفدع معدن ،
مس العصب غيره . فعند اختلاف المعدنين يحدث التقلص . وأجرى
جلقثانى التجربة فى العادة هكذا : جاء بقضيب من المعدن فلواه ،
ومس بأحد طرفيه خطأً أدخله إلى النخاع الشوكى للضفدع ، ومس
بالطرف الآخر من القضيب عضل الرجل أو قدم الضفدعة . ومس
الإثنين معاً . قال جلقثانى يصف ما حدث : « فعند ما كان القضيب كله
من حديد أو الخطاف من حديد لم تحدث التقلصات العضلية ،
أو تحدث صغيرة ضعيفة جداً . أما ان كان القضيب والخطاف ،
أحدهما من حديد والآخر من نحاس أصفر ، حدثت التقلصات كبيرة
قوية وزاد تكررها وطال . فإذا أحلنا الفضة محل النحاس ، زادت التقلصات
قوة وزادت مدة (إن الفضة هى عندنا خير فلز يوصل الكهرباء الحيوانية) .
إن جلقثانى ، بكشفه هذا ، قد اكتشف البطارية الكهربائية وهو
لا يدري . إن معدنيه ، أو إن شئت فلزيه ، الحديد والنحاس ، أو الحديد

والفضة ، تفصلهما الأغشية الحيوانية البليلة الرطبة ، بطارية لا شك فيها .
 ورجل الضفدع كاشفتها . وكل قارئ يستطيع أن يجرى بنفسه تجربة
 كالتى أجراها جلفانى . يستطيع أن يأتى بقطعتين من عملة ، إحداهما من
 نحاس والأخرى من فضة . فإذا هو وضع إحدى القطعتين فوق لسانه ،
 ووضع الأخرى تحت لسانه ، ومس القطعتين إحداهما بالأخرى ،
 أحس بطعم غريب فى لسانه . وما هذا الطعم الغريب إلا تيار صغير من
 الكهرباء ، دل عليه اللسان ، أى كشفه . وكشفه بسلسلة من التفاعلات
 من كهربائية وعصبية ، كالتى جرت فى ضفدع جلفانى وتجربته .

لم يكن جلفانى يعلم عند ذاك كل هذا الذى نقوله نحن اليوم .
 لهذا أخذ يتصور نظاماً يفسر به هذه الظاهرة . فرضاً ذهنياً يتصور به ما
 جرى أو يجرى من أمثال هذه الظواهر . وكان عماده فى تصوره هذا ما
 كان يُعرف فى زمانه عن الكهرباء . ولم يكن يعرف عند ذاك إلا
 الكهرباء الإستاتيكية التى تتولد شرراً من آلة تتحرك . ولما اهتدى ،
 عفواً ، إلى أن ما تحدثه الآلات الإستاتيكية من اضطرابات كهربائية
 فى الجو (وذلك عن استخدامه على غير قصد معدنين بينهما الاختلاف
 الواجب) لا ضرورة لها للتخلص ، قال : « إن النتائج تؤدى بنا إلى أن
 نفرض أن الكهرباء موجودة فى الحيوان نفسه »

إن جلفانى تابع ما كشفت له المصادفة من ظاهرة خطيرة .
 تابعها بتجارب محكمة مختارة ليحققها . وسجل كل ما وجد من ذلك .
 فإلى هذا الحد هو نجح . ولكن قلبر لغيره بعد ذلك أن يتم ما به بدأ .
 وكان هذا الغير «فلتا» (Volta) ، ذلك الرجل الذى تابع دراسة إحداث

الكهرباء من فلزين مختلفين ، فأدى به بحثه إلى اكتشاف البطارية الكهربائية مصدراً لهذا النوع من الكهرباء الذى نسميه أحياناً بالكهرباء الجلفانية . كان هذا فى أواخر العقد الأخير من القرن الخامس عشر ، أى العقد الذى يبدأ بعام ١٧٩٠ وينتهى بعام ١٨٠٠ .

اختراع قلتا البطارية الكهربائية :

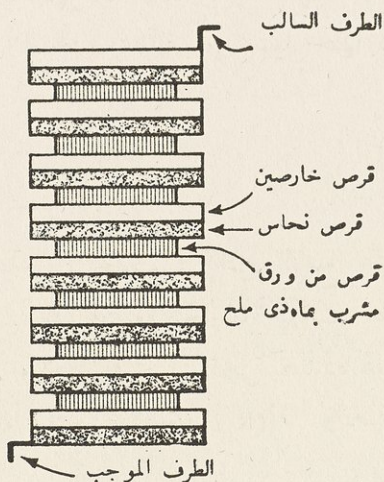
هو ألساندر وقلتا^(١) (Alessandro Volta) ، الإيطالى ، من بادوا . كان اختراع قبل ذلك أداة يكشف بها الشحنات الصغيرة من الكهرباء . وبدأ بأن اتفق فى رأى مع جلفانى فيما يختص بالكهرباء الحيوانية ، ثم أخذ يدرسها . واستعان بالأداة الكاشفة التى اخترعها ، وهى إلكترومتر مكثف حساس ، ودار يجمع بين «عوامل متغيرة» ينتخبها ، يجرى فى ظلها ما كان «جلفانى» سبق قديماً إلى إجرائه ، ثم ينظر ما الأثر . ووجد أخيراً أن الضفدع ذاته يمكن الاستغناء عنه بأى مادة بليلة ندية . كشف جديد لاشك فى هذا . وهو قد يعد من باب المصادفات . وإن صح أنه من باب المصادفات ، فهذه مصادفة من مرتبة غير تلك التى أتيت «جلفانى» . إن البحث بالاستعانة بأداة جديدة ، أو صنعة (technique) جديدة ، أى أسلوب للعمل جديد ، هذا البحث ، لو جرى فى شىء من الترتيب والنظام ، فهو لا بد مؤد إلى

(١) عالم الفيزياء الطليانى ، ولد فى كومو عام ١٧٤٥ ومات بها عام ١٨٢٧ . بنى مجده على ما ابتدع فى الكهرباء من أداة ، منها الالكتروسكوب وعمود قلتا . وكان أستاذ الطبيعة فى كومو ثم فى بادوا .

كشفت حقائق غير منتظرة . والكثرة الكبرى من هذه الحقائق قد تعد من أجل ذلك أنها جاءت من باب المصادفة ، بمعنى . ولكن الفرق بين أمثال هذه الكشوف ، والكشف الذي كشفه «جلثاني» ، فرق واضح . إن جلثاني كان طبيباً ، وكان رجل تشريح ، فهمّه الأول كان في العضلات وعملها ، لا في الكهرباء . وكان من المصادفة البحتة صلة ما يصنع من تشريح بآلة للكهرباء وجدت مصادفة بجوار موضع يعمل فيه . ومع هذا ففضل جلثاني ، لهذا السبب نفسه ، فضل كبير . ذلك بأنه تابع ظاهرة جاءت بها مصادفة سعيدة ، وتابعها وهي في حقل غير حقل يعمل فيه ، ويبعد عنه بعداً كبيراً .

إن اكتشاف فلتما ما هو إلا اكتشاف البطارية الكهربية . ذلك أنه أثبت أن الكهرباء تتولد من فلزين مختلفين يفصل بينهما ماء به ملح ، أو ماء مستخلص من رماد . وصنع هذا أيسر صنع بالورق يبلله بهذا الماء . كتب فلتما إلى رئيس الجمعية الملكية بلندن عام ١٨٠٠ يقول : إن أداتي الجديدة تتكون من ٣٠ أو ٤٠ أو ٥٠ أو أكثر من ذلك من قطع من النحاس ، أو الأفضل من الفضة ، وكل منها يمس قطعة من القصدير أو الزنك ، وهو أفضل ، ومن عدد مثلها من طبقات من ماء ، أو من سائل آخر أكثر توصيلاً من الماء النقي ، كالماء الملح ، أو ماء الرماد وما إلى ذلك ، أو من قطع من الورق المقوى أو الجلد أو غير ذلك ، بعد أن تكون قد أشربت جيداً بهذا الماء (شكل ١٦) . . . فسليلة متعاقبة من هذه الثلاثة الأنواع من الموصلات ، موصولة دائماً بنفس الترتيب تؤلف أداتي هذه الجديدة . . . وهي فيما تحدثه تشبه «جرّة لَيْدِن» (Leyden jar)

كانت هذه البطارية الحديدية مصدراً للكهرباء تختلف عن الكهرباء التي كان يولدها مولد الكهرباء الاستاتيكية ، وكان معروفاً في عام ١٨٠٠ كانت هذه البطارية أول مصدر للتيار الكهربائي المتصل ، بينما ما ولده مولد الكهرباء الاستاتيكية بالاحتكاك إنما كان دفعات قصيرة من تيار .
 وقام نقاش حار بين فلتن وأتباع جلفاني ، فجلفاني مات عام ١٧٩٨ . وكان الجدل حول الكهرباء الحيوانية ، ألها وجود؟ وحول السبب الذي حدا برجل الضفدع في التجارب الأولى أن تتقلص . ولكن ما أسرع أن قل همّ فلتن بهذا الجدل ، وانصرف الى دراسة بطاريته الحديدية . إننا اليوم عندنا مشروع تصوري ، أى نظرية ، تفسر لنا كل الحقائق التي



(شكل ١٦)

رسم إيضاحي لبطارية ، أو عمود ، من أعمدة فلتن .

نعلمها عن البطاريات الكهربية. وهي نظرية راضية مرضية . ولكن غير ذلك الحال فيما يختص بالذى نعرف من حقائق العضل والأعصاب والتيارات الكهربية فى الأنسجة الحيوانية. فى هذا الحقل لا يزال فرض يجرى وفرض يذهب ، ولا تزال التجارب يتلو بعضها بعضاً فتلقى أضواء جديدة على حقائق قديمة فتزيدنا بها فهماً . ولهذا قد نقول إننا لم نفرغ إلى اليوم من تجربة «جلقانى» الأولى ، ولو أننا فرغنا من كشف قلنا ، وقد جاء بعدها . إن النقاش القديم الذى قام حول وجود شىء يسمى كهرباء حيوانية أصبح اليوم نقاشاً لا معنى له ، وليس منه جدوى . ولكن كانت منه جدوى أى جدوى فى ذلك الزمان الخالى ، فى سبيل حل هذا المشكلة اخترع قلنا البطارية الكهربية. وهذه كثيراً ما تكون شيمة التاريخ ، وكثيراً ما هكذا يجرى : يبدأ الباحثون بمسألة ، وفى سبيل حلها ، ينتهون بحل مسألة أخرى .

اكتشاف الأشعة السينية :

وهذا حدث آخر ، حدث فى القرن التاسع عشر ، يرينا كيف يلاحظ الباحث شيئاً ما ، فيتابعه بتجارب أحكمت خطتها ، فتؤدى به إلى اكتشاف جديد . والاكتشاف الذى نحن بصدده هو اكتشاف الأشعة السينية ، أو أشعة «رنتجن» (Roentgen) ^(١) . والقصة يعرفها رجال العلم

(١) هو فلهم كوزراد دونتجن ، الفزيائى الألمانى ، مخترع أشعة إكس ، أوس . تقلب فى عدة مناصب للأستاذية فى ألمانيا . ونال ميدالية الجمعية الملكية بلندن عام ١٨٩٦ وجائزة نوبل عام ١٩٠١ . ولد عام ١٨٤٥ ومات عام ١٩٢٣ .

جميعاً . ولكن الذى قد لا يعلمونه جميعاً أنه قبل رنتجن ، قبل أن يعلن اكتشافه ، كان عدة من البحاث قد لاحظوا تغبش اللوح الفوتوغرافى إذا أفرغت بالقرب منه شحنة من كهرباء . وتابع رنتجن ما لاحظ ، ولم يتابعوا .

ولكن المفتاح الذى فتح لرننتجن الباب أول مرة لم يعثر عليه فى الطريق فى مصادفة سعيدة . ذلك أنه كان إذ ذاك يدرس تيار الألكترونات (وكان عندئذ يسمى بالأشعة الكاثودية أو أشعة المهبط) التى كانت تمر عبر شبك رقيق فى أنبوبة إفرغ كهربائى . وكان يعلم أن هذه الأشعة قادرة على فلورة^(١) بعض الأجسام . فقام إلى ستار حاجز فدنهته بجسم من هذه الأجسام فوجد أنه يتفلور (Fluoresces) ، تُفَلُورُهُ هذه الأشعة ولو كان بعيداً عن أنبوبة تفريغها . وتابع هذه التجربة فما أسرع ما أثبت أن الذى يحدث هذا التفلور بهذه الأجسام إنما هى أشعة ما ، تتنفذ ، لا فى الزجاج وحده ، ولكن كذلك فى أجسام معتمة أخرى . ومن هنا بدأ يستخرج طرقاً أحسن من طرقه الأولى لإنتاج هذه الأشعة ، وبهذا أدخل إلى العلم وسيلة من وسائل العمل ضخمة كبرى .

اكتشاف الغازات النادرة :

أتذكر أنك قد تسير مستقيماً فى طريق ، لا تريد أن تحيد عنه ،

(١) الفلورة أن تضىء الأجسام بغير سبب ظاهر . والسبب منه الطبيعى ومنه الكيماوى . ومن الطبيعى أن يمتص الجسم أشعة ثم يعيدها أشعة مضيئة . ومن الكيماوى ما يظهر فى بعض البحار من فلورة سببها كائنات حية فى البحر ، يخرج ، من تفاعلات كيماوية بها باردة ، ضوء يلمع فى الظلام .

فإذا بك تبلغ ركناً فيه ، فتنظر يمينا ، فترى ما لم تكن تتوقع أن ترى ، وترى شيئاً عظيماً يغريك بترك طريقك الأول والسير في هذا الطريق المعجب الجديد .

فهذا بالضبط الطريق الذي اكتشف به الغازات النادرة مكتشفوها . إن العرض العلمي الذي نحن فيه ، بحسبانه عرضاً منطقياً ، كان يقضى علينا بأن نؤجل موضوع الغازات النادرة بعد الانتهاء من كل ما نورد من أمر التجريب الكمي ، وبعد معالجة شيء من الظواهر الكيماوية . ولكن بما أن موضوع الغازات هذا يمثل طرازاً من أطرزة البحوث التي نحن بصدددها ، رأيت أن أتناول هذا الموضوع هنا ، في صورة مختصرة غاية الاختصار ، وأن أجعله ختام هذا الباب .

وسوف نبدأ بذكر متاعب لقيها عالم في الطبيعة ، أو الفزياء ، وننتهي بكشف كيماوي .

أما عالم الطبيعة فهو اللورد « رالي » Rayleigh ^(١) ، وقد كان قضى من عمره اثنتي عشرة سنة في تجريب مستمر شاق هدفه تعيين الكثافة النسبية للعناصر الغازية . وهو عمل أشق مما يدل عليه لفظه ، وأشق كثيراً . فلقد أراد « رالي » أن تكون نتائجه صحيحة ، الخطأ فيها يقل عن جزء من كل عشرة آلاف جزء ، وهذا دعاه إلى اتخاذ احتياطات

(١) هو الفزيائي الإنجليزي ، ولد عام ١٨٤٢ ومات عام ١٩١٩ . تعلم في كبرج وورث اللقب عن أبيه عام ١٨٧٣ . كان أستاذاً للفزياء التجريبية في كبرج من عام ١٨٧٩ إلى عام ١٨٨٤ ثم انتقل إلى لندن أستاذاً لها . واشترك مع وليم رمزي في كشف الأرجين . نال جائزة نوبل في الفزياء لعام ١٩٠٤ .

جسيمية ، بعضها الكيماوى وبعضها الطبيعى . ولا تسأل ما اهتمام هذا العالم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بتقدير الكثافات النسبية للعناصر الغازية ، فهذه قصة ليس لها هنا موضع . ويكفى للغرض الذى نحن نقصده أن نتركز على مجموعة الحوادث التى أدت بهذا الرجل إلى القيام بالذى قام به من مجهد الأعمال .

فى عام ١٨٩٢ كتب « رالى » كلمة نشرتها المجلة الأسبوعية المعروفة « ناتور » (Nature) ، أى الطبيعة . وفيها قال إنه « واقف حيران أمام نتائج حديثة لكثافة الأزوت » ، وذكر أنه يشكر « أى قارئ كيماوى من قراء مجلتكم يستطيع أن يدلنى لى بأراء تخرجنى من هذه الحيرة »

إن الهواء يتألف من الأزوت ، والأكسجين ، والأرجون ، وهنات قليلة من غازات أخرى . هذا ما نعرفه عن الهواء اليوم . أما فى عام ١٨٩٠ فكان المعروف أن الهواء يتألف من أزوت وأكسجين ، ولا غير هذا . فظن « رالى » طبعاً أنه يستطيع أن يحضر الأزوت ، أى النتروجين ، بإخراج الأكسجين من الهواء . والذى حيره كان هذا : وجد أن الأزوت الذى حضره نقياً بطريقة خاصة ، أثقل قليلاً ، مقارنةً بحجم ، من الأزوت الذى حضره نقياً من الهواء بإخراج الأكسجين منه . إن الفرق بين الكثافتين لم يكن إلا جزءاً من ألف ، ولكنه بتكرار التحضير فالتقدير ظل هذا الفرق باقياً ثابتاً . وقد كان « رالى » بلغ بطريقته فى تعيين الكثافة حداً جعله يحصل على نتائج يجريها على الأزوت ، يحضره من مصدر واحد ، لا تختلف فيما بينها إلا بمقدار جزء من عشرة آلاف . فالفرق الثابت فى كثافة الأزوتين ، يحضر أحدهما من الهواء ، ويحضر

لآخر من غير الهواء ، كان عشرة أمثال الخطأ التي يخرج بهذا التقدير الدقيق . وبقي السؤال حائراً : ما سبب هذا الفرق ، وما سبب ثباته فهو لا يتغير ؟

إنه سؤال محير ، ما كان أسهل على « رالى » أن يسكت عن جوابه . ولكنه لم يفعل ، إنه وقع على أمر فلا بد له أن يتابعه حتى يجد له تفسيراً . ونظر ماذا صنع بعد ذلك فنجده بعد سنتين قد نشر في محاضر الجمعية الملكية (Proceedings of the Royal Society) قولاً يعلن فيه أن حيرته الأولى لم تنقشع ، وأن الأمر زاد خبالاً (عرفت رجلاً باحثاً قديراً محنكاً كان يحب دائماً أن يقول وهو بصدد مسألة يحلها « إن الأمور لا بد أن تنعقد قبل أن تنبسط » . وكانت الأمور تجري دائماً حسب قوله (١) . ذلك لأن الأزوت الذى حضر من الهواء ظهر في الواقع أنه أثقل من الأزوت الذى يحضر من أحد مركباته ، كالنشادر مثلاً ، بنحو جزء من مائتى جزء ؛ إذن فهو أثقل مما زعم « رالى » أولاً . والسبب في قلة هذا الثقل الأول أن « رالى » كان حضر الأزوت عندئذ حقاً من الهواء ، ولكنه استخدم في ذلك النشادر لإخراج الأكسجين من الهواء ، فالأزوت الناتج كان بعضه من النشادر وبعضه من الهواء .

وبلغ الموقف حد الفضيحة العلمية . لقد كان القرن التاسع عشر آخذاً في انتهاء ، وكانت دعوى العلماء عندئذ أنهم عرفوا كل شيء عن

(١) قال الشاعر العربي :

اشتدى أزمة تنفرجى قد آذن ليك بالبلج
فكما في العلم فكذلك في الحياة ، وكما عند الغربي فكذلك عند الشرقي

العناصر ، وأكيداً عرفوا كل شيء عن الهواء ، هذا العادى الذى يستشقونه كل يوم (فكرة العناصر المتماكنة isotopes لم تكن جاءت ، وهى أهلت بعد ذلك بعشرين سنة) . ومع هذا فذاك عنصر من عناصر الهواء ، يحضر بطريقة فيعطى شيئاً ، ثم يحضر بطريقة أخرى فيعطى شيئاً غيره ! وكيف لا يكونان شيئين متغايرين وكثافتاهما مختلفتان . وبذلك بلغ الباحث ركن الطريق ، أو هو دار حوله . بدأ « رالى » بملاحظة يسيرة ، أو هى تراءى يسيرة ، فإذا بها تتعسر ، وإذا بها مشكلة تقف عند باب كل كيمائى تسأله الحل . ولم يبق إلا عامل الزمن ، نفوت فيكون للمشكلة حل ، ويكون للسؤال جواب . وكان الجواب سهلاً : إن الأزوت الذى حضر من الهواء بإخراج الأكسجين منه لم يكن أزوتاً خالصاً . كان مع الأزوت الأرجون بمقدار غير قليل . وهو أثقل من الأزوت . وكان معه هتات من غازات نادرة أخرى . والطريقة التى أخرجت الأكسجين ما كانت لتخرج شيئاً من هذه الغازات .

وخجل الكيمائيون عند ما اضطروا فى أوائل هذا القرن ، القرن العشرين ، أن يعترفوا بأنهم قد فاتهم مدة قرن كامل أن يتبينوا أن بالهواء الذى نستشقه كل يوم ، عناصر غازية أخرى ، غير الأكسجين والأزوت ، تبلغ نحو نصف فى المائة من مقداره . ولكن قلل من خجلهم أن كيمائياً منهم شارك فى الكشف عن هذه الغازات . أما الكيمائى فكان السير «وليم رمزى» (Sir William Ramsay) . وبدأ يشتغل فى هذا الأمر وحده ، ثم شارك « رالى » فيما هو فيه . وبدعا يفصلان العناصر النادرة فى الهواء ، وأغلبها الأرجون ، وذلك بإخراج الأكسجين والأزوت

كليهما من الهواء . واستخدم «رمزي» طريقة اعتمدت على اتحاد الأزوت بالمغنسيوم . وهذه طريقة ما كانت ميسرة قبل بضع عشرة من السنين ، لأن المغنسيوم لم يتيسر إلا في أواخر القرن التاسع عشر . ولكن « رالى » عمد إلى طريقة أخرى . ذكر ما كان «هنرى كافندش» (Henry Cavendish) أعلنه عام ١٧٨٠ ، ذلك نجاحه في الجمع بين الأكسجين والأزوت (ونحن هنا نستخدم ألفاظاً حديثة) في مركب واحد بإمرار شرارة كهربائية في خليط منهما ، ووجد كافندش ان المركب المتكون يذوب في الماء ، فوجد « رالى » في هذه الطريقة وسيلة يعلم بها أن كان الأزوت الذى في الهواء الجوى متجانساً (وهنا أيضاً نستخدم لفظاً حديثاً) . وأجرى التجربة كما اعتزم ، وخرج بنتيجة يقول فيها إن كان في الأزوت الجوى جزء يختلف عن سائر هذا الأزوت « فلنا أن نقول إن مقدار هذا الجزء لا يزيد عن جزء من ١٢٠ جزء من الأزوت كله» . ولم يكن هذا المقدار ظناً . فكافندش حصل من الهواء على بقية من غاز لم يمتصها الماء . كانت فقاعة تبلغ نحو جزء من مائة من الأزوت . وما كانت هذه الفقاعة إلا من أرجون .

اهتدى كافندش الى ما اهتدى ، ولم يلتفت أحد إلى ما صنع ، ولم يتابع أحد ما صنع . ولا بد أن مئات من الكيماويين قرأوا ما صنع كافندش على السنين ، وكلهم فوتوا على أنفسهم شرف هذا الكشف الجديد . والأرجح أنهم حسبوا أن هذه الفقاعة الأخيرة أزوتاً لم يستطع كافندش أن يستهلكه فيما استهلك من أزوت .

وأعاد « رالى » تجربة كافندش وبهذا فصل الأرجون . وظهر أن

هذا الغاز الجديد (الجديدي على العالم العلمى) ، سواء فصل من الهواء بطريقة « رمزى » ، أو بالطريقة الأخرى التى هى ليرالى وكافندش معاً ، ظهر أن له خواص لم يتعودها الكيماويون. وقد غير اكتشافه ، واكتشاف زملائه من غازات الهواء النادرة ، آراء الكيماويين فى كثير من مسائل فى العلم أساسية جوهرية . واختصاراً كان هذا الكشف فى المرتبة الأولى بين الكشوف العلمية لأنه فتح أبواباً للبحث جديدة كثيرة ، منها التجريبي ومنها النظرى . والحق أن كثيراً من هذا الأبواب ما كان يمكن طرقه فدخله قبل هذا الزمان بخمسة وعشرين عاماً أو خمسين عاماً . والحق كذلك أن وسيلتين من وسائل البحث ، أن جهازين من الأجهزة ، أديا خدمات جليلة فى بحث الأرجون وما معه من غازات فى الهواء نادرة — ذلكما أنبوبة التفريغ الكهربائى ، والإسبكتروسكوب^(١) أو المطياف — ما كانا ليتيسرا لأحد من البحوث يقوم مثلاً فى عام ١٨١٠ ببحث الفقاعة التى تخلفت من هواء « كافندش » قبل ذلك بثلاثين عاماً .

ومع هذا فالذى ينجيل إلينا أن هذا الكشف ، كشف الغازات النادرة فى الهواء ، تأخر عن زمانه طويلاً. تأخر فوق ما يجب . إنى سوف أذكر

(١) أنبوبة التفريغ الكهربائى هى أنبوبة مستطيلة ، كالبازنجانة أو نحوها ، بطرفها أسلاك توصل إلى مصدر لشحنة كهربائية عالية الضغط . وفى جنب الأنبوبة فتحة متصلة بمضخة لتفرغ ما بها من هواء أو غاز . وعند تشغيل المضخة يخف ضغط الغاز بالأنبوبة إلى درجة أنه يأذن للشحنة الكهربائية أن تمر فيه ، أى تفرغ . وهو يتوهج إذ تمر الكهرباء فيه . وعندئذ يكون له طيف ، لو نظر إليه الناظر بجهاز لتحليل الطيف ، وهو الإسبكتروسكوب ، لظهر طيفه الخاص فدل عليه . وهذا تكتشف حقيقة غاز ما من غازات الهواء .

في باب قادم أن كثيراً من الآراء الجديدة وطرق التجريب الجديدة لا تقدر جدتها ، ولا تعرف خطورتها ، إلا إذا حان زمانها . ومن ذلك فقاعة كافنديش ، وما قيل عنها . ولكن مع هذا ، وعلى العموم ، لا يكاد الرجل منا أن يجد سبباً يتعوق به كشف الأرجون بعد ما جاءت الثورة الكيماوية ، وعلى الأخص بعد أن قبل العلماء النظرية الذرية (١٨٦٠) . ولكني أعود فأقول أن الأرجون ، لو كان اكتشف عند ذاك ، فإن اكتشاف زملائه من الغازات النادرة كان على الأرجح سيترث بعد ذلك طويلاً ، والنقاش الذي كان يقوم في الأرجون ، هل هو عنصر أم مركب ، كان يتناول تطاولاً كبيراً .

وقبل ختام هذا الباب أذكر أمرين ، على سبيل الإضافة وزيادة الإيضاح .

أما الأمر الأول فعن الكيماوي الأمريكي هيلبراند (W.F. Hillebrand) فقد حصل هذا الكيماوي ، قبل عام ١٨٩٠ ، على مقدار من الأرجون ، مخلوط بالهليوم (وهو غاز آخر من غازات الهواء النادرة) ، فعجز عن التعرف على ما حصل . كان كشف أن بعض المعادن الأرضية إذا عولج بحامض أخرج غازاً . وامتحن هذا الغاز وقال إنه الأزوت . وسمع « رمزي » بالذي صنع هيلبراند ، وقرأ ما نشر من ذلك . وأعاد تجربته ، ووجد أن الغاز الذي حصل عليه من ذلك لم يكن أزوتاً ، ولكن خليطاً من أرجون وهليوم . وتعرف على الغاز الثاني من طيفه الذي أحدثه في أنبوبة تفريغ كهربائي ، فقد جاء هذا الطيف مطابقاً لطيف غاز لم يكن عرف بعد على الأرض ، ولكن أدرك أنه موجود في الشمس ، فهو من

بعض طيفها (هليوس معناها الشمس). وقد نتساءل لم لم يتم «هلبيراند» بحث غاز هو كاشفه؟ ونجد جواب هذا السؤال الذى لا يخلو من طرافة فيما كتب «هلبيراند» إلى «رمزى» يعتذر عن خيبته ، بعد أن تم هذا بحث هذا الغاز قال : « إن الظروف التى قمت فى كنفها بهذا العمل لم تكن مؤاتية . فقد كنت أنفقت فى الجزء الكيماوى من البحث وقتاً طويلاً ، فلم يرتح ضميرى إلى أن آخذ من عملى الروتينى الذى هو واجبى الأول من الوقت أكثر مما أخذت . وكنت فى الأطياف وفيما يتصل بالمطياف ، بالاسبكتروسكوب ، قليل الخبرة . . . ولقد - لا أشك - استغربت من أنه فاتنى التعرف على هذا الغاز من وجود الخط الأحمر فى الطيف ، الذى للأرجون ، ووجود خطوط تمييزها أنت فى طيف الغاز الذى حضر من الكلثيت (Clevite) . والحق أنه لم يفتنى إدراك هذه الخطوط . فكلانا ، أنا والدكتور «هالوك» (Hallock) ، وجد كثيراً من هذه الخطوط مرة أو مرتين ، ومنها ما كان مصدره الزئبق أو الكبريت من حامض الكبريتيك . ولكن كان من هذه الخطوط فى الطيف أيضاً خطوط لم نجد نظائرها فى أى خريطة من خرائط الأطياف المعروفة . والمعروف أن الأطياف تتغير بتغير مقدار الإفراغ فى أنبوبة التفريغ الكهربائى . وقد نسبنا إلى هذا ما اختلط علينا من أمر هذه الخطوط ، ورفضنا اقتراحاً جاء من أحدنا ، فى غير جد كثير ، أن الذى بين يدينا قد يكون عنصراً غازياً جديداً » .

فهذا كيماوى ، يعمل فى معمل حكومى ، ويعمل عملاً روتينياً ، ويحيته بحث قيم فيقف عند بابه ، فيأبى ضميره الحى أن يأخذ من وقت

حكومته فوق ما أخذ ، ويرجّح عنده العمل اليومي على متابعة كشفه العلمى . فإن صح هذا ، فهذا وجه آخر من قصة اكتشاف العناصر النادرة فى الهواء ، يذكّرنا بقول « بستور » عن « العقول المتأهبة » دائماً ، لانتهاز الفرصة ، فرصة البحوث ، كلما عرض منها للمرء عارض ، ومتابعها إلى آخر المطاف .

أما الأمر الثانى الذى أردت أن أختم به هذا الباب فهو ما قد يستخرج من أعمال « رالى » ، وهى أعمال تقديرية كمية غاية فى الدقة ، من حكم ، يصدق فى حالة كالحالة الخاصة التى نحن بصدها ، ولكن فى تعميمه الخطأ كل الخطأ . وقد يظن القارئ أن الأمر هذا الذى أثّره ليس من الخطر بمكان ، ولكنه عندى خطير بسبب أنه خطأ شائع ، فلا بد من التنبيه إليه .

إن مؤرخ حياة « رالى » يخطئ فى الرأى عند ما يبدأ قصة كشف الأرجون بكلمة قالها اللورد « كلفن » (Kelvin) ^(١) ، نصها يجرى هكذا : « إن التجارب التى ينفق فيها المرء جهده وزمنه فى مقاسات دقيقة غاية الدقة ، وتقديرات مضبوطة غاية الضبط ، قد تتراعى لغير العلماء أنها

(١) هروليم تمسن ، ولكنه نال اللوردية فسمى لورد كلفن . وهو رياضى وفزيائى ومخترع . وهو الثلاثة معاً . ولد فى بلفاست ، بارلنדה ، عام ١٨٢٤ . تعلم فى جلاسجو ، ثم كبريدج . وعين أستاذاً للفلسفة الطبيعية فى جامعة جلاسجو من عام ١٨٤٦ إلى عام ١٨٩٩ . أى ٥٣ عاماً . وهو كان فى أكثر حياته يعد أكبر علماء زمانه . واحتفل بمرور ٥٠ سنة على أستاذيته فى حفل لم يكده يتخلف عنه عالم نابه حتى قط . ومات عام ١٩٠٧ ودفن فى كنيسة وستمنستر أبى بلندن .

في مرتبة دون مرتبة التجارب التي تهدف إلى كشف شيء جديد . ولكن أكبر الكشوف العلمية على التقريب ما كانت إلا ثمرة ما أنفق فيها من قياس دقيق ، ومما صبر فيها الصابر وقعد القاعد إلى الأعداد الكثيرة التي أخرجتها تجاربه ليغربلها وينقيها .

نعم إن « غربلة الأرقام الكثيرة » التي قام بها « رالى » أدت إلى الكشف عن الأرجون . ولكن هذا لا يقوم دليلاً على صحة قول « كلشن » على إطلاقه . إن الذى يدل عليه أن الصدفة العارضة النافعة قد تأتي بها مقاييس مجهددة وتقديرات متعبة يقوم بها صاحبها . ولكن من الخطأ أن نستدل من ذلك على أن زيادة رقم عشري جديد فى نتيجة من نتائج تجربة ستكون دائماً مثمرة . إن الدقة لها حد نافع تقف عنده . وقد يختلف الناس فى هذا الحد ، ولكنه حد لا بد أن يكون وأن يوقف عنده ، وإلا صارت الدقة فى ذاتها غرضاً يُستهدف ، ولذة ، كاذبة جامع طوابع البريد ، تُطلب لذاتها . إن فى خريطة العرفان خانات كثيرة فارغة ، فهذه لا بد أن تملأ ، والعمل الذى يتضمنه هذا الملاء عمل مقبول ، بل مشرف . ولكن الرجل منا إذا هدف إلى زيادة الأرقام دقة ، كتلك التي تقدر بها خواص العناصر والمركبات ، من كثافة ، وتوصيل الكهرباء ، وذوبان فى الماء وغير الماء ، فإنما هو مقبل على أمر لا يمكن أن ينتهى أبداً . ومع هذا فنحن نعقل أن عملاً كهذا يعمل لغاية عملية ، أو هو يعمل لامتحان فكرة نظرية ، ولكن أن يقوم به صاحبه لمجرد لذة يجدها فيه فأمر لا يستحق من الجمهور تقديراً إلا بمقدار ما يستأهل جامع الطوابع من تقدير .

وليس في هذا غض من القياسات الدقيقة والتقديرات المرهقة، فلولا هذه ما كانت كيمياء ولا كانت فزياء . ولكن هذه القياسات والتقديرات يكون خطرهما بمقدار ما تتصل بفكرة جديدة أو مشاريع تصورية مستحدثة ، أى من فروض ونظريات ، وبمقدار ما تتطوع لمعالجتها بالمنطق وبالأساليب المنطقية .

إننا في الباب القادم سنورد بضعة من أمثلة بسيطة نشرح بها الدور الأساسى الذى تلعبه فى العلم أدوات القياس ، ثم الرياضة ، تدخل بعد ذلك إلى نتائجها لتصوغها وتشكلها .

الباب السادس

التدليل الرياضى والتجريب الكمى

أعود مرة أخرى فأسأل القارئ أن يرجع معى إلى القرن السابع عشر وما كان فيه من دراسة للهواء . إن مشروع تورشلى ، أى نظريته ، خرج منها استنتاجات معلومة كانت مما يمكن تحقيقه بالتجريب . وهى قد أُجريت وتحققت ، وزاد الناس اعتقاداً فى صحة هذه الصورة الذهنية ، أن الجو يجر من هواء . ولكن هذه التجارب كانت فى جوهرها وصفية . أى أنه لم يحتج الإنسان فيها إلى إجراء قياسات دقيقة ، والأرقام التى نشأت منها لم تتناولها الرياضه بمعالجة أصلاً . وهذه الصفة التى لهذه التجارب ، ولهذا البحث ، بحث الهواء ، فى القرن السابع عشر ، أعنى الوصفية ، لا التقديرية ، هى التى جعلت من تاريخ بحث الهواء فى هذا القرن تاريخاً سهلاً . وهو يحكى فيسهل على القارئ فهماً ويجد منه إقبالا . فأكثر القراء لا يحبون الرياضه ولا يحبون أن يقرأوا عنها ، ويكفى القارئ منهم أن يفتح كتاباً فيجد فيه معادلة جبرية قد أطلت برأسها حتى يغلق كتابه . ولكن الوقوف بالبحث العلمى ، عند هذا الحد الوصفى ، يعطى القارئ عنه لا شك صورة كاذبة .

حقيقة إن التجارب الوصفية كانت فى أكثر من مرة سبباً فى تقدم العلوم الطبيعىة . وهى فى علوم الحياة كانت الوسيلة الوحيدة لتقديم هذه

العلوم إلى عهد قريب جداً . ويستطيع المرء أن يستوعب كثيراً من العلوم التجريبية بدراسة حالات لا تستخدم فيها القياسات الدقيقة ولا تدخل إليها الرياضات العميقة . ولكننا لا نبالغ اذا نحن قلنا إن علم الفلك وعلم الكيمياء وعلم الطبيعة أو الفيزياء إنما بنيت على أسس من القياس الدقيق قامت به أجهزة في تصميمها حنكة وبراعة . وعدا هذا فالقيم التي خرج بها هذا القياس ما كانت لتكتسب خطورة إلا بسبب علاقتها بصور رياضية كان من جراء تطبيقها إن رجع الباحثون إلى هذه الصور يزيدون فيها فيماؤن بذلك الفكر النظري بكل طريف جديد . فكل فهم للعلم لا يتم إلا إذا صحبه عند القارئ شيء من تقدير للآلات التي بها تجرى هذه القياسات ، وتقدير لكل ما يدخل إليها من تحسين . كذلك لا بد للقارئ من بعض فهم للعلاقة القائمة بين أرقام تأتي بها هذه القياسات ، تجرى في المعامل ، وبين ما في الرياضة من حقائق قائمة وأساليب جارية . من أجل هذا خصصنا هذا الباب لبحث التجريب الكمي واستخدام الرياضيات فيه . فإذا وجد القارئ صعوبة في متابعة ما أقول ، فما عليه إلا أن يترك هذا الباب وينتقل إلى الذي بعده ، وبذلك يعود مرة أخرى إلى الجو الوصفي الحبيب إليه . ولكن مع هذا يجب أن يدرك ما خسر بتركه الجو الكمي ، جو المقادير لا جو الأوصاف .

وليس بي حاجة إلى أن أعتذر عن بساطة ما سوف أعرض له من آراء ، ولا من رياضة ، في الصفحات الآتية . ولكنني أعيد القارئ أن يفهم أن ما سوف أعرض له من أمثلة أختارها من القرن السابع عشر ، إنما قصدت بها أن أقول إنها تمثل علم هذا القرن . فما هي بذلك . ولست

بحاجة إلى تذكير قارئى بأن هذا القرن كان قرن «جاليليو» وقرن «نيوتن» . وهو قرن بدأ بدراسة جاليليو للأجسام الساقطة ، وانتهى بدراسة «نيوتن» للميكانيكا، وللحركات ، وباختراع حساب التفاضل والتكامل (Calculus) إن الذى يريد أن يعلم أى دور لعبته الرياضيات فى تقديم علم الفيزياء النظرى ، فى الأحقاب الأولى من هذا التقدم ، عليه أن يدرس ما صنع هذان العالمان الكبيران. ووددت لو أنى عاجلت ذلك هنا . ولكن دراسة ما صنعاه تقع من الصعوبة بحيث لا يتفق لها مكان فى هذا الكتاب ، فهو إنما يقصد إلى عرض ما هو بسيط من طرائق العلم . فلو أنى مثلاً تناولت مسألة الأجسام المتحركة (ما يتعلق منها بالحركة الصرفة وبالقوى التى تعمل فيها) فأكثر ظنى أنى سوف أربك القارئ وأخلط الأمر عليه فيخرج من ذلك وما درى من دور لعبته القياسات ولعبته الرياضيات فى تقدم العلوم شيئاً .

إنه لا بد ، لفهم حتى تلك المبادئ الأولية فى أفرع علم الطبيعة التى يتصل اسمها باسم «نيوتن» ، من دراسة شاقة ومران فى حل مسائلها طويل .

إن الحس الصادق بالتاريخ ، تاريخ الفكر ، يستلزم من كل من يحرص عليه أن يضع تجارب الهوائيات هذه التى جرت فى القرن السابع عشر ، فى موضعها من التاريخ ، فيما بين القرون الوسطى ، حين كانت آراء «أرسطو» هى الشائعة ، وبين القرن الثامن عشر ، حين كانت آراء نيوتن هى الشائعة ، وأن يستعرضها ووراءها صور من هذه القرون . إن الهواء تنشأت دراسته فى وقت وقع بين «جاليليو» و«نيوتن» ، وكان وقتاً

تصاغ فيه آراء رياضية أعقد من أى شئ نعرض له فى هذا الكتاب وكان الجو الأرسطاليسى ، بالذى فيه من سبب ، لا يزال مخيماً ، ولكن كان قد أخذ ينتشع ، وينتشع سريعاً . وكان الفلكيون فى شغل دائم ينسقون ويوفقون بين نظرية المجموعة الشمسية التى كشفها كوبرنيكس (Copernicus) والنتائج العديدة والأرقام التى لا تكاد تحصر التى جمعها الناظرون فى السماء ، فى دقة وأناة وجهد ، فى ذلك القرن والذى سبقه . ولندكر بذكر الفلك والفلكيين أن الأجهزة المحسنة كانت دائماً حلم هؤلاء الباحثين . وفى هذا القرن علم الناس كم تثمر الرياضة إذا ما دخلت إلى الظواهر الطبيعية لتطبّق فيها . عرفوا ذلك على الأخص مما صنع جاليليو . ومنطق القرون الوسطى ، ورياضياتها ، كانت تمتاز سريعاً بفن التجريب ، فإزداد قوة ، دل عليها التجريب الكيمى .

إن تطبيق الاستدلال الرياضى الهندسى ، أى الاستدلال الاستنتاجى ، فى العالم الطبيعى يمكن إيضاحه بعرض تاريخ ذلك العلم المسمى بالأدروستاتيكا ، أى علم موازنة السوائل ، الذى هو بعض فروع علم الميكانيكا . ودراسة تاريخ هذا العلم نافعة ، لأنه لشبهه ولقربه كل قرب من علم الهوائيات ، يصلح أن يكون مقدمة للبحث فى موضوع التجريب الكيمى .

إن تخلق الماء وكيف يسلك فى الأنابيب ، ويتطبع فى الأحواض ، معرفة لا شك طلبت من قديم ، طلبها الإنسان ، ولاحظها وناقشها ، منذ فجر المدنية . ويكفى للذى نحن بصدده أن نبدأ عند «أرشيميد»

(Archimedes)^(١) ، وقد عاش في القرن الثالث قبل الميلاد . وقد سهل تعيين الزمن الذي عاش فيه هذا العالم الباكر تلك الحكايات المشهورة عن وفاته ، فهو قتل عند سقوط سيراكيوز (Syracuse) ، قتله جندي روماني . وكمثل قصة موته هذه شهيراً ، قصته الأخرى التي تحكى عن طريقته التي ابتدعها فعرف بها أكان التاج من ذهب أم من غير ذهب ، بوزنه في الهواء ثم بوزنه في الماء . يذكرنا بها صيحتة في حمامه « لقد وجدتها ، لقد وجدتها » ، أى وجد الفكرة التي يعرف بها الذهب ، في التاج ، أكان خالصاً أم غير خالص . إن القاعدة المأثورة عن « أرشيميد » ، والتي تعرف بأنه أول من اكتشفها وهو قائم مشغول عملياً بتقدير المعادن الثمينة ، وذلك بالطرق الفيزيائية ، هذه القاعدة قد ظلت تحمل اسمه قرون عديدة . ولكنها لم تكن الوحيدة التي جاء بها أرشيميد . إنها كانت واحدة من عدة من الأفكار المترابطة ، نزلت إلينا بها كتاباته عن السوائل وما تحدثه السوائل من ضغوط . واطلع عليها العالم الغربي في القرن السادس عشر أول اطلاع ، واتخذ منها أساساً يناقش بناء عليه كيف تتطبع السوائل وهي ساكنة ، فصار من ذلك علم يعرف اليوم بالأدروستاتيكا ، أو علم موازنة السوائل .

إن علم الأدروستاتيكا مهم لنا لأنه علم متصل على القرون ، بدأ

(١) هو عالم الفيزياء وعالم الهندسة الإغريقي الشهير . ولد بمدينة سيراكيوز بجزيرة صقلية في نحو عام ٢٨٧ قبل الميلاد وتفرغ لدراسة العلم والرياضة . وهو الوحيد بين القدماء الذي خلف لنا شيئاً نافعاً في الميكانيكا والأدروستاتيكا . ومن هذه الأخيرة نظرية أرشيميد المعروفة .

عند الإغريق وانتهى إلينا . فبدراسة تنشئته يدرس المرء كيف تنشأ الأفكار على مر السنين الطويل . إن الذي يقرأ المقالات التي كتبت في علم موازنة السوائل في القرن السادس عشر والسابع عشر ، ولتفسير قواعد «أرشميد» وشرحها واستزادتها ، يحس كأنما يقرأ كتاباً في الرياضة ، أو في الهندسة الرياضية . مثال ذلك ما كتبه «استيثن بروجس» (Stevin of Bruges) في نحو عام ١٦٠٠ ، وما كتبه «بسكال» ، وكان كتبه عام ١٦٥٠ ولكنه نشر عام ١٦٦٣ . وليس في أيهما إشارة إلى تجارب أجريت أبداً . إنه المنطق الاستنتاجي طبقه هؤلاء الفزيائيون النظريون القدماء على ما أتى به «أرشميد» من علم ليوسعه وليزيده . وهم بذلك إنما كانوا يتبعون ذلك الطراز من الفكر المنطقي الذي جاء به إقليدس قروناً قبل ذلك خلت . فطريقتهم كانت في جوهرها عقلية تحليلية صارمة وتدليلاً في حذر أي حذر . والحق أنك حتى اليوم قد تجد من المناطقة من يظن أنه ما كان لأرشميد أو غير «أرشميد» أن يحاول أن يرسى قاعدة أرشميد ، التي استخدمها في تقدير الذهب ، على قاعدة من التجريب العلمي . فمحاولة كهذه هي عندهم إضاعة وقت . وعندهم أن قواعد الأدرستاتيكا كقواعد الهندسة السطحية ، تتخرج بالمنطق ، هذه من تلك ، ثم هذه من هذه . أو هذا على الأقل ما قال به «استيفن» ، وما قال به «بسكال» . وحتى بعض الكتاب في منتصف القرن العشرين . وإنه لمن الصعب القول بصحة هذا الرأي صحة كاملة ، وسوف أرجئ الخوض في صحته بضع صفحات حتى نتأكد من وضع المسألة تماماً .

إن الفكرة المهمة في كل هذا هي تلك : إن في تنشئ الفزياء ، أي

الطبيعة ، في القرنين السادس عشر فالسابع عشر ، استخدم المنطق الذى يستخدم فى إثبات النظريات الهندسية وتخريبها فى بحث ظواهر الطبيعة . وهذا النوع من الاستدلال المنطقى كان من طبيعته أن يؤكد الناحية التجريبية قليلا ، ويؤكد كثيراً ناحية الإيضاح بأمثلة ، قد تتحقق أخيراً عملياً ، ولكنها قلما تتحقق . والواقع أنك تقرأ مقالة بسكال عن الأدروستاتيكا ، وفى الهوائيات ، فلا تستطيع أن تقول أى هذه التجارب الموصوفة قد أجرى منها شيء إن كان قد أجرى منها شيء قط .

إن الذى يقرب « بويل » بـ « بسكال » يجد الفرق بينهما كبيراً . أما « بويل » فكان رب التجريب ذا الخيلة الواسعة ، ورب الملاحظة الدقيقة ، والرجل الذى لم يتعبه قط تسجيل التفاصيل . وهو قد صنع مثل ما صنع أى رجل آخر فى التاريخ لخلق التقاليد الصالحة فى العلم التجريبي . وأسلافه فى نهجه هذا الصناع وأصحاب الحرف الذين ظلوا طوال الدهور يحسنون حرفهم ويبدون طرائقهم . ومنهم مستخرجو المعادن ، ومصنوها ، ثم من بعد ذلك هم صانعوها . أما بسكال فكان الرجل الرياضى المنطقى ، وأسلافه المناطقية والرياضيون من الأغارقة . إنه يجد حاجته أحياناً إلى تجربة حقيقية يقوم بها يحقق نقطة هامة فى نقاش . ومثل هذه تجربة الجبل ، جبل بوى دى دوم ، وبعثته لتحقيق الضغط الجوى عن رأس الجبل وفى سفحه . ولكن نقاشه هذا إنما يجرى ومكوناته المنطق ، ثم تجارب قد تجرى . أما التجارب التى هى فعلاً أجريت ، والملاحظات التى هى فعلاً سجلت ، فليس لها فى نقاشه ولا فى جماله ولا فى تخريجه المنطقى مكان . إنه يذكر التجريب ، لا شك فى هذا ، ويذكره فى كل

موضع ، ولكنه التجريب الذى نسميه اليوم « على الورق » . وبسكال فى كل ما كتب يمثل ذلك الجليل المتعاقب من الناس الذين صنعوا ما نسميه اليوم بالطبيعة النظرية ، أو الفزياء النظرية . إنه أحد الفزيائيين النظريين ولو سبقهم بزمان طويل . أما بويل فلعله كان الأب الأول لكل مجرب فى المعمل جاء من بعده . ونحن إذا ذكرنا الفزيائيين النظريين فى العهود القريبة إلينا ، ذكرنا مكسويل Maxwell ^(١) و ذكرنا اينشتين Einstein ونحن إذا ذكرنا أهل التجريب منهم ذكرنا فرداى Faraday ^(٢) و ذكرنا لورد رذرفورد Lord Rutherford ^(٣) . وقد نذكر من رجال

(١) هو جيمز كلارك مكسويل ، العالم الفزيائى ، ولد عام ١٨٣١ ومات عام ١٨٧٩ . تعلم فى بلدة أدنبرة ثم فى كبريدج وصار أستاذاً للفلسفة الطبيعية فى جامعة أبردين من عام ١٨٥٦ إلى عام ١٨٦٠ ثم أستاذاً بكلية الملك بلندن إلى عام ١٨٦٥ ثم أستاذاً للفزياء التجريبية فى كبريدج . وكان مكسويل أكبر فزيائى حى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، لا يفوقه مقاماً غير اللورد كلفن . وأكثر عمله فى الكهرباء فهو أحدث فى نظريتها انقلاباً . وعدا هذا كان مؤلفاً بارع التأليف .

(٢) هو ميكل فرداى الكيماوى الفزيائى الإنجليزى ، وهو مثل للرجل الذى يخرج من ضعة فى المجتمع فيتسّم بكفائاته ذروة المجد . ولد عام ١٧٩١ ومات عام ١٨٦٧ . بدأ حياته صبيّاً عند مجلد يجلد الكتب فى لندن ، وملاً فراغه بالتجريب الكهربائى . وصحبه صاحب إلى محاضرات السير همفرى دافى ، فواصل هذه المحاضرات . وأطلع دافى على مذكراته من هذه المحاضرات ، فدهش لها وعينه مساعدتاً فى المعهد الملكى (Royal Institution) الذى كان رئيسه . ومن هذا ابتداء ، فصار بعد ذلك أستاذاً ، ثم رئيس هذا المعهد من بعد دافى وبحوثه فى مواضيع شتى ، من أشهرها التحليل الكهربائى .

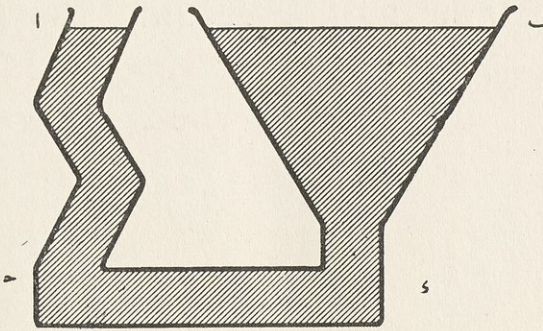
(٣) هو ارنست رذرفورد ، الفزيائى ، ولد فى نيوزلندة عام ١٨٧١ ، وجاء إنجلترا ، إلى كبريدج ، فأجرى فيها بحوثه . وفى عام ١٨٩٨ ذهب إلى كندا أستاذاً للفزياء بها . وهناك بدأ بحوثه فى النشاط الإشعاعى الذى كونه شهرته . وتابع هذه البحوث بعد ذلك فى

العلم الكبار من جمعوا بين النهجين ، ومن هؤلاء جاليليو ومنهم نيوتن .
 إن أهل النظريات وأهل التجارب ظلوا يتعاونون على القرون ، والذي
 صنعه بعضهم أكمل وتمم ما صنع الآخرون . ولكن هذا لم يمنع أن قام
 بينهم أحياناً قليل من خصام . ومن ذلك ما نجد في كتابة « بويل » من
 أقوال يعلق بها على بعض تجارب بسكال المزعومة . قال « بويل » : « إن
 هذا الرياضي الفرنسي لا يذكر لنا أنه قام فعلاً بإجراء هذه التجارب ،
 ومن الجائز جداً أنه وصف ما وصف منها على أنها أشياء لا بد واقعة ،
 ما دام أن المنطق الذي أخرجها هو عنده الصحيح » . وفي مكان آخر
 يضحك « بويل » من بسكال لأنه لا يعطى التفاصيل التي تهىء للآخرين
 الفرصة لإعادة التجارب بغية تحقيقها . ومن التجارب التي وصفها بسكال ،
 ولا يكاد أن يؤمن بها القارئ ، تجربة أشار إليها « بويل » ، هي تجربة رجل
 زعم بسكال أنه نزل إلى الماء فجلس فيه على عمق ٢٠ قدماً من سطحه ،
 ثم حمل على فخذه أنبوبة امتدت إلى ما فوق سطح الماء . قال « بويل » :
 ولكن بسكال لم يقل لنا « كيف أمكن لرجل أن يبقى تحت الماء ،
 على عمق ٢٠ قدماً من سطحه » .

منشتر . وتعين بعد ذلك أستاذ الفيزياء التجريبية بجامعة كمبرج ، في عام ١٩١٩ .
 ونال ميدالية الجمعية الملكية وجائزة نوبل . وانتخب رئيس الجمعية الملكية فكانه من ١٩٢٥
 إلى ١٩٣٠ . ومات عام ١٩٣٧ . وأشهر أعماله وبحوثه في الذرة ، تركيبها وتحطمتها .

قواعد الأدروستاتيكا : حقائق تسبقها تعاريفها

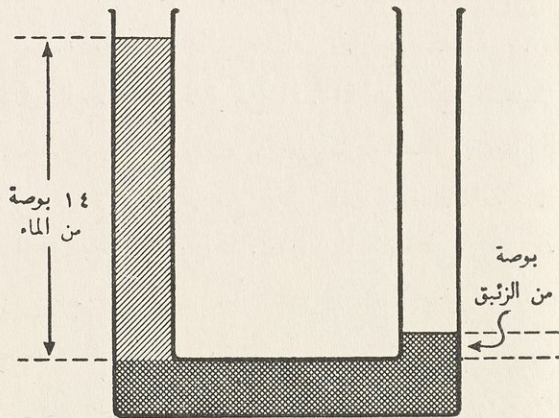
بهذه الفكرة العامة عن أصل الدراسة الرياضية النظرية كيف نشأت في علم الطبيعة ، نستطيع أن ندخل علم الأدروستاتيكا نبحث بعض مسائل خاصة فيه. ولنبدأ بظاهرة كثيراً ما أجمل الناس التعبير عنها بقولهم « إن الماء دائماً يبلغ مستواه من ذات نفسه ». إن الرسم (شكل ١٧) يذكر القارئ بأننا إذا وصلنا بين وعائين ، وصبنا ماء في أحد الوعائين ، فإن مستوى الماء يكون واحداً في كليهما مهما اختلف شكلهما . وواضح بذلك أن ارتفاعين من الماء (ا ، ب ، د) يوازن بعضهما بعضاً ، ولو أن مقدار الماء في كليهما مختلف كل الاختلاف . وإذا نحن صبنا



(شكل ١٧)

مقطع رأسى لوعائين متصلهما أنبوبة . فإذا صب الماء في أى من الوعائين فما أسرع ما يتساوى سطح الماء في الوعائين .

الماء بسرعة فإن سطحى الماء فى الوعاءين سيضطربان أول الأمر ،
فيرتفعان وينخفضان ويرتفعان وهلم جرا ، إلى أن يستقرا ، وعندئذ نقول
إنهما بلغا « حالة الاتزان » . وفكرة الاتزان هنا ، فكرة ذات خطر فى العلم .
ونقول إن قواعد الأدروستاتيكا تصح فى حالات « الاتزان » ، أى
حالات كالحالة التى وصفناها توتاً . ومن أجل هذا أسمينا هذا العلم بعلم
موازنة السوائل ، أو علم السوائل المتوازنة . وفى التوازن نجد عموداً من الماء
ارتفاعه ١٤ بوصة بالتقريب يوازن عموداً من الزئبق ارتفاعه بوصة واحدة
(شكل ١٨) ، وهذا معقول على ما يظهر لأن الزئبق أثقل من الماء بنحو
١٤ مرة ، إذا نحن قارناهما حجماً بحجم .



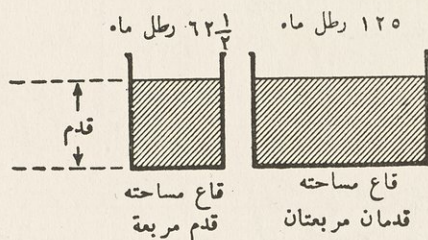
(شكل ١٨)

قطاع رأسى لأنبوبتين عموديتين ، بإحدهما زئبق وبالآخرى ماء ، تصلهما عند القاع
أنبوبة

كذلك فكرة « الضغط » ألفيناها مفيدة معينة في التعبير عن ظواهر كالظاهرة التي ذكرناها تَوَّأً عن الماء في وعائه . وهذه الفكرة ، فكرة « الضغط » ، مشتقة مما نحس به كل يوم في مجرى الحياة . فنحن نحس بالضغط إذا كان في وعاء من ماء ثقبٌ في قاعه وأردنا أن نسده بفليئة ندخلها في الثقب أو بيدنا نضعها فوق الثقب . وهذا الضغط الذي نحس به سببه وزن الماء في الوعاء ، ونحن نستطيع أن نثبت أنه يتوقف على عمقه من سطح السائل ، وعلى كثافة السائل ، وعلى سعة الثقب . ونحن إذا أحدثنا في قاع الوعاء ثقبين ، أحدهما مساحته قليلة ، والآخر مساحته كبيرة ، لوجدنا أن القوة التي تدفع بيدنا ونحن نمنع خروج الماء من الثقب الأكبر ، أكبر منها عند الثقب الأصغر . ولكننا إذا قسمنا هذه القوة على المساحة في الحالتين كان خارج القسمة عدداً واحداً . فهذه القوة في الوحدة الواحدة من المساحة هي التي نسميها اصطلاحاً وتعريفاً بالضغط ، وهو لا يتوقف إلا على كثافة السائل ، وعلى العمق الذي هو عنده من سطح السائل . من هذا تكون القوة الدافعة عند ثقب في قاع الوعاء تتوقف على مساحة الثقب ، بينا الضغط في أي ثقب بالقاع لا يتوقف على مساحة الثقب أبداً ، فهو ثابت لا يتغير ما ثبت عمق قاع الماء من سطحه .

ولنفرض أن لدينا وعاءين قاع أحدهما قدم مكعبة ، وقاع الآخر قدما مكعبتان ، ولنفرض أننا ملأناهما بالماء إلى عمق قدم واحدة (شكل ١٩) . وإذا نحن عرفنا أن الماء تزن القدم المربعة منه $٦٢\frac{1}{4}$ رطلا ، إذاً لوجب أن يحتوي الوعاء الأصغر $٦٢\frac{1}{4}$ رطلا ، وأن يحتوي الأكبر ١٢٥

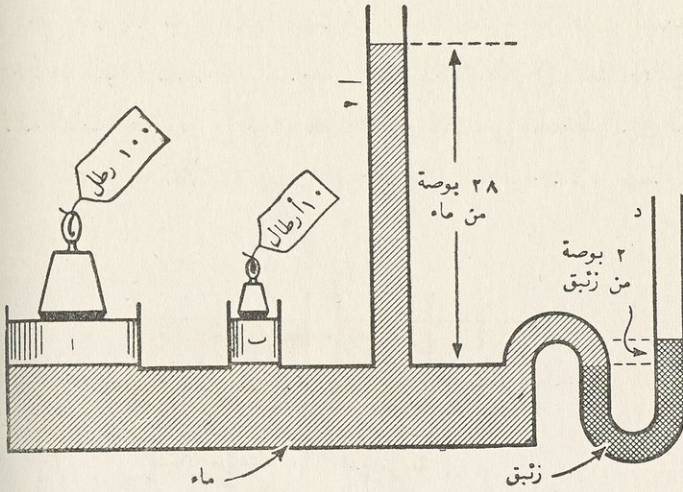
رطلا . وفي مثل هذين الوعاءين ، وجدناهما كما نرى قائمة ، يكون الثقل الواقع على قاعيهما هو وزن ما فيهما من الماء . ولكن غير ذلك الضغط . فالضغط هو القوة مقسومة على المساحة ، وهي $٦٢\frac{1}{٢}$ رطلا في كلتا الحالتين . والحقيقة العامة الخطيرة التي استخلصناها من ذلك هي الضغط الذي تسببه قدم من الماء هي دائماً $٦٢\frac{1}{٢}$ رطلا على التقدم المربعة الواحدة ، مهما كان



(شكل ١٩)

قطاع رأسى لوعائين بهما ماء . ولو أن مجموع القوة الواقعة على القاع في كل منهما مختلفة ، إلا أن الضغط عند القاع في كليهما واحد

مقدار الماء ، ومهما كان شكل الوعاء الذي يحتويه . ولهذا يكفي لتحديد الضغط في الماء أن نقول على أى عمق من سطحه هو واقع . وضغط ٣٤ قدماً من الماء يساوى $٦٢\frac{1}{٢} \times ٣٤$ أى ٢١٢٥ رطلا على التقدم المربعة . وقد نستخدم سائلاً غير الماء ، وليكن الزئبق : وهنا نقول إن الزئبق أثقل من الماء بنحو ١٤ مرة ، حجماً بحجم . وإذا فارتفع الزئبق الذي يوازن ارتفاعاً من الماء قدره ٣٤ قدماً هو $\frac{1}{١٤} \times ٣٤$ أى نحواً من ٣٠ بوصة . والارتفاعان من الماء اللذان بالشكل ١٧ يمكننا أن نعتبرهما متوازنين



(شكل ٢٠)

رسم يوضح طرقاً مختلفة لتعيين الضغط . فالمكبس ا مساحته ١٠٠ بوصة مربعة ، والمكبس ب مساحته ١٠ بوصات مربعة ، وإذا في كل من الحالين يكون الضغط رطلاً على كل بوصة مربعة . وهو يعادل نحواً من ٢٨ بوصة من الماء أو بوصتين من الزئبق

لأن الضغط على القاع في كليهما واحد . فلا عجب إذاً أن يتوازن عمود من الماء وعمود من الزئبق ارتفاعه $\frac{1}{14}$ مرة كارتفاع الماء (شكل ١٨) . وأنت واجد في الشكل ٢٠ أيضاً لطريقتين تقاس بهما ضغوط السوائل . وتبدل ا ، ب على مكبسين كلاهما محكم في أسطوانته فلا ينفذ منه السائل الذي تحته ، وهما يتحركان سهلاً في كلتا الأسطوانتين لأن كليهما أحسن تشحيمة . أما ح ، د فأنبوبتان مفتوحتان إلى الهواء ، بإحدهما ماء

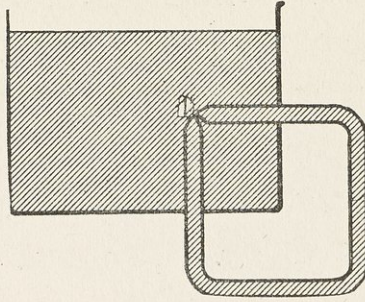
وبالأخرى زئبق . وعند ما تتوازن هذه السوائل نجد أن مثقالاً قدره ١٠٠ رطل يوضع على المكبس الذى مساحته ١٠٠ بوصة مربعة سيوازن مثقالاً مقداره ١٠ أرطال يوضع على المكبس الذى مساحته ١٠ بوصات مربعة (إذا استغرب القارئ من أن مائة أرطال تتزن بعشرة أرطال ، فليطمئن ، لأن من سبقوه قد استغربوا مثله ، حتى سميت هذه الحقيقة بأنها اللغز الأدروستاتيكي) . إن الضغط فى كلتا الحالتين رطل واحد على البوصة المربعة الواحدة . وكما هو واضح من الشكل نجد أن الضغط الذى يحدثه عمود من الماء ارتفاعه ٢٨ بوصة هو نفس الضغط الذى يحدثه عمود من الزئبق ارتفاعه نحو بوصتين . إن الضغط هو كذا من أرطال على البوصة الواحدة ، كان محمده الماء أو الزئبق أو غير هذين من سائر السوائل .

إننا عندما بحثنا فى الهوائيات فرضنا أن القارئ عنده فكرة عامة عن ضغوط السوائل وعن موازنة عمود منها عموداً . والواقع أن قواعد الأدروستاتيكا أو لم تكن قد عرفت ، لكان كل الذى تحدث عنه تورتشلى عن بحر من هواء شيئاً لا معنى له ولا مفهوم . إن الذى صنعه تورتشلى أن نقل فكرة موازنة عمود لعمود ، من السائل إلى الهواء ، ذلك لأنه كما يمكن تصور ضغط الماء ناشئاً من عمود من الماء ، فكذلك يمكن تصور ضغط الهواء ناشئاً من عمود هواء .

ولكن النقطة التى نهتم بها الآن هى أن الأدروستاتيكا ، أو علم موازنة السوائل ، وهو فرع من فروع الميكانيكا ، لم ينشأ علماً تجريبياً . كان هناك حقاً ظواهر معروفة مرقومة ، ولكنهم نظروا إليها على أنها شىء يرجع إليه للتأكد من صحة النظرية ، تماماً كما رجع بسكال إلى تجربة الجبل

ليؤكد من صحة نظريته ، أو أنهم نظروا إليها كبعض البدائيه المعروفة .
 وطريقة التفكير التي اتبعت يمكن إيضاها بفكرة من الفكر التي كانت
 قائمة عندهم ، وجعلوها مرجعاً للحجاج . وتلك الفكرة هي الفكرة التي
 تقول باستحالة « الحركة الدائمة » ، يقصدون بها الحركة التي لا تتوقف
 أبداً ، وتغذى نفسها من ذات نفسها فلا يحركها من خارجها شيء .
 وكانت هذه طريقة استيفن (Stevin) الحبيبة في النقاش . مثال ذلك أنه
 في عرض النظرية الرابعة في كتابه المسمى « الكتاب الرابع في الإستاتيكا »
 (Fourth Book of Statics) نراه يفكر على الصورة الآتية : إن
 أى جزء نعينه في ماء بوعاء « يحتفظ بأى وضع مرغوب فيه في الماء
 وإلا كان الماء في حركة دائمة » ، وهذا قول سخيف مرفوض . وبعد إثبات
 هذه النظرية على هذه الصورة ، صارت قاعدة يعتمد عليها لإثبات سائر
 النظريات .

ولنضرب مثلاً يشرح كيف استخدمت دعوى استحالة الحركة
 الدائمة في التفكير عند ذاك ، ولنتخذ هذا المثل من عهد أقرب من ذلك
 العهد ، ولنتخذه من علم الأدروستاتيكا . ففي علم الأدروستاتيكا أن الضغوط
 متساوية عند أى نقطة في ماء ساكن ، من جميع الجهات . فلو أننا اخترنا
 النقطة ١ تحت سطح سائل (شكل ٢١) ندرس ما يجرى عندها ، وفرضنا
 تخيلاً وجود أنبوبتين بالوضعين الظاهرين في الشكل ، إحداهما أفقية ينتهى
 طرفها عن النقطة ١ ، والأخرى رأسية ينتهى طرفها أيضاً عند ١ ، وأن
 الأنبوبتين متصلتان وأهما مليئتان بالماء الذي بالحوض ، وفرضنا فوق ذلك
 أن ضغط الماء عند ١ في الاتجاه الأفقى أكبر من ضغط الماء عند ١ في الاتجاه



(شكل ٢١)

مقطع لوعاء به سائل ، ثم أنبوبة تبدأ من النقطة ١ وتجرى إلى أسفل مخترقة القاع ، ثم تسير أفقية ، ثم تدور إلى أعلى ، ثم أفقياً فتدخل مخترقة جدار الوعاء حتى تصل إلى النقطة ١

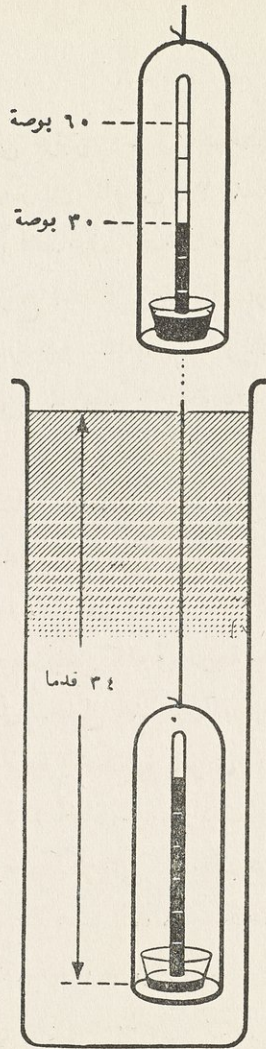
الرأسي ، إذاً لنتج عن كل هذا أن يدخل الماء من الأنبوبة الرأسية إلى الأنبوبة الأفقية ، وأن يظل يدور فيهما . ومعنى هذا حدوث حركة دائمة لا تتوقف أبداً . وبما أن « الحركة الدائمة » مستحيلة ، فالذي أدى إليها كذلك مستحيل . وإذا فالضغطان عند ١ لا يمكن أن يكونا مختلفين ، فهما إذاً متساويان . وهذا النوع من الحجاج يمكن تطبيقه على الضغوط ، عندما ، في كل الاتجاهات . إذاً فكل الضغوط ، عندما ، متساوية في كل الاتجاهات .

إن هذا المثل على بساطته ، وعلى أنه صيغ صياغة بلغة العصر الحاضر ، يصف لنا كيف كان السابقون الأولون يدللون على ما يجحدون من مسائل الميكانيكا . وبمثل هذا التبدليل نستطيع أن نشبت قاعدة أرشيمد التي تقول « إن الجسم الصلب ، إذا هو وزن مغموراً في سائل ،

فقد من وزنه مثل ما يزن حجم كحجمه من هذا السائل .
ويجب أن نذكر أن كل هذه الأدلة لا تجوز إلا في السوائل
الكمالية، أي السوائل التي يفرض لها من الخواص ما تفرض هذه الأدلة
صحته لتصح هي . وواضح أن من هذه الخواص أن يستجيب السائل
بالحركة السريعة إلى كل فروق في الضغط تحدث فيه . وخاصة ثانية ،
أن يكون وزن الوحدة من الحجم واحدا في كل السائل ، أي أن تكون
كثافته واحدة .

ففيما يختص بالخاصة الأولى ، تلك استجابة السائل لفرق الضغط
بالحركة ، نجد أننا لو صببنا رملا بدل الماء في أحد الوعاءين بالجهاز
الذي بالشكل ١٧ لما تساوى السطحان ، ولما حصل للرمل والماء اتزان .
والعسل نصبه بارداً يأتي لنا بنتائج لا تستقر فترة من الزمان . وفي كلتا
الحالتين لا تتوفر الشروط اللازمة للاتزان الأدروستاتيكي . فالتقليل من
الضغط نحدثه في جانب ، بإضافة رمل أو عسل ، لا يحدث التغير
السريع الواجب المطلوب . وبخلاف هذا تستجيب السوائل كالماء
والكحول والزئبق والماء المالح لكل تغير يحدث فيها ، وذلك بالحركة التي
تصحح الوضع ، وتصححه سريعاً .

أما فيما يختص بالخاصة الثانية ، وهي تجانس السائل من حيث
كثافته ، فضرورتها تتضح إذا نحن تصورنا بئراً عميقة من ماء نقي ،
وأنزلنا في مائها بارومتراً نقيس به الضغط تحت سطح الماء (شكل ٢٢) .
أما عند سطح الماء فالجو وحده هو الذي يحمل عمود الزئبق في البارومتر ،
ولنفرض أن طوله عند ذلك ٣٠ بوصة . فإذا نحن غمرنا البارومتر في ماء



(شكل ٢٢)

رسم يوضح زيادة الضغط بالنزول في الماء . فإذا أنزل البارومتر في ماء بئر ، إذا لصعد الزيتيق في البارومتر ٣٠ بوصة لكل ٣٤ قدماً ينزلها في الماء

البئر ، زاد الضغط على الزئبق بمقدار الضغط الأدروستاتيكي للماء . فإذا نحن هبطنا بالبارومتر في الماء إلى ٣٤ قدماً ، وهو ارتفاع البارومتر الماء على ما تذكر ، إذاً لتضاعف الضغط على الزئبق فصار قدر الضغط الجوى مرتين ، وإذاً لارتفع عمود الزئبق حتى صار طوله ٦٠ بوصة (على فرض أن أنبوبة البارومتر فيها هذا الطول وزيادة) . وكل هذه الأرقام بالطبع تقريبية . والذي يريد أرقاماً صحيحة دقيقة غير تقريبية فما عليه إلا أن يعلم الكثافات النسبية لكل من الماء والزئبق . والمفروض على طول الخط أن الماء في البئر ذو كثافة واحدة . وهذا الشرط مستوفى أقرب استيفاء ما بقيت حرارة الماء واحدة . فإن هي تغيرت ، كما يحدث في المحيطات ، نشأ عن تغيرها وجود طبقات في الماء ذات كثافات تختلف فيما بينها اختلافاً طفيفاً ، فماء المحيط ليس كله في درجة حرارة واحدة .

وإذا نحن ذهبنا في تحليل هذه الحالة فوق ما فعلنا ، لوجدنا أن هناك عاملاً آخر فوق الحرارة واختلافها يؤثر في كثافة الماء . ذلك عمق الماء فالماء كلما زاد عمقه زاد الضغط عليه وزادت كثافته . نعم إن الماء لا ينضغط كأنضغاط الهواء ، ولكن على كل حال هو ينضغط ولو قليلاً .

من كل هذا نرى أن هذه القاعدة ، قاعدة علم الأدروستاتيكا ، التي تراءت لنا أول وهلة مفهومة معقولة سهلة ، قد أصبحت بعد تحليلنا إياها لا تنطبق إلا على سائل مستحيل الوجود أصلاً . نعم نستطيع أن نكتفي بالماء له درجة من الحرارة ثابتة ، ونستغنى به عند العمل عند ذلك الماء الكمال غير الموجود . ونستطيع أن نقول إن الضغط عند نقطة في ماء ، ذي حرارة ثابتة ، معبراً عنه بالبوصات ، هو نفس العدد الذي يصف

المسافة بين هذه النقطة وسطح الماء، معبراً عنه بالبوصات . ولكن لا يسوغ لنا هذا أن ننسى أن ما تراعى لنا أنه مسألة ظاهرة واضحة لم تكن كذلك، وأن التعريف الذى وصنعنا للضغط فى سائل إنما هو تعريف لهذا السائل الكمالى غير المتيسر الوجود ، أى لسائل مستقلة كثافته عن ضغطه الأدروستاتيكي !

إن قواعد هذا العلم ، علم توازن السوائل ، تلك التى يمكن إثباتها بالتعليل الهندسى ، ليست هى ، مما سبق شرحه ، إلا قواعد عن سوائل صيغ تعريفها بحيث يتضمن ما فى إثباتها من فروض . ولكن فى الحياة العملية يقترب أكثر السوائل من أن تكون سوائل كمالية ما بقيت درجات حرارتها واحدة . وانضغاط الماء والمحاليل الملحية ، كماء البحر ، بسبب ما عليها من ضغط ، يمكن إغفاله . كذلك يمكن إغفال ما يطرأ على كثافة سائل من اختلاف بسبب اختلاف الحرارة فيه . ونحن نستطيع من نتائج حصل عليها أهل القرن الماضى أن نحسب مقدار الخطأ الذى يقع فى عمق ماء مقداره ١٠٠٠٠ قدم . وقد حسبناها فوجدنا الخطأ الواقع بإغفال هذه الفروق أقل من ٢ فى المائة . فكتاب القرن السادس عشر والسابع عشر لم يتعمروا فى خطأ يسبب لهم فى الحياة العملية عنثاً كبيراً ، بسبب ما نعموا فيه من جهالة كشف عنها ما جاء بعدهم من تجارب أدق وطرائق للعمل أيسر .

والآن فلنعد إلى ما تخيلناه من إنزال بارومتر فى بئر ، أو خيراً من ذلك بارومتر فى بحيرة . إننا فى حالة كهذه نحول الضغط الذى قسناه على هذه الأعماق بالزئبق ، إلى ضغط معبر عنه بطول عمود من الماء النقي ،

وذلك بالضرب في عدد البوصات التي في القدم وفي الكثافة النسبية بين الزئبق والماء في درجة الحرارة القائمة . وهذا ما سبق أن صنعناه عند ما قلنا إن ٣٤ قدماً من الماء تزيد عمود الزئبق ارتفاعاً بمقدار ٣٠ بوصة . وواضح من هذا أنا نستطيع أن نقيس الأعماق في الماء بدرجة كبيرة من الدقة بمجرد تعيين الضغط المائي عند هذه الأعماق (بتصحيح مناسب لاختلاف الكثافة عندها) . ومع هذا يجب أن نذكر أن ما قلناه عن العلائق الأصلية التي تتصل بالسائل الكامل ذي الكثافة الواحدة في كل أجزائه ، هذه العلائق لم نستخرجها من نتائج جاء بها التجريب الحذر المدقيق .

إنه من إضاعة الوقت أن يحاول الإنسان بالتجربة أن يعين كم يقترب العدد الذي يدل على بعد عمق مستخرجاً من قياس الضغط عند هذا العمق ، من العدد الحقيقي لبعدها هذا العمق عن سطح الماء . وكل من يحاول كشف هذا بإنزال بارومتر في بئر مثلاً ، إنما هو يستخدم في الواقع طريقة غير مباشرة لقياس التغير الحادث في الكثافة من زيادة الضغط . ولقد علمنا من طرق أخرى لقياس انضغاط الماء أننا لو طلبنا ذلك لاحتجنا إلى القيام بتجارب ليست هينة تستخدم فيها أجهزة دقيقة مصممة لتسجيل الضغط المائي بدرجة من الخطأ تبلغ نحواً من جزء من ألف جزء من البوصة . وهذه التجربة يمكن إجراؤها ولكنها لا تلقى ضوءاً ما على قواعد الأدرستاتيكية التي منها نستنتج الفرق بين ارتفاع الزئبق في البارومتر عند عمق ما ، محولاً إلى أقدام ، وبين حقيقة هذا العمق معبراً عنها بالأقدام . إن العوامل المتغيرة في التجربة تُجرى لأغراض عملية — التغير الذي يطرأ

على كثافة الماء وكثافة الزئبق بتغير درجات الحرارة — هذه العوامل يمكن تقديرها تقديراً غاية في السهولة بطرق مباشرة لا التواء فيها ولا إجهاد .

وهل معنى هذا إذاً أن نقول إن قواعد الأدرستاتيكيا لا أساس لها من التجريب ، وأنها مستخرجة بالتدليل المنطقي من فروض وضعناها أول الأمر تعسفاً؟ بالطبع لا . فالمقاسات التقريبية المتضمنة حتى في ملاحظة وصفية كالتى تقول إن الماء يبلغ مستواه من ذات نفسه هي الأسس التى قامت عليها القواعد ، قواعد هذا العلم . إن المواد التى لا تتوازن فى وقت قصير معقول إذا هى وضعت فى وعاء ذى ذراعين كالمرسوم فى شكل ١٧ ليست مما نسميه بالسوائل . أما التى هى تتوازن ، فهى سوائل ، فعندنا لها بضعة من قواعد نظرية يمكن بالتجربة تحقيق صحتها أو بطلانها .

وإذا نحن أجرينا هذه التجارب بدقة عالية ظهرت لنا فروق بين ما تقضى به القواعد النظرية وما تأتى به التجربة ، ولكنها فروق متصلة بقواعد أخرى نظرية معترف بها عن السوائل ، كتلك التى تقول إن السوائل تتغير كثافتها بتغير درجة حرارتها . ونحن فى إيجاد قواعد الأدرستاتيكيا ، وفى إثباتها وتوسيعها نغفل كل العوامل غير تلك التى تضمنتها فروض فرضناها ونحن نخلق معنى السائل الكامل . من ذلك ، وبالإشارة إلى شكل ٢٠ ، أننا أغفلنا احتكاك المكبس باسطوانته . وفى الأنبوبة الطويلة التى تحتوى الماء أغفلنا قوة الجذب التى بين زجاج الأنبوب والماء (الجاذبية الشعرية ، وهى فى الأنابيب الضيقة لا يستهان بها) .

واختصاراً نحن خرجنا ، من تجارب تصورناها وتخليناها ، ومن مبادئ للمنطق على هذه التجارب طبقناها ، بمجموعة من أصول

خرجنا منها باستنتاجات وجدناها جميعاً تتفق مع ما نعلم من تخلق السوائل كما نعرفها . والذين بدأوا هذا الفرع من أفرع الميكانيكا كانوا أسلاف من نسميهم اليوم بالنظرين من الفزيائيين . وهم فكروا وحاجبوا كما حاج وفكر رجال الهندسة ، ولكنهم بذلك إنما عالجوا بالفكر الرياضى ظاهرات هى فى الموضوع الأول. من هم رجال التجريب ، وانعكس هذا الإجراء على العقل الرياضى نفسه فأفاده وقواه قوة ما كانت تكون لولاه . فكلما تعقدت مسائل الطبيعة ، مسائل الفزياء ، غالبها الرياضيون بابتداع أداة فى الرياضة جديدة . وبتقدم العلم لم تعد أساس تقدمه تلك الملاحظات العابرة والتجارب البادئة التى يعرفها الإنسان ، وإنما هو أخذ يتأسس رويداً رويداً على ما تخرجه التجارب المقصودة من أرقام . واستدعى هذا النوع من التجريب بناء أجهزة أدق تعطى أرقاماً أقرب إلى الصدق . ومن القرن الثامن عشر إلى الآن كان من صنوف التجريب المتكررة ما يعتمد على رغبة دائبة عند بعض الباحث أن يزيدوا بعض المقادير المعروفة دقة فى التقدير ليزيدوها صحة فى المقدار .

وقد بلغ طلب الدقة عند بعض الباحث أن صار نزعة كالتى توجد فى قلب الرجل الفنان الذى تأسره صور الجمال . ولو أننا درنا على السنين نجتمع كل مجهود صرف فى سبيل الحصول على دقة فى مقدار ، متخذاً هذه الدقة هدفاً فى ذاته ، لوجدنا مجهودات كبيرة هائلة ، ذهب أكثرها هباء ، ولكن منها من عاد بثمرات جزاء هذا المجهود هائلة . ومن أمثلة هذه الأخيرة ، ذات الثمرات ، تلك التجربة التى قام بها ميكلس ومورلى

(Michelson-Morley Experiment) ^(١) فكانت النقطة التي انطلق منها الإنسان إلى النظرية النسبية . واختراع بعض من أجهزة خاصة ، والتقدم الذي وقع في تحسين طرائق للعمل خاصة ، فتحت للعلماء السبيل إلى قياس سرعة الضوء في دقة أى دقة . وعندئذ أمكن الحكم على هذه السرعة ، أهي تتوقف أم لا تتوقف على موضع الجهاز من حيث علاقته بحركة سطح الأرض منسوبة إلى النجوم الثابتة . وتناول أينشتين (Einstein) هذه النتائج فأخرج منها على العالم انقلاباً وصنع في العلم ثورة . وسوف أترك هذه الأمور الصعبة وحدها ، لأنقل إلى نقيضها . وإني قافز إلى الطرف الآخر منها لأوضح لقارئ كيف يؤدي التجريب الكمي إلى أفكار في العلم جديدة . وفي سبيل هذا أعود إلى هوائيات القرن السابع عشر لأبحث في قانون بويل ، كيف اكتشف .

(١) هذه التجربة من أخطر التجارب العلمية ، فهي النقطة التي منها بدأ أينشتين بحرته التي أوصلته إلى النظرية النسبية . أما الذي قام بها فعالمان أمريكيان ، أحدهما ألبرت أبراهام ميكلسن (١٨٥٢ - ١٩٣١) ، وهو فزيائى ، والثانى ادوارد ويمز مورلى (١٨٢٨ - ١٩٢٣) ، وهو كيمائى وفزيائى . وكان هدفها تعيين سرعة لجران الأرض ، في الأثير ، بحساب مقدار ما تتأثر به سرعة الضوء من سرعة الأرض . ولكن التجربة أخفقت في إثبات أن سرعة الأرض لها تأثيرها في سرعة الضوء ، على خلاف ما كان ينتظر .
ون هنا نشأت النسبية .

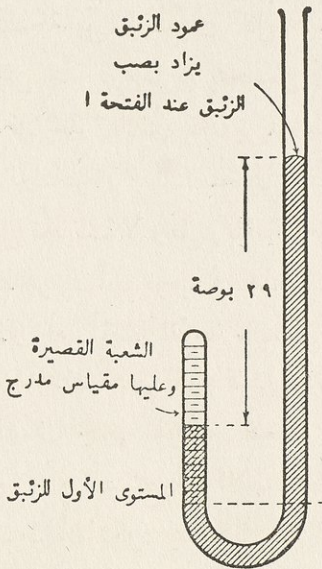
قانون بويل

إن الهواء مائع يقبل الضغط أكبر قبول ، وهذه الحقيقة تجعل تطبيق قواعد علم موازنة السوائل ، علم الأدرستاتيكا ، على الهواء شيئاً عسيراً . إننا ننظر إلى البارومتر فترى فيه عموداً من الزئبق ارتفاعه ٣٠ بوصة عند سطح البحر ، يوازن عموداً من الهواء يطول فيذهب بعيداً نحو السماء . ولكن إلى كم يذهب نحوها ؟ إن انضغاط الهواء لو كان صغيراً فيغفل كالماء ، إذاً لكان جواب هذا السؤال هيئاً . فكل الذي كنا نطلبه عند ذلك أن نسأل ، كم يثقل الزئبق عن الهواء ، حجماً بحجم ، وفي درجة من الحرارة واحدة معينة ، ثم نجرى عملية حسابية سهلة تأتينا بالجواب . ولكن الهواء يتمدد ، وهو في أعالي طبقاته يخف ثم يخف ، وتصغر بذلك كثافته ثم تصغر . ولكن كيف تصغر ، وبأى مقدار تصغر وعلى أى قانون تصغر ؟ ثم ما العلاقة بين الكثافة والضغط ؟ وإذا نحن تركزنا على مقدار معين من الهواء ، فسوف نتساءل : ما العلاقة بين حجم هذا الهواء وضغطه ؟ وهو سؤال لم يجبه «تورتشلي» ، على ما يظهر ، ولم يجبه بسكال ، إلا بما شها عمود الهواء بعمود من صوف غنم . وبقى من غير جواب حتى جاء بويل يعطينا من أنتجة تجاربه ما أعطى ، وجاء أصحابه يقترحون تلك العلاقة الأساسية الأولية بين حجم غاز وضغطه . ولرواية هذه القصة لا بد من العودة لحظات إلى مضخة بويل وإلى الفراغ الذي أحدثته مضخته بأعلى عمود الزئبق بالبارومتر (شكل ٨) .

نذكر أن تجارب بويل التي أجراها ببارومتره ومضخته (صحيفة ١٣٠) تضمنت ملاحظات وصفية لم يكن لدقة التقدير خطر فيها ولا قيمة . إنه شغل المضخة فهبط عمود الزئبق . وعاد فأدخل الهواء فعاد العمود إلى ارتفاعه وهذا مثل صادق من الملاحظة التي ننتجها بأنها وصفية . وود بويل لو يربط بين عدد مرات خفضه ليد المضخة ورفعها وبين مقدار ما ينخفض عمود الزئبق به في كل إفراغة يحدتها ، ولكنه عجز . وغاية ما بلغ من ذلك أنه كشف أن الوعاء المفرغ هواؤه ، كلما صغر ، كانت الدورة الواحدة تديرها المضخة أفعل في خفض الزئبق في أنبوبته (حجم الأسطوانة التي يجرى فيها مكبس المضخة بقي واحداً في كل هذه الحالات) . وكتب بويل تقريره الأول عن هذا ، فإذا به يتحسس في غير جمودى طريقاً يخرج منه إلى ما يريد فلا يجد . والذي كان يريده طريقة ما تصلح للتعبير عن مرونة الهواء ، «زنبرك الهواء» ، تأذن بدخول التفكير الرياضى إليها . ولكن بويل كان رجل تجريب لا رجل رياضة . من أجل هذا لن نجد غرابة إذا علمنا أن الظاهر أن أول توجيه في هذه الناحية جاءه أول الأمر من صديق أو صديقين له . فهما اقترحا عليه أن القوة في زنبرك الهواء منشؤها حجمه . فإذا ضوعف حجم الهواء قلت قوة زنبركه إلى النصف . وعلى العكس . إذا نصّف حجم الهواء ، بضغطه ، زادت قوة الزنبرك ضعفاً . فهذا «فرض» عام تُستنتج منه الاستنتاجات لتحقيقها التجارب فتبناها أو تنفيها ، بشرط أن تكون هناك طريقة لقياس الحجم وتقدير الزنبرك (الضغط) . وكان لدى بويل وسيلة ، هي مضخته ومستقبلها والبارومتر ، ولكنها وسيلة عرجاء ، على الأقل بالذى فيها من قلة لإحكام ، (١٤)

ومن تنفيس لم يكن من السهل تدارك أمره . وتنبه بوييل أخيراً إلى طريقة أسهل كثيراً ، هي في الواقع التي فرضت نفسها عليه ، تلك هي الأنبوبة ذات الشعبتين التي تستخدم اليوم في كل معامل المدارس لأيضاح قانون بوييل (شكل ٢٣) . وهذه الأنبوبة هي الأنبوبة التي صنعها بوييل في سبيل دحضه النظرية التي تقول بوجود غشاء هو الذي يرفع الزئبق في أنبوبته كما سبق أن ذكرنا .

بدأ بوييل بهذه الأنبوبة ومستوى الزئبق في كلتا الشعبتين واحد ، القصيرة المغلقة والطويلة المفتوحة . وصب بوييل زئبقاً في الأنبوبة دفعة بعد



(شكل ٢٣)

رسم لجهاز استخدمه بوييل ليجمع الأرقام التي منها يستخرج العلاقة بين الضغط والحجم

أخرى . وبعد كل دفعة قاس شيئين ، أولهما فرق ما بين السطحين ،
 سطح الزئبق في الشعبة القصيرة ، وسطحه في الشعبة الطويلة (شكل ٢٣)
 وثانيهما المسافة بين الطرف الأعلى للشعبة المغلقة وسطح ما بها من زئبق .
 أما الشيء الأول الذى قيس فالضغط الحادث من الزئبق على الهواء الحبيس
 في الشعبة الصغيرة ، وإذاً يكون الضغط كله الواقع عليه هو هذا مضافاً إليه
 الضغط الجوى . أما الشيء الثانى الذى قيس فيمثل حجم الهواء الحبيس
 على فرض أن قطر الأنبوبة واحد في طولها كله . وحسب بويل الضغط
 على الهواء الحبيس في كل حالة بأن أضاف الضغط الناشئ عن الزئبق
 إلى ضغط الهواء الجوى عند ذلك ، وعبر عنه بالبوصات من الزئبق . ووجد
 من ذلك أنه كلما ضاعف الضغط صغر حجم الهواء المحبوس إلى نحو
 النصف . وإذا هو زاد الضغط أربعة أمثال صغر الحجم الى نحو الربع .
 وهو على العموم أثبت أن « الفرض » القائل بوجود علاقة بسيطة بين حجم
 الهواء وضغطه « فرض » صحيح ، وأن « زبرك الهواء » يزيد كلما انضغط
 الهواء حجماً .

وإذا عبر الانسان عن هذه الحقيقة تعبيراً رسمياً علمياً لقال إن حجم
 الهواء في تجربة بويل يتناسب تناسباً عكسياً مع ضغطه . وإذا نحن رمزنا
 للضغط بالحرف ض ، وللضغط في الحالة الأولى بالحرف ض_١ ، وفي الحالة
 الثانية بالحرف ض_٢ . وكذلك رمزنا للحجم في الحالتين بالحرفين ح_١ ،
 ح_٢ لأمكننا أن نعبر عن هذه النسبة العكسية بالمعادلة :

$$\frac{ض_٢}{ض_١} = \frac{ح_١}{ح_٢} \text{ أى أن } ض_١ \times ح_١ = ض_٢ \times ح_٢$$

وهذه علاقة جبرية . والعلاقات الجبرية تكون أسهل فهماً إذا استبدلت حروفها بأرقام حسابية . وإذا فلنفرض أن الضغط في أول الأمر ، أى ض_١ = ٣٠ بوصة من الزئبق ، وهو الضغط الجوى في العادة عند سطح البحر ، وإن الحجم في أول الأمر ، أى ح_١ كان ١٠ بوصات إذا ف ض_١ × ح_١ = ٣٠ × ١٠ = ٣٠٠ . فإذا زدنا الضغط إلى ٦٠ بوصة من الزئبق ، وهو ض_٢ ، لنقص حجم الهواء إلى النصف ، أى لصار ٥ بوصات ، وتكون ض_٢ × ح_٢ = ٦٠ × ٥ = ٣٠٠ أيضاً . هذا إذا صدقت المعادلة . وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول قولاً مبدئياً تقريبياً إن حاصل ضرب ض ح ثابت . وهذه صيغة من صيغ التعبير عن قانون بويل معروفة .

لقد كان من المعروف في زمن بويل أن تسخين مقدار من الهواء يجعله يتمدد فيزيد حجماً ، وأن تبريده يجعله ينكمش فيقل حجماً . وإذا كان بويل يعلم أن في تجربته « عاملاً متغيراً » له أثره في تعيين حجم الهواء ، تلك درجة الحرارة . وأجرى بويل عدداً من التجارب غير الدقيقة أوضح بها أن الهواء ، حتى المضغوط منه جداً ، يزيد حجمه إذ يسخن ، وينقص إذ يبرد . ولكنه لم يحاول ولم يحاول أحدنا أن يعينوا بالقياس تلك العلاقة بين الحجم والحرارة ، وبقيت هذه العلاقة على حالتها هذه من إبهام حتى جاء الوقت الذي دخلت فيه الدقة إلى الترمومتر فجعلت منه مقياساً للحرارة أدق . وسأعود إلى هذا الأمر قريباً . ولكنني أسبق فأقول الآن إن بحاث القرن الثامن عشر قدروا تمدد الغاز بتسخينه من درجة الحرارة العادية إلى درجات من الحرارة أعلى فوجدوا أنه يتمدد

بمقدار $\frac{1}{3}$ من حجمه لكل درجة واحدة فهرنهايتية . لهذا جرت العادة دائماً كلما نطقنا بقانون بويل أن نضيف إليه أنه لا يصح إلا في درجة من الحرارة ثابتة .

وحتى في درجة الحرارة الواحدة الثابتة دلت التجارب الدقيقة ، الدقيقة في قياس الحجم وقياس الضغط ، أن قانون بويل صحيح على التقريب فقط سواء كان هذا في الهواء أو في أى غاز آخر . والمقدار الذى يخرج به الغاز عن القانون يختلف باختلاف طبيعة الغاز ، وهذا الخروج يزيد مقداره في الضغوط التى هى أعلى من ضغط الهواء العادى ، وينقص مقداره في الضغوط التى هى أوطأ من ضغط الهواء الجوى . والواقع أنه لما استخدمت أجهزة غاية في الدقة ، وأجريت التجارب بكثير من الحذر ، دلت على أن الغاز ، وهو على حال من التمدد تأذن بأن يكون له ضغط صغير يساوى كسراً من الضغط الجوى العادى ، يكاد أن يطبع القانون إطاعة كاملة . وقد تكلمنا في السوائل ، فخلقنا فكرة السائل الكمالى ، السائل الكامل . وهنا نستطيع كذلك أن نتحدث فنقول الغاز الكامل . وكان السائل الكامل تعريفاً هو الذى يطبع قواعد الأروستاتيكا . وبمثل هذا يكون الغاز الكامل هو الذى يطبع قانون بويل . وقد جرى هذا التعبير على ألسنة الفزيائيين والكيمائيين في المائة الأخيرة من السنين ، بينا التعبير الأول ، السائل الكامل ، قل أن يجرى على اللسان في هذه الأيام .

فالغاز الكامل إذاً هو الذى فيه ض x ح = ثابتاً ، في أى درجة من الحرارة معلومة ، وفي أى ضغط من الضغوط كان له أو وقع عليه . إن كثيراً من الأصول العلمية الهامة ، التى تتصل بالآلات التى يحركها البخار

أو الزيت وما إليها ، استخرجت من تجارب خيالية تصورية استخدم فيها هذا الغاز الخيالى التصورى الذى نسميه بالكامل . وهذا النوع من التفكير والاستخراج هو من ذلك النوع الذى استخدمه الأوائل فى علم الأندوستاتيكا ، بفرق أنه لم يتأسس ، كما تأسس الفكر الأندوستاتيكي القديم على ظواهر عادية يراها الناس بديهية ، كأن يقال إن السوائل تبلغ مستوياتها فى أوعيتها من ذات نفسها ، ولكنه تأسس على نتائج تجارب كالتى قام بها بويل . وهنا ، فى ما نذكر من تجارب أجريت على المحركات البخارية أو الزيتية (Motors) ، باستخدام فكرة الغاز الكامل ، نرى المزج عظيماً بين تقليدين من الفكر عظيمين ، التقليد النظرى الهندسى الرياضى ، والتقليد التجريبي . على أن التقليد الأخير انتهى اليوم إلى أن صار تجريبياً كيميائياً يعطى من الأرقام ما يكون أساس تفكير جديد .

وقد نختم هذا الحديث عن السوائل ، وعن الغازات ، بالإجابة على سؤال سبق أن سألته ولم آت له بجواب . وهو : كم يرتفع هوائنا هذا نحو السماء ليكون منه عمود يوازن عمود الزئبق فى البارومتر ، وطوله ثلاثون بوصة وهو عند مستوى سطح البحر . إنى أذكر القارئ بأن الذى نريده لتأتى بجواب هذا السؤال هو كيف تتغير كثافة الهواء ونحن نضعه فيه إلى السماء ونبأ فنقدر تقديراً تقريبياً بنبيه على افتراضات معينة . فإذا نحن افترضنا أن درجة حرارة الهواء فى كل امتداده هذا نحو السماء ثابتة (وما هى بذلك) ، وإذا نحن افترضنا أن قانون بويل ينطبق على الهواء (وهو لا ينطبق إلا تقريبياً) ، إذاً لأمكننا أن نجد أن كثافة الهواء تندرج فى النقص كلما صعدنا فيه . ولكن حتى مع هذه الافتراضات لم تسهل

المسألة . لم يسهل حسابها ، ولم تسهل رياضتها . ذلك لأننا إذا صعّدنا في الهواء ببالون ، أو بطائرة ، فسوف نجد أن الضغط قل (تجارب بسكال وبريار على جبل بوى دى دوم) . وكلما قل الضغط ، شغل المقدار من الهواء حجماً فوق حجمه الأول (قانون بويل) . فكيف نصوغ هذا بالأرقام ؟

إن قانون بويل يمكن تغيير صياغته بحيث يصبح وصفاً للعلاقة بين ضغطه هواء ووزنه ، لحجم ثابت لا يتغير . وبذلك نجد أنه عند مستوى البحر يزن الزئبق على التقريب ١٠ ٠٠٠ مرة كوزن حجم مثله من الهواء . وعند ما ترتفع في الهواء حتى يصير الضغط نصف الضغط عند مستوى البحر نجد الزئبق يزن ٢٠ ٠٠٠ مرة كوزن حجم مثله من الهواء عند هذا الارتفاع على شرط أن تكون درجة الحرارة في الحالين واحدة ، وافترضاً بأن فرق خروج الغاز عن قانون بويل في الحالين من الصغر بحيث يمكن إغفاله . ولكن تعال بعد ذلك فقل لى أى هذين الرقمين استخدمه في قياس طول عمود الهواء الذى يوازن الثلاثين من بوصات الزئبق التى نجدها في البارومتر عند سطح البحر ؟ بالطبع لا هذا ولا ذاك .

غير أن الخطأ في الرقم الأول ، فى أل ١٠ ٠٠٠ ، لن يكون كبيراً ، لارتفاع غير كبير من سطح الأرض . وباستخدام هذا الرقم يتنبأ الحاسب على التقريب ، بأن ارتفاع ١٢٠ ٠٠٠ بوصة (١٠ ٠٠٠) قدم من سطح الأرض يهبط بسطح الزئبق في البارومتر ١٢٠ ٠٠٠ × $\frac{1}{10000}$ = ١٢ بوصة ، وإذا تقرأ ارتفاع البارومتر فلا تجده ٣٠ بوصة ولكن ٣٠ - ١٢ = ١٨ بوصة من الزئبق ، على ارتفاع ١٠ ٠٠٠ قدم . وهذا الحساب ،

حتى وهو حساب تقريبي يرينا أنه عند ارتفاع ١٠٠٠٠ قدم هبط الضغط هبوطاً كبيراً . هبط في الواقع إلى ما يقرب من ١٥ بوصة من الزئبق أى إلى نصف الضغط الجوى العادى ، وهبطت بذلك كثافة الهواء إلى نحو $\frac{1}{2}$ من كثافة الزئبق . والواقع أن كثافة الهواء عند ضغط ١٨ بوصة تبلغ $\frac{1}{3}$ من كثافته عند سطح البحر ، وعلى هذا تكون كثافة الهواء عند هذا الضغط $\frac{1}{16}$ من كثافة الزئبق . وباستخدام هذا الرقم نستطيع أن نحسب فنخرج من الحساب على أنه بالارتفاع من علو ١٠٠٠٠ قدم إلى ٢٠٠٠٠ قدم أى بارتفاع ١٠٠٠٠ قدم ، أخرى ، لا يسقط البارومتر إلا بمقدار ٧,٢ بوصة أخرى ، ذلك لأن الهواء عند هذا الارتفاع الأخير كثافته أقل منها وهو أقرب إلى الأرض ، وأن البارومتر عند ٢٠٠٠٠ قدم يعطيك ارتفاع زئبق مقداره ١٠,٨ . وعلى هذا المنوال نستطيع أن نحسب فنجد أنه عند الارتفاع إلى ٣٠٠٠٠ قدم سوف يهبط زئبق البارومتر ٤,٣ بوصة أخرى أى يصير على ارتفاع ٦,٥ بوصة . ويستمر هذا إلى ما لا نهاية له . فإذا نحن ارتفعنا حتى بلغ ارتفاع الزئبق في البارومتر ثلاث بوصات ، أى عشر ما هو عند سطح البحر ، بلغت كثافة الزئبق منسوبة إلى الهواء عشرة أمثال ما كانت عليه عند سطح البحر ، أى صارت ١٠٠٠٠٠ . ولو أن كثافة الهواء عند هذا الارتفاع ثبتت فلم تنقص عند ارتفاع جديد لنقصت هذه الثلاثة بوصات من الزئبق إلى الصفر بارتفاع جديد مقداره ٢٥٠٠٠ قدم . ولكن كثافة الهواء لا تثبت عند هذا الحد من النقص ، فهي تزيد بالارتفاع نقصاً ، حتى إذا بلغنا ارتفاعاً بلغ عنده طول عمود الزئبق في البارومتر ٠,٣ من البوصة (وهذا

ارتفاع خيالى لا نبلغه إلا بالصواريخ ، وهى لم تكن بعد) صارت كثافة الزئبق قدر كثافة الهواء الذى نجد هناك ١٠٠٠٠٠٠٠ مرة . وبلوغ ارتفاع آخر جديد قدره ٢٥٠٠٠ قدم ، إذا ثبت الهواء عند كثافته هذه ، يهبط طول عمود الزئبق فى البارومتر إلى الصفر . إن قانون بويل ، لو صح تطبيقه ، لما وجدنا للجو الهوائى نهاية .

إن هذه الطريقة التى بها نحاول أن نعرف ما يكون عليه الهواء فى الطبقات العليا بصعودنا إليها ببالون ، مع افتراض أن الهواء على درجة من الحرارة واحدة ثابتة ، طريقة لا شك غاية فى التقريب . فالحق أن كثافة الهواء تتناقص كلما ارتفعنا بوصة أو بعض بوصة . ولم نكن فى حاجة إلى احتساب نقصها كل ١٠٠٠٠ قدم . فقد وجدنا نظرياً أن نحسبها ، ونعيد حسابها ، بكل ارتفاع صغير جديد . وإذا نحن احتسبناها لكل ١٠ أقدام نرتفعها ، لكان فى الكثافة خطأ ولكنه يسير جداً ، ولانتهى بنا الأمر إلى صورة واضحة عن الموقف دقيقة دقة لا بأس بها . وبالطبع كلما قصرنا المسافة عن ١٠ أقدام ، كانت النتائج أدق . إننا بصفة عامة نلاحظ أن الضغط كلما قل خف الهواء وكان أرفع . لهذا كلما زاد ارتفاعنا إلى عل قل الضغط بنسبة ذلك . وإذا نحن نظرنا إلى المسألة بعين الرجل الهابط ببالونة ، من مستوى لآخر ، نستطيع أن نقول إن المسافة الرأسية التى يقطعها البالون هابطاً ، فتقله من ضغط إلى ضغط ، تتوقف على الضغط الأول .

إن مقارنة هذا الذى يحدث فى الهواء ، بمثله الذى يحدث فى الماء ، يُظهر تعارض الحالين تعارضاً كبيراً . إننا إذا نزلنا بمقياس للضغط فى

سائل أمكننا ، بمعرفة كم يتغير الضغط من عمق إلى عمق ، أن نعرف كم بين العميقين من مسافة (على الأقل على تقريب مرضى كبير) . ولكن إذا نزلنا في الهواء ببالون من ارتفاع إلى ارتفاع فإننا لا نستطيع من معرفة الفرق بين الضغطين أن نحسب الفرق بين الارتفاعين ، ووجب أن نعرف فوق ذلك الضغط الذى كان عند الارتفاع الأول . والذى يصح عند ارتفاع ٣٠٠٠٠ قدم لا يصح مطلقاً عند ارتفاع ١٠٠٠٠ . إن الذى استخدم مقياس الارتفاعات البارومترى barometric altimeter ليقيس إلى أى علو بلغ وهو يصعد جبلا ، لا بد لاحظ ترتيب أرقامه الغريب ، فهى أرقام أشد ازدحاماً عند الطرف الأعلى منها عند الطرف الأدنى . ومن القراء من يعلم أن العلاقة بين الارتفاع والضغط الجوى علاقة لوغارتمية تقريباً .

إننا باستخدام حساب التفاضل والتكامل نستطيع أن نرى أنه إن زاد « متغير » زيادات صغيرة متوالية (ولنضرب له الارتفاع مثلاً) فزاد « متغير » آخر (وليكن الضغط) تبعاً لذلك بنسبة مطردة إلى « المتغير » نفسه (الضغط) ، إذاً فقد خلقت بذلك علاقة لوغارتمية . وإذا نحن رمزنا بالرمز Δ ع إلى التغير القليل الحادث فى الارتفاع ، وبالرمز Δ ض إلى التغير القليل المقابل فى الضغط ، إذاً لاستطعنا ، بقدر ما ينطبق قانون بويل على حقيقة ما يجرى فى الهواء ، أن نثبت أن $\frac{\Delta \text{ض}}{\text{ض}}$ تتناسب تناسباً طردياً مع Δ ع ، مع العلم بأن ض هى الضغط الجوى عند النقطة من الجو التى نتحدث عنها . فحساب التفاضل والتكامل يمكننا من تحويل هذه العلاقة ، التى تجوز فقط على تغيرات غاية فى الصغر ،

إلى علاقة تجوز على كل تغير . ويخرج عن ذلك معادلات لوجارتمية .
ومنها يتضح أن الفرق في اللوغارتم لضغطين عند ارتفاعين مختلفين يتناسب
مع الفرق بين الارتفاعين .

إن هذا البحث الذى أجريناه فى الكشف عما يحدث فى الجو لو أنه
وقف عند درجة حرارة واحدة ، مثل من الأمثلة التى ترىنا ما تستطيع
الرياضة أداءه من الخدمات لعلم الطبيعة . وتطبيق قانون بويل على هذه
الصورة التى وصفنا ، مثل بسيط جداً من الأمثلة التى ترىنا كيف يدخل
حساب التفاضل والتكامل فيحل لنا مسألة لم تكن تحل إلا بسلسلة من
عمليات حسابية كل نتائجها تقريبي . وإنى أنصح الذين لا يعرفون من
قرائى ما اللوغارتم أن ينسوا ما قلت عنه . وأنا ما كتبت الفقرات السابقة إلا
لأصف كيف تصنع الرياضة بأرقام الطبيعة ونتائجها . والحقيقة التى
لا مرأى فيها أن استخدام قانون بويل وتطبيقه على الهواء الجوى على
الصورة السالفة ، حتى باستخدام اللوغارتم ، لم ينته إلا إلى نتائج لا تمت
إلى الحقيقة إلا من قريب . فنحن فرضنا أن هذا الهواء الجوى كله ، من
أسفله لأعلاه ، درجة حرارته واحدة ثابتة ، وما هى بذلك . إنها تتغير
تغيراً كبيراً . وغير تغير الحرارة ، تتغير فى الجو رطوبته وجفافه ، وهذا
عامل آخر لا بد أن يحسب حسابه . ومع هذا فيمكن القول إنه فى
الارتفاعات غير العالية ، حين يثبت ارتفاع البارومتر عند نقطة ما فى الجو
فيثبت بذلك الضغط عندها ، فإن القراءة البارومترية تعطينا فكرة عن كل
ارتفاع إلى ١٠٠٠٠ قدم أو ١٥٠٠٠ قدم ، أقرب ما تكون إلى الصواب ،
يبلغ الخطأ فيها ١٠٠ قدم أو نحو ذلك . وفى الجدول الآتى مقارنة بين

ضغوط أخذت بالقراءة الفعلية من البارومتر ، وأخرى جاءت بالحساب بالطرق التي سبق ذكرها .

الارتفاع بالقدم	قراءات بارومترية (بوصة زئبق)	الضغط محسوباً على افتراضات مبسطة
صفر	٣٠	٣٠
١٠٠٠٠	٢١	١٨
٢٠٠٠٠	١٤	١١
٣٠٠٠٠	٩	٧

ولا بد أن يذكر الإنسان ، أنه على الأرض ، عند سطح البحر ، يتغير الضغط باختلاف طقوس الجو المترولوجية ، وتتغير قراءة البارومتر بوصلة أو نحوها ، فكذلك الحال في هذه الأرقام . فهي أرقام تمثل حالات الهدوء الغالبة .

وقد يتساءل القارئ من بعد هذا ، أحتماً يوجد حد علوى ينتهى عنده الهواء . والرأى العلمى الحاضر يقول إنه على بعد بضعة مئات من الأميال من سطح الأرض توجد منطقة لا تكفى جاذبية الأرض فيها لربط ما يوجد فيها من جزئيات بالأرض . فهذه المنطقة على ما يظهر هى الحد الذى لا يمكن أن يتعداه الهواء ، فهى حد الجو العلوى .

أدوات القياس وخطورتها

إن فهم العلاقة بين الصور الذهنية والمشاريع التصورية ، وبين التجريب ، إنما هو جوهر فهم العلم . إن من هذه الصور الذهنية العلمية ما أولدته التجارب الوصفية والملاحظات . وأكثر من هذه عدداً ما أولدته التجارب الكمية ، ولا أظن أنى واجد أحداً يخالف في هذا . إنما قد يكون لفظ « أولد » لفظاً قاسياً على الحقيقة . ولعل لفظ « نشأ » لفظ أقرب إلى الصدق ، ذلك أن كثيراً من الصور الذهنية — من الفكر العلمية — ما كان موجوداً من قبل في الناس معنى مبهماً ، ثم تحدد وتبين وارتفع إلى مرتبة الفكرة العلمية بسبب ما جرى في العلم من تجارب . وهنا يظهر خطر أدوات القياس في العلم ، وهو خطر كل ما يقال في تقديره قليل . ولا يوضح ذلك نتخذ مثلاً من القرن الثامن عشر .

إن الناظر في أى كتاب طبيعة ، أى كتاب فزياء ، كتب للمدارس الثانوية ، يجد فيه حتماً فكرتين علميتين بسيطتين ، تصورين ذهنيين ، هما الحرارة النوعية والحرارة الكامنة . وهما معنيان لا يفهمان إلا في ضوء علاقة لهما بأداة للقياس تعرف بالترمومتر . ودرجة الحرارة معنى هو اليوم من المعاني الشائعة بين سكان العالم المتحضر ، وهذا ما يسهل استعماله بين طلاب المدارس بإدخاله في كتبهم المدرسية ، وما يسهل على في كتاب كهذا ، هو للقارئ العادى ، أن أذكر هذا المعنى بدون تفسير فأقول « في درجة حرارة ثابتة » ولا أبالى . وهذا المعنى ، معنى درجة

الحرارة ، يمكننا تلخيص تاريخه الطويل في سطور فنقول إنه معنى نشأ من المعنى العادى المبهم الذى يقع في نفس المرء إذا هو أحس شيئاً أحر من شىء ، أو شيئاً أبرد من شىء . فهذه الحاسة التى أودعت الجسم الإنسانى فجعلته قادراً على التمييز بين الماء الساخن والماء البارد هى أساس من الأسس التى بنى عليها معنى درجة الحرارة في قصة تاريخها هذه . ولكنه ليس كل الأسس . فهناك من المشاهدات الإنسانية التى لا تتصل باللمس ما شارك في بناء هذا المعنى . من ذلك أثر النار الذى يجعل الماء يغلى ، وأثر الشعلة النارية فيما تمسه من الأشياء ، كأثرها في صناعة الزجاج وصهر المعدن . وكذلك اللون الطارئ على الأشياء بزيادة تسخينها ، كأن يصير الحديد بذلك أحمر أو أبيض . وكل هذه مشاهدات تتصل بمعنى النار .

والترمومترات ، وهى مقاييس هذا المعنى ، معنى درجة الحرارة ، عُرِفَت في الثلث الأول من القرن السابع عشر ، ولكنها لم تصبح مقاييس كافية للقياس إلا بعد ذلك بقرن كامل . وفي نحو عام ١٦٥٠ كان لدى أكاديمية التجريب بفلورنسا (accademia del Cimento) أدوات تشبه أقرب الشبه الترمومترات المستخدمة في المنازل اليوم ، لولا التدرج الذى عليها . وهذا التدرج أمر ذو خطر كبير . ومن عام ١٦٥٠ إلى نهاية ذلك القرن صنعت ترمومترات ملئت بالكحول أو الزئبق في أنابيب مغلقة محتومة لها مستودع ولها ساق . وكان لها أشكال عدة ، ولكن الأمر المهم الذى وقع عندئذ أن تدرجاً جديداً بسيطاً ابتدع ، أمكن نسخه وتكراره في كل معمل يحتاجه . ذلك أن القرن الثامن عشر ما كان يهل حتى شاع

استخدام نقطتين ثابتتين على الترمومتر يمثلان حالتين من الحرارة يمكن إيجادهما ، وتكرار إيجادهما ، ما شاء الإنسان ، هما درجة سيحان الثلج ودرجة غليان الماء . وسموا درجة سيحان الثلج صفرأ ، ودرجة غليان الماء مائة ، وسموا هذا التدرج بالسنتجراد أى المئوى . وفى نفس الوقت نشأ تدرج آخر عرف بفهرنهايت ، أعطيت فيه لسيحان الثلج درجة ٣٢ ، ولغليان الماء درجة ٢١٢ .

ولن نقف لنفس الفرق بين التدرجين ولا كيف نشأ . فالمهم لدينا أنه ما كادت تخرج إلى بُحاث ذلك الزمن أداة للقياس كافية نافعة حتى أخذت تُحدث الأحداث . فقبل هذا الأوان كانت تقاس الحرارة بالترمومترات بنسبتها إلى نقطة واحدة عليها ، وكان يغمس الترمومتر فى الشيء ثم الشيء ، فيعرف غامسه أى الشئين أحر ، ولكنه لم يكن يدرى كم هو أحر . ولكن باختراع هذا التدرج الجليدي استطاع الباحث أن يقول كم هو أحر ، معبراً عن ذلك بدرجات مئوية أو درجات فهرنهايتية . وما كادوا أن يصلوا إلى هذا حتى خطرت على الأذهان أسئلة ما كانت لتخطر من قبل ، وبدأ العلماء يتحدثون عن الحرارة فيستخدمون ألفاظاً تحتوى معانى لم تكن موجودة قبلا . وهذه ظاهرة متكررة فى تاريخ العلم تكررأ كثيراً: تخرج على الناس أداة للقياس جديدة فُتفتتح بها لهم آفاق للبحث جديدة وتخرج معان جديدة .

إن الفكرة التى تربط المعنى الذى نفهمه اليوم من الحرارة ، بمعنى جسم مادى ، فكرة فى التاريخ عتيقة . إن الصورة التى يميل الفكر الإنسانى بالبداهة إليها إذا هو وقف عند نار فأحسها تدخل فى جسمه هى

أن شيئاً من هذه النار دخل جسمه . والصورة التي صورها أرسطو عن الكون ، تلك التي سادت الفكر الأوروبي إلى القرن السادس عشر ، تضمنت ، وفق أسلوبها ، تلك الظواهر التي ترتبط بمعنى النار ومعنى البارد والحر من الأشياء . ولن نقف هنا لنشرح كيف تتأول عناصر أرسطو الأربعة ، من تراب وهواء ونار وماء ، لتلتقي بمعنى الغليان والسيحان والتجمد والاحتراق ، ولو أن أى تحليل دقيق لمعاني الحرارة ودرجة الحرارة لا يمكنه أن يغفل هذه الآراء التي سادت العالم هذه الأحقاب الطويلة من التاريخ . ولكنه القرن الثامن عشر هو الذي أريد أن أركز عليه من هذه القصة لأشرح كيف أن أداة للقياس جديدة تخترع ، فؤثر تأثيراً هائلاً في الفكر العلمي وفي تقدمه .

إن سجلات التاريخ غير وافية ، ولكن الظاهر أن التجارب التي أدت إلى فكرة « الحرارة الكامنة » وفكرة « الحرارة النوعية » قام بها على استقلال على الأرجح ، الإسكتلندي جوزيف بلاك (Joseph Black) ^(١) ، والإنجليزي هنري كافندش (Henry Cavendish) ^(٢) . وإلى بلاك يرجع لاشك الفضل الأكبر ، لأنه لم يقف عند هذه

(١) جوزف بلاك، كيمائى وفزيائى إسكتلندى ، ولد عام ١٧٢٨ ومات عام ١٧٩٩

(٢) هنرى كافندش الإنجليزى ، الكيمائى الفزيائى ، ولد بمدينة نيس بفرنسا عام ١٧٣١ ومات فى لندن عام ١٨١٠ . وكان جده دوقاً ، وكان ثرياً ، ومات عن ثروة هائلة . ومع هذا فقد كان غريباً فى أطواره ، يتعزل الناس ، ويكره أن يظهر بشيء بين أقرانه ، أو أن يلتفت إليه أحد . وعلى ثراه عاش عيشة المتكشفت الزاهد . ولم يتزوج أبداً . وانصرف إلى العلم فغزا فيه ميادين مختلفة كثيرة .

التجارب بل تابعها ، وتابع فكرتها ، ونشر آراءه عنها في محاضراته التي ألقاها بجامعة جلاسجو عاصمة إسكتلندا . ولفتت هذه المحاضرات الأنظار لفتاً كبيراً ، لأنها جاءت فوفت بجزء من ذلك الجانب النظري الذي احتاج إليه « واط » (Watt) عندما اخترع آلتة البخارية . ومما يؤسف له أننا لا نجد في التاريخ ما يدل على كم أثر « واط » برأيه في صديقه « بلاك » ، أو كم أثر « بلاك » برأيه في صديقه « واط » . وقبل بلاك ، وقبل كافندش ، قام جماعة من علماء القرن الثامن عشر يحاولون استخدام هذه الأنواع الجديدة من الترمومترات في تجارب تقديرية جديدة . وكان مما تساءلوا فيه وطلبوا له جواباً : إذا نحن خلطنا مقدارين من الماء متساويين ، أحدهما في درجة ٤٠ فهرنهايتية ، والآخر في درجة ١٠٠ ، فكم تكون درجة الخليط ؟ وإذا خلطنا ماء وزئبقاً ، وهما سائلان مختلفان ، وخلطناهما في درجات من الحرارة مختلفة ، فكم تكون الدرجة الناتجة ؟ وهلم جرا .

وسأدع جانباً طرق الحجاج الخاصة بخلط مادة بمادة ، وأحاول أن أعطي فكرة قريبة عن معنى الحرارة النوعية أستمدتها من تجربة من نوع آخر قام بها بلاك . وهي تجربة يمكن إجراؤها بالمنزل بغير حاجة إلى جهاز كثير . خذ حجمين متساويين من الماء والزئبق ، وضع كلا في وعاء زجاجي رقيق زجاجه ، وضع ترمومتراً في كل منهما ، وخذهما إلى خارج البيت في يوم بارد . واصبر عليهما حتى يصلا إلى درجة ٥٠ فهرنهايتية . ولا تنس تحريكهما بالترموتر حتى تتجانس حرارتاهما فلا يكون بعض السائل بارداً ، بينما الآخر حاراً . ثم انقل الوعاءين إلى حجرة داخل البيت

دافئة ، درجة حرارتها نحو ٧٠ فهرنهيته مثلاً . وضعهما معاً جنباً إلى جنب على منضدة . واحسب الزمن الذي يأخذه الماء ، والذي يأخذه الزئبق ، ليبلغ درجة الحرارة ٦٠ فهرنهيته . ثم أعد التجربة وقدر هذين الزمنين مرة فأخرى ، وانظر هل تخرج على زمن واحد لكل منهما أم لا .

ولسوف تجده ، إن كنت دقيقاً في إجراء تجربتك ، ولم يدخل الحظ بسوء فيها ، أنك حاصل في كل حالة ، في حالة الماء وحالة الزئبق ، إن لم يكن على رقم واحد متكرر ، فلا أقل من رقم يتفق مع سوابقه في حدود ١٠ ٪ من مقاديرها . وأنت واجد أن رقم الزمن الذي تحصل عليه للماء ، ضعف الرقم الذي تحصل عليه للزئبق . ومعنى هذا أن الحجم من الزئبق يسخن أسرع من حجم مثله من الماء ، والظروف واحدة ، وأن الزمن الذي يأخذه الزئبق لبلوغ الغاية من الحرارة هو نصف ما يأخذه الماء . وإذا نحن نسبنا هذه الأزمان ، لا إلى الأحجام ولكن إلى الأوزان ، وذكرنا أن الزئبق أثقل من الماء ١٣,٦ مرة ، إذا لوجدنا الوزن من الزئبق يسخن أسرع من وزن مثله من الماء ٢٧ مرة ($١٣,٦ \times ٢$) . وهذه النسبة ثابتة للماء والزئبق بصرف النظر عن مقداريهما ، وعن الدرجة من الحرارة التي إليها يرفعان .

وإلى هنا لم يحدث في الحقيقة شيء كبير . فملاحظات كهذه تأتي عن تجارب كهذه يمكن أن يجري صاحبها منها ألفاً ، ثم لا يتقدم العلم بذلك شيئاً . وهذا معنى هام أريد أن أوكله وأؤكد له ولو خاطرت بصبر القارئ أن ينفد من جراء تجربة كهذه غاية في البساطة ، أحملها كل هذا القدر من التحليل . إن القياسات وحدها لا تزيد العلم آراء ، ولا تستحدث فيه

المعاني . وأولئك العلماء الذين قدموا العلم تقديماً كبيراً بواسطة أداة جديدة ، أو أداة حسّنت أو أعيدت صياغتها ، إنما فعلوا ذلك لأنهم عرفوا ماذا يقيسون ، لأنهم في الوقت اللازم من الدراماة جاءوا بتصوير ذهني جديد ، أو مشروع تصوري مبتكر ، إنما تكون هذه القياسات لإقامته ودعمه . لقد سمعت قوماً يتحدثون في شأن حقل من حقول العلم التي لا تزال بكرراً ، وعلى الأخص في علم دراسة الإنسان ، فإذا بهم يقولون : ابتدع أداة للقياس جديدة ، وات بها بقياسات عديدة ، وتحكم في كل ما يتغير في هذه التجارب من عوامل ، ثم قم على نتائجك هذه فرتبها وصنفها ، فإذا بك وجهاً لوجه أمام فكرة في العلم جديدة ، أو نظرية في العلم مبتكرة ! فهذا كلام لم أجد أفرغ منه . إنها صورة هازلة لنوع من الظواهر جرى به التاريخ . إن الأداة الجديدة قد تكون خطيرة ، وكثيراً ما كانت خطيرة في يد أهل الفكر من ذوى الخيال . ولكن تقديم العلم عن هذا الطريق أو عن غيره ليس فيه شيء من مثل هذا الضمان .

ولكن دعنا نعد إلى ما كنا فيه من سرعة تسخين الماء والزئبق . إن من طرق تعسير هذه الظاهرة أن نتصور وجود سائل لا يرى ، له وزن من الصغر بحيث يمكن إغفاله ، وأن هذا السائل يفيض من مكان دافئ إلى مكان بارد بسرعة معلومة . فإن صح هذا التصور ، كان الزمن الذي يأخذه الماء أو الزئبق ليسخن عشرة درجات مثلاً هو قياس للمقدار من هذا السائل الخفي الذي دخل إلى الماء أو إلى الزئبق ، وكل في وعائه . وإذا بلحاز أن نسمى هذا السائل حرارة . وجرياً على هذا التصور نستطيع أن نقول إن الماء والزئبق لهما سعة مختلفة لاستيعاب الحرارة ، ذلك لأن

الزمن الذي يحتاجه الماء ليرتفع عشر درجات أكبر ٢٧ مرة من الزمن الذي يحتاجه الزئبق ليرتفع هذه العشر من الدرجات . وفكر « بلاك » يمثل هذا الأسلوب أو بعضه ، فأدى به التفكير إلى فكرة « الحرارة النوعية » . والحرارة النوعية كمادة يمكن تعريفها بأنها اتساع هذه المادة ، أو سعتها ، للحرارة ، مقارنة بالماء ، وزناً بوزن . وإذا نحن اعتبرنا فرضاً أن الحرارة النوعية للماء ١ ، كانت الحرارة النوعية للزئبق نحو من $\frac{1}{٢٧}$ أو نحو ٠,٣٧ ، وهي بالقياس الدقيق ٠,٣٣ .

وفكرة الحرارة النوعية ، كما قد يظهر من أمرها ، تستطيع أن تعيننا في حساب درجة الحرارة الناشئة عن خلط سائلين ذوي درجة من الحرارة مختلفة . فمثلاً إذا خلطنا حجمين من الماء والزئبق ، وكانت درجة حرارة الماء ٤٠° ف ، ودرجة حرارة الزئبق ٨٠° ف ، فإن درجة حرارة الخليط لن تكون الدرجة الوسطى بين الـ ٤٠° والـ ٨٠° ، أى لا تكون ٦٠ . وهي في واقع الأمر ٥٢ ف ، ما دام أن الحرارة النوعية للماء ١ ، والحرارة النوعية للزئبق ٠,٣٣ . وهذا النوع من الحساب تحققه التجربة . والواقع أن هذه التجربة ظلت سنوات هي أدق تجربة لتعيين الحرارة النوعية لمختلف الأجسام .

كذلك استطاع بلاك وأهل زمنه أن يأتوا بأقيسة تتصل بالظاهرتين ، تجمد الماء وجليانه ، وأن يختاروا لكل صياغته المناسبة . وهنا أيضاً نأتى بتجربة بسيطة منزلية نوضح بها كيف تولدت في العلم صورة ذهنية جديدة . ضع وزناً معيناً ، وليكن أوقية ، من الثلج المبشور ، وضعه في كوب من زجاج رقيق الجدران ، وضع الكوب بثلجه في حجرة دافئة ،

ولتكن حرارتها 70° فهرنهايتية . وقلب الثلج من وقت لآخر ، وقس درجة حرارته على طول الزمن حتى يذوب . وسوف تجد أن الترمومتر يحتفظ برقمه ، وهو 32° فهرنهايتية تقريباً ، حتى يذوب الثلج كله ، ولو طال زمانه . فكيف نفسر ما حدث إذا نحن استخدمنا نفس المعانى التى سبقت فى تفسير الحرارة النوعية ؟ نقول إن الحرارة بالحجرة كانت تفيض إلى الثلج فتحيله إلى ماء . ولكن كم منها فاض إلى الثلج ؟ وهل نستطيع تقديره ؟ والجواب نعم . نستطيعه تقادير الحرارة التى فاضت إلى الثلج ، تقديرًا نسبيًا . وهذه طريقته : ضع أوقيتين من الثلج مع أوقيتين من الماء الذى سبق تبريده إلى 33° - 34° ف ، أى إلى ما يقرب بقدر الإمكان من درجة الثلج إذ يذوب ، ضعهما معاً فى كوب من زجاج رقيق . وفى كوب آخر ضع ٤ أوقيت من الماء فى درجة 33° - 34° ف . وضع الكوبين جنباً إلى جنب ، على منضدة ، فى حجرة درجة حرارتها 70° - 75° ف . وسوف تجد أن أوقية من أوقيتى الثلج تذوب فى نحو ساعة ، ويزيد بذلك ماء هذا الكوب من ٢ إلى ٣ أوقيت . وسوف تجد أن الماء الذى بالكوب الثانى قد ارتفع ما بين ٨ إلى ١٠ درجات فى الربع الساعة الأولى ، أى بسرعة ما بين 32 درجة وأربعين درجة فى الساعة . ويمكن اتخاذ هذه الدرجات مقياساً للذى دخل الماء من حرارة . فإن صحت فكرة الحرارة النوعية لكان تسخين ٤ أوقيت من الماء ما بين 32 و 40 درجة يعادل تسخين ما بين 128 و 160 أوقية من الماء درجة واحدة فهرنهايتية ، من حيث مقدار الحرارة المبدول . فهذا المقدار هو على ما يظهر مقدار ما احتاجت إليه أوقية من الثلج لتذوب . وسمى « بلاك » هذا المقدار « الحرارة

الكامنة للذوبان » . وهو قاسها بطرق عدة منها هذه التجربة بعينها الموصوفة . وكثيراً ما نسميها حرارة الانصهار . وإذا نحن اتخذنا وحدة الحرارة ذلك المقدار منها الذي نحتاج إليه لرفع وزن من الماء عدداً معيناً من الدرجات ؛ إذاً لأمكننا أن نقدر حرارة الانصهار بهذه الوحدة .

وبمثل هذا نستطيع أن نطبق معنى الحرارة الكامنة في ظاهرة الغليان . والذي خرج من التجارب أن المقدار من الحرارة اللازم لتحويل رطل من الماء إلى بخار هو نفس المقدار اللازم لرفع حرارة ٩٧٠ رطلاً من الماء درجة فهرنهايتية واحدة . وهو المقدار من الحرارة الذي يعطيه رطل من البخار إذا تكثف (ويمكن تقدير هذا بإمرار بخار في مقدار من الماء وقياس ما ارتفع به الماء من درجات بسبب تكثف البخار فيه) .

إني في شرح فكرة الحرارة النوعية ، والحرارة الكامنة ، استخدمت مشروعاً تصورياً يتضمن افتراضاً بأن الحرارة سائل خفي من نوع ما . ولكن هذا الافتراض بأن الحرارة سائل ليس جزءاً جوهرياً في الحجة التي سقناها . وكل الناس يعرف الآن أن العلم يُرجع أمر الحرارة إلى تحرك جزيئات المادة ، إلى تحرك الأجسام الصغيرة التي يتألف منها كل جسم . ومع هذا فتصور أن الحرارة شيء يستطيع أن يسيل ويفيض ساعد على الأرجح كثيراً في تنشئة الصورة الذهنية للحرارة النوعية وللحرارة الكامنة . على أنه ما انتصف القرن التاسع عشر حتى اطرحت كل اطراح تلك الفكرة التي تتصور وجود « سائل حرارى » يوجد منه في الجسم الدافئ أكثر من الجسم البارد ، ويدخل إلى جسيمات الثلج الصغيرة فيحيلها إلى ماء .

إن قصة النظرية الحرارة ، في صعودها وهبوطها ، قصة لا شك نافعة

دراستها لأكثر من سبب . ولكن دراستها إلى أكثر مما فعلنا يحتاج إلى كلام كثير يطول ، لهذا قصرت قرلى ، لا على المشروع التصورى للحرارة ، ولا على النظرية الحرارية ، ولكن على صورتين ذهنيّتين منها عاشتا فوق ما عاشت النظرية على صورتها القديمة الأولى . فتعريف الحرارة النوعية وتعريف الحرارة الكامنة هما فى يومنا هذا مثل ما كانا فى عهد « جوسف بلاك » ، لم يتغير منهما جوهر . وهما صورتان من صور الذهن صاغهما باحث كبير البصر نادر البصيرة ، من نتائج تجارب تقديرية ، حفزه إلى إجرائها أداة للقياس جديده . وبشيء بسيط جداً من الحساب استطاع هو وتابعوه الأقربون أن يجدوا طريقة يحسبون فيتنبأون بها بعدد عظيم من الظواهر الحرارية . وقبل اختراع الترمومتر لم تكن هناك معان متجمعة مترابطة متناسقة ترتبط بالحرارة وبتدرجاتها . وقبل مضى جيل على اختراعه ووجدت كل هذه المعانى وترابطت فى نسق عظيم نافع مرضى جميل . وفى رأى أنه لا يوجد مثل أحسن من مثل چرسف بلاك « وما عمل فى الحرارة ، به تتوضح العلاقة بين أدوات القياس ، والتجريب التقديرى ، والفكر العبقرى ، وخطرها جميعاً فى تقدم العلوم .

الحقائق الرياضية والمعرفة المحتملة

إن الأرقام المستخرجة من التجارب ، مهما دقت أدواتها ودق جهازها ، معرضة للخطأ دائماً . وهذا الخطأ يمكن « تصحيحه » بمراقبة ما يكون فى كمية مقيسة ، كدرجة الحرارة ، من خطأ ، ثم إجراء حساب مناسب

مؤسس على قياسات أخرى . وهذا النوع من الإجراء ضربنا له مثلاً عند ما تكلمنا عن تقدير الأعماق في الماء بتقدير الضغوط المائية عند هذه الأعماق . ولكن عدا هذا النوع من الأخطاء توجد أخطاء تتصل بالقياس نفسه ، فقل أن يحصل الباحث على قياس ، فيكرره ، فيحصل على نفس القياس بالضبط مرة أخرى . وهو عند كتابة نتائجه يكتبها ومعها مقدار من الخطأ محتمل ينعمته « بالزائد أو الناقص » . مثال ذلك رجل يقيس مسافة بشرط مدرج ، سوف يجد دائماً أنه كلما قاس خرج برقم يختلف عن الرقم الذي خرج به أولاً ولو اختلافاً قليلاً ، فيقول إن هذه الحجرة طولها ١٠ أقدام وعشرة بوصات ولكني غير واثق من كسر من البوصة يزيد هذا الطول أو يقله . وهو يستطيع بالتقليد الحسابي أن يعبر عن هذا فيقول أن طول الحجرة ١٠ أقدام و ١٠ بوصات + ٠,٥ من البوصة ، ومعنى هذا عنده أن طول الحجرة الصحيح يقع بين مقدارين أحدهما ١٠ أقدام و ١٠,٥ بوصات والآخر ١٠ أقدام و ٩,٥ بوصات .

وقد يسأل سائل فيقول الى أي درجة نطمئن إلى أننا إذا أعدنا تجربة فسوف نحصل على نفس النتيجة التي حصلنا عليها أولاً . إنا قد سبق أن عالجتنا هذه المسألة في باب سبق ، وقلنا أن اطمئناننا إلى أن تكرار تجارب الطبيعة سيأتينا بنفس النتائج ، أو بمعنى آخر ، إن إيماننا بوجود التجانس في طبيعة هذا الكون نبتت جذوره عند الناس عامة فيما بينهم من حس بالطبيعة مشترك ، مكتسب بالخبرة ، يؤمن بداهة بتجانس هذه الطبيعة واطرادها ، فهو لا يطلب على ذلك برهاناً . ولكن من الفلاسفة الأحدثين من يعتقد أن كل معرفة مكتسبة بالخبرة ليست إلا معرفة محتملة الصواب ،

على أى شكل صنعناها ، وسواء صنعناها بلفظ ميسر مما يفهم الناس جميعاً ، أو لفظ علمى مُدغل لا يفهمه إلا العلماء . وإنى أحسب أنهم صادقون . فكل المعارف التى نعلمها عن العالم الطبيعى تمتد على شريط أشبه شئء بشريط الطيف الضوئى ، وهى تتدرج عليه من « محتمل » إلى « أكثر احتمالاً » ، حتى إذا بلغت أقصى الطرف صار احتمال صوابها أكبر احتمال فنسميها فى مزاجنا العقل العادى « ثابتة كل الثبوت » . ولكن نوع العرفان الذى يتمثل فى الرياضة يعتبره أهل الرأى اليوم نوعاً آخر من المعرفة غير ذلك النوع . وهذا النوع ثابت لأنه مشتق بالمنطق من جملة من تعاريف مسلم أول الأمر بها . وغير ذلك كان يرى الفلاسفة فيما قبل القرن التاسع عشر . ولكن اكتشاف أنواع مختلفة من الهندسة وما تلى ذلك من أعمال قام بها المناطقة ساق كثيراً من الناس إلى القول بأن حقائق الرياضة لا تختلف عن حقيقة نقررها بقولنا أن القدم = ١٢ بوصة .

إن النظريات الهندسية « لإقليدس » مشتقة من افتراضات . ولكن النظريات الأخرى مشتقة من مجموعة أخرى مختلفة من الافتراضات . والهندسة الإقليديسية ، على درجة أولى من التقريب ، تمثل ما نجد فعلاً إذا نحن رسمنا أشكالاً هندسية على سطح « مستو » ، وتمثله تمثيلاً صحيحاً . والتقريب هنا قريب جداً ، لا شك فى هذا . ولكن « حقائق » « لإقليدس » كغيرها من « حقائق » الهندسيات الأخرى (وهى التى لا تمثل أشكالاً على سطوح مستوية) مستقلة كل الاستقلال عن كل قياس فعلى . وعند ما نبحث فى المسافات الكبيرة الهائلة ، وفى الجسيمات ذات السرعات العظيمة المتناهية ، يظهر لنا ما يدعى إلى الشك فى كفاية الهندسة الإقليدية

في صياغة ما يخرج عن هذه من نتائج . ولكننا هنا نبلغ مرة أخرى إلى الحد الذي عنده نلتقي بنظرية النسبية والطبيعة الكانتامية أو القنطامية (quantum physics) ، وهي مناطق في البحث جرد عسيرة . ويكفي لأغراضنا الحاضرة أن نقول ان الرياضة تعالج أفكارا مجردة . وإن علاج هذه الأفكار بعمليات المنطق ينتج عدداً هائلاً من أدوات قوية يمكن استخدامها بعد ذلك فيما يتعلق بالنتائج التي تكشف عنها الملاحظة أو تكشف التجربة .

إننا عاجلنا في هذا الباب موضوعين ، موضوع الأدرستاتيكا ، أى موازنة السوائل ، وموضوع قانون بويل ، وكان الغرض من ذلك أن نبين كيف تعين الأفكار المجردة الرجل التجريبي عوناً كبيراً . ففكرة السائل الكامل ، والغاز الكامل ، كانت لهما فوائد عظيمة للذين درسوا الماء ودرسوا الهواء . وكان الغرض كذلك أن نبين أن الرياضة تأتي بصياغات نستطيع فيها أن نصب ما تأتينا به الملاحظات والتجارب من نتائج ، أن الصور والفكر الذهنية ، كذلك المشاريع التصورية ، من فروض تفرض ونظريات تصاغ ، ومنها تتألف لحمة العلم الحديث وسداه ، ليست إلا مزيجاً غريباً من حقائق رياضية ونتائج كمية من ثمرات التجارب فالرجل الرياضي ، وصانع الأدوات والأجهزة العلمية ، وصاحب التجربة ومجريها ، كل هؤلاء كان لهم نصيب في إخراج هذا المزيج الغريب .

إننا فيما تبقى من هذا الكتاب سوف لا نتحدث إلا قليلاً نسبياً عن القياسات الكمية ، ولا نكاد نتحدث شيئاً عن الرياضيات مباشرة ، وذلك بقصد أن لا يثقل جانب منه ويخف جانب . ومع هذا فسوف نسلم بأن القارئ يعلم أن المشروعات التصورية ، من فروض علمية ونظريات ،

لم تكن ممكنة إلا بالذى جاءت به الرياضيات من أدوات جديدة ، وما ابتدع الفكر من وسائل للقياس مبتكرة

إن كتاباً كالذى نحن فيه ، يهدف فيما يهدف إلى إيضاح ما العلم ، يصعب فيه جداً أن يوازن كاتبه بين الجانب النظرى منه والجانب العملى ، موازنة تمنع كل المنع أن يرجح جانب بجانب . وأصعب من هذه أن يُشيد بخطورة الجانبين ، الوصفى والكمى ، فى تفكير وفى تجريب . وكل ما يستطيعه المرء أن يؤكد أن تاريخ العلم الحديث يرينا أنه لا يوجد طريق للتقدم واحد ، طريق فذٌ مأمون يشير إليها المشير ويقول هذا هو ولا شىء سواه . فالتقدم الذى حدث فى العلم جرى أحياناً على أسلوب معين فجرى سريعاً ، ثم على آخر فجرى بمثل سرعته . إن الرياضة ، والقياس لا يعبدان عبادة ، ولكن كذلك لا يمكن إغفالهما ، فحتى الرجل العادى لا يستطيع ذلك .

الباب السابع

أصل مشروع تصوري

الثورة الكيماوية

ليس في هذا الباب شيء من رياضة . ومع هذا فالقارئ الذي يعرف قليلا أو لا يعرف شيئا أصلا من العلم سيجد أن هذا الباب عسير الفهم . ذلك أن الذي سوف أحاول تلخيصه هنا إنما هو ثورة علمية من الدرجة الأولى . ولا نبعد إذا نحن قلنا إنها ثورة تمخضت عن ولادة الكيمياء ، فلشوازيه Lavoisier⁽¹⁾ ، بطل هذه القصة سموه من زمن بعيد أب الكيمياء الحديثة .

ولست راوياً هذه القصة على أنها موقف من مواقف العلم الحاسمة ، ولو أنها كذلك . وإنما أنا أرويها لأشرح بها كيف تخطو النظرية إلى النضج درجات بناء على ما يخرج من التجارب من نتائج . فمن حسن الحظ أن لدينا سجلات قد دون فيها كل ما صنعه لشوازيه وهو يخطو بأرائه إلى الأمام خطوة خطوة . كذلك سوف نرى مما سوف أحكي ما في تفسير

(1) هو انتوان لوران لافوازيه ، الكيماوي الفرنسي . ولد عام ١٧٤٣ وقطع رأسه في الثورة الفرنسية عام ١٧٩٤ . وفي هذا الكتاب كثير من أعماله العلمية ، ولكنه اشتغل إلى جانب أعماله العلمية بأعمال إدارية ، منها رئاسة مصلحة الضرائب التي كانت تجمع للملك الأموال . وهذه الصفة أدانته الثورة .

نتائج التجارب من صعوبات كبيرة ، فلاقوازيه كان على وشك أن يخطو في مشروعه التصوري آخر خطوة ، فإذا به يُزاع عنها بسبب تفسير خاطئ لتجربة .

وسوف نتناول وقائع هذه القصة في تفصيل ، وفي أناة ، كما يهدأ من سرعة الصور السينائية على الشاشة ليرى الناس وقائع جرت في ساحة اللعب ، لعب كرة أو غير كرة ، تفصيلاً بعد أن رأوها إجمالاً ورأوها خطفأً .
والقصة أكثر من وجه ممتع . فمنها سيرى القارئ أن لكل تجربة زمانها ، فهي لا تثمر إلا إذا نضج الزمان لها . وسيرى حاجة الباحث إلى التحكم في « العوامل المتغيرة » في تجاربه ، وهذه تعني عند الكماوى في أغلب الأحيان الحرص على نقاء موادّه . وأخيراً سوف يرى كيف أن مشروعاً تصورياً كاذباً يقوم فيسد الطريق زماناً في وجه مشروع آخر صادق ، ثم كيف يقوم الناس يمدّون في حياة مشروع تصوري ، قُضى عليه بالموت ، بالذى يفترضون لساعتهم من افتراضات لا تغنى آخر الأمر من الموت شيئاً .

ولعل أسهل طريقة لفهم هذه الثورة الكيماوية التي تتصل باسم لاقوازيه أن نصف أولاً ظاهرة الاحتراق بلغة العصر الحاضر ، ثم نذكر ما كانت توصف به من أوصاف مغايرة سادت العالم العلمى قرابة قرن كامل .

إن كل طالب في مدرسة ثانوية درس الكيمياء « يعلم » أن الهواء مزيج من أكسجين وأزوت (نروجين) ، وقليل من غازات أخرى ، وأنه إذا اشتعلت شمعة أو احترقت في فم رجل سيجارة خرج منها نار وخرج ضوء ،

وخرجنا مما حدث من تفاعل كيميائي مشترك في إحدائه الأكسجين .
ويسمى هذا التفاعل بالاحتراق . ونحن إذا أحرقنا شيئاً في حيز من الهواء
محدد ، توقف الاحتراق بعد حين لنفاد ما بالهواء من أكسجين . فما
هو هذا الشيء الذي يحترق ويدخل في احتراقه الأكسجين ؟ سوف نجد
من الطلبة من يجيب على هذا السؤال فيقول إن الذي يحترق مجموعة من
مركبات فحمية ، من مركبات كربونية . وسنجد من الطلبة من يستطيع
أن يضيف إلى هذا أن أنتجته الاحتراق هي ثاني أكسيد الكربون
(ا ك) وماء (ا ي د) . ونحن إذا سخنا شيئاً من القصدير حتى ساق ،
ثم زدناه تسخيناً ، وأبقيناه على ذلك مدة ، تغطي سطحه بشيء من خبث
يطفو فوقه ، هو ظاهراً شيء غير القصدير . فما الذي حدث هنا ؟
وسيجيب الطالب النجيب على هذا السؤال بأن الذي حدث أن القصدير
اتحد بأكسجين الهواء ، فتكرّر أكسيد ، هو ذلك الخبث الذي ظهر على
سطح القصدير . ثم هبنا نسخن هذا الخبث ، هذا الأكسيد ، ومعه شيء
من الكربون ، فما الذي يحدث ؟ يحدث أن الكربون يأخذ الأكسجين من
أكسيد القصدير ، فيكون أكسيد الكربون ، ويترك القصدير فلزاً خالصاً .
وقد يزيد بعض الناس ، ممن علم من الكيمياء فوق علم الناس ، أن هذا
هو الذي يحدث في خامة الحديد ، وهي أكسيد ، فإن خلطها بالفحم ثم
إحمائها يترك لنا الحديد عنصراً .

كل هذه أشياء بسيطة ، وأنت تستطيع أن تكلف طلاب المدارس
الثانوية فيقومون لك في معاملهم بإثباتها . ولكن كان غير ذلك الحال في
العقد الثامن من القرن الثامن عشر .

ففي ذلك العهد لم تكن لتجد فيلسوفاً واحداً ، أو عالماً تجريبياً واحداً من مائة ، يستطيع أن يعطيك جملة واحدة من هذا التفسير الذي نذكره اليوم ونعتبره اليوم هو « الصحيح » . إنهم بدلاً من ذلك كانوا يتحدثون إليك في ثقة العلماء الأفاضل عن شيء سموه « الفلوجستون » Phlogiston وهو اسم غريب على كل قارئ لهذا الكتاب ، إلا الكيماويين منهم . وفي أي زمان كانوا هكذا يتحدثون ، وعن تفسير شيء بسيط كالاحتراق كانوا يعجزون ؟ إنهم هكذا تحدثوا ، وهكذا عجزوا . بعد زمان نيوتن بمائة عام . وهذه الحقيقة يجب أن يتأملها ، وأن يقف عندها طيلاً ، أولئك الذين يريدون فهم العلم ، ثم هم يتحدثون عن « المنهج العلمي » ويتحدثون كثيراً ، وفي ذلاقة عجيبة .

إن الثورة الكيماوية زامت على التقريب الثورة الأمريكية ، وكادت أن تتصل بالثورة الفرنسية التي جاءت من بعدها . إن لافوازيه ، ذلك الرجل الذي صنع وحده الثورة الكيماوية ، بما ابتناه على ما صنع سابقوه ، قطعت رأسه في الثورة الفرنسية بحكم من محكمة الثورة عام ١٧٩٤ . ولم يكن كره المبادئ الجوهرية التي جاءت بها تلك الثورة ، ولا خصماً للذي أحدثته من انقلاب . وقد يقال إنه اغتيل بسبب ما وشى به زميل عالم له (فوركروي Fourcroy) (١) ، وكان على الأقل مناصراً شديداً

(١) هو انتوان فرانسوا دي فوركروي ، كيماوي فرنسي ، ولد عام ١٧٥٥ ومات عام ١٨٠٩ . احترف الطب ، ثم جنح إلى الكيمياء . واتصل بلافوازيه في بعض بحوثه . ولما جاءت الثورة الفرنسية اختير نائباً عن باريس في المؤتمر القومي . ولما جاء نابليون وجد له مكاناً في مجلس الدولة .

المناصرة لحكومة ذلك العصر . إن هذه القصة ، قصة الثورة الكيماوية ، تمتلئ هوامشها بأحداث للتاريخ رائعة مشوقة . ورجل آخر ظهر سامقاً في مناقشات تلك النظريات القائمة عندئذ ، عند خواتيمها ، ذلك بريستلي ^(١) priestley ، وكان قسماً نصرانياً من فرقة الموحدين unitarians التي تنكر عقيدة التثليث . ومنحته الجمعية الفرنسية ، في عهد الثورة ، صفة المواطن ، تشريفاً له . وهرب من جمهور صاحب ساخط عليه في إنجلترا ، وذهب إلى أمريكا ، وفعل هذا في نفس العام الذي قطعت فيه رأس لافوازيه . إن أواخر القرن الثامن عشر مليئة بالحوادث التي جمعت بين السياسة والعلم . ولكن ليس هذا الساعة من همنا .

وقبل تتبع الخطوات التي خطاها لافوازيه حتى أوصلته إلى مشروعه التصوري ، إلى نظريته في الاحتراق ، يجب أن نذكر من أي شيء بدأ أنه هو وأهل زمانه كانوا قد ورثوا نظرية احتراق تسمى نظرية الفلوجستون ، وهي تتعارض والنظرية التي انتهى إليها لافوازيه كل المعارضة . والواقع أن عنوان هذا الحديث جاز أن يسمى سقوط نظرية الفلوجستون وقيام نظرية الأكسجين لتحل مكانها ، لأن هذا المشروع التصوري الذي ابتدعه لافوازيه جعل نظرية الفلوجستون لا ضرورة لها . ومع هذا

(١) هو يوسف بريستلي ، الإنجليزى ، جمع بين اللاهوت والعلم . ولد عام ١٧٣٣ ومات عام ١٨٠٤ . واشتهر بأنه أول من حضر الأكسجين . وبحث في الكيمياء ، وكتب في الفلسفة وفي اللاهوت وفي السياسة . وكانت آراؤه الدينية غير السائدة ، وكرهها الناس . وناصر الثورة الفرنسية فأحرق الغوغاء بيته . وأبحاثه العلمية التي تستند إليها في الأصل شهرته من النوع الشتييت الذي تميزت به بحوث ذلك الزمان .

فأهل زمانه لم يدركوا بالسرعة الواجبة ما حدث ، ولا ما كان به من خطورة . والوقفات التي وقفوها آخر مرة للدفاع عن نظرية الفلوجستون (وسوف ندرسها في هذا الباب) مثل رائع من قوة تماسك يجدها المرء دائماً في الآراء القديمة ، تحاول بها الإبقاء على الحياة بعد أن قضى عليها .

معنى النظرية الفلوجستونية وخطورتها

لا بد أن ندرك قبل كل شيء أن هذه النظرية كانت في زمانها خطوة إلى الأمام لا شك فيها . ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر وجد رجال كان من مهمهم أن يصنعوا شيئاً من ذلك العلم الذي نسميه اليوم بالكيمياء . ولكنهم كانوا من بوادر هذا العلم في شبه غابة كثيفة ، كثيرة الأدغال ، متشابكة الأشجار منبهمة طرقاتها ، فلم يعرفوا كيف يدهرون . وكانوا ورثوا من الكيميائيين القدماء ومن رجال الحرف ، وعلى الأخص من العاملين في المعادن ، مقداراً ضخماً من الحقائق غير مترابط ، وأفكاراً عن العناصر غريبة غير مفهومة . وعناصر أرسطو ، من تراب وهواء ونار وماء ، كانت لا تزال في سماء الفكر كالسحب السوداء تملأ فتحجب الفضاء . وجاء بويل ، وفي كتابه الذي سماه *The Skeptical Chymist* عرض ما ساهم به في العقد السابع من القرن السابع عشر في فك تلك الطلاسم التي جمعت بين الحقيقة والخيال يماسك بينهما ألفاظ غريبة لا مفهوم لها ولا معقول . ولعل الخير في أن ننظر الآن في بعض الظواهر العادية التي كان على نيوتن وأهل زمنه في أواخر القرن السابع عشر أن

(١٦)

يفسروها ، أعنى أن ينسقوها في نسق واحد مؤتلف ، في مشروع تصوري واحد . كانت المعادن^(١) تستخرج بتسخين بعض المعادن مع الفحم البلدي ، وهي طريقة القدماء الأقدمين في تحضير المعادن صهراً من خاماتها . وكانت المعادن ، أى الفلزات ، تختلط في نظر الناظر لأول وهلة ، ذلك لأن مظاهرها متشابهة (وحتى اليوم نجد تقسيم العناصر إلى عناصر فلزية وغير فلزية يأتلف مع الرأى الباهد للناس) . ومن الأجسام غير هذه ما سموه تراباً ، وهي تسمى اليوم أكاسيد ، ومنها أجسام كالفحم والكبريت سموها أصول احتراق . ومن التراب ما أموه مع فحم الخشب فجاءهم بفلزات ، أى معادن . وهذه العملية كثيراً ما جرى عكسها ، فإنه كثيراً ، وليس دائماً ، ما سخن فلز كالفصدير فأنتج شيئاً كالتراب . ومن هذا التراب الذى جاء اصطناعاً ، ونسميه بلغة هذا العصر الحاضر أكسيداً ، كان فى الإمكان استرداد الفلز منه بتسخينه مع فحم . والتراب الخالص كالذى هكنا ننتجه قد يسمى كـ CaI_x ، وإذا فالعملية التى أنتجته تسمى تكليساً .

فبأى وسيلة يمكن تنسيق كل هذه الحقائق التى ورثوها عن القرون الوسطى ، وما قبل القرون الوسطى ؟ أمكنهم تنسيقها ، أو هكنا ظنوا ، بابتداع أصل جديد أسموه الفلوجستون ، وهو أصل أشبه ما يكون بأحد أصول أرسطو الأربعة القديمة ، بعناصره الأربعة القديمة : تراب وهواء

(١) نقصد بلفظ المعدن الحديد والنحاس ما إليها ، وهو الفلز بالغة الكيماوية البحتة . ولكن لفظة المعدن ، وهى لفظة غير الفلز ، جرت عند الناس بمعنى الفلز ، وليس باستطاعة أى مجمع لغوى اختطافها من أفواه الناس ووضع لفظة فلز فى هذه الأفواه مكانها .

ونار وماء . وكان أشبه بالنار ، ولو أن علاقته بها لم تتضح أبداً . إن الذين أرادوا أن يدخلوا شيئاً من الصفاء في هذا العماء أحسوا أنه لا بد من وجود شيء مشترك بين كل هذه العمليات ، أعنى استخراج المعادن من « أتربتها » ، من كلساتها ، ثم ردها إلى هذه الكلسات . وقالوا : فلنسمِّ هذا الشيء المشترك بالفلوجستون . فإذا أنت أضفت الفلوجستون إلى الكلس تكون الفلز ، أى المعدن . وإذا أنت انتزعت هذا الفلوجستون من المعدن استرددت الكلس . فالفلوجستون عندهم أصل مفلّز ، أى قالب الكلس إلى فلز . ولا غرابة في رأى كهذا ، فهو الرأى الباده الذى يتفق عند الناس مع ظواهر الأمور . ذلك أن الذى يوجد في الطبيعة ليس الفلزات وإنما أكلاسها ، سوى الذهب وبعض فلزات أخرى في ظروف خاصة . وبدا لهم بناء على هذا أن هذه الأكلاس لا بد أن تكون أبسط مما يخرج منها من فلزات . وبدا لهم كأن شيئاً لا بد من إضافته إلى هذه الأكلاس لتنتج الفلزات . وبما أن الفلزات أشباه ، ظاهراً ، فلا بد أن بينها شيء مشترك . قال بيشر Becher^(١) وقال معه تلميذه شتال Stahl^(٢)

(١) هو جوشيم جوهان بشر ، ألماني ، مارس الكيمياء والطب ونشر الكتب ، وجمع إلى هذه حب المغامرات . فكانت حياته ككشكولا غريباً ، وتنقل بين بلاد أوروبا هرباً الذى كان يحدثه من أزمات . ولد عام ١٦٣٥ ومات عام ١٦٨٢ .

(٢) هو جورج إرنست شتال ، الطبيب الكيماوى الألماني ، ولد عام ١٦٦٠ ومات عام ١٧٣٤ . تخرج في الطب من جامعة يينا ، وصار طبيبياً ببلاط دوق فيمار . ثم صار أستاذاً للطب في هله ، ثم طبيباً لملك بروسيا . اشتهر بنظرية الفلوجستون في الكيمياء ، وكان له رأى في التخمر يشبه رأى ليبيج الذى جاء من بعده بمائة وخمسين عاماً .

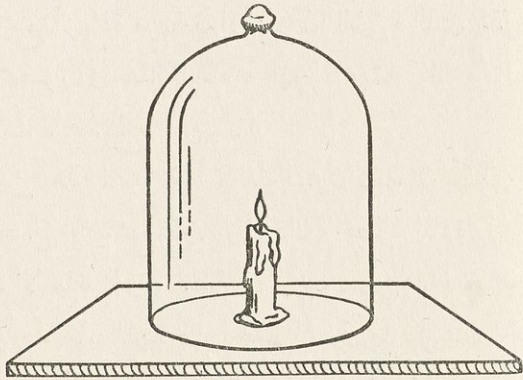
وإذا فلنسم هذا الشيء المشترك بالفلوجستون^(١) ، ونشرا ذلك في سلسلة من كتب فيما بين عام ١٧٠١ وعام ١٧٠٣ . فهذا مفتاح صنع للناس ليفتحوا به ما استغلقت عليهم . وما أسرع ما قبلوه . إنه مثل للفكرة الواحدة التي تجرى بين حقائق عدة فتنظمها نسقاً واحداً . وقالوا إن مقدار الفلوجستون في بعض الأجسام كثير ، وفي بعضها قليل ، وما أيسر إثبات هذا : ولكن الفلوجستون ؟ إنه مادة على الأرجح لم يرها أحد قط وما كانت لتُرى . والأجسام التي بها كثير من الفلوجستون سريعة الاشتعال . والنار نفسها الحادثة لعلها مظهر من مظاهر الفلوجستون ، أو لعلها عملت معه (ظل بعضهم إلى هذا العهد يرى أن النار من العناصر) . والفحم عندهم كان مادة كثيرة الفلوجستون ، وبتسخينه مع كلس الفلز يعطى الكلس من فلوجستينه فيجعل منه فلزاً . والفحم نفسه يحترق وحده ، وهو في هذه الحالة يُخرج الفلوجستون ناراً ، أو هو يتحد بالهواء . والكبريت وجد على حالته هذه في الطبيعة . وهو يحترق إذا سخن وينتج منه حامض ، حامض الزاج (أو حامض الكبريتيك بلغة هذا العصر) . وظهر لهم طبعاً أن حامض الزاج هو الكبريت بعد أن فقد بالحريق ما به من فلوجستون كثير .

ونكتب هذه المعاني التي كانت تخامر القدماء هكذا لتظهر أكثر اتصاحاً :

كلس + فلوجستون (من الفحم البلدي) ← فلز

(١) فلوجستون كلمة من أصل إغريقي معناه الاحتراق أو الشعلة أو النار .

فلزيسخن في الهواء ← كلس + فلوجستون (يخرج إلى الهواء)
 فحم بلدى يحرق ← فلوجستون (إلى الهواء) تصعبه نار
 كبريت يحرق ← فلوجستون (إلى الهواء) + حامض الزاج
 إن نظرية الفلوجستون كانت النظرية السائدة في الكيمياء لما قامت
 ثورة التحرير الأمريكية، أى في العقد الثامن من القرن الثامن عشر، ولم
 يكده يوجد من لم يؤمن بها، بل هي كانت أساس الكيمياء التي تدرس
 عندئذ في المدارس والكليات جزءاً من برنامج الفلسفة الطبيعية. والذي
 يطلع على المذكرات التي كتبها الأستاذ صمويل وليمز Samuel



(شكل ٢٤)

إذا وضع ناقوس من زجاج هكذا على شمعة تشتعل، انطفتت الشمعة. ونفسر نحن
 هذا اليوم، بناء على مشرونا التصورى الحاضر (نظريتنا) فنقول إن الأكسجين الذى
 بالناقوس قد استهلك. ويفسره أصحاب نظرية الفلوجستون بأن الهواء تشبع بالفلوجستون
 فلم يعد أن يحتمل أكثر من ذلك.

Williams ، أستاذ الرياضيات والفلسفة الطبيعية من عام ١٧٨٠ إلى عام ١٧٨٨ بجامعة هارفرد Harvard ، وهى المذكرات التى منها أتى محاضراته فى الكيمياء ، يعلم كيف يمكن صوغ هذه النظرية صياغة يقتنع بها طلبة فى محاضرة كل اقتناع . خذ شيئاً من مادة تقبل الاشتعال ، وأشعلها ، ثم أدخلها وهى مشتعلة فى وعاء به قليل من الهواء الجوى (شكل ٢٤) . والنتيجة : يستمر الاشتعال ولكن زمناً قليلاً ثم يقف . وبعض المادة يتحول إلى رماد ، وسائر المادة يبقى كما هو . والهواء يظهر عليه التغير والتبدل . . . فهذا مثل لما يسميه الكيمائيون بالفلوجستون ، وللهواء وقد تحمّل به . فى هذا الهواء المحدود تظل المادة تحترق حتى يتقل الهواء بشيء يمنع الزيادة من احتراق . وهذا الشيء الذى يتقل به الهواء ، هو كالهواء محصور فى هذا الوعاء ، فهو ، مهما كان وكانت صفته ، محصور كذلك لا يستطيع الهرب .

ويظهر من هذه التجربة أن الفلوجستون لا بد أن يكون جسماً حقيقياً ، وأن الهواء يتحمل أو يتشبع به . وما كان حصر المادة المحترقة فى هذا الوعاء المحدود إلا منعاً لمادة حقيقية أن تهرب . ومن الواضح البين أيضاً أن الهواء يظل يأخذ هذه المادة من الجسم المحترق ما ظل هذه الجسم محترقاً . حتى اذا تحمّل منها الهواء بأكثر مما يحتمل ، أى تشبع بالفلوجستون ، توقف الاحتراق . وكيف لا ، والفلوجستون لا يستطيع الهرب ، والمادة المحترقة لا تستطيع أن تعطى الأكثر من فلوجستونها من أجل ذلك . لهذا إذا أدخل الانسان هواء جديداً إلى الوعاء ، يعود الجسم إلى الاحتراق . ومن هنا جاء تعبيرنا عن الهواء ، بأنه ذو الفلوجستون ، أو أنه سليلب

الفلوجستون ، أما ذوالفلوجستون فهو الهواء الذى تحمل به ، وسليبه هو الهواء الذى خرج منه فلوجستونه .
 إن الأستاذ وليرز يتحدث عن الفلوجستون ونظرية الفلوجستون فيقنع ويبدع .

من الكشوف العلمية ما يغفل إغفالا

إن هذه الحجج التى كانت تساق دفاعاً عن نظرية الفلوجستون حجج رائعة . ولكن كان بها ثغرة واحدة . وكانت هذه الثغرة حقيقة علمية عرفت من زمان بعيد ولكن أغفلت ، كانت كشافاً اكتشف ١٥٠ عاماً قبل أن تأخذ النظرية الفلوجستونية فى التدهور ، بله السقوط . وهذا مثل جديد فى استراجية العلم ، نأخذ منه عبرة : أن الكشف العلمى لا نفع منه ، ولا خطر فيه ، إلا أن يكون الزمان قد نضج فاستعد للقائه .

إنه فى عام ١٦٣٠ ، فى هذا التاريخ الباكر ، وقبل أن يولد بويل ، درس رجل فرنسى اسمه جان راي Jean Rey تكليس القصدير ، حرّقه فى الهواء ، وأثبت أن الكليس الناتج يزن أكثر من القصدير الذى منه نتج . وفوق هذا جاء لهذا بتفسير قريب جداً من آراء لافوازيه التى جاءت بعد ذلك بـ ١٥٠ عاماً . قال « راي » : « إن هذه الزيادة فى الوزن تأتى من الهواء . فهو قد كثف وثقل ، واكتسب شيئاً من لزوجة . . . وهذا الهواء يمتزج بالقصدير . . . ويرتبط بالدقيق الأدق من أجزائه . . . »

وجاء بوييل بعد ذلك، وأثبت زيادة الوزن هذه في الفلزات عند ما تتكلس. كان هذا عام ١٦٧٣. ولكنه لم ينظر في سبب هذا، فلم يزد شيئاً يسند به ما جاء به «راى» من حدس. والذى جاء بها «راى» كان أكثر من حدس ومن ظن. وبوييل لم تفته نصرة «راى» فحسب، بل لعله بالذى صنع أضلّ من جاء بعده من البحاث. ونحن إذ ننظر الآن في هذه الأحداث القديمة نرى أن بوييل، لو أنه مضى قليلاً، ومضى قدماً وفي شجاعة في تجاربه هذه، ما اقترحت نظرية الفلوجستون أبداً، أو إذا هي اقترحت، ما وجدت في العقول المتزنة قبولاً. على أن كلام مثل الآن سهل، والتحدث عما كان يسلكه التاريخ أمر دائماً ميسور. ولكنى أشك في أن أحداً، كان بوييل أو رجلاً أكثر عبقرية من بوييل، كان في إمكانه أن يكشف عن الأكسيجين، ودوره الذى يقوم به في الاحتراق وفي التكليس، في ذلك القرن، القرن السابع عشر. ذلك لأن الكثرة الكبرى من حقائق علم الطبيعة، علم الفزياء، وكذلك علم الكيمياء، كانت عند ذاك مخبأة محجبة، لا يراها الناس، وبقيت كذلك حتى جاءها البحاث يشقون عنها حججها في بطء كثير، وجهد كبير، وعلى الطويل من السنين.

وعلى كل حال فبوييل فرض أن النار، وهى عنصر من عناصر أرسطو، مرت عبر جدران الوعاء الذى أجريت فيه التجربة، وكانت من زجاج، وأنها بعد مرورها اتحدت بالفلز، وبذلك زادت وزناً. وهذا فرض غير ما افترضته النظرية الفلوجستونية التى جاءت بعد ذلك بجيل. بل هو مناقض لها بمعنى، ذلك أن بوييل رأى أن شيئاً أضيف إلى الفلز

وهو يتكلس ، يعنى النار ، ورأت النظرية الفلوجستونية أن شيئاً نقص
 وخرج من الفلز ، ذلك الفلوجستون . على أن كتابات بوييل وجهت
 أنظار الناس إلى الحرارة وإلى اللهب (وارتباطهما بالنار والتكلس وثيق)
 أكثر مما وجهتها إلى الهواء . فتوجيه الفكر إلى الهواء جاء من « راي » ولم
 يجئ من بوييل .

وضاعت آراء « راي » على ما يظهر في ال ١٥٠ عاماً التي تلت ،
 ولكن حقائق التكلس والتكليس لم تضع . فأمر هذا التكليس ، وأمر
 زيادة وزن الفلزات عند التكليس ، كان معروفاً طيلة القرن الثامن عشر ،
 ولكن أحداً لم يتنبه إلى أن هذه الحقيقة قاتلة لنظرية الفلوجستون . فهل
 لنا بعد هذا أن نقول عن بحاث هذا القرن ألا ما أجهل وما أغبي !!
 بالطبع لا . ذلك لأن العلماء في شؤون العلم المعقدة يصرفون أكبر همهم إلى
 الحقائق المتراكمة المختلفة الكثيرة يحاولون تفسيرها ثم تنسيقها في نسق واحد عظيم ،
 ذلك الذي نسميه بالمشروع التصورى ، أو النظرية العلمية . والمشروع
 التصورى لا يطرحه العلماء بأنه باطل لأنه خالف أو خالفته حقيقة أو
 بضع حقائق قليلة لا يمكن التوفيق بينها وبينه . والمشروع التصورى إن
 عجز عن أداء واجبه فهو إما يُعدّل ، أو يؤتى بمشروع آخر يحل محله ،
 بنظرية أخرى ، ولكنه لا يطرح اطّراحاً ويُترك مكانه فارغاً لا يملؤه شئ .
 لم يكن معروفاً في عام ١٧٧٠ أن الكلس يزيد وزناً على وزن الفلز
 الذى نشأ عنه فحسب (وهذه الحقيقة معناها عندنا اليوم أن الفلز
 لا بد أن يكون أضيف إليه شئ) . بل يضاف إلى ذلك أن بوييل قبل
 ذلك ، في عام ١٦٦٠ ، أبان أن الهواء لا بد منه للنار لتكون . وچون

مايو John mayow^(١) وروبرت هوك Robert Hooke^(٢) ، في نحو ذلك الوقت ، كتبوا عن احتراق الأجسام وتنفس الحيوان وذكرنا أن الهواء يفقد من قوته المرنة بتنفس الحيوان فيه بمثل ما يفقد باحتراق شعلة فيه . واستيفن هالز Stephen Hales^(٣) قال قولاً كهذا بعد ذلك بخمسين عاماً . ولكن هالز هؤلاء الرجال جاءوا قبل زمانهم . ونحن نقرأ اليوم ما كتبوا فنجد أنهم ، على الرغم من الألفاظ الغريبة التي استخدموها ، وعلى الرغم مما انبهم عندهم من فكر ، قد أبانوا أن الهواء الذي احترق فيه محترق ، أو تنفس متنفس ، لا يعود فيأذن بزيادة من احتراق أو زيادة في تنفس . فهو لا يحترق فيه من بعد ذلك شيء ، ولا يحيا فيه من بعد ذلك حتى . وزادوا فأثبتوا أن حجم الهواء عندئذ يقل فعلاً . وكل هذا يكاد أن يأخذ بيدنا ليضعها وضعاً على التفسير الصحيح لهذا الظواهر ، ولكنه عجز أن يأخذ بيد هؤلاء الكيماويين القدماء ، كيماوي القرن الثامن عشر ، ليضعها وضعاً على التفسير الصحيح . لقد شغلهم الحديث بلغة الفلوجستون . وهي مع هذا كانت نظرية لم تخل من ثمرات .

(١) جون مايو (١٦٤٣ - ١٦٧٩) كيماوي إنجليزي وفسيولوجي . بحث في التنفس ، وكان في بحثه سابقاً لزمانه . وقد سبق إلى إدراك وجود الأكسجين قبل لافوازييه بـ ١٠٠ عام .

(٢) روبرت هوك (١٦٣٥ - ١٧٠٣) هو الرياضي والفيلسوف الإنجليزي ، وهو معروف بالقانون الذي اقترن باسمه . وهو تنبأ بشيء من نظرية الجاذبية الأرضية التي جاء بها نيوتن ، وكذلك بالنظرية الموجية للضوء .

(٣) استيفن هالز (١٦٧٧ - ١٧٦١) عالم فزيائي كيماوي مخترع .

صعوبة التجريب بالغازات

إن الذى يقرأ ما كتب الفلوجستونيون يكاد يرفع يديه إلى السماء استغاثة ويأساً . ولكنه إن كان من ذوى الصبر ، وغلبت عليه الرغبة فى أن يعلم ويفهم ، فهو واجد أن أكثر الصعوبات إعاقة لهؤلاء القوم كانت عجز صاحب التجربة فيهم عن العمل بالغازات والتعرف عليها . فصعوبتهم كانت صعوبة تجريب . إن الفلزات وأكاسها ، والمواد التى تشتعل ، من كبريت وفحم وفسفور ، كانت أشياء فى استطاعة كيمائى القرن الثامن عشر أن يروها بأعينهم ، ويتناولوها بأيديهم ، لأنها كانت صلبة تُمسك وترى . وحتى السوائل كحامض الزاج والماء والزئبق كانت أشياء لها فردية لها شخصية فهى تدرك فى لمحة . ولكن غير ذلك الغازات . فغازات كالأزوت وثنائى أكسيد الكربون ، وكلاهما لا تشتعل فيهما الأجسام ، كثيراً ما اختلطا عليهم اختلاطاً كبيراً . وكذلك اختلط عليهم ما اشتعل من غازات ، كالأدروجين وأول أكسيد الكربون . وما زاد فى اختلاطهم أن الغازات تتشابه منظرأ ، فهى إلا القليل منها شفافة لا لون لها . وهى تنضغط ، وهى تتمدد بالحرارة وبنفس الدرجة تقريباً . ونعم اختلفت كثافتها ، اختلف وزن الحجم الواحد منها ، ولكن تقدير الكثافات عندئذ لم يكن أمراً سهلاً . وحتى فى القرن الثامن عشر كثيراً ما اختلط على الناس أمر الوزن والكثافة ، فانهم الفرق بينهما ، حتى فى أمر السوائل والجوامد . إن خواص الغازات الكيماوية مختلفة .

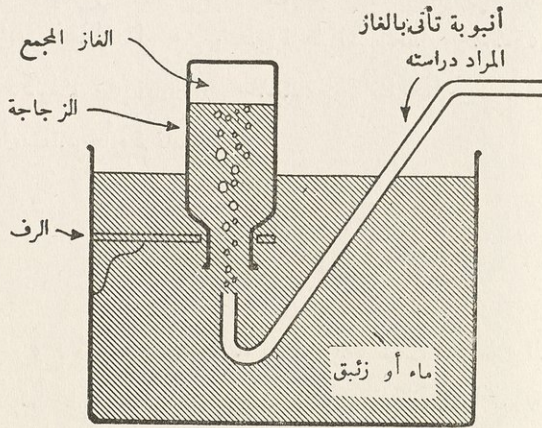
وطرق تحضيرها كذلك مختلفة . وهذه الفروق في الصفات وفي طرق التحضير هي التي أنارت الطريق آخر الأمر .

إن الذى يريد أن يدرك الصعوبات التى اعترضت الكيماويين منذ ١٧٥ عاماً ، يحسن به أن يتصور أن طالباً بادئاً من طلبة اليوم أعطى أربع قارورات ، بإحداها هواء ، وبأخرى أكسيجين ، وبأخرى أزوت ، وبالأخرى الباقية هواء به قليل من الأثير ، ثم قيل له أبين أى هذه الغازات فى أى من هذه القارورات . أنه سيدور على هذه الغازات ، ولا شك أنه متبين ذلك الهواء الذى به الأثير أول شيء ، ثم هو عاجز عن المضى وراء ذلك . فالطالب البادئ لا يدرى ما يصنع بعد ذلك . إن وسيلته فى التعرف على هذه الغازات تكون عنده بالنظر إليها ، وبشمها ، وبإجراء تجارب بسيطة عليها كمحاولة إذابتها فى الماء . والورطة التى يقع فيها هذا الطالب البادئ من هذه الغازات ، هى نفس الورطة التى وجد بها أنفسهم أهل التجريب من عهد بوييل إلى عهد بريستلى . إنهم سموا الغازات أهوية ، وقالوا إنها أهوية مختلفة ، ولم يدركوا سبب هذا الاختلاف ، أكان فى جوهر الغاز أم كان لشائبة دخلت إليه . كتب بريستلى Priestley عام ١٧٧٧ قال :

« إن فان هلمنت Van Helmont ^(١) وغيره من الكيماويين

(١) هو الكيماوى الفسيزولوجى البلجيكى (١٥٧٧ - ١٦٤٤) . جمع بين المتناقضات من قديم الفلسفة وحديثها . فبينما هو يعتقد فى حجر الفلاسفة ، إذا هو تعجبه كشوف هرقى فى الدم ، وبحوث جاليليو وآراء باكون . وكان يحسن التجربة . وهو أول من عرف أن الأهوية أنواع . وهو يدعى ابتداء لفظة الغاز .

الذين جاءوا في عقبه كانوا على علم بصفات بعض الأبخرة ، بأن منها ما يخنق الإنسان ويطفىء النار ، ومنها ما يشتعل هو بالنار . . . ولكنهم لم يكن لديهم علم بأن هذا الأجسام (إن صح عندهم حقاً أنها أجسام ، وليست « صفات » مجردة ، أو « ميول » لأجسام تُنتج هذه الآثار) تستطيع أن تنفرد بوجودها ، فتنفصل ويكون لكل منها وجوده « بخاراً » مرناً دائماً المرونة» . . . إلا بمقدار ما ينفرد معنى كالشم بوجوده. والواقع أنهم لم يعرفوا هواء غير هذا الهواء العادى ، لهذا فهم لم يطلقوا هذا الاسم على أجسام أخرى قط . . . »



(شكل ٢٥)

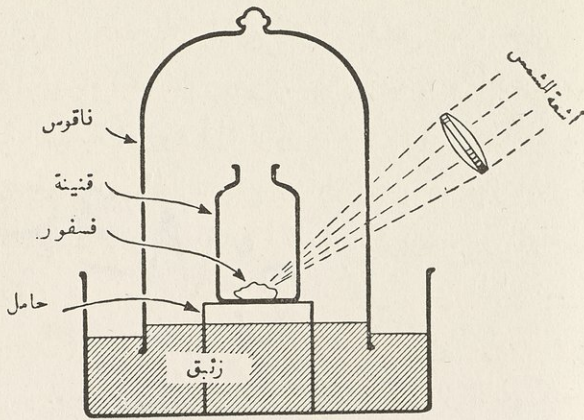
مقطع لحوض لجمع الهواء . فالزجاجة تملئ من السائل الذى بالحوض ، ماء كان أو زيتيقاً ، وذلك بتفطيسها فيه حتى لا يكون فيها شيء سوى الماء أو الزيتيق ، ثم هى تقلب ليكون رأسها إلى أسفل ، ثم تسند فى موضعها من الرف . ثم يؤقى بالغاز الذى تراد دراسته ، فيصعد إلى الزجاجة فقاقيع فيزيح ما بها من سائل .

إن بريستلي يستخدم في قوله هذا لفظ «الهواء» للمعنى الذى يُعبَّر عنه اليوم بلفظ «غاز» .

إن تاريخ بحث الغازات والتعرف عليها من بعد بوييل منذ مائة عام ، ابتدعت فيها طرق جديدة محسنة للعمل بالغازات ، ختمها بريستلي بما أجراه من تجارب مبتكرة فى «الأهوية» عام ١٧٧٢ ، زاد فيها عدّة من طرق معالجة الأهوية ، أى الغازات ، تحسیناً . ومن أشهر ما ابتدعه فى ذلك الحوض الهوائى ، وهو الحوض الذى تجمع به الغازات (شكل ٢٥) . وقبل عمل بريستلي هذا لم يكن يعرف من «الأهوية المختلفة» غير ثلاثة : فلم يمحض غير بضعة سنين قليلة حتى زادها أحد عشر «هواء» أحدها الأكسجين . وهذا مثل من خطورة طرائق العمل الجديدة ، صنّعات جديدة ، تكنيك technique جديد ، ولو أننا هنا فى هذا المثل نلتقى بصنعةٍ جاءت تدرجاً ولم تأت انقلاباً .

لافوازيه كيف اهتدى

إن المشروع التصورى الحديد للافوازيه ، ذلك الفرنسى الذى هو العلم شاباً ، بدأ على ما يظهر بتجاربه له فى حرق الفسفور وحرق الكبريت (شكل ٢٦) . كتب فى مذكرته الشهيرة عام ١٧٧٢ يقول :
« من نحو ثمانية أيام اكتشفت أن الكبريت إذا احترق لم ينقص وزنه ، بل هو على النقيض يزيد . كذلك يزيد وزن الفسفور إذا احترق . وهذه الزيادة فى الوزن تأتى من الهواء ، فإن مقداراً ضخماً منه يتشبّت أثناء



(شكل ٢٦)

رسم لجهاز يستخدم لإجراء تجربة لافوازيه التي تدل على زيادة وزن الفسفور عند التكليل. توضع قطعة موزونة من الفسفور في القارورة موزونة، ثم تغطي القارورة وما بها من فسفور بناقوس من زجاج ، وهذا يغلق الزئبق هواء الناقوس فاصلا إياه عن الهواء الجوى . فإذا أحرق الفسفور (بتركيز شعاع الشمس عليه بواسطة عدسة) تكون كلس أبيض في القارورة وارتفع سطح الزئبق في الناقوس. عندئذ تزاح القارورة وتوزن. وبهذا يثبت أن الكلس أكبر وزناً من الفسفور .

الاحتراق ويتحد بالأبخرة .

« وهذا الاكتشاف الذي أثبتته بتجارب أعتها حاسمة ساقني إلى أن أظن أن الذي حدث في حالة الكبريت والفسفور يحدث في حالة كل مادة تزيد وزناً عند ما تحترق أو تتكلس ، وأن سبب الزيادة هناك هو عين سببها هنا . . . »

فهذه ومضة من ومضات العبقرية ، برقت بخلق صورة جديدة ذهنية.

فكرة مبتكرة أى ابتكار ، أغرى بابتكارها وهدت إليها نتيجة من نتائج التجارب فذة . وهذه المذكرة التى كتبها ، لخص فيها ، بمعنى من المعانى ، كل هذه الكيمياء الجديدة . وهو كتبها ، وختمها ، وأودعها عند سكرتير الأكاديمية الفرنسية فى يوم أول نوفمبر عام ١٧٧٢ . إنه كان يدرك خطر ما أودع . والحق أن لافوازيه ظن فى أول الأمر أن الغاز الذى خرج من اختزال كلس بفحم (أعنى ثانى أكسيد الكربون ، أو الهواء المثبت فى تلك الأيام) هو نفس الغاز الذى امتصّ من الهواء عند التكلّيس (الأكسيجين) . ونحن ندرس الآن ما خلف من كراسات ، وما كتب ونشر من بعد ذلك ، فنذكر أنه ما فقه كُنه الغاز الذى تمتصه المعادن عند التكلّيس من الهواء (الأكسيجين) إلا بعد أن اكتشف Priestley هذا الغاز ، وبعد أن قام لافوازيه بإعادة بعض ما صنع بريستلى من تجارب بهذا الغاز . وعندئذ ، فقط ، اتضح الصورة ، صورة الهواء وما يجرى فيه ، كاملة . اكتملت بضم أجزاءها ، بعد تبعتها ، بعضاً إلى بعض . وتنتظر إليها بعد اكتمالها فتحس بأن الأكسيجين قد حل المكان الأوسط منها .

إن لافوازيه أدرك من أول الأمر أن شيئاً كان يؤخذ من الهواء عن التكلّيس . وهو بهذا كان يسير ، وهو لا يدرك ، فى نفس الطريق الذى سار فيه « جان راي » قبل ذلك بـ ١٥٠ عاماً ، ولم يستتمه من بعده أحد ، إلا لافوازيه . وأطلعوا لافوازيه على كتاب « راي » الذى كان قد نسي كل النسيان ، أطلعوه عليه بعد أن نشر أول نشرة عن نظريته هذه الجديدة .

وقد يطرأ تَوَّاسُؤَال على كثير من قرائنا : لماذا أدَّت دراسة الكبريت والفسفور إلى التفسير الصحيح للاحتراق ؟ ولماذا بعد أن أتم لاڤوازيه تجاربه بهاتين المادتين شرع ، تملؤه الثقة ، يجرى تجارب اختطها أخرى تجرى في سبيل من الفكر جديد ؟ إن جواب هذا سر من أسرار التاريخ ، وأُحجية ليس إلى اجتلائها سبيل . ولكن الإنسان منا يستطيع أن يحدس وأن يتظن ، وبعض الظن نافع . وإني أظن أن الجواب على هذا السؤال يجد الناظر مفتاح بابه في كلمة كتبها لاڤوازيه في مذكرته الشهيرة ، مذكرة أول نوفمبر عام ١٧٧٢ . إنها كلمة « ضخم » التي وصف بها مقدار ما ينقص من الهواء باحتراق الكبريت والفسفور فيه . فإن صح هذا ، فهذا مثل آخر يدلنا على أثر الصعوبات التجريبية العملية في تعويق التقدم العلمي ، وعلى كيف أنها تزول فينفتح الطريق إلى آراء في العلم جديدة . إن استبانة أن الهواء يزيد أو ينقص والفلزات تُكَلِّس فيه شيء ليس باليسير ، فالتكليس يستغرق وقتاً طويلاً ، وفيه تستخدم حرارة عالية ، والزيادة في وزن الفلز والنقص في مقدار الهواء كلاهما قليل . أما في الكبريت وفي الفسفور فتجربتهما كانتا سهلة الإجراء فهما يشغلان تَوَّاً إذا أشعلا . وما يحدثانه من أثر كبير . وسبب هذا ، معبرين عنه بلغة العصر الحاضر ، أن كلا منهما وزن ذرته صغير ، فالوزن الذري للكبريت ٣٢ ، والفسفور ٣١ (وهو للأكسجين ١٦) ، وعند الاحتراق تتحد ذرتان من الفسفور بخمس ذرات من الأكسجين وتتحد ذرة واحدة من الكبريت بثلاث ذرات من الأكسجين . وذرات المعادن ، ذرات الفلزات ، كبيرة ، وعدد الذرات من الأكسجين ، التي تتحد بذرة الفلز (١٧)

صغير . ولنضرب ذلك مثلاً . إن ٦٢ جزءاً (بالوزن) من الفسفور تتحد بالأكسجين فتعطي $٦٢ + (٥ \times ١٦) = ١٤٢$ جزءاً من الأكسيد ، ناتج الاحتراق . بينا القصدير تتحد ذرة منه بذرتين من الأكسجين ، والوزن الذرى للقصدير ١١٨ ، فالنتائج منه بالاحتراق $١١٨ + (٢ \times ١٦) = ١٥٠$ جزءاً من الأكسيد ، أو إن شئت فالكلس . فالقصدير لم يزد وزناً إلا بمقدار ٢٥ في المائة أو نحو ذلك . بينا الزيادة في الفسفور زادت على ضعف هذا . وهذا الفرق يظهر في حجم ما يمتص من هواء عند الاحتراق والتكليس . وعدا هذا فإن تكليس القصدير كان عملاً طويلاً تتطلب درجة عالية في فرن . ولم تكن توجد عند ذلك ، في عام ١٧٧٠ ، طريقة مرضية غاية الرضى لقياس الهواء ، كم ينقص منه عند ذلك .

القياسات الكمية والأخطاء العرضية

والواقع أن لافوازيه ، قبل أن يهيء له بريستلي سبيل الهدى بتحضيره الأكسجين من أكسيد الزئبق ، عانى عناء شديداً ، في إثباته أن المعادن تزيد وزناً إذ تتكلس في الهواء بسبب ما تمتص منه من شيء . إن طريقته في الإثبات كانت بإعادة ما كان أجراه بوييل من تجارب ببعض تعديل قليل فيها . وكل من هذه التجارب ومن التعديل الذي أدخله نافع ذكره . كان بوييل وضع القصدير في وعاء من الزجاج ثم سدّه ختماً ، ثم أحمى الوعاء الزجاجي زمنًا طويلاً في نار فحم (وهو قد نبه على خطر يتضمنه

هذا الإجراء، فالزجاج قد يفرقع فيُنسف). ثم هو أزاح الوعاء عن النار، حتى إذا برد، فتحه، ثم أعاد وزن الوعاء بالذى فيه، وبذلك عرف أن الوزن زاد. وهذه تجربة من التجارب الكثيرة المعروفة لإثبات أن الفلز يزيد وزناً عند التكليس. وليذكر القارئ أن بويل اعتقد أن زيادة الوزن جاءت من أن أجزاء النار دخلت من الزجاج إلى الفلز فزادته وزناً. قال لافوازيه: إن الذى أخطأ فيه بويل أنه وزن الوعاء الزجاجى بعد فتحه، وكان عليه أن يزنه قبل فتحه. ذلك أنه إذا صح ما اعتقد، وأن النار حقاً دخلت إلى الوعاء فزادت القصدير وزناً باتحادها به، إذأ لزداد الوزن قبل أن يفتح الوعاء ويدخل إليه جديد من الهواء. أما إن كان الأكسيجين المحبوس فى هواء الوعاء هو سبب الزيادة، إذأ لتبينا الزيادة بعد الفتح. وأعاد لافوازيه التجربة فصح ما رأى.

ولكن نتائجه هنا لم تكن حاسمة كما كانت حاسمة فى تجارب الكبريت والفسفور بسبب ما قلناه سابقاً. فالزيادة هنا كانت ١٠ أجزاء فى مجموع قدره ٤١٠٠ جزء، فى تجربة. وهى ٣ أجزاء فى مجموع مثل هذا فى تجربة أخرى. إننا ندرك الآن ما فى وزن وعاء كبير من الزجاج وزناً دقيقاً على الدقة من صعوبات. وأكبر هذه الصعوبات ما يكون على الوعاء من غشاء من ماء، من رطوبة. . . ومن أجل هذا لا نعجب إذا عرفنا من تلك التجارب الماضية أن المعوجة الزجاجية التى استخدمت - الوعاء الزجاجى - كان يختلف وزنه من يوم ليوم بما يكاد يبلغ زيادة الوزن الكلى الحادثة من التكليس فى إحدى التجريبتين المذكورتين آنفاً. إن صعوبات التجريب هذه ذات خطر عظيم. وهى تدلنى دلالة

شاهدة على أن بويل ، حتى لو أنه وزن الوعاء الزجاجي من قبل فتح
ومن بعد فتح ، لاضطربت نتائجه اضطراباً لا يكون منه إلا إحداث
البلبلة عند من يخلفه من الباحثين . إن العلم يخطو إلى الأمام ، ومن خطواته
إلى الأمام ما قد يؤسس على القياس والكم ، ولكن على شريطة أن تكون
الأخطاء في القياس ، دخيلةً أو عارضة ، صغيرة إذا هو قورنت بالشيء
الذي يقاس . ومن أجل هذا وأمثال هذا ظهر في علم الحساب فرع جديد
هو علم التقريب ، وهو يعرفنا في رقم ما ، أى أرقامه التي عليها نعلم .
وسميت بالأرقام المعنوية . وعند ها تقف الدقة ويقف الاعتماد . وتجارب
التقدير هذه ، وتجارب الفسفور ، وما كان بها من صعوبات ، شاركت
فيما شارك من أشياء ، في إظهار الحاجة إلى معنى « الأرقام المعنوية »
في الأعداد الحسابية .

النظرية الفلوجستونية : سدت الطريق دون أخرى جديدة

كثيراً ما يسمع الإنسان قوماً يقولون إن الباحثين قبل لا قوازيه لم يقوموا
بتجارب كمية تقديرية ، وأنهم لم يستخدموا الميزان ، وأنهم لو فعلوا
لاكتشفوا أن الاحتراق يصحبه زيادة في الوزن ، وإذا لأسقطوا بذلك
نظرية الفلوجستون أسرع مما فعلوا . وكل هذا كلام فارغ . فقد رأينا
أن « راي » أثبت من زمن طويل قبل أن توجد النظرية الفلوجستونية أن
الكلس يزن أكثر من الفلز الذي عنه نشأ . فلا شك مطلقاً أن تجارب
كمية كثيرة أجريت ، وتكرر إجراؤها ، ولو على غير الدقة بالدرجة المعروفة

لها اليوم . ولافوازيه كتب مذكرته الشهيرة عام ١٧٧٢ ، وأنت تحس وأنت تقرأها أن أهل زمانه كانوا يعرفون أن الفلز يزيد وزناً عند تكليسسه . فهي حقيقة عرفها الناس في ذلك الزمن . ولم يكن لها في النظرية الفلوجستونية مكان ، وما كانت لتتسق بها . ومع هذا عاشت هذه النظرية ، وذلك لفائدتها عند ذاك . وقد بلغت فائدتها حداً لم يأذن لأحد من المعارضين ، إن وجدوا ، بأن يرفع ضدها صوتاً . بل على النقيض من ذلك ، حاول من وجد بهذه النظرية شيئاً من المخاصمة لعدة من حقائق معروفة ، حاول أن يصلح بينهما ، وأن يوفق ، إيماناً بأن هذه النظرية عظيمة رائعة .

والدرس المستمد من هذا أنه من العسير على نظرية جديدة أن تزيج نظرية قائمة من مكانها لتحل محلها . فإذا هي خالفت بعض فروض هذه النظرية القائمة ، فليس معنى هذا اطراح النظرية لأول مخالفة . ولكن معناه محاولة التوفيق لإزالة هذا الخلاف ، في سبيل الاحتفاظ بالنظرية . وليس هذا المزاج أنصار النظريات القديمة ، بل هو أيضاً مزاج من يستحدث النظريات . فأصحاب النظرية الجديدة لا يقلقهم أنها تخالف بعض الحقائق المعروفة . وهم يبدأون بامتحان هذه الحقائق لعلها تكون باطلة ، أو هم يداورونها ويخاتلونها لعل الغد يأتي بجديد . وكذلك فعل لافوازيه بنظريته الجديدة ، فهو تمسك بها على الرغم من أن تجارب معروفة لم تستطع النظرية تفسيرها . ومات لافوازيه فعرف من بعده أن تفسير هذه التجارب هو الذي كان خاطئاً . ولكن في حياته ، في عام ١٧٧٠ ، لم يشك أحد في زيادة الوزن عند التكليس ، وأنها حقيقة لا مرأ فيها . وما شك أحد كذلك في أن نظرية الفلوجستون كانت تقضي بنقصه ،

لا بزيادته . أو على الأقل بثبوت الوزن إن كان الفلوجستون شيئاً لا وزن له ، كالنار .

ومن المحاولات التي بذلت للإبقاء على النظرية ، نظرية الفلوجستون ، الاحتماء من نتائج التكليس بالتخليط بين معنيين ، معنى الكثافة ومعنى الوزن . إن الكلس الناتج من الفلز كثافته أقل من الفلز . أى وزن الحجم الواحد منه أقل من وزن حجم مثله من الفلز . ولكن الوزن الناتج كله من الكلس كله أكبر من وزن الفلز الذى تكلس . وذهب بهذا التخليط بين المعنيين ، وصفى الجو ، فكر غير قليل بُذل في تصفيته . ومن هذه المحاولات محاولة كانت قصيرة العمر ، تلك فرض أن الفلوجستون له وزن ، ولكنه سالب . وهو فرض يرينا مقدار ما يبذله الباذلون ليوقفوا بين حقائق جديدة ورأى قديم ، بتعديل هذا الرأى بكل فرض عجيب . ولم يأخذ هذا الفرض بيد النظرية ، نظرية الفلوجستون ، فيخطو بها خطوة إلى الأمام . إنه إن كان خطابها فهو خطأ إلى الخلف عدة من خطوات . فالذى اكتسبته النظرية من هذا الفرض أنها استقامت بالذى خرج به الميزان في تلك التجارب من أوزان . ولكن ما هذا الجسم ، ما هذا الشيء الذى إذا أضيف إلى الشيء وزن نقص من وزنه ؟ إنها إضافة بالطرح . إن النظرية بهذا الفرض خسرت كثيراً . . خسرت ثقة الناس . ولم يقبل هذا الفرض من الناس إلا قلة . وقد نضحك اليوم مما كان يفكر الباحث من أهل القرن الثامن عشر . ولكن قبل أن نضحك ملء أفواهنا يجب أن نذكر أنه ، قبل القرن التاسع عشر ، حسب الناس الحرارة مادة مجسمة وبقيت النظرية الذرية الجزيئية للمادة بعيدة في الأفق تريد أن تُشرق ولا تكاد .

إن الحقائق الكمية التقديرية التي أخرجها تكليس المعادن ، والاختلاط الذي سببته هذه الحقائق ، والتعارض الذي قام بين هذه الحقائق والنظرية الفلوجستونية ، قبله أهل ذلك العصر ، ورضوا به ، على أنه شيء من تلك الأشياء التي تقوم ، والنظرية قائمة ، فلا تجد موضعاً لنفسها فيها . وهذا القبول ، وهذا الرضا ، في مثل تلك الحال ، لم يكن سمة هذا العصر وحده . وهو أكثر شيوعاً في العلم مما يحسب الحاسب . بل هو موقف لا بد للباحث في وقوفه من أى فكرة مستجدة وهي في بعض أدوار نشأتها . ورجل العلم ذو الفكر الثاقب ، وذو العبقرية الحقة ، يحتفظ دائماً أمام عينه بتلك الحقائق الثابتة ، التي لا تأتلف والنظرية القائمة ، حتى إذا جدّ من كشف العلم ما يلتقي ضوءاً على تلك الفرقة والنفرة ، أوجد من طرائق العمل ما يفتح الطريق إلى حل ذلك المعضل ، وإيضاح ذلك المشكل ، فكان أسرع رجل إلى المعضل بالحل ، وإلى المشكل بالإيضاح ، وإلى الفرقة والنفرة بإزالة أسبابها . رجل كهذا هو السابق وهو الظافر وهو رب الثورة الخيرة التي تجود وتثمر . وهو الرجل الفذ الذي يجمع بين العلم والفظانة . يجمع بين المعرفة وكيف تساس الأمور . وهو بدبّر ويخطط ، ويهدف إلى النصر بالكر والفر . وهو تدبير وتخطيط ، وكر وفرّ ، تتألف منه قصة أنفع ما تكون للذي يريد أن يفهم العلم من زاويته التاريخية .

اكتشاف الأكسجين

قد يكون من عون القارئ الذى يعرف قليلا من الكيمياء ، أو لا يعرف شيئاً ، أن نقف الآن وقفه قصيرة نلخص له فيها تلك الخطوات التى خطتها آراء لافوازيه حتى اكتملت . وأول خطوة كانت على ما يظهر ، تلك الفكرة الأولية الأساسية التى وقعت من نفسه فأدرك بها أن شيئاً ما من الجو يمتص إذا ما تكلّس معدن ، أو احترق فى الجوّ محترق . وكانت الخطوة الثانية بحثاً عن هذا الشئ . وكانت الخطوة الثالثة إدراك أن كلاً من أكلاص هذه المعادن ، هذه الفلزات ، وهو أكسيد الزئبق الأحمر ، قد يكون فيه الطريق إلى كشف هذا الشئ المجهول . وكانت الخطوة الرابعة تحضير الأكسجين من أكسيد الزئبق هذا والفضل فى تبيين أن هذا الغاز ليس فقط هواء جويّاً معتاداً زيد نقاوّه ، بل هو أكثر من هذا وأخطر . وكانت الخطوة الخامسة نشرة بريستلى التى تذكر الأدلة على أن الغاز الذى خرج من أكسيد الزئبق لم يكن هواء عادياً بل كان شيئاً جديداً . وكانت الخطوة السادسة أن أدرك لافوازيه فى سرعة البرق خطأ ما كان أجرى من تجارب ، ثم إدراكه بعد ذلك أن الجزء من الهواء الذى امتصه التكلّيس والاحتراق لم يكن إلا هذا الغاز الحديد . هذا الأكسجين . وبهذه الضربة الأخيرة ، هوى لافوازيه بعرش الكيمياء القديمة . ثم جرت الأحداث بعد ذلك مجرى طبيعياً ، كالقصة يمهد حدث فيها الطرفين

إلى حدث (ولو أننا سنرى أن قبول الآراء الجليدية ، وترك النظرية الفلوجستونية القديمة ، لم يقعا تواءً) .

فهذه الخطوات الست التي خطتها أبحاث لافوازيه ، من عام ١٧٧٢ إلى عام ١٧٧٧ ، ذات نفع ، وذات متعة ، لكل من يريد أن يطالع على رأس الرجل العبقرى كيف يعمل . إنه قل أن يجد طالب التاريخ فرصة كهذه يرى فيها ما يسبق ، في كل ثورة علمية ، وانقلاب فكري ، من وحى يغلب تارة ، ومن منطق صارم يغلب مرة أخرى . إن لافوازيه كان شاباً ذا ٢٩ عاماً عند ما درس احتراق الفسفور والكبريت . وكان ثرياً ، وكان من رجال المال . وليس من يدري ما الذي أغرى هذا الشاب الثرى بأن يختار هذا الباب خاصة لبحثه . ولعله كان بسبيين ، أولهما أن البحث في الغازات كان مشغلة الساعة ، والنقاش في نظرية الفلوجستون كان حديث الناس . وكان لافوازيه قليل الخبرة بالتجريب العلمي ، ولا شك في هذا . بل إن بعض ما ادعاه في مذكرته المحتمومة الأولى ، مذكرة عام ١٧٧٢ ، كاد أن يكون خطأ . وهو لم يعد من بعد ذلك يتحدث عن زيادة في الوزن تحدث عند إحراق الكبريت . والمتأمل في بعض ما قال لا يلبث أن يسائل نفسه كيف أثبتته وأجراه . على أنه من بعد هذا التاريخ أخذ نفسه بالمران على الصنعة الجليدية التي عمل بها البحاث في الغازات ، وهي طرائق في العمل يعود فضل إيجادها وتجويدها على الكثير الأكثر إلى مجهودات بريستلي . وأعاد لافوازيه إجراء كثير من التجارب التي كان أجراها هذا القس الإنجليزي وذلك الأستاذ الإسكتلندي الشهير ، الأستاذ چوسف بلاك ، وأغلب الظن أنه تعلم من هذا الأستاذ

ما في وزن الأجسام قبل أن تتفاعل من ضرورة ، كذلك وزن نتائجها من بعد تفاعل .

إن من الناس من يقول أحياناً إن لافوازيه أدخل إلى الكيمياء الميزان ، وأدخل استخدامه ونظمه ، وليس هذا الزعم صحيحاً كل الصحة . وإن كان لا بد من ردّ الشرف في هذا إلى أحد فهو يردّ إلى جوزيف بلاك . ومع هذا فقد ألح لافوازيه من أول حياته العلمية في القول بضرورة مراعاة العلاقات الوزنية بين الأشياء . قرأت لأحد مؤرخي حياته يتحدث عن لافوازيه ويقول إنه كان عضواً ناجحاً في شركة عملها جمع الضرائب للملك ، وهو يبرز هذه الحقيقة إبرازاً ، ويقول إن لافوازيه طبق ما تعلم في هذه الشركة المالية التجارية من قواعد على ما قام فيه من علم . والحق أنه كان أول من أدخل إلى الكيمياء تلك القاعدة التي ارتفعت إلى مرتبة البداهة عند من تبعه من الكيماويين إلى اليوم ، تلك التي تقول إن مجموع أوزان الهواء المتفاعلة ابتداء تساوي مجموع المواد الناتجة أخيراً . فهذه موازنة لا شك كتلك التي نجدها في دفاتر الحاسبين في الشركات . وصح مؤرخه إذ لفت النظر إليها . والحق أن الذي يقرب بين نجاح لافوازيه في تجاربه (من بعد اكتشاف الأكسيجين) وبين ما قام في سبيل بريستلي من بعد ذلك من صعوبات ظلت تتزايد ، يدرك أن سبب نجاح هذا وتعثّر هذا يرجع إلى أن الأول استخدم قاعدة الحاسبين هذه المذكورة : أن ما على اليمين في صفحة الحساب يجب أن يساوي ما على يسارها . على أن الميزان لم يدخل في تلك الأزمات الأولى من البحث المؤدى إلى نظرية الاحتراق الجديدة إلا فيما قال لافوازيه من وصف ما شاهدته

من احتراق الفسفور إذ قال : إن المقدار الذي أخذه الفسفور من الهواء كان « هائلا » . والواقع أنه يجب أن يُنظر ، فيما نحن فيه ناظرون ، إلى الصعوبات التي وقعت في تفسير نتائج تجارب ، قدّرت نتائجها تقديراً لا دقة فيه ، وكانت الأشياء المقدمرة غازات ، أى أحجاماً وليست أوزاناً . ولكن قبل ذلك لا بد من ذكر حقيقة كيمائية ذات بال ، هي أنه في عصر لافوازية لم يكن يعرف إلا فلز واحد ، يُحمى في الهواء فيتكلس ، أى يتأكسد ، ويأخذ أكسيجيناً من الهواء ، فإذا هو أحمى إحماء أشد ، أعطى ما أخذ من أكسجين . وكان هذا الفلز هو الفلز السائل ، الزئبق . وهذه حقيقة للتاريخ هامة لا شك فيها ، ولكنها فوق ذلك تؤكد ما للمواد واختيارها وتوافقها من خطر في البحوث الكيمائية ، وفي تصعيها أو تسهيلها البحث الجارى . وهو خطر ظهر كثيراً في بحوث الكيمياء ، فكثيراً ما كان الفضل في تقدم بحث ما يعود إلى الوقوع على العنصر أو المركب الملائم للمسألة القائمة ، تماماً كما حدث في الطبيعة ، لما كان النجاح فيها كثيراً ما يعود إلى تحسين في آلة أو جهاز .

إن المرجح أن لافوازية عرف أن الطريق إلى النجاح سبيلة درس هذا الأكسيد عن طريق بريستلى . ذلك أن بريستلى ، في وليمة تاريخية أقيمت في باريس ، أخبر لافوازية أنه سخن مسحوقاً أحمر (كلس الزئبق) فأخرج منه غازاً أمكن إشعال شمعة فيه . ولكن بريستلى كان يحسب عند ذلك أن هذا الغاز هو « الغاز الضحاك » ، وهو أكسيد من أكاسيد الأزوت يشترك مع الأكسجين في هذه الخاصة ، أن الشمعة فيه تشتعل ، وتشتعل أشد من اشتعالها في الهواء . ولكننا هنا ليس من همنا أخطاء

بريستلى ، فأخطر منها لدينا الآن أخطاء لافوازيه . إن لافوازيه ، من بعد حديث بريستلى وإياه على تلك المائدة الباريسية بعدة أشهر ، حضر غازاً من تسخين أكسيد الزئبق الأحمر . وبحث أمر هذا الغاز وأثبت أنه ليس بغاز ثانى أكسيد الكربون (الهواء المثبت كما كان يسميه أهل ذاك العصر) . وقد عانى لافوازيه عناء غير يسير لإثبات ذلك ، لأن كيمائياً فرنسياً آخر كان قبيل ذلك أجرى تجربة زعم فيها أنه إذا سخن أكسيد الزئبق الأحمر ، بقى منه الزئبق ، وخرج غاز كان عنده هو «الهواء المثبت» . إن التجريب بالغازات لم يكن عند ذاك أمراً سهلاً .

حصل لافوازية فى عام ١٧٧٧ على بغيته العظيمة التى طلبها منذ عام ١٧٧٢ ، ولكنها ما كادت تستقر فى يده حتى زلّ . إن الغاز الذى أثبت أنه ليس بثانى أكسيد الكربون ، لم يكن حقاً ثانى أكسيد الكربون . وهو بهذا أكد ما قاله له بريستلى شفاهاً فى باريس «إن هذا الغاز لا تنطفى فيه شعلة الشمعة ، ولا الأشياء المحترقة ، بل تزيد شعلتها . . . ويخرج منها من الضوء فوق ما يخرج وهى فى الهواء» . وهو لم يذكّر حديث الرجل الإنجليزى قط . وهولو وقف عند هذا الحد لاهتدى إلى النتيجة الصحيحة ، أن هذا الغاز الذى وجد غاز جديد . ولكنه استخدم طريقة للكشف كان ابتدعها بريستلى من بضع سنوات ليتعرف بها تعرفاً تقريبياً عن «طبيعة» الهواء الجوى . أى أنه عند إجرائها يعطى مع الهواء الذى أفسد بالأحراق فيه أو بتنفس الحيوانات فيه نتيجة غير تلك التى يعطيها مع الهواء وهو صالح لم يُمس . وإذا ما خلط هواء فاسد بهواء صالح أعطى المزيج نتيجة بين هذه وتلك . وتختلف النتيجة درجة ومقداراً بمقدار ما فى الهواء الصالح

من هواء فاسد . وشرح هذا الكشف فوق ما يتسع له هذا الكتاب ، لأنه أعقد من أن يتضمنه . (إنه يتضمن تفاعلا بين أكسيد النريك والأكسجين ، يعقبه امتصاص النتائج بالماء) . وهو في كل هذا اعتمد على الخبرة أكثر من اعتماده على أى شىء آخر . فبريستلى ، وكانت لغته النظرية الفلوجستونية ، كان يتحسس الحقائق فى ظلام .

إن طريقة الكشف هذه ، صادف أنها إذا طبقت على الهواء العادى أوعلى الأكسجين النقى جاءت منهما نتيجة تكاد تكون واحدة . فهذا الغاز الكاشف (أكسيد النريك) إذا أضيف بنسبة ما إلى الهواء ، انتهى الأمر بأن يحدث فيه نقصاً يساوى تقريباً مثل حجم هذا الغاز الكاشف المضاف . وهكذا يفعل إذا هو أضيف إلى الأكسجين النقى ، يحدث فيه آخر الأمر نقصاً يساوى حجمه تقريباً . ونقول تقريباً ، لأن هناك فرقاً ، ولكنه فرق عجز لافوازيه عن استبانته ، أو إن هو استبانته ، فقد فوتته ليصل أول واصل إلى الأكسجين ليستتم كشفه ، ويكشفه على حقيقته . ولهذا فقد أعلن أن الغاز الذى يخرج من كلس الزئبق الأحمر ينقص بتطبيق كاشف بريستلى عليه ، أى أكسيد النريك «بمثل المقدمار الذى ينقص به الهواء العادى» إذا طبق هذا الكشف عليه . وقال « وكل هذه الظروف أقنعتنى بأن هذا الهواء (يعنى الأكسجين) ليس بالهواء العادى ، ولكنه هواء أقبل للتنفس ، وأقبل للاحتراق ، وعلى هذا فهو أتقى من الهواء الذى نعيش فيه » .

وفى نفس الوقت الذى كان يقول فيه هذا لزملائه فى باريس ، كان

بريستلى مشتغلا كذلك بدراسة هذا الغاز الذى يخرج من أكسيد الزئبق الأحمر عند إحمائه . وكان عندئذ قد تكشف له خطأه فعرف حقيقة الغاز الضحاك . ولكنه ضل عن الطريق السوى ، كما ضل لافوازيه ، بنفس الكشف والكاشف الذى ابتدعه لمعرفة « الهواء الطيب » ومقدار ما فيه من طيبة . ثم هو وقع فى سلسلة من وقائع غريبة يطول ذكرها قادته أخيراً إلى امتحان الغاز الذى كان يتخلف من الهواء العادى ، أو من ذاك الذى يخرج من إحماء كلس الزئبق ، بعد امتحان « طيبته » بهذا الكاشف الذى ابتدع . وما فعل حتى عرف أنه أمام شىء جديد . فالتفاعلات الكيماوية التى تراءت من وراء تجارب بريستلى التقريبية كشفت عن أن النقص الحادث من جراء تطبيق هذا الكاشف فى الهواء ، وفى غاز الكلس الزئبى (الأكسيجين) ، واحد . ينقص الهواء مثل الحجم الذى ينقصه الغاز الناشئ من إحماء الكلس . ولكن ما بال ما تبقى منهما بعد نقص ؟ إنهما مختلفان كل اختلاف ، يدل على هذا إدخال شمعة موقدة إليهما . فى أحدهما تنطفئ الشمعة ، وفى الآخر تسطع أشد مما سطعت . ذلك أن الذى تخلف من الهواء أزوت . أما الذى تخلف من الأكسيجين . فأكسيجين . وهكذا اهتدى بريستلى إلى سر متاعبه .

إن الكشف الحقيقى للأكسيجين يعتبر عادة أنه وقع فى مارس عام ١٧٧٥ ، عند ما عرف بريستلى أن الغاز المنبعث من أكسيد الزئبق الأحمر غاز جديد . وما جاء أغسطس من ذلك العام حتى كان بريستلى قد قرأ مذكرة لافوازيه ، مذكرة عيد الفصح Easter memoir ، وكانت مجلة علمية قد نشرتها بطريقة غير رسمية . وما قرأها حتى أدرك

الغلطة الى غلطها الفرنسى الشاب ، وذكر ذلك فى كتاب كان هو قائماً بنشره . وأدرك لافوازيه غلطته ، ولكن مما لا يكاد يكون فيه شك أن لافوازيه ما أدرك خطأه إلا بعد أن أعلن بريستلى كشفه الحديد وانكشاف طبيعة هذا الغاز ، غاز الأكسيجين . وأدرك لافوازيه غلطته ، فما أسرع ما أصلح موقفه منها . وعند ما أخذت الأكاديمية الفرنسية فى طبع مذكرته « الفصحية » كان قد اتضح كل شىء . وعمد هو إليها قبل أن يتم طبعها ، وبجرات من جرّات قلمه الماهر أصلح منها ما وجب إصلاحه ، وخرجت هذه الوثيقة فى ثوبها الرسمى ، عام ١٧٧٨ ، وليس فيها ذكر ، لا للغلطة التى غلطها لافوازيه ولا للعون الذى جاد له به بريستلى تطوعاً ومن غير سؤال . إن الأخلاق تغيرت الآن عما كانت عليه فى القرن الثامن عشر . فالיום يتحرج الباحث أن لا يذكر عوناً جاءه ، ولو شفاها ، أو نشرة علمية سبقته إلى شىء من أبحاثه .

إن القصة المفصلة لنظرية لافوازيه ، وكيف تدرجت حتى نصجت ، نضرب لنا مثلاً من العقول الكبيرة كيف تتعثر فى السبيل إلى غاياتها تعثراً كبيراً . والذى بقى من القصة ، قصة الثورة الكيماوية ، هو أيضاً يحتوى ذلك الطراز المتكرر الذى نجده كلما درسنا تقدم العلم كيف وقع : مشروع تصورى قائم مستقر ، يقوم يسد الطريق على مشروع تصورى جديد . وتحدث بينهما مناقشات . فيقوم نفر من المحافظين المدافعين عن النظرية القديمة فيرقعون ما ظهر فى ثوبها من خروق . ثم لا يكون من ذلك إلا تأخير الأجل المحتوم ، كما حدث فى النظرية الفلوجستونية . ولكن الشىء الغريب الجدير بالملاحظة فى موقف كهذا أن كلا من الجانبين ، فى

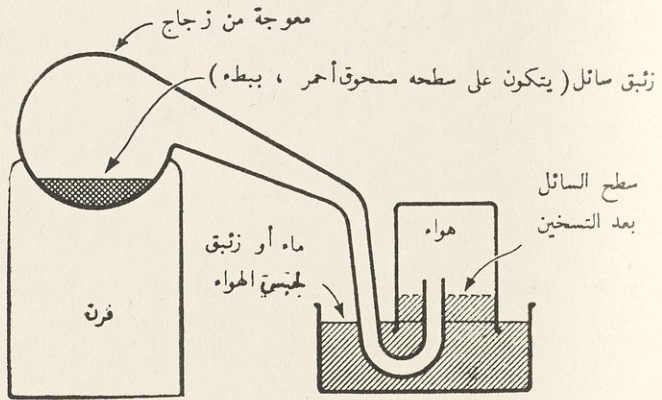
مصارعة كهذه ، يُنحى جانباً تلك الحقائق التي لا تتفق وحجته . ولكن أشد من هذا غرابة وجدارة بملاحظة أن التاريخ قد يصوب من تعسفوا فنحوا هذه الحقائق اعتباراً .

آخر موقف وقفته نظرية الفلوجستون

ما جاءت سنة ١٧٧٨ حتى كان لافوازيه قد أوضح للعالم العلمي ذلك الدور الذي يلعبه الأكسجين في الاحتراق . وكانت تجربته التاريخية ، تلك التي كثيراً ما توصف في كتب الكيمياء الأولية ، هي هذه : يسخن الزئبق في الهواء العادي فينتج مسحوقاً أحمر (هو أكسيد الزئبق في تسميتنا الحاضرة ، وهو كلس الزئبق في لغة القرن الثامن عشر) . وإذا سخن الزئبق هكذا في حيز محدود من الهواء اختفى خمس هذا الهواء (شكل ٢٧) . والمسحوق الأحمر يزن أكثر من الزئبق الذي منه نتج . إذا فشيء من الهواء اختفى ليتحد بالزئبق لينتج المسحوق الأحمر . ثم يحمى هذا المسحوق الأحمر ، هذا الأكسيد أو هذا الكلس ، ويحمى شديداً . وهو يحمى في حيز مغلق بأشعة من الشمس تركّزها عليه عدسة كبيرة (زجاجة محرقة) ، فيخرج منه غاز ، ويعود الزئبق زئبقاً كما كان (شكل ٢٨) . أما هذا الغاز فهو هذا الشيء الذي كان اختفى من الهواء ، لأن مقداره هو مقدار ما اختفى . وأما الزئبق فعاد إلى وزنه الأول ، وبذلك نقص الكلس بمقدار ما كان زاد . وهذا الغاز الحديد (الأكسجين) إذا خلط

بالهواء المتخلف من العملية الأولى تكون منهما مزيج يطابق الهواء العادي كل المطابقة .

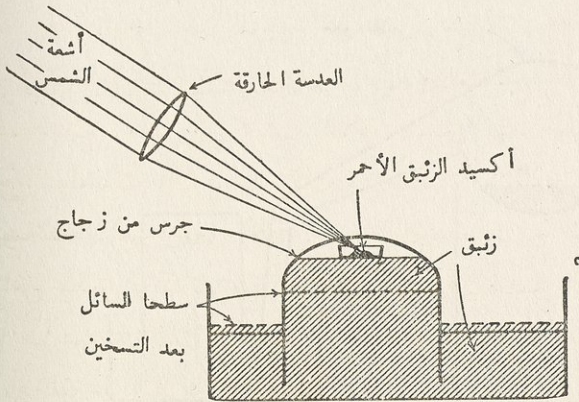
إن هذه التجارب بسيطة ، والحجة التي تحتويها واضحة (بالطبع لافوازيه لم يقف عند الزئبق ، بل مدّ في نظريته لتشمل أشياء كثيرة أخرى) . ومع هذا ، فهذا المشروع التصوري الجليل لم يتلقه الناس بالتهليل والتكبير . إن نقيض ذلك هو الذي وقع . وكان على لافوازيه أن يتابع الحجة بالحجة ليقنع ويُسكت . وكتب كتاباً سماه «خواطر في الفلوجستون» Reflections on Phlogiston ، نشره عام ١٧٨٣ . وفي هذا الكتاب عرض الحجج المؤيدة لنظريته ، وأثبت أنه لا حاجة إلى الفلوجستون أبداً . وكسب زملاءه الفرنسيين واحداً بعد واحد ، وامتنع



(شكل ٢٧)

رسم يوضح تجربة لافوازيه التي تدل على أن الزئبق إذا سخن في الهواء امتص من أكسيجينه

عليه بريستلي Priestley ووط Watt وكافندش Cavendish وعشرات آخرون بقوا على عهدهم بالفلوجستون ونظرية الفلوجستون . بل لقد جاء هذه النظرية آخر الأمر رفق من حياة أطال في عمرها ، أطاله تجارب أجريت على غاز الأدرجين . وكان كافندش هو الذى زج بهذا الغاز أول مرّة ، حتى بلغ الصف الأول من المناقشات العلمية . كان ذلك عام ١٧٦٦ . ووجد فيه بعض أصحاب الفلوجستون أنه المادة المطلوبة من زمان بعيد . إنه الفلوجستون . أو هو على الأقل الفلوجستون متحداً بالماء . فالغاز احترق بسهولة ، وهم لم يدروا عندئذ ما تكون منه عند الاحتراق (وكان عند الفلوجستونيين لا شك الجواب . أن الفلوجستون اتحد بالهواء الذى احترق فيه) . ولكن فى نحو هذا الزمن كان تركيب الماء قد



(شكل ٢٨)

رسم جهاز لتسخين أكسيد الزئبق الأحمر ، وجمع الأكسجين الناتج

اكتشف بالذى أجرى كافندش (١٧٣١ - ١٨١٠) من تجارب ، أعادها توالافوازيه . والمؤرخون يختلفون فيمن يُعزى إليه هذا الكشف العظيم ، كشف أن الماء يتركب من أدروجين وأكسجين ، بنسبة ١ إلى ٨ وزناً . ويتنازع شرف سبق إليه كل من بريستلي ، وكافندش ، ولافوازيه ، وجميز وط .

وبهذا الكشف ، كشف أن الأدروجين إذا احترق في الهواء كوّن الماء ، تمت نظرية لافوازيه . فالماء صار أكسيد الأدروجين . ولم يلبث لافوازيه أن استنتج من هذا أن الفلز إذا سخن في بخار ماء ، تأكسد ، ونتج عن ذلك كلس الفلز ، أى أكسيده ، وأدروجين . وأجرى التجربة ، وصار حقيقة ما كان عنده ظناً . وعكس هذا التفاعل أثبت أيضاً في نفس الوقت تقريباً .

أدروجين + أكسجين = ماء

تسخين بخار ماء مع فلز = كلس (أكسيد) + أدروجين

وهذه النتائج كلها التي أثبتت علاقة ما بين الماء والأدروجين والأكسجين والفلزات والأكاسيد كان من شأنها أن تذهب بالنظرية الفلوجستونية ذهاباً لغير رجعة . ولكن حدث أن هذه النتائج أحدثت في بعض الناس عكس ما كان يتوقع ، لعدة سنين . فإن أنصار الفلوجستون استطاعوا أن يفسروا كيف أن الكلّس يزيد وزناً على الفلز . وفسروا هذا بتعديل أدخلوه على النظرية الفلوجستونية جوهره هذا : بدلا من اعتبار الكلّس أبسط المواد ، اعتبروا أنه مركب من الماء « والتراب الخالص » ، وأن الفلز نتيجة اتحاد الفلوجستون والتراب الخالص .

والتكلس كما تتصوره النظرية الفلوجستونية والقديمة هو هذا :

الفلز يسخن في الهواء ← كلس + فلوجستون (إلى الهواء)

والتكلس كما تتصوره النظرية الفلوجستونية المعدلة هو هذا :

(أ) فلز يسخن في الهواء ← تراب نقي + فلوجستون (إلى الهواء)

(ب) تراب نقي + ماء من الهواء ← كلس .

ونظرة إلى هذا في شيء من التأمل تقنع القارئ بأن هذه التصورات

يمكن بناء عليها إثبات أن الكلس أكثر وزناً من فلزه . لأن التغيير الأول

(أ) ، إن نقص فيه الوزن بسبب خروج الفلوجستون من الفلز ، فإن

التغيير الثاني (ب) يقضى بزيادة الوزن بسبب ما امتصه «التراب النقي» من الماء .

وهذه الزيادة في الوزن في هذه الخطوة الثانية، افترض افتراضاً ، وبدون

علة ، أنها أزيد مما نقص من وزن في التغيير الأول (أ) . والنتيجة العامة

زيادة في الوزن عند التكليس . إنه من السهل دائماً أن يوفق المرء بين نظرية

قديمة وما يستجد من حقائق بأن يفرض من القروض الخاصة ما يكفي

لإيجاد موضع لهذه الحقائق تستقر فيه من النظرية . وإني بهذه المناسبة

مناسبة التحدث عن هذه الوقفة الأخيرة التي وقفها هذه النظرية قبل أن

تموت ، أذكر القارئ بالقول الذي كثيراً ما يردد « بأن الميزان ما كاد

يدخل الكيمياء حتى أسقط النظرية الفلوجستونية » ليدرك معي أن كثيراً

من الأقوال التي تقال فيها من المبالغة الشيء الكثير .

إني أشرت فيما سبق إلى أن العلماء كثيراً ما يميلون ، في مناقشة مسألة

إلى إغفال حقائق تقوم عقبه أو عقبات في سبيلهم . ولكن الأيام تمر من

بعد ذلك ، فأحياناً تحكم على عمل كهذا بالغباء ، وبالغفلة ، وأحياناً

بصدق الإيحاء والحكمة . ومن الأولين الذين وقفوا بعد عام ١٧٨٠ يدافعون عن النظرية الفلوجستونية ضارين صفحاً عن حقائق كثيرة ، أو هم يبتدعون افتراضاً لساعتهم من بعد افتراض يوفقون به ويرقعون ، صاحبنا بريستلى . فهو ظل يفعل هذا إلى أن مات في عام ١٨٠٤ . ومن الآخرين لا فوزيه ومن اتبعوه ، فهم كثيراً ما هزوا أكتافهم كلما واجههم بريستلى بحقائق لم يستطيعوا تفسيرها . وقد أصدقهم التاريخ فيما فعلوا ، ولعل هذا كان لحس إبحائي داخل في لا فوزيه كان به يفرق بين ما يوثق به من التفاعلات الكيماوية وما لا يوثق . إن هذا الحس وتلك البصيرة الناقدة لعبت أدواراً كبيرة في تاريخ الكيمياء والكيمياء الحيوية . والأمثال في عصرنا هذا كثيرة . ولكن بدل الدخول في معقدات الكيمياء الحديثة أرى من الأوفق أن أقول كلمة أخرى عما زعم بريستلى من حقائق .

يجب أول كل شيء أن نذكر أن بريستلى آمن بكثير من التجارب ، وكثير مما لاحظ من أمور . وهو قد استدرج من تجربة إلى تجربة حتى دخل غابة ذات أدغال يضل داخلها فلا يدري كيف يعود . وفي هذا عبرة لبحاث اليوم الذين يبحثون في حقول لا تزال طبيعتها التجريبية هي الغالبة . ومهما يكن من ذلك فإن من النافع أن نذكر أن لا فوزيه التزم بحث أكسيد فلزي واحد يعطى نتائج حاسمة لا انبهاً فيها ، ومع هذا ظل يجرب طويلاً بأكاسيد أخرى لا تخضع في أغلب الأحيان للوزن والقياس . وهذه الأكاسيد الأخرى من الصعب الحصول عليها نقية ، والنقاء شيء ضروري للكيمياء . وهنا يطل بقرنيه صديقنا القديم ، « العامل المتغير » الذي لا يمكن التحكم فيه . وأعان بريستلى في معارضته

لاقوازيه ثروة^١ لديه عظيمة من الحقائق ، وهو لم يعلم أن يجد من بينها « حقيقة » يناهض بها لاقوازيه ويناصر بها النظرية الفلوجستونية . مثال ذلك أنه ما فتئ يدعى أن من اكاسيد الفلزات ما كان يعطى « هواء مثبتاً » fixed air (ثانى أكسيد الكربون) عند التسخين . وهذا صحيح . ولكنه صحيح بسبب أن هذه الأكاسيد كان يخاطها شيء من الكربونات . إن نقاء المواد ضرورى لرجل الكيمياء ضرورة سيطرة رجل الطبيعة ، رجل الفزياء ، على العوامل المتغيرة فى تجاربه ، كالضغط و كالحرارة . وأدلة النقاء لم تيسر لإارويداً رويداً ، من بعد أن قبل الناس ما قال لاقوازيه عن صفحة الحساب عند الحاسيين ، لا بد أن يتوازن ما على يمينها وما على شأها ، وأن يوازن الإيراد النفقات بإضافة الرصيد . والتجريب الوصفى ، بمواد ليست بذات نقاء ، يؤدى فى أغلب الأحوال إلى الخلط والتخليط . وأفاد بريستلى ، وهو رب المداورة والمحاورة ، من هذا الخلط والتخليط ، وكثيراً ما كان من أصحابه فى غير وعى منه .

إن اثنتين من الحجج التى احتج بها بريستلى على لاقوازيه بنيتا على خطأ فى التعرف على غازين مختلفين . ولم يستطع لاقوازيه ولا أتباعه إدراك هذا الخطأ ، وهذا دليل آخر على صعوبة التجريب عند ذلك . أهمها غازان ، كلاهما يلهب ، أحدهما أول أكسيد الكربون ، والثانى أدروجين ، ضلّ عن معرفة حقيقتيهما حتى ذلك البارح المحنك الكبير فى تجارب الغازات . وافترض بريستلى أن الغازين غاز واحد ، ثم طلب من لاقوازيه أن يفسر بعض ما يحدث لهما أو منهما بكيميائه الجلميدة . ويعجز لاقوازيه طبعاً ، فيجىء بريستلى فيفسر ما استغلق على لاقوازيه ، وذلك

بالنظرية الفلوجستونية ، بعد أن التوت ثم التوت لتواجه حقائق جديدة فتسقى معها . وظلت حقيقة الغازين مجهولة بعد أن قُطع رأس لافوازيه بزمن طويل . وهو في حياته لم يستطع أن يرد أثقل حجج بريستلي فيدفع بذلك عن نظريته . وكل ما صنع أن أغفل ما أورد بريستلي من حقائق مزعومة ، تماماً مثل ما فعل بريستلي بتجارب لافوازيه ، فهو أيضاً أغفل الكثير منها إغفالاً . واعتقد كل منهما أنه لا شك قادر على الدوران حول هذه العقبات . وتحقق أمل لافوازيه فيما اعتقد ، وخاب أمل بريستلي . وهكذا العلم ، وهكذا مسيره . ومن سوء فهم العلم أن نقول مع بعض من يكتبون عن المنهج العلمي إن النظرية العلمية تقوم أو تسقط بناء على تجربة واحدة تثبت صحتها أو يثبت بطلانها .

فدراسة سقوط النظرية الفلوجستونية لا تتضمن دراسة تاريخ شيء واحد بل تاريخ أشياء . وفيها تتمثل الثلاثة المبادئ التي نوهت بها في مكان سابق من هذا الباب . والخطوات الصعبة التي تخطوها النظرية إلى ختامها ، وهي تتخرج رويداً رويداً من نتائج التجارب والملاحظات ، كل هذه تتمثل أمام أعيننا مما تسجل في التاريخ : خواطر من لمعات الفكر ، ونقاش بالمنطق يقصر أو يطول ، وعثرة من بعد عشرة ، وكل هذا مختلط في مزيج غريب . ودراسة هذه النظرية ، نظرية الفلوجستون ، ترينا كيف تسد نظرية قديمة السبيل على أخرى جديدة . وبتتبعنا تجارب الغازات والتكليس ، وتتبع مجراها في التاريخ ، أدركنا أنه لا بد من نضوج الزمن لكل جديد ، ليقبل ، لينفع ، وليثمر . كذلك أدركنا من هذه القصة الطويلة كيف يكون الكرّ والفرّ ، بين العلماء ، وما أداة تنفع

عند الخصومة وما أداة لا تنفع ، وكيف يتأثر الاشتباك الفكري بما ينشأ من ظروف . وأدركنا أثر الصنعة الحديدية — طريقة للعمل جديدة — كيف يكون . وأدركنا صعوبة التجريب كيف تكون . وأدركنا قيمة التجربة يتحكم مجريها في عواملها المتغيرة ، وأدركنا كيف تنشأ من التجارب صور للفكر جديدة . كل هذه أمثلة مما يجده القارئ في هذا الباب ، وهو باب من التاريخ قليل الذكر عند الباحثين .

النظرية الذرية الكيماوية ، كيف نشأت

أريد أن أختم هذا الباب بأن أذكر في اختصار كيف نشأت ونمت النظرية الذرية من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٨٦٠ . وللقارئ من هذا فائدتان : أولاً أن يرى القارئ كيف أن لا قوازيه ، بعد أن صنع ما صنع ، وصنى الجو ، وأدخل إلى الكيمياء الطرائق التقديرية ، ظلت الكيمياء في حاجة إلى مشروع نظري كبير يضم أشتات ما تفرق في الكيمياء من حقائق ، ويدخل إليها شيئاً من التنظيم لتتنسق جميعاً في نسق واحد . في نظرية واحدة تتفسر بها جميعاً . وثانيهما أن يرى القارئ أيضاً كيف لعب التعصب الفكري دوره في تقديم العلوم ، بل في تأخيرها ، فقد ظل الكيمائيون خمسين عاماً لا يقبلون الآراء الأساسية التي بنيت عليها النظرية الذرية أخيراً . والحق أني لو أردت توسعة هذا الجزء من هذا الباب لأجعل منه وحده باباً ، إذاً لسميته « نصف قرن ظلت فيه الأهواء الفكرية والعصبيات الذهنية تصطدم اصطداماً » .

إن الخبير بمجاري الأمور قد لا يعجب من أن أهل الرأى استغرقوا خمسين عاماً في التجريب والنقاش ليصلوا إلى نظرية تُسكن على الراحة ما أخرجها الكيمائيون من نواتج التجارب وما أبدوه أو عرفوه من ملاحظات . ولكن غير الخبير بهذه الوقائع العلمية التاريخية سوف لا شك يعجب أكبر العجب إذ يعلم أن كل ما كانت هذه النظرية في حاجة إليه لتشرق في سماء العلم ، ولتبرز على الناس ، كان موجوداً من أول الأمر ، حاضراً لكل يد تمتد إليه فتأخذ منه . ولكنها لم تشرق ، ولم تبرز . والباحث عن سبب هذا ، والقارئ لما اعترك في تلك الحقبة من آراء ، وما وقع من حجاج ، بعضه المعارض وبعضه المساعد ، يجده في آراء سبقت إلى هذه العقول فلم تقو على الخلاص منها . وإني آمل في الصفحات القليلة القادمة أن أظهر صفة هذه الآراء ، وما كان بها من جمود ، وكيف انهزم الجمود وتححرر الفكر آخر الأمر .

وقبل أن أدخل بالقارئ في غمرة الموضوع أذكر له المقصود من هذه الحكاية ، والهدف الخلقى المستمد منها ، بأن اقتبس له جملة مما قال عالم يؤمن بوجود منهج علمي ، هو يباركه ، وهو يرضاه : « إن الطريقة العلمية في التفكير هي أن يتعود الرجل مواجهة الحقيقة دون أن يكون متأثراً برأى له سبق . » وهذا القول مثل من أقوال شائعة في بعض مبات العلم يرددها الناس حباً لها ، واقتناعاً بها . وما هي بالحق الكامل ، بل هي نصفه . وهي من تلك الأنصاف التي يعسر على ذى الفكر أن يتلقاها ، أو أن يفهم على التحديد مغزاها . فإن يكن صاحب هذا القول عنى به أن تكون الأمانة العقلية صفة الباحث ، فما أحد بمختلف وإياه في رأى .

وإن هو غنى أن على الباحث أن يطلب الجواب الواضح الحاسم من تجارب يجربها في ظلّ ما هو سائد في عصره من آراء ، بقصد أن يمتحن صدق فرض قائم بين يديه ، إذاً نعود فنقول إن أحداً لا يختلف وإياه في رأى . ولكن هذا القول المقتبس فيه أكثر من هذه المعانى . إنه يريد أن يكون عقل الباحث كالصحيفة البيضاء إذا ما عرض لرأى جديد . وهذا غير ممكن ولا غير جائز . والتاريخ الذى سردنا منه ما سردنا ، يرينا أن الباحث الناجح لا بد أن يتسلح بكل ما اكتسب في ماضيه من سلاح . وهذا السلاح هو مجموعة ما في علمه الذى يعلم من صور ذهنية ومن نظريات ، يضاف إليها شىء جديد يتدعه كل قائم في العلم مغامر سباق . وقد يُردّ على ما أقول بأن هذه الآراء واضحة بيّنة ، وأن التعصب للرأى لا ينشأ إلا عن عاطفة لا سند لها من منطق ، وإني مع موافقتي على هذا لا زلت أرى أن العالم ، كل عالم ، عليه أن يحمل بين جنبيه كل ما يسود عصره من آراء ومن أهواء ، وأن يحملها في حرص ، ولو علم أنها الأهواء ، وأن لا يترك وراءه شيئاً حتى من تلك الفكر المبهمة غير الكاملة التي تمثل الرأى العام لزمانه . وليس مثل "يُضرب لإيضاح هذا كهذه القصة" قصة ما صنع الكيماويون في القرن التاسع عشر حتى صاغوا النظرية الذرية القائمة اليوم . إن اكتشاف الأكسجين ، وما يقوم به من دور في الاحتراق ، وكذلك اكتشاف تركيب الماء ، مهد السبيل لدخول الكيمياء الحديثة . ورسالة لا فوازيه في « مبادئ الكيمياء » شرحت ما استجد من هذا العلم وأقنعت العالم العلمى بخطورة المبدأ الحسابى ، مبدأ الموازنة بين الإيرادات والنفقات ، وتطبيقه في شئون العلم . وقسم الرأى الجديد الأجسام إلى نوعين :

عناصر ومركبات . والمركبات عنده هو ما نتج من اتحاد عنصرين أو أكثر بنسب ثابتة معروفة . وعلى هذا أمكن تعريف الماء بأنه المركب الذى ينتج من اتحاد أدروجين بأكسجين ، بنسبة ١ إلى ٨ . وهذا التعريف يقوله القائل سهلاً ، ولكن كان وراءه صعوبات تجريبية كبيرة . فى عام ١٨٠٥ حاول دلتن Dalton أن يدخل إلى الكيمياء الحديثة فكرة عن الذرات قديمة . وكانت الذرات فى عقول الكثيرين من علماء القرن الثامن عشر عنده ما كانوا يفكرون فى المادة ومن أى شىء تتألف . وهى إن لم تكن فى يقينهم فهى كانت فى ظنهم . واستخدم نيوتن فكرة الذرات فى بعض كتاباته فى الخواص الطبيعية للغازات . ولكن فضل استخدام الذرة فى الكيمياء الحديثة يعود لا شك إلى دلتن فهو الذى قال بأن الذرات تفسر لنا فى سهولة كيف أن العناصر إذا اتحدت فهى تفعل ذلك بأوزان لها معروفة بينها نسبة ثابتة . فالماء مثلاً يتركب من أدروجين وأكسجين . فإذا فرضنا أن ذرات الأدروجين لها وزن واحد ثابت ، وكذلك ذرات الأكسجين ، وأنهما عند الاتحاد يتحد عدد من ذرات هذا بعدد مثله فى ذرات ذاك ، إذاً لوجدنا لنتائج التجارب فى هذه الحالة تفسيراً معقولاً مقبولاً . ولإيضاح ذلك نفرض كما فرض دلتن أبسط فرض ، ذلك أن أصغر جزء من الماء يتركب من ذرة من الأدروجين وذرة من الأكسجين (هذا خطأ فيما تقضى به هذه النظرية فى صورتها الحاضرة) . وحيث إننا نعرف من التجربة أن وزناً ما من الأدروجين يتحد بثمانية أوزان مثله من الأكسجين ، فينتج عن هذا أن ذرة الاكسجين أثقل من ذرة الأدروجين ٨ مرات ، أى أن الأوزان النسبية للذرتين هما

١٥ إلى ٨ . بالطبع الذرات من الصغر بحيث لا يمكن وزنها ذرة ذرة ، لكن هكذا كان تفكير دلتن ، أننا إذا عجزنا عن إيجاد وزن الذرات فانهن بعاجزين هكذا عن إيجاد النسبة بين أوزانها ، أى إيجاد أوزانها النسبية . على أن عقبة قامت فى سبيل هذا التفكير من أول أمره ، وبقيت هكذا عقبة تُقضى مضاجع الكيماويين نصف قرن من الزمان . وهى تلك : من أين لنا أن نعرف كم من الذرات تتحد لتكون مركباً ما ؟ قال دلتن إننا لا نستطيع أن نعرف كم عددها ، ولهذا لزمنا أن نفرض أبسط الفروض التى تتفق ونتائج التجربة . وهذا مثل من مبدأ فى العلم عام ، قاعدة جنح إليها العلماء ، إذا تعقد لديهم أمر ، أن يفرضوا لفهمه أبسط الفروض الممكنة . وسموا هذا القاعدة « قاعدة أبسط الفروض » . قال دلتن إن جزيء الماء (الجزيء اسم لأصغر جزء من جسم) يتركب من ذرة من الأدروجين وذرة من الأكسجين . وباستخدام رموزنا الحديثة يصبح رمز الماء هو H_2O . فإن صح هذا أمكننا ، باتخاذ ذرة الأدروجين وحدة الوزن التى بها نزن كل الذرات ، أن نضع جدولاً به أوزان الذرات جميعاً ، تظهر فيه ذرة الأكسجين ووزنها الذرى ٨ ، وزن الذرة النسبى طبعاً . واختصاراً فإن العلماء فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كانوا يبحثون فى علاقات ثلاث ، لم يعرفوا منها إلا واحدة ، عرفوها بالتجربة ، تلك النسب الوزنية التى تتحد بها العناصر . فلو أن العالم منهم فرض رمزاً ما لعدة من مركبات ، كالماء ، إذاً لأمكنه أن يستخرج من هذا الفرض ، ومن نتائج التجارب ، جدولاً بالأوزان الذرية للعناصر . وبالعكس ، إذا هو فرض جدولاً بالأوزان الذرية هذه ، لأمكنه أن يستخرج من هذا

الفرض ، ومن نتائج التجارب ، أى من نسب الأوزان التى تتحد بها العناصر ، رموزاً لهذه المركبات . وكان المطلوب الدليل أو الأدلة التى تدل على أحد شيئين ، إما على نسبة أوزان الذرات بعضها إلى بعض ، وإما على عدد الذرات التى توجد فى مركب كالماء .

وجاءت الكيماويين هذه الأدلة . جاءتهم فى العقد الثانى من القرن الماضى ، القرن التاسع عشر . وجاءهم مع الأدلة صور من الفكر جديدة لتفسيرها . ولكنهم أغفلوا كل ذلك . وجاءهم بهذه الأدلة عالم فى الطبيعة إيطالى ، فى الفزياء ، اسمه أفوجادرو Avogadro ^(١) . فهو قد رأى فى مجموعة أخرى من المقادير ما يمكن أن يستعان به فى صياغة رمز الماء . ولكن هذا رأى أغفل إغفالاً ، حتى إذا جاء عام ١٨٦٠ ، عاد العلماء بزعامة عالم إيطالى آخر ، اسمه كانيزارو Cannizzaro ^(٢) ، إلى ما كان

(١) هو أميديو أفوجادرو ، الفزيائى الإيطالى ، ولد فى بلدة تورين عام ١٧٧٦ ، وبلغ إلى أن صار أستاذ الفزياء فى جامعته . وأشهر ما جاء به نظريته ، وقد نشرها فى رسالة عنوانها « محاولة لطريقة بها تتعين الكتل النسبية للجزيئات الأولية والنسب التى بها تدخل فى المركبات الكيماوية » . مات عام ١٨٥٦ .

(٢) استانسلاو كانيزارو ، العالم الكيماوى العضوى الإيطالى (١٨٢٦ - ١٩١٠) ولد فى بالرمو بصقلية ، واشتغل فى « بيزا » لما كبر فى البحوث الكيماوية . واشترك فى الثورة بصقلية ، فلما فشلت الثورة هرب إلى فرنسا ، ووصل إلى باريس عام ١٨٤٩ ، فتابع أبحاثه هناك . ثم كان أستاذ الكيمياء بجنيف ، ثم فى بالرمو ثم فى جامعة روما . وإلى ما خدم به الكيمياء العضوية تضاف خدماته للكيمياء عامة ، وذلك برسائله التى نشرها عن الأوزان الذرية والأوزان الجزيئية وضرورة التفرقة بينهما ، وبذلك عاد بالكيمياء إلى ما كان ارتأى مواطنه أفوجادرو قديماً . وبذلك تمت الخطوة الأولى فى النظرية الذرية الجزيئية كاملة . وجاءه الموت آخر الأمر فى روما .

رأى أفوجادرو ، وبنوا على رأيه هذا نظرية ذرية جزيئية أمكن الناس قبولها . وهى النظرية القائمة إلى اليوم . ، تلك التى خدمتنا خدمات كبرى فى التعرف على المواد ، من أى شىء تتألف .

ولمعرفة السبب فى إغفال الناس للذى جاء به أفوجادرو ، ولإدراك كيف تقف آراء قديمة فى سبيل آراء مستحدثة جديدة ، يجب الرجوع إلى آراء هذا الرجل وإلى ما كان فى زمانه من أدلة مستمدة من تجارب . كان شاق أفوجادرو وبعضاً من معاصريه أن العناصر الغازية عند ما تتحد تتحد بنسب ثابتة . وكانت النسب هذه المرّة ليست نسب أوزان ولكن نسب أحجام . وإلى هذا يجب تنبيه القارئ . ويكفى مثل واحد نوره لإيضاح هذا ، ذلك اتحاد الأروجين بالأكسجين بإمرار شرر كهربائى فى مزيج منهما . وهما يتحدان بالنسبة الآتية :

حجم من الأكسجين + حجمان من الأروجين ← حجمان من بخار الماء .

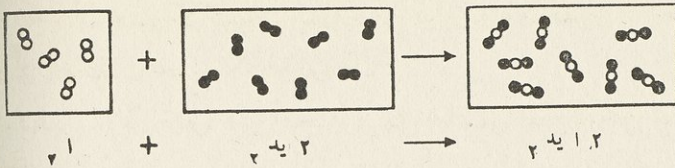
ووحدة الحجم هنا هى ما تشاء ، بوصة مكعبة أو سنتيمتراً مكعباً أو غير ذلك من المقاييس . والذى لفت النظر أن النسب بين هذه الأحجام نسب بسيطة : ١ إلى ٢ إلى ٢ . نسب بين أرقام صغيرة صحيحة . وبمثل هذه النسب البسيطة اتحدت غازات أخرى .

وافترض أفوجادرو افتراضين يفسر بهما هذه النسب الحجمية البسيطة التى تتحد بها العناصر الغازية فتكوّن المركبات . وأول هذين الافتراضين « أن الأحجام الواحدة من الغازات ، فى درجة الحرارة الواحدة تحت الضغط الواحد ، تحتوى على عدد واحد من الجسيمات . وثانى هذين

الافتراضين أن جسم الأكسجين يتألف من ذرتين منه متحلتين ، إحداهما بالأخرى . وكذلك جسم الأدروجين . » .

وبهذين الافتراضين فسر أفوجادرو كل الحقائق المعروفة عن تفاعل الغازات ، وأدّى به هذا إلى أن جزىء الماء يتركب من ذرتين من الأدروجين وذرة واحدة من الأكسجين ، وأن رمزه الكيماوى هو على هذا يد_٢ ا . وبالجمع بين نتائج التجارب فيما يتصل باتحاد الغازات أحجاماً بأحجام ، وبهذا النوع من التفكير ، وضع أفوجادرو عدة رموز لعدة مركبات . وبذلك حلّ ذلك المعضل الذى سلف أن أشرنا إليه ، معضل العلاقات الثلاث التى كان علم منها الكيماويون علاقة واحدة وبقيت منها فى عالم الغيب علاقتان . وجاء أفوجادرو وكشف عنهما حجاب الغيب . وإذا أمكن حساب الأوزان الذرية من تلك الأوزان التى أثبتت التجارب أن بها تتحد العناصر . ولزيادة الإيضاح نذكر الماء . فرمز الماء نتج أنه يد_٢ ا . نتج من أحجام اتحد بها الأدروجين بالأكسجين ، وأحجام خرج عليها بخار الماء . ولكن الوزن الواحد من الأدروجين يتحد بـ ٨ أوزان من الأكسجين . فبهذا قالت التجربة . وينتج من ذلك أن ذرة الأكسجين أثقل من ذرة الأدروجين ١٦ مرة ، أعنى أن الوزن الذرى للأكسجين ، باتخاذ وزن ذرة الأدروجين وحلدة هو ١٦ . وصور أفوجادرو فكرته عن هذا الاتحاد بالرسم الذى بشكل ٢٩ ، وهى نفس الصورة التى نرسمها لإيضاح هذه الفكرة اليوم .

ورفض دلتن كل هذا . ورفض معه أكثر الكيماويين ، وظلوا يرفضون نحواً من خمسين عاماً . لماذا ؟ لأن أفوجادرو افترض أن جسم



(شكل ٢٩)

رسم يوضح رأى أفوجادرو في اتحاد الغازات . والمربع يمثل حجماً واحداً ، بينما المستطيل يمثل حجمين .

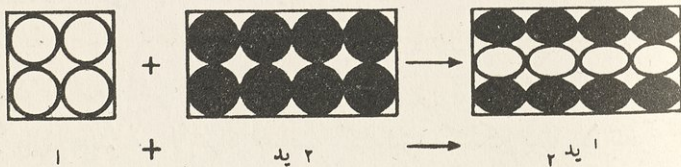
الأدروجين يتجزأ ، وهو عند دلتن وأتباعه ذرة ، فلا يمكن أن يتجزأ .
ولأنه افترض أن الأدروجين يتألف جسيمه من ذرتين متشابهتين متطابقتين ،
ومع ذلك هما تتحدان ! وتساءلوا : وما الذى يربط ذرتين متشابهتين
متطابقتين إحداهما بالأخرى ؟

وألح برزليوس Berzelius (١) . في رفض هذا الاتحاد بين
الذرات المتشابهات إلحاحاً شديداً . وهو كيمائى سويدي عظيم من كيمائى
النصف الأول من القرن التاسع عشر . وكان سبب إلحاحه أنه كان جاء
بنظرية بناها على أن الذرات عند ما تتحد ، فإنما تتحد للذى بينها من
تجاذب كهربائى . والذرات المتشابهة المتطابقة لا تتجاذب كهربائياً ،

(١) جون جاكوب برزيليوس (١٧٧٩ - ١٨٤٨) الكيمائى السويدي .
درس الطب في أيسالا ، ثم اشتغل بالطب ، ثم تعين محاضراً في الكيمياء في الأكاديمية الحربية
في استكهلم ، ثم أستاذاً في الفرماكوبية والطب . وفي ١٨١٠ صار عضواً في أكاديمية العلوم
بالعاصمة ، ثم رئيساً لها . ومنحه الملك البارونية . وهو مكتشف السيلينيوم والثوريوم ،
وحضر بعض الفلزات الأخرى منفردة ، ودرس مجموعات كثيرة من المركبات غير العضوية .
ولم يكده يترك باباً في الكيمياء إلا دخله وأدى للكيمياء فيه خدمة .

وإن كان لا بد بينهما من شيء فهو التنافر . ونظرية برزليوس هذا هي التي أوحى في عصور أحدث بتحليل الماء بالكهرباء .

وعلى إلحاح برزليوس في الرفض ، فهو قد قبل نصف ما اقترح العالم الإيطالي ، وقال في الماء إن حجماً من الأكسجين يتحد بحجمين من الأدروجين ، وأن هذه حقيقة لاشك خطيرة . وأن أفوجادرو قد صدق فيما يختص بالعناصر الغازية دون المركبات (أعني أن الأحجام الواحدة من العناصر الغازية تتألف من عدد من الذرات واحد) . وصور برزليوس ما تصوّره عن اتحاد الأدروجين بالأكسجين لتكوين الماء بالرسم الذي بالشكل ٣٠ وأنا في هذا الرسم صورت الذرات كما لو مس بعضها بعضاً ، وذلك لأن برزليوس ومعاصريه كانوا يتصورون أن الغازات تتألف من جسيمات متصل بعضها ببعض هكذا . ونحن في فرض أفوجادرو ننظر إلى الجزئيات على أنها لا تشغل من الحيز الذي هي فيه غير جزء منه صغير . وبرزليوس لم يفسر كيف أنه تكوّن من بخار الماء حجمان . وهو في الصورة التي رسمها ضم الذرات التي يتألف منها الماء بعضها إلى بعض رصاً ، ولكنه لم يفسر لم تناسب هذا الحجم من بخار الماء تناسباً بسيطاً مع أحجام لعناصر



(شكل ٣٠)

رسم يوضح رأى برزليوس في اتحاد الغازات

نشأ منها ، من أدروجين وأكسجين . ولعلك إن كنت سألته لقال لك « إنه شيء من تلك الأشياء التي كثيراً ما يعزّ تفسيرها » . ورغماً من قصور النظرية التي أتى بها برزليوس فهي قد أثمرت ثمرات طيبات . وهو بها ابتدع نظاماً في الكيمياء كان له نفع كبير . ولكنها لم تلبث أن اعترضتها العقبات ، فذهبت مثل ما ذهب غيرها من نظريات .

إن الذي ينظر الآن إلى الوراء ، إلى عهد أفوجادرو ، يجد أنه كان شائعاً في عام ١٨١٥ ثلاثة أشياء على الأقل ، بل أهواء ، وقفت تعترض سبيل نظريته . أما الشيء الأول فهو الفكرة السائدة بأن جسيمات الغازات كان يمس بعضها بعضاً في الحيز الذي هي فيه . وأما الشيء الثاني فإن ذرتين من عنصر واحد لا يمكن أن يتحدوا . وأما الشيء الثالث فنظرية برزليوس ، النظرية الكهكيميائية Electrochemical . ولعل من الخطأ أن تسمى هذه النظرية هوى من الأهواء . إن هي إلا نظرية اعترضت نظرية أخرى فمنعتها من الوصول إلى الناس ، إلى حين .

ومن المحاولات التي أجريت للإتيان بالأدلة التي تثبت فرض أفوجادرو ما صنعه كيمائى فرنسى في العقد الثالث من القرن الماضى . والذي صنع لم يؤازر فرض أفوجادرو ، بل إنه لكاد أن يذهب بثقة الناس في النظرية الذرية برمتها . وهذا الحادث من أغرب الحوادث التي وقعت في العلم في القرن التاسع عشر . وهو يتلخص فيما يلي : اكتشفت طريقة لقياس الأوزان النسبية للأبخرة عناصر كالزئبق وكالكبريت لا تتغوز إلا في درجات من الحرارة عالية . فإن صح فرض أفوجادرو الأول ، فعنى هذا أن هذه الأوزان النسبية لهذه الأبخرة هي عينها الأوزان النسبية للجسيمات

التي تتألف منها هذه الأبخرة (ما دام أن فرض أفوجادرو يقضى بأن الحجم الواحد من غاز يحتوي عدداً واحداً من هذه الجسيمات) . وقبل اتباع برزليوس هذه النتيجة وهذا الفرض فيما يختص بالعناصر الغازية وحدها . ثم حدثت كشوف أفلقت البحوث كثيراً . ذلك أن الأوزان النسبية لأبخرة أكثر العناصر لم تتفق والنتائج التي منها حسبوا الأوزان الذرية لهذه العناصر . ولو عبرنا عن هذا الذي حدث بلغة هذا العصر الحاضر لقلنا إننا لو مثلنا الأدروجين بالرمز يد_٢ (ذرتان في جزيئه) ، إذاً لاحتوى بخار الزئبق ذراته فرادى غير متحدة ، وإذاً لاحتوى بخار الكبريت عدداً لا يقل عن ست ذرات متحدة معاً .

ونظر كيمايو عام ١٨٣٠ إلى هذه النتائج فكفروا بها . قالوا إن العناصر الغازية كالأدروجين والأكسجين والأزوت والكلور كلها سارت على أسلوب واحد ، فجسيمها يحتوي ذرة واحدة على رأى برزليوس ، أو هو يحتوي ذرتين على قول أفوجادرو . فكيف يمكن بأن طبيعة الأشياء ، ومن عاداتها الاطراد ، تخرج على هذا الاطراد فتجعل في جسيم الغازات ذرة أو ذرتين ، ثم هي تجعل في جسيم غازات أخرى ست ذرات ! وكان العلماء تعودوا أن يفرضوا البساطة فيما تجرى به الطبيعة ذاتها . وفرضوا هذه البساطة في الطبيعة في العقود التلييلة الأولى من القرن التاسع عشر ، وخرجوا منها على أن العناصر الغازية بجزئياتها جميعاً عدد من الذرات واحد . فلما جاءتهم هذه النتائج ، بذرة أو ذرتين في حالات ، وبست في حالات ، كانوا بين أن يطرحوا إيمانهم ببساطة الطبيعة فيما ترتبه من أمور ، وبين أن يطرحوا نظرية أفوجادرو وما أتت به من نتائج . واختار أكثر العلماء

اطراح نظرية أفوجادرو. وباطراحها ذهب كذلك النظام الذي ابتدعه برزيليوس ، وأعان على ذهابه أسباب مستقلة أخرى . وما جاء عام ١٨٤٠ حتى كانت النظرية الذرية في حالة يرثى لها . كثر معارضوها . وكل محاولة لتعيين كم في المركبات من ذرات نظر الناس إليها شزراً . وتراجع الكيمائيون إلى حيث وقف دلتن . واتبعوا القاعدة ، التي تقضى بفرض أكثر الأشياء بساطة ، وكتبوا رمز الماء يدا ، وعليه بنوا جدولاً بالأوزان الذرية للعناصر .

لو أن هذه الصفحات اتسعت ، لكان من الممتع حقاً أن نتبع إيمان العلماء بالذرة ، وبحقيقتها ، إذ هو يشتد حيناً ويضعف حيناً . ولكن يعوقنا عن هذا ، فوق ضيق المكان ، ضخامة ما يتبع ذلك من معلومات لا بد من إيرادها . وإذاً لوجدنا العقد الذي يبدأ بعام ١٨٤٠ والذي يبدأ بعام ١٨٥٠ ، هما العقدان اللذان نزل فيهما الإيمان بالذرة إلى الحضيض . ولكن غير من هذه الحال نشأة النظرية الحركية ، النظرية الكينيتية Kinetic Theory ^(١) للغازات وهو تفسر ظواهرها الطبيعية . وغير من هذا الحال أن الكيمياء عجزت أن تتقدم بدون نظرية ذرية تكفي أغراض التقدم . كذلك حقائق الكيمياء العضوية ، وهي حقائق معقدة ، لم يمكن

(١) هذه النظرية جزء من النظرية الحركية العامة للمادة ، وهي تتصور الغازات جزيئات ذات حركة ، وهي في حركة دائماً ، في كل اتجاه ، وعلى درجات من السرعة . وهي تصطدم بعضها ببعض ، وتصطدم بحدار الوعاء فتحدث ضغط الغاز المعروف . وحرارة الغاز تتوقف على ما في جزيئاته من طاقة حركية . وهذه النظرية تفسر ما في الغازات من ميل للانتشار ، وخواص كثيرة أخرى .

السير بها سهلة بدون معرفة كم من الذرات في الجزيئات ولو فيما يختص
ببسيط المركبات . ومضى جيل من الكيماويين والطبيعيين ، الفزيائيين ،
يجمعون الحقائق ، فأخذت تهدف كلها إلى هدف واحد ، وأصبح الصباح
فإذا بالكل يبادرون بالعودة إلى أفوجادرو والعودة إلى نظريته . وتغلب الناس
على ما كانوا وجدوا بها من شكوك . والتقت حقائق خرج بها الباحثون
في العقد الخامس والسادس من ذاك القرن بالذى جاء به أفوجادرو من
مشروع تصورى عظيم . وعلى غير عهد أفوجادرو الأول ، عهد النزاع
والصراع ، لم تلق نظريته عند بعثها من معارضين . لم تلق غير ارتباك
واختلاط . وفي عام ١٨٦٠ قبل الناس النظرية الذرية الجزيئية على الصيغة
التي تدرسهاها اليوم مدارسنا ، وذلك على الأكثر بفضل كانيزارو ، وبفضل
ما قام به من عرض جميل . ومن هذا اليوم ، وعلى التو ، أخذت الكيمياء
تتقدم سريعاً ، فى اتجاهات كثيرة . وهذا مثل من أثر الفكرة الجديدة
أو المشروع النظرى الكبير . وهو أثر ثورى انقلابى كأثر الجهاز المخرع ،
أو الآلة المبتدعة ، تفتح حقولا للكشف جديدة . ولكن للآلات المبتدعة
والأجهزة المخرعة قصة أخرى . وحيث قد بلغنا بالقارئ فى تاريخ الكيمياء
إلى منتصف القرن التاسع عشر . يحسن بنا أن ننتقل به إلى فروع من
العلم أخرى نوضح له فيها أطرزة من العمل أخرى غير التي ظهر له منها
فى الأبواب السالفة .

الباب الثامن

دراسة الأحياء الحية في التاريخ الطبيعي (١)

وعلم الأحياء التجريبي (٢)

إن دارس علم الأحياء له أن يشكو أنى إلى الآن ظلت أتحدث ،

(١) لا بد من توضيح « التاريخ الطبيعي » لبعض القراء . إنه اصطلاح له معنى قديم ومعنى حديث . أما المعنى القديم فإنه العلم الذى يعنى بالنباتات والحيوانات والمعدنيات وأشياء طبيعية أخرى ، من حيث دراستها ووضعها وتقسيمها ، ويدخل فيه علم النبات وعلم الحيوان وعلم المعدنيات على الحالة التى كانت عليها هذه العلوم قديماً . أما بالمعنى الحديث فهو يطلق على دراسة هذه العلوم دراسة سطحية ، لا يدخل فيها التشریح الحديث مثلاً ولا الفسيولوجيا الحديثة ، وهو فى العادة يقصر على دراسة النباتات والحيوانات ، وعلى الأخص على الثانية ، فيتعرف مواطن الحيوانات وعوائدها وما إلى ذلك .

(٢) علم الأحياء أو البيولوجيا الحديثة علم يختص بدراسة كل ما هو حى من نبات وحيوان . وهو يتضمن ما كان من الأحياء نباتاً وما كان حيواناً . وهو ذو أفرع عدة : منها علم الأشكال أو المورفولوجيا ، وهو يدرس تركيب الأحياء وبناءها ، وهو ينتهى إلى علم تقسيم الأحياء إلى عائلات ورتب وأجناس وأنواع ، بناء على ما بينها من تشابه ومن واختلاف . وقد يسمى هذا العلم بالبيولوجيا التنسيقية ، لأنه يضع الأحياء فى نسق ونسق ونسق ؛ ويرابط بين الانساق . وهذه التسمية واردة فى هذا الباب كثيراً . ومن علم الأحياء الحديث علم التشریح ، وهو يعين فيما يعين علم الأشكال ، والملاحظة (بالمعنى الاصطلاحى . انظر هامش صفحة ٢٣) هى الغالبة هنا . ومن علم الأحياء كذلك الفسيولوجيا أو علم وظائف الأعضاء ، والتجربة (بالمعنى الاصطلاحى . انظر نفس الهامش) هى الغالبة هنا . وهلم جرا . وعلم الأحياء التجريبي الذى يذكره المؤلف فى هذا الباب وغيره ، هى تلك الفروع من علم الأحياء التى تكون فيها التجربة ، بمقدار يقل أو يزيد ، هى وسيلة البحث فيه .

لا في العلم التجريبي ، ولكن في العلوم الطبيعية وحدها . وأنا أتقبل هذه الشكوى عن رضا ، وفي هذه الباب والذي يليه سوف يجد القارئ أنى أحاول أن أسد النقص ، وأعود بالميزان الى اعتداله من بعد اختلاله . ومع هذا فأنا أقول إن عالم الأحياء التجريبي يهتم اليوم أكبر اهتمام بالمسائل الكيماوية والفزيائية لأنها صارت أشياء لا يمكن عنها استغناء لفهم علم الأحياء . هذه حقيقة لا شك صادقة فيما يختص بالباحث ، ولا أحسبها أقل صدقاً فيما يختص بالمدارس أو القارئ . وما عليك إلا أن تزور معملاً او مختبراً في مدرسة للطب أو في مستشفى ، أو في محطة زراعية ، وأن تنظر الى ما به من جهاز ، وأن تتحدث إلى ما به من نساء ورجال ، حتى تقتنع بالذي أقول . وسوف تجد صعوبة في تمييز هذا المعمل عن معمل رأيته تشتغل بالكيمياء أو بطبائع النواة من الذرة .

شيء واحد سوف يميز هذا المعمل ، أو هذا المختبر ، عن سواه من المعامل والمختبرات . تلك أنه ما من مسألة للبحث قائمة إلا ولها اتصال بشيء ذي حياة . وأغلب الظن أنك واجد هذا الشيء الحى ، نباتاً كان أو حيواناً ، في نفس هذا المعمل والمختبر . فإن لم يكن فهو في مكان قريب لا يبعد عنه كثيراً ، عيادة للمرضى ، أو بيت من زجاج لتربية النباتات ، أو مزرعة تجريبية ، تتصل به مباشرة أو غير مباشرة . والرجل الباحث ، سواء سمى نفسه طبيباً إكلينيكياً ، أو عالماً في الطب أو في فسيولوجية النبات ، أعنى وظائف أعضائه ، أو في الكيمياء الطبيعية ، أو في الفزياء الحيوية ، فحقله الذى يعمل فيه هو حقل علم الأحياء التجريبي ، بمعناه الأوسع ، ما وجه هذا الرجل الباحث أفكاره إلى حيوان أو نبات

يدرسه بحسبانه وحدة حيوية كاملة . وأطرزة البحث التي اطلعنا عليها في الأبواب السابقة ، وأساليب الهجوم والدفاع التي مررنا بها ، تفيدنا في فهم ما يجري في هذا الحقل الكبير الخطير من حقول العلم . ومع هذا فلهذا الحقل الكبير ، في عمومه ، اعتبارات خاصة جدير بالقارئ أن يلم بها .

فأولا لا بد من ربط النشأة التاريخية لعلم الحياة التنسيقي Systematic biology ^(١) بعمل عالم الأحياء التجريبي . وثانياً لا بد من النظر في المنهج المتبع في الدراسات الجارية فيما قد نسميه علم الأحياء بالملاحظة ^(٢) observational biology ذلك لأن توزيع النباتات والحيوانات على ظهر الأرض توزعاً جغرافياً ، واستنباط طرق جديدة ونظم مستحدثة لتقسيم النباتات والحيوانات والكشف عن تواريخ حياة الكائنات الحية ، كل هذه صارت اليوم مطالب هامة في علم الأحياء .

إن الناظر في منهج العالم التنسيقي ، ودارس التاريخ الطبيعي ، يشعر لأول وهلة أنه منهج أقرب ما يكون إلى مناهج بادهة يتبعها الناس في حياتهم ^(٣) ، بحيث يبعد عن صنوف البحوث التجريبية التي كنا بصددها . والحق أن من العلماء المشتغلين بالتقسيم والتبويب من يختلف معي في التعريف الذي عرفت به العلم ، ويود أن يعرف العلم بأنه

(١) علم الحياة التنسيقي عمله تقسيم الأحياء أنواعاً وأجناساً وأصنافاً تبعاً لما بينها من مشاهات ومن فروق . وقد يسمى علم التقسيم . انظر الهامش السابق .

(٢) انظر الهامش الأسبق وما قلناه في الهامش في الفرق بين معنى الملاحظة ومعنى

التجربة ، اصطلاحاً ، بصفحة ٢٣

(٣) انظر الفرق بين الاختبارية والتجربة في الهامش بصفحة ٩٦

المعارف مبوبة مقسمة . ومع هذا فاسمع معي ما قال مارستون باتس Marston Bates في كتابه الحديث المسمى طبيعة التاريخ الطبيعي The Nature of Natural History ، فهو فيه يقول : « إن التقسيم هو في جوهره مشروع تصوري » ، ويزيد فيقول إن أى محاولة تجعل من هذا التقسيم شيئاً ثابتاً جامداً لا مرونة فيه تخرجه عن حظيرة العلم . فعند هذا العالم البيولوجي ، على الأقل ، أن تعريفي من السعة بحيث يشمل كل علم الأحياء فلا يترك من فروعه شيئاً . ذلك التعريف الذى يقول « إن العلم مجموعة مترابطة من تصورات ذهنية ومشاريع تصورية ، تخرج من الملاحظة ومن التجريب ، وتؤدى بدورها إلى ملاحظة جديدة وتجريب جديد » . وقبل أن نبدأ فنذكر بعض خصائص التجريب في علم الأحياء ، في البيولوجيا ، نقف قليلاً لنغير قليلاً بعض ما قلناه في مكان سابق من هذا الكتاب عن نشأة العلم الحديث .

إننا نعرفنا فيما سبق من صفحات على تيارات ثلاثة من تيارات الفكر والعمل ، التقت في القرن السادس عشر والسابع عشر ، فنشأ من تلاقيها العلم الحديث (انظر صفحة ٨١) وعندئذ لم نمس الطب ولا الزراعة إلا مساً . واقتصرنا في التمثيل على نيل المعرفة بواسطة الخبرة الإنسانية الفطرية (الاختبارية) التى ليس وراءها تخطيط ولا تنظيم ، ولا فروض ولا نظريات ، وذلك بضرب الأمثال مما جرى ويجرى في أشغال المعادن وما شابهها من أنواع الحرف المختلفة . ولكن من البديهي أنه من الخبرة الفطرية البادئة أيضاً ما اكتسبه الإنسان في تاريخه الطويل في زرع النباتات ، وتربية الحيوانات ، وتخمير

المشروبات وخبز الخبز وتحضير الكثير من صنوف الطعام . ألقى جون تندال John Tyndall (١) في عام ١٨٧٦ خطاباً استخدم فيه لفظة الخبرة أو الاختبارية empiricism بالمعنى الذى استخدمتها أنا فيه فى الصفحات السالفة . قال : « إنه إلى هذا العام لم يتقدم أحد بدراسة وافية مستوعبة للعوامل التى تعمل فى البيرة وهى تصنع ، ولا للشروط التى تتوفر لها لتصح ، ولا لما يصيبها من أمراض وأرزاء . ونحن إلى اليوم نجد حرفة الخمار كحرفة الطبيب كلاهما مؤسس على الاختبارية empiricism والملاحظة . وبهذا أعنى ما يلاحظه الرجل من حقائق بعينه وشئ أحاسيسه ، بصرف النظر عن تفهم ما وراء ذلك من أسباب ، تلك الأسباب التى إذا هو عرفها زاد عقله بها سيطرة على ما يجرى بين يديه من تغيرات . إن الخمار عرف بالخبرة الفطرية الطويلة شروط النجاح فى التخمر لأسبابه » .

وإلى الخبرة الفطرية الطويلة التى اكتسبها القائمون بصناعة المأكولات والمشروبات يجب إضافة الملاحظة الاختبارية empirical observation التى جرى عليها الأوائل من رجال التشريح ودارسى الأحياء فى شئ ظواهرها . غير أن هذه الملاحظة لم ينتج عنها تغيير فى الإجراءات العملية بمقدار ما نتج عنها من زيادة فى المعرفة بتراكيب الأحياء وما بينها من علائق . لهذا وجب علينا تبعاً لذلك أن نرجع إلى التيارات الثلاثة ، من تيارات الفكر

(١) جون تندال (١٨٢٠ - ١٨٩٣) فزيائى إنجليزى .

والعمل ، التي ذكرناها لنعدّها جميعاً .

إن تقسيم الأحياء ، ووصف تراكيب أنواع كثيرة منها ، كوّننا في العصور القديمة والعصور المتوسطة جزء هاماً من العرفان الإنساني التقليدي . والذي كتبه أرسطو في التاريخ الطبيعي ظل زماناً مثلاً عالياً يمتدّيه الناس للتقسيم والتبويب ، كيف تُستخرج مبادئه بالمنطق مما يتجمع عن الأحياء من معارف ومعلومات . فقد كان أرسطو رجلاً دقيق الملاحظة ، ورجل منطقي من الطراز النادر . لهذا وجب علينا أن نتوسع في معنى التيار الفكري الذي أسميته « بالتدليل الاستنتاجي » حتى يتسع لمنطق التقسيم والتبويب .

وبهذا التعديل اليسير يصبح وصف السابق للعلم الحديث ، كيف بدأ في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، يشمل العلوم الطبيعية وعلوم الأحياء معاً . إن التصورات الذهنية التي نشأت في علم الأحياء ارتبطت أكثرها بالملاحظة لا بالتجريب والأفكار العامة التي نشأت فيه نشأت لتزيد التركيب الوصفي للأحياء ولما بينها من علائق حسن وصف وصدق علائق .

ولكن علم الأحياء يختلف تاريخه عن تاريخ العلوم الطبيعية في وجه آخر من الوجوه خطير . ذلك أن عالم الأحياء ، على نقيض عالم العلوم الطبيعية ، لا يستطيع أن يدخل فيوغل في عالم من التجريب مصطنع كبير . وهو دائماً يلزم اعتبارات يلتزمها الرجل العادي بطبعه ، وهو لا يستطيع أن يتحلل من ظروف يفرضها عليه العمل . والدائرة التي يجول فيها محددة بالتعريف ، فهو موقوف على الكائنات الحية ، ولو أنه

يستطيع أن يبحث في غير الحية ، ولكن ليتحقق مسألة قائمة في الحى من الكائنات . ومعنى هذا أنه لا يعمل إلا فيما تقدمه الطبيعة له من أشياء . ولعل هذا الفرق الذى أحاول إيجاداه بين علوم الأحياء ، وعلوم الطبيعة فرق لا وجود له . فنحن نستطيع أن نقول إن الكيمياء ، بينما أنه قادر على أن يخلق من حوله دنيا من المركبات الكيماوية التخليقية الاصطناعية Synthetic التى لم تعرف أبداً ، فهو إنما يبدل ويغير فى مواد أعطتها له الطبيعة أولاً فليس له فيها اختيار . وحتى رجل الطبيعة ، رجل الفزياء ، ذلك الذى أتى فى عصرنا هذا الحاضر بعناصر لم يكن لها من قبل وجود ، إنما فعل ذلك بالذى قدمته إليه الطبيعة من قوى يعمل بها ومادة يعمل فيها . ومع كل هذا القول ، انظر إلى المسألة من وجهتها التاريخية فلا أستطيع أن أمنع نفسى من استبانة فرق . ذلك أن عالم الأحياء ، مهما ادعى أنه إنما يبحث فى العلم من أجل العلم ، فهو لا يمكن أن ينسى أنه إنما يعمل فى أحياء ، وأن هذه الأحياء مرتبطة بالإنسان ، بسعادته وبشقاؤه ، وبضيق عيشه وبسعته . ونتيجة لهذا لا يجد الإنسان فى نشأة علم الأحياء ذلك التباعد الذى ظل قائماً زمناً طويلاً بين الوجوه العملية والوجوه النظرية فى علم الكيمياء وعلم الطبيعة على السواء . ففي علم الطبيعة ، إذا نحن استثنينا ربابنة السفن ، لا نجد من الرجال العاملين فى النصف الأول من القرن الثامن عشر من انتفع إلا قليلاً بالذى استجد فيها من حقائق . وجهدت الجمعية الملكية فى لندن ما جهدت لتجعل هذه الحقائق أكثر نفعاً للناس ولكن ذهب الكثير الأكثر من جهدها عبثاً .

إن المقارنة التى أنا مجريها بين العلوم الطبيعية وعلوم الأحياء ،

فما بين عام ١٥٥٠ وعام ١٨٥٠ ، إن هي إلا مقارنة بين مجموعة من العلوم نظرية مجردة ، تزداد تجرداً على الأيام ، وهي في أكثرها بعيدة عن أعمال الحياة الجارية وضرورات العيش ، وبين مجموعة أخرى من العلوم أكبر ما تعتمد عليه الخبرة العملية ، وهي ترتبط أكبر ارتباطاً بأعمال الحياة الجارية وضرورات العيش . إن علم تنسيق الأجناس لا رياضة فيه ، والآراء المستخدمة فيه قريبة من آراء يستخدمها السواد من الناس في عيشتهم الجارية . وإلى القرن التاسع عشر لم تلعب الفروض النظرية ولا التصورات الذهنية إلا دوراً صغيراً في نشأة علوم الأحياء ، تلك النشأة التي تقاس أكثر ما تقاس بمعارف عن النبات والحيوان متراكمة . والذي دخل هذا الركام من المعارف يقسمها وينظمها ويفرزها قبائل وأجناساً ، وخصائص وأوصافاً ، إنما دخل إليها بسبب حاجة الإنسان القصوى إلى ذلك . فالمرض والموت ذكرهما الناس ويذكرونهما دائماً أبداً . والطب لعلمه أول مهنة وأقدم مهنة امتنها الإنسان . ولما جاء عهد النهضة ، ولذ للناس أن يأخذوا العرفان بأعينهم وبآذانهم ، صارت مدارس الطب مراكز هذا العلم الجلديد . وبحت أساتذة جامعة بادوا Padua الشهيرة بإيطاليا في تركيب جسم الإنسان بتشريحه ، وذلك لينتفعوا بالذي يجدون من ذلك في الطب وعلاج الناس . ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن وليم هرشي William Harvey كان يدرس علم التشريح هنا ، في هذه الجامعة ، مع أستاذه فبريشيوس^(١) Fabricius ، في عام ١٦٠٠ ، بينما كان جاليليو

(١) عالم التشريح الإيطالي ، درس ودرس في جامعة بادوا الشهيرة . وبعثه تأثر تلميذه هرشي فاكتشف من الدورة الدموية ما اكتشف . ولد عام ١٥٣٧ ومات عام ١٦١٩ .

أستاذاً في نفس هذه الجامعة .

إن هرثي اكتشف الدورة الدموية في عام ١٦٢٨ ، وهذا عام في تاريخ العلم لا ينسى ، وهذه الصورة الذهنية الجليدية عن الدم ، التي تصوره سائلاً يلور في الجسم ، نشأت عنده مما لاحظ بعينه وجرب بيده . وهي أثمرت من الثمرات ما لا سبيل الى تقديره . وسمينا الذي اكتشفه هرثي بالصورة الذهنية ، وقد يرى القارئ أن دورة الدم ليست بالصورة الذهنية وإنما هي حقيقة . ولكن الفكرة عند ما بدأت وتقدم بها هرثي كان بها من صفة الصورة الذهنية الجليدية بمثل ما كان في الفكرة التي تصور « الجو بجرأ من هواء » . ولست بمعيد هنا ما سبق أن قلته في باب سابق عن صعوبة التمييز بين الفروض العلمية hypotheses والصور الذهنية concepts والحقائق facts . بالطبع أن الصورة الذهنية لوظيفة من وظائف عضو بجسم ، كالقلب ، أقل كثيراً في عمومها وفي تجردها من الصورة الذهنية التي تصور الجو بجرأ من هواء . وهما معنيان أقرب لما يفهم سواد الناس من معان ، منها للمشاريع التصورية كالنظرية الندرية ، أو بالفرض الذي يقول بأن الحرارة سائل فياض . وهرثي كان يجمع بين الملاحظة الاختبارية والتجريب ، وبين رغبة عنده في الكشف عن كل مبدأ عام من مبادئ العلم خبيء ، بالضبط كما كان معاصره بيسكال Pascal . وتعلم في « بلوا » دقة التشريح وقوة الملاحظة ، فكشف بهما كشافاً من أخطر الكشوف وأعمها . وتضمن كشفه هذا نتائج وصفية ، وليست تقديرية ، وليست هي مما يصاغ حتى في صيغ رياضية تقريبية ،

ومع هذا فلا يستطيع أحد أن ينكر علاقتها بالتقدم الجارى عن ذلك فى العلوم الطبيعية .

ومثل آخر للدلالة على دخول الطرق التجريبية إلى العلوم الحيوية فى وقت مبكر هو منتصف القرن السابع عشر نستمد من تجارب أجريت فى سبيل إيضاح بعدة جوانب المسألة الصعبة الشائكة مسألة « التولد الذاتى » Spontaneous Generation (١) . وقام بهذه التجارب فرانسيسكو ريدى Francesco Redi وهو عضو من أعضاء الأكاديمية الإيطالية الشهيرة بفلورنسا ، أكاديمية التجريب Accademia del Cimento وقد ذكرناها فى أبواب مضت . وكان « ريدى » طبيباً شغف بالعلم التجريبي الذى كان قائماً فى زمانه . وجمع إلى الحذر فى الملاحظة المبادرة الى التجريب يطلب جواباً لسؤال عن مسألة عامة ، وإذاً فهى علمية . وكانت المسألة أن اللحم إذا فسد ظهرت فيه أحياء من نوع ما ، فكيف تولدت هذه الأحياء ، ومن أى شىء تولدت ، أم هى لم تتولد من شىء ، وتولدت من ذات نفسها . تولدت تولدلاً ذاتياً . ولست بذاكر تجارب « ريدى » هنا ، فهى من شأن باب آخر ، هو الباب التالى .

والآن فلنستمر فى متابعتنا ما كنا فيه أولاً ، من ذلك الفرع من علم الأحياء الذى قد أسميه « علم الأحياء بالملاحظة » . إن الناس من قديم الزمان لا بد قد ابتدعوا عدة من طرق لتقسيم الحيوانات والنباتات .

(١) مسألة تاريخية قديمة ، اختصم فيها العلماء طويلاً ، تبحث فى أصل الكائنات الحية الصغيرة ، هل هى كالكائنات الحية الكبيرة كالإنسان والحيوان والنبات ، لا تتولد إلا من أصل ، نطفة أو بيضة أو بذرة ، أو أنها تتولد من ذات نفسها ، بدون شىء من ذلك .

وكذلك الذين اشتغلوا بالزراعة منهم لا بد وجدوا الحاجة ماسة كل المساس إلى قواعد يتعرفون بها أنواع النباتات وأنواع البذور. وأغلب الظن أنه ما هل فجر التاريخ المكتوب حتى كان لدى الناس ذخيرة عظيمة من العلم جمعوها مما خبروا الطبيعة ولاحظوا ما بها من أحياء. وهي ذخيرة كانت أداة من أدوات العيش التي لا غنى عنها. ومع هذا فلا يستطيع أحد أن يسمي هذه الذخيرة ذخيرة من المعرفة العلمية. وأنا إن سميتها فإنما أسميتها معرضاً من معلومات مما أثمرته الخبرة. ولكن جاء من بعد ذلك أهل العرفان وذوو العقول الفلسفية من الرجال فوجدوا في الطبيعة الحية ما شاقهم فاتجهوا إلى هذه الذخيرة فأخذوا إليها ينظرون، وأعملوا فيها منطقتهم يحللون وينظمون، وعقولهم يفكرون فيما صنعوا من تحليل وتنظيم وذهبوا وراء ذلك يتظنون. وأدخلوا في هذا الشيء الكثير المركوم شيئاً من النظام، ورتبوه ونسقوه. وزاد هذا شوقهم فزادوا به الطبيعة نظرات وزادوها ملاحظات وزادوها اختبارات، لا لشيء إلا أن يضيفوا إلى ما رتبوا ونسقوا. وجاءت على أوروبا العصور الوسطى فكان أرسطو عمدة هذه الأجيال في علم هيئة الحيوانات وعلم طبائعها. وكان جالينوس^(١) عملتهم فيما يختص بتشريح الإنسان وعلم وظائف أعضائه. فهل نحن مطلقون على ما كتب أرسطو، وما كتب جالينوس، علماً بالمعنى الحديث الذي نفهمه اليوم من هذا

(١) جالينوس هو الطبيب الأغرقي، ولد في برجاموس، في آسيا الصغرى، عام ١٣٠ بعد الميلاد، وتعلم الطب في أزمير، وكونتيا، والإسكندرية. وبعد ذلك طاف بصقلية وفينيقيا وفلسطين. وعاد إلى بلده يعمل في منصب أعطيه. وبعد ٥ سنوات ذهب إلى روما حيث شاع ذكره. وهرب من حساده فعاد إلى بلده. ثم استدعاه قيصرية الرومان =

اللفظ؟ وإن نحن فعلنا ، ففي أى عصر يبدأ فن تنسيق الأحياء هذا يسمى علماً . وإن نحن لم نفعل ، فهل لنا أن نقول إن ما كتبه فبرشيوس Fabricius ، أستاذ هرتي ، وآخر رجال التشريح في جامعة يديا ، علماً؟ إنا نستطيع أن نجادل في ذلك أياماً ولا نخرج بشيء . لهذا أقترح أن نتبع طريقة أخرى في دراسة تاريخ علم الأحياء أكثر من هذه الطريقة ثمة ، وذلك بأن ندخل فيما نقول فكرة كانت ذات فائدة في تحليل ما بين العلم والصناعة من علاقة . ولعل القارئ يذكر أنا تحدثنا هناك عن «درجة الخبرة الفطرية» empiricism التي توجد في مهمة عملية في حقبة من الزمان ، وإنا نستطيع أن نستخدم هذا التعبير الموفق ، هذا المعنى الميسر ، في أى حقل من حقول العلوم (انظر صفحة ٩٦ ، ١٠٠) . وفيما نحن فيه ، نستطيع أن ندخل هذا المعنى . فهذه المعلومات الكثيرة التي تجمعت عن عالم الأحياء تقل درجة الخبرة الفطرية التي بها ، وتزيد فيها صفة العلم ، العلم الحديث ، بمقدار ما دخلها أو يدخلها من آراء عامة جامعة ، ومن صور ذهنية خاصة ، تكون هي أساس التقسيم والتفريق بين أجناس الأحياء جميعاً . والتقسيم وحده ، والتبويب وحده ، لا يعد علماً إلا إذا هو اعتمد على شيء خارج التقسيم والتبويب ، نظرات بالفكر عامة جامعة ، وتصورات ذهنية شاملة مجردة .

ولإيضاح هذا سوف أخرج دقيقة عن الطبيعة الحية إلى الطبيعة الجامدة . ففي الطبيعة الجامدة علما ، يعرف أولهما بعلم المعدنيات فاستجاب . ومات في نحو عام ٢٠٠ ميلادية . وظل سلطانه قائماً في أوربا إلى منتصف القرن السادس عشر .

Mineralogy ، ويعرف الثاني بعلم الصخور ، رسمها وتقسيمها Petrography ، فهذان العلمان نشأ أول ما نشأ عن مشروعات مبدئية بدائية لتقسيم الصخور وأتربة الأرض . وكانت على بداءتها ضرورية تنفع الناس في التعدين وفيما يستخرجون منها من معدنيات . والذين يطلعون اليوم على كتب التعدين التي كانت حتى في القرن الثامن عشر يجدون أن صنوف المعارف التي كانت بها كان عمادها الخبرة الفطرية العادية البحتة ، ومع هذا كانت نافعة أكبر النفع في استخراج المعادن ولن يستخرجونها . ولم يتهيأ لعلم المعادن أن يعتمد على أساس علمي معقول إلا بعد أن قامت الثورة الكيماوية في أواخر ذلك القرن . ومن الرجال الذين هدفوا إلى استغلال النظرية الذرية في هذا أكبر استغلال ، برزليوس Berzelius ، وهو الذي وجه عنايته إلى هذا العلم ، علم المعادن ، ليجعل منه علماً حقاً وصدقاً . واليوم ، وقد مضى وقت طويل على تقسيمنا أشياء هذا العالم المعدني بناء على ما في علم الكيمياء وعلم الفزياء من صور ذهبية ، ومشروعات تصورية ، جنحنا إلى اعتبار ما كان في علم المعادن قديماً أنه محصول خبرة بحتة لا علم فيها . ومع هذا فالباحث في كتب القرن السابع عشر والثامن عشر التي كتبت في هذا العلم لا يعدم أن يجده تصوراً فكرياً هنا ، وفكرة عامة هناك ، وهي أولية لا شك ، وبادئة غير ناضجة لا شك ، ولكنها سمات التحول الأولى ، تحول هذا العلم إلى علم بالمعنى الحديث . وقد قلت بذلك في هذا العلم خبرته البحتة ، وقلت درجتها ، وزادت علميته ، وزادت درجتها . وحدث هذا قبل قيام الثورة الكيماوية ، واستقرار النظرية الذرية .

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا ان حال علم الأحياء التنسيقي Systematic Biology ، أو إن شئت علم تقسيم الأحياء في عام ١٨٥٠ ، كان كحال علم المعدنيات في عام ١٧٥٠ ، وحتى اليوم يشك الإنسان في أن أثر النظرية الذرية في علم المعدنيات ، كان له نظير في علم الأحياء التنسيقي ، ولو أن ظهور نظرية النشوء في القرن التاسع عشر ، والتقدم السريع الذى وقع في علم الوراثة Genetics في القرن العشرين ، غيرا صورة هذا العلم تغييراً كبيراً . أنه ليس من أحد يستطيع اليوم أن ينكر أن الرجال القدامى بتنسيق الأحياء ، والتعرف عليها ، ودرس تواريخ حياتها وعلاقات ما بين النباتات والحيوانات ، إنما يعملون في حقول فيها الخبرة الفطرية هي السائدة . ومع هذا فقليل من الناس ، من سنوات مضت قليلة ، شكوا في قيمة ما يضيف هؤلاء الرجال إلى جداول الأحياء ، في كتب النباتات والحيوانات ، من جديد ما يكشفون عنه بالملاحظة ، اعتماداً على الخبرة ، من صنوف الأحياء في تلك التي تتمثل في المتاحف من حيوانية ونباتية .

إن الاهتمام الذى اتصل على السنين بحقل من الحقول لا يزال يغلب فيه الخبرة الفطرية ، وهي التي تقابلها في العلم الحديث التجربة العلمية ، يرجع على ما أحسب إلى اعتبارات عملية وأخرى عاطفية . إن الحقائق ، إذا تجمع منها قدر عظيم ، وكانت ذات فائدة ، فالخير كل الخير في أن تنقسم وتنظم . وأي أسلوب للتقسيم خير من أن لا يكون تقسيم . والظاهر لى أن اهتمام الإنسان بالأشياء الحية هو القوة المدافعة التي صاحبت التاريخ الطبيعى في نشأته ، وصاحبت علم الأحياء التنسيقي . وقد ذكرنا

من دوافع هذا الاهتمام ما اتصل أمره بالزراعة والطب . ولكن هناك سبب آخر أفعل وأشد أثراً ، ذلك أن الناس ترى أنفسها ألصق بالطبيعة الحية منها بالطبيعة الجالدة الميتة . والفرد منا يحس ، وهو يفكر فيما بين الحيوانات وبين النباتات من علاقات ، بأنه يفكر في شيء أخطر مما يفكر فيه عند ما يحاول تقسيم معدنيات على غير علم بالكيمياء . وفوق هذا فالفكرة يصوغها الإنسان بطبعه ، والنظرات يرسلها في الأشياء على بداهته ، تشر من المعارف في الحقل الحى ، حقل الحيوانات والنباتات ، فوق ما تشر في الحقل الجالدة ، حقل المعادن والمعدنيات . ومهما يكن من شيء ، فنذ أن بدأ عصر النهضة ، تعاون المستكشفون والباحثون الضاربون في أحضان الطبيعة ، في ملء المتاحف بعينات من النبات جاءوا بها من كل طرف من أطراف الأرض . وجاء خلف لهذا السلف سار سيرتهم إلى يومنا هذا . واخترع المكروسكوب ، أى المجهر ، في القرن السابع عشر ، وباخترعه فتح باب بل أبواب للكشف عظيمة ، ظهرت من ورأها دنيا مجهولة لم يكن اطلع عليها الإنسان قط . وتحسن المكروسكوب في أوائل القرن التاسع عشر فزاد في سعة مجال الكشف ، ويمكن من دراسة تاريخ حياة الأحياء الصغيرة المتناهية الصغر ، الأحياء الميكرووية . والأثر الذى كان لهذا التحسين فى الجدل الشهير حول نظرية « تولد الأحياء الذاتى » كان أثراً كبيراً ، وسيجىء ذكر هذا . كذلك مكن تحسين المكروسكوب من دراسة تركيب الأنسجة النباتية والحيوانية . وجرى التشريح الكبير ، التشريح بالعين المجردة ، إلى جانب التشريح الصغير ، التشريح بالعدس المكبر ، بالمكروسكوب ، جنباً إلى جنب . وإلى جانب اهتمام العلماء بتقسيم الأجناس ،

من نباتية وحيوانية ، والتعريف على الحديد منها ، جرى اهتمام لهم بدراسة تولد الأحياء ، كيف يقع ، وتاريخ حياة الكثير من الأحياء ، كيف يكون ، وكانت الأحياء الصغيرة ، من حيوانات ونباتات ، في كثير من الأحوال ، هي حاملات الأمراض والأستقام إلى الكبير من الأحياء ، فحفز هذا رجل الطب ، من طب إنسانى وطب حيوانى ، وحفز عالم النبات التطبيقي ، حفزهم جميعاً إلى دخول هذه الحقول الجديدة من حقول البحث التى عمادها المجهر الحديد . ودخلوها بقوة . والذي يريد أن يقرأ خلاصة ممتعة مما أنتج هؤلاء من نتائج عملية أن يقرأ الكتاب الرائع الذى كتبه مارستن باتس Marston Bates ، وسبق ذكره ، واسمه طبيعة التاريخ الطبيعى .

The Nature of Natural History . إن الإنسان منا لا يستطيع أن يحكم حكماً قاطعاً فى أمر علم الحياة التنسيقي Systematic Biology ، ذلك الذى يقسم الأحياء فى ممالكها ويتعرف عليها وعلى الحديد منها ، لا يستطيع أن يحكم هل بلغ العلماء بهذا العلم إلى الحد الذى يقال عنده أن ما يبذلون فيه من مجهود لا يساوى ما يخرجون به منه من ثمرة . ولكن كثير من الناس يرى اليوم أنه قد تباعد ما بين رجل علم الأحياء التنسيقي ورجل علم الأحياء التجريبي Experimental Biologist . ويقع بين هذين الطرفين دارس عادات الأحياء وما بها من علاقات ، بين حيوانات ونباتات . ولكن التقدم السريع الحادث اليوم هو حادث فى الميدان التجريبي ، فى علم الوراثة وعلم الخلية وعلم وظائف الأعضاء والكيمياء الحيوية ، وما إلى هذه ، وهو يكاد ينذر أو يبشر بأن أحداثاً عظيمة ستقع فى هذا الميدان التجريبي

فإن صح هذا فسوف يكون لهذه الأحداث صدهاها في الميدان التنسيق ،
 بمثل ما أحدث التقدم في الكيمياء في أوائل القرن التاسع عشر صدها
 قوياً في علم المعدنيات . ولكن الرجل من غير العلماء ، الرجل المتفرج
 الناظر إلى أحداث العلم من بعيد ، يكفيه من كل هذا أن يكون اطلع
 على الدور الذي لعبه في الماضي ذلك الجانب من علم الحياة الذي يعتمد
 على النظر والخبرة بالفطرة ، وأن يكون قد عرف علاقته بالبيولوجيا
 التجريبية ، وهي لا شك الجانب الذي يحظى اليوم باتساع في رقعته سريع
 ولكن قبل أن أترك موضوع علم الأحياء التنسيق ، لي كلمة في
 العرفان المنسق Systematised قد أرى أن هذا موضعها . إنه مهما
 يكن من مستقبل هؤلاء الرجال الذين يقومون بهذا النوع من العرفان ،
 في الجيل القادم ، أولئك الذين يعملون في المتاحف الحيوانية أو المعاشب
 النباتية ، فإني أراهم قد أضروا بالعلم من حيث لا يشعرون ، بأن وضعوا
 التقسيم وجمع الحقائق في الصف الأول من أهدافهم . إن تقسيم كل
 الأجناس المعروفة ، وجدولتها ، وجدولة أفرعها ، قد يكون عملاً ذا بال
 للأسباب التي سبق أن ذكرتها (ولو أني أشك في أن أسمى استكمال ملء
 خانات معينة في هذه الجداول لا تزال خالية ، أشك في أن أسمى علماء) .
 ولكن فواتهم تبرير هذا المجهود الكبير على شيء غير خدمته لأهداف
 عملية أدى إلى رأى يقول إن العلم مجموعات من معارف منسقة . وينتج
 عن هذا أن أى قطعة من معرفة نعثر عليها ، ونجد لها مكاناً خالياً في نسق
 ما من أنساق العلوم ، تسمى علماً . وما على المرء إلا أن ينظر إلى ما يكون
 من هذا الأمر لو أنه هو وقع في علم كعلم الكيمياء العضوية لكي يدرك

سيفه وسخف موقف يقفه صاحبه من العلم وبين العلماء .

إن عدد المركبات الكيماوية التي يستطيع الكيماهى أن يحضرها في الكيمياء العضوية ، من مركبات الكربون ، لا يكاد أن تكون له نهاية . ولأضرب مثلاً لذلك . إن أبسط مركب عضوى هو هذا الذى يحتوى ذرة واحدة من الكربون متحدة بأربع من الأدرجين . واستهداء بالنظريات الحديثة في الكيمياء ، وطوعاً لها ، نقول إن كل مركب فرد ، كل عضو من السلسلة الدهنية البرافينية يحتوى الكربون والأدرجين بنسب خاصة وعلى صور خاصة . وتبدأ هذه السلسلة بالمركب الأبسط الذى ذكرنا ، وفيه ذرة من الكربون وأربع من الأدرجين ، ويتمثل رمزه في ك يد^٤ . والمركب الذى يليه في السلسلة رمزه ك^٢ يد^٦ ، والذى يليه ك^٣ يد^٨ ثم ك^٤ يد^{١٠} ثم ك^٥ يد^{١٢} ثم ك^٦ يد^{١٤} ، وهلم جرا . وهذا الرموز لا تمثل مركباً واحداً دائماً أبداً . والواقع أن المركبات الأولى من السلسلة هى وحدها التي تمثل مركباً واحداً . فالرمز ك^٤ يد^{١٠} يرمز الى مركبين ، والرمز ك^٥ يد^{١٢} يرمز الى ثلاثة مركبات ، والرمز ك^٦ يد^{١٤} يرمز الى خمسة مركبات . وعدد المركبات التي يرمز لها الرمز ك^٧ يد^{١٦} تسعة مختلفة . وعدد المركبات المحتملة التي قضت بها النظرية الذرية على الورق بالحساب ، هو نفس عددها الذى وجدته الكيماويون تركيباً وتخليقاً Synthetically لها في المعمل . والنظرية الذرية في هذا كان بها وفاء وكان صدق . ولم يتعب أحد من الكيماويين نفسه في تركيب المركبات التي تقابل رمزاً من الرموز الكبيرة . فهذا عمل لا يطيقه أحد . ذلك أن الرمز ك^{٢٠} يد^{٤٢} يقابله بالحساب ، وحسب النظرية ، ٣٠٠٠٠٠٠ مركب . والرمز ك^{٤٠} يد^{٨٢}

الشيء لمحض فضول عقلي إلى المعرفة . ولسنا نستطيع أن نرد على قول لا تدعمه الحجة . ولا فائدة من رد العلماء على من يقول لهم في نزوة من سخرية « هذا علم غير نافع » ، بإعادة ما قاله صاحب النخب في نخبه الشهير ، إذ قام وطلب إلى الحاضرين أن يشربوه « في صحة الرياضة البحتة عسى أن لا تطبق أبداً » . إن العالم يستطيع أن يتخذ شعاره « العلم للعلم » ، كما اتخذ أهل الفن الذين شعارهم « الفن للفن » . وإذاً يستطيع صائد الوحش أو طالع الجبل أو جامع الطوابع إن يصيغ شعاره على هذه الصيغة . والعالم في هذا يجعل من العلم هوى شخصياً ينفق فيه مما ثقل عليه من وقته . أما إن هو أراد بهذا العلم الناس فعليه أن يستمع إلى كل من يتشكك من الناس في قيمة ما يصنع .

إن الذين قالوا إن العلم مجموعة من عرفان منسقة ، ثم أكدوا ذلك وأبرزوه وجعلوه في طليعة تعريف العلم ، لم يصنعوا خيراً . وما ذلك لأن هذا الجانب من العلم ليس علماً ، ولكن لأنه ليس بجوهر العلم . وهذا الصنف من العرفان له فائدة عملية كبرى لكل من يعمل في الجانب الحى والجانب غير الحى من الطبيعة ، ولكن الجهود الذى يبذل فيه لا يرتفع إلى أن يسم أصحابه بأنهم علماء عظماء ، إلا بمقدار ما يدخلون إلى هذا المحصول المنسق من العرفان ، وإلى ما به من تنسيق ، الجليد من الفكر والمستحدث من الآراء .

ثم من بعد هذا انخروج إلى الكيمياء العضوية أرى من المناسب أن أكتب فقرة أو فقرتين فوق ما سلف عن التاريخ الطبيعى . إن الذى يتصفح كتاباً للمدارس الثانوية أو الكليات في علم تقسم النبات أو علم

تقسيم الحيوان (أو إن هو حضر واستمع إلى برنامج من البرامج المعتادة في هذين العلمين) فهو لا شك سوف يروعه مقدر ما يعرض له من المعلومات والمعارف. وهو سيجد أن التوكيد في الكتاب، أو عند التدريس واقع على هذه المعارف، وبالطبع ليس بأنها قطع من العرفان ولا شيء غير هذا، ولكن لصلتها بوظائف النباتات والحيوانات، وبنشأتها، وبالذى بين النباتات والحيوانات من علائق. وقد يستطيع المرء أن ينظر إلى هذا الحشد العظيم من المعلومات من زاوية أخرى، ويتساءل كيف جاء كل هذا وكيف تجمع. وهذا سؤال لا جواب عليه إلا في كتب التاريخ، تاريخ هذا العلم، علم الأحياء. ولكنه هنا، في هذه الكتب بالضبط، سيطلع على الطرق التي اتبعتها السابقون في هذا العلم، في استنباطهم هذه الحقائق وتعرفهم عليها، وسيجد فيما صنعوا كيف تحفز الحقائق مكتشفها إلى الجرى وراء حقائق أخرى لم تكتشف، ثم إلى أخرى فأخرى، وهلم جرا وإني أحيل القارئ إلى الأبواب الكثيرة من كتاب ويمان Wightman واسمه «نشأة الآراء العلمية» Growth of Scientific Ideas، وإلى كتب تاريخ علم الأحياء الأخرى، ليدرك منها كيف نشأت ونمت علوم الحياة. واكتفى هنا بإيراد بضعة أمور أصل بها بين الطرق المستخدمة في علوم الحياة، وتلك الأخرى التي سبق ذكرها، المستخدمة في العلوم الطبيعية.

أما الأمر الأول فهو أن الفضل لأداة جديدة تبتدع، أو جهاز جديد يبتدع، أو تحسين يدخل في أداة قديمة أو جهاز قديم، فضل عظيم يترأى لك واضحاً بيناً مكتوباً بحروف عريضة في صفحات تاريخ علم

الحياة في القرن السابع عشر إلى اليوم . ولكن علماء الحياة يغفلون تقدير هذا الأثر وإظهاره وإبرازه عند ما يكتبون للقراء من الناس . إن استخدام المكرسكوب ، المجهر ، بدأ في القرن السابع عشر . وقد سمي النصف الأخير من ذلك القرن بعصر المكرسكوبيين الأقدمين (ومن الظريف الذي يذكر في هذا الصدد أن بطالا من أبطال هذا العصر ، وهو المكرسكوبي الهولندي أنتوني فان لوفن هوك Antony van Leeuwenhoek ، عمل بعدسات من الزجاج بسيطة ، لا بالجهاز الذي تعودنا أن نسميه اليوم مكرسكوباً) وجاء العصر الثاني من عصور المكرسكوب الزاهية في الربع الثاني من القرن التاسع عشر ، وسبب ذلك أن الصعوبات التي لاقاها الناس في استخدام عدستين معاً (في المكرسكوب المركب) كانت قد تسهلت . وتسهلت لسبيين ، وألحما الحصول على مشروع تصوري كاف ، نظرية كافية ، تفسر لنا كيف يمر الضوء ، بألوانه المختلفة ، في العدسات ، وثنائهما اكتشاف طرق لصناعة أنواع من الزجاج مختلفة ، ثم الجمع بينها . وكانت النتيجة إبداع مكرسكوب ، مجهر ، لا يختلف كثيراً عما نألف اليوم من مجاهر ، يكبر تكبيراً عظيماً ، ويعطي صوراً من الأشياء واضحة تجتمع فيها الأضواء مهما اختلفت ألوانها عند نقطة واحدة بينة . وعدا هذا فلم ينتصف ذلك القرن ، القرن التاسع عشر ، حتى ابتدعت طرائق للعمل جديدة ، صناعات جديدة techniques ، لرؤية الأشياء ، ولتحضير القطاعات المستعرضة والمستطيلة منها ، شاعت بين العلماء جميعاً .

إن المكرسكوبيين القدماء ، أو إن شئت قلت المجهرين في القرن السابع عشر ، فتحوا لنا أبواباً لعالم من الأحياء جديد . وسيتضح بعض

آثار ذلك عندما نتناول « تاريخ التوليد الذاتي » . وهم كشفوا لنا عن الحيوانات المنوية في الإنسان وغير الإنسان ، وبهذا ، وبما إلى هذا ، خطوا خطوات واسعة نحو استجلاء ما استغلقت من أمور التناسل وظواهره وهي ما بدأ استجلاؤها ، وانحل بعض ما تعقد منها ، إلا في القرن التاسع عشر ، حين تسلم العلماء في بحوثهم بمجاهر قوية حقاً ، حلت لهم فيما حلت كيف يتولد النبات من زهره وبأزهاره .

أما الأمر الثاني فإن البحث في تنشأ الأحياء له أسلوب أشبه ما يكون بأسلوب الرجل الذي يبحث عن ولد ضل طريقه في غابة أو رجل يجري يتأثر آثار حيوان يريد أن يصيده فيها . والحق أن أسلوب البحث في كل من التاريخ الطبيعي وعلم الأحياء التنسيقي ، من حيث أن إجراؤه ، ومن حيث ما به من صور ذهنية ، أقرب ما يكون إلى أسلوب الفطرة ، وأسلوب الناس في حياتهم الجارية بالرغم مما في العلمين من تفاصيل هائلة . وإني لأحس بأن حديثي عن التصورات الفكرية والمشاريع الذهنية ، وحذرأنا ألترمه في تقدير ذلك في شتى فروع العلم ، أحس بأن هذا الحديث خارج عن الموضوع أنا أبحث في التاريخ الطبيعي وفي علم الأحياء التنسيقي . إني عند ما أقول إنا نعيش من الجو في بحر من الهواء قد أجد من يقوم فيقول لي ما هذه بحقيقة ، إنما هو تصور علمي أقرب ما يكون الى احتمال . وهذه ريبة جائزة القبول . ولكني لا أتصور رجلاً يرتاب في « الحقيقة » التي تقول إن البيضة الملقحة تنتج من حيوان منوي وبيضة أنثى ، وهي حقيقة من بين ألف ألف حقيقة يحتويها هذان العلمان . ودونك مثل آخر نأخذ من ظواهر التلقيح في النبات : وهو مثل يدعو القارئ الذي لم

يتصل بعلم النبات ، وبتفاصيله من قبل من قريب ، إلى الدهشة ، وحق له أن يدهش . ذلك أن المكرسكوب يرينا أن من حبوب اللقاح تنمو أنبوبة تنزل من خيط عضو التأنيث فتدخل المبيض ، وبهذه الطريقة تتحد خلية تناسلية من اللقاح بأخرى من الزهرة الملقحة . شئ معقد ، لا شك في هذا . ولكنه الحقيقة التي لا مرأ فيها . ومثل ثالث ، مثل الطفيليات التي تتطفل على الإنسان والحيوان . إن الإنسان ليعجب لهذا الحدق العظيم الذى كان سمة هؤلاء الباحث الذين كشفوها ، وكشفوا أدواراً تتقلب فيها ، وكشفوها من بين حقائق متراكمة مشتبكة كثيرة ، وداروا فيها كما يدور رجال المباحث الجنائية بين أحداث جنائية معماة يستجلبون حقائقها حتى يصلوا إلى جسم الجريمة فيها .

واختصاراً أرى أن الصور الذهنية التي يقوم عليها بحث علم الحياة التنسيقي اليوم ، والإجراءات التي يتخذها باحث هذا العلم وهو فى الحقل بين النباتات أو فى مباءات الحيوانات ، هى أشبه شئ بالذى يتخذه الرجل العادى من صور ومن إجراءات فى عيش يومه . ولكن فى علم الأحياء فروع أخرى هى اليوم محط للصور الذهنية والمشاريع التصورية التي هى بعيدة كل البعد عن ذهن الرجل العادى ، الرجل غير العلمى ، بعد أمثالها التي نجدها فى علم الطبيعة وعلم الكيمياء . ومن هذه الفروع فروع علم الأحياء ، علم التناسل Genetics . وفيه « الجين » ، وهى وحدة التناسل ، وهى صورة ذهنية تقع من افتراض الإنسان فى مثل ما وقعت النرة يوم أدخلها دلتن فى الكيمياء حول عام ١٨٠٠ . فهذا مثل من الصورة ، أو التصور الذهنى ، فى علم الأحياء . أو لعل خيراً من هذا

أن نقول إن الفرض الذى يفرضه العلم الحديث عن كيف يجرى التناسل هو مثل للمشروع التصورى كيف يكون فى علم الأحياء . وهو فرض له اليوم خطر عظيم . وفهمه وفهم الآراء الجديدة فى هذا العلم ، وكيف جاءت ، يجد اليوم عند الناس اهتماماً به خاصاً . ذلك لأن الاتحاد السوفيتى أنكر هذا الآراء التى هى عماد علم التناسل ، والتي قبلها كل عالم تناسلى . وأنكرها لأنها لا تأتلف مع ما يقول به الحزب الاشتراكى فى روسيا من تعاليم . وفى هذا اختلقت التعاليم السياسية بالمبادئ العلمية اختلاطاً غريباً . وسأعود إلى هذا الموضوع فى آخر باب من هذا الكتاب . ولكنى أنصح الآن بقراءة كتاب جوليان هكسلى Huxley ، واسمه « الوراثة بين الشرق والغرب » . وأنصح بقراءته على أنه مقدمة لدراسة هذا الفرع من علم الأحياء ، وعلى أنه ينقل إلينا ما جرى وراء الستار الحديدي فى هذا العلم من أحداث .

دراسة بستور للتخمير بحسبانها مثلاً لعلم الأحياء التجريبيّ

إن علم الفسيولوجيا ، علم وظائف الأعضاء ، فرع آخر من علم الأحياء التجريبيّ الذى فيه تلقى صوراً ذهنية ومشاريع تصورية بعيدة كل البعد فى طبيعتها عما تعود سواد الناس . والسبب فى ذلك هنا يرجع أصلاً إلى أن البحوث فى سبيل بحثهم عمليات الحياة ، فى نباتات أو حيوانات ، منذ مائة وخمسين عاماً ، قد دخلوا حتى أوغلوا فى علمين

تجريبيين هما الطبيعة والكيمياء . ومن أجل هذا دخلت الصور الذهنية والمشاريع التصورية التي بهذين العلمين التجريبيين الى علم الحياة التجريبي من باب كان ضيقاً فانفتح واسعاً على الأيام (ومن علم الحياة التجريبي علم الوراثة) . ولإيضاح كيف حدث هذا ، ولعرض بعض الصعوبات التي اعترضت تطبيق منطق الكيمياء وطرائقها في علم الأحياء ، نأتى على ما درس لويس بستور Pasteur من أمر التخمير .

وأبدأ فأقول إن على من يعنى بدراسة طرائق العلم أن يقرأ تاريخ حياة بستور ، تأليف رينيه دوبو René J. Dubos ، واسمه Louis Pasteur Free Lance of Science ، وهو واجد في باب عنوانه « من البلورة إلى الحياة » وصفاً رائعاً لشاب فرنسي بدأ في منتصف القرن التاسع عشر يدرس البلورات ، أشكلها وأوصافها ، ثم يختمها بدرس الكائنات الحية . وبين سن الثلاثة والعشرين وسن الثلاثة والثلاثين ، نقل بستور همه من الجاهل الميت إلى الحي من الأشياء . والعوامل التي أغرت هذه العبقرية بهذا التحول يجدها طالبها في سهولة مما كتب هو وما كتب معاصروه ، وهي لا تعدم فائدة عند مؤرخي العلوم ، ولها لا شك معنى خاص وقيمة لدى كل رجل يُعنى بفن الكرّ والفرّ والتخطيط في ميدان العلم .

إنه من الواضح أن بستور ساقه إلى دراسة التخمير ، اهتمامه بمسألة عملية ، تلك تخمير سكر البنجر في مصنع لتحضير الكحول . زاره في صدد هذه المسألة صاحب مصنع بمدينة ليل Lille يستشير في بعض ما تعرّ به في صناعته ، وكان بستور عميداً لكلية العلوم بتلك المدينة .

وفي هذا الذي جرى يجده المتأمل مثلاً تكرر في العلم كثيراً . مثل رجل عالم يهتم بمسألة عملية ، فإذا بها تسوقه إلى صميم العلم البحت فيكشف فيه ما يكشف . ولكن كان هناك سبب آخر غير هذا الحادث المصادف دعا بستور إلى الدخول في هذه العمليات البيولوجية التي تسمى بالتخمير . ذلك أنه كان يدرس البلورات ، وكان ابتلع فيها فرضاً علمياً بعيد الأثر ، ولهذا الفرض العلمي أشار بستور في مطلع مقاله الأولى التي كتبها في التخمير . وكان هذا الفرض فرضاً علمياً جريئاً ، وهو قائم إلى اليوم لا يتحده أحد ، إلا ما كان فيه من بعض تعديلات يسيرة . ولكن في الوقت الذي افترضه فيه بستور ، كانت الأدلة عليه غير كثيرة . ولكنه فرض أثمر على السنين ثمرات كثيرة .

كان بستور يبحث في دوران مستوى الضوء المستقطب عند ما يمر ببعض البلورات وبعض السوائل . وهذه ظاهرة من ظواهر الضوء ، وبها شيء من التعقد ، ولهذا نكتفي لغرضنا الحاضر أن نعتبرها خاصة طبيعية يمكن قياس مقدارها بآلات مناسبة معروفة . وهذه الخاصة التي بها يؤثر جسم في المستقطب من الضوء فيدير مستواه نادرة نسبياً بين الأجسام السائلة أو الأجسام الذائبة في محاليلها (أنا هنا حذفت عمداً قصة طويلة شائقة هي شغل بستور في البلورات) . والأجسام التي لها هذه الخاصة كلها من أنتجة الحيوان أو النبات ، ولدينا الآن من الحوار الكثير الذي يشهد بصدق هذا الحكم العام ، ذلك أن هذه الخاصة لا تنتج إلا عن منشط حيوي في نبات أو حيوان . ولم يكن عند بستور ، في زمنه ، إلا القليل من هذه المواد ، ولكنه آمن إيماناً لا يأتيه الشك بأن المواد التي

تتكون نتيجة لعملية من عمليات الحياة هي وحدها التي يجوز عليها أن تدير مستوى الضوء المستقطب . بهذا الفرض ذو الخطر البالغ خرج بستور إلى العلم . فلما واجهته الحقيقة ، أن مادة من المواد ، تسمى بالكحول الأميلي Amyl alcohol ، تخرج مع ما يخرجها التخمر من حامض اللكتيك Lactic ، حامض اللبن ، وأن لهذه المادة القدرة على إدارة مستوى الضوء المستقطب ، استنتج بناء على فرضه الذي فرض ، أن هذه المادة لا بد نتجت من عمل حي من الأحياء ، تدخل في الأمر عند التخمر .

إني اختصرت هذه القصة اختصاراً كبيراً ، والذي يقرأ ما كتب بستور يعلم أنه ، إلى جانب هذا الفرض الكبير كان برأسه فرض آخر ، لو أتي دخلت فيه لاحتجت إلى الخروج عن الموضوع والدخول في مسائل فنية عديدة . ويكفي أن أقول إن هذا الفرض الثاني لم يلبث أن ظهر بطلانه والمهم في هذا أن بستور كان يدفعه في كل ما صنع إيمان عنده قوى بالفروض يبتدعها ، ويبتدعها من عند نفسه ، وكان إيمانه الشديد بها تعمله وتسندة أشياء أخرى غير الحقائق وما يخرج منها بالمنطق من نتائج . كان منطق بستور كمنطق لافوازيه بعد أن تأثر بنتائج دراسته لاحتراق الفسفور . وأنا عند ما ناقشت النظرية الذرية (صفحة ٢٨٠) خاصمت القوم الذين يقولون إن العلماء إذا بحثوا مسألة تناولوها في حياء شديد ، وبلدون رأى أو هوى قبل ذلك معقود . فهذا مثل آخر مما أعني ، من بستور ، حمله إلى النصر فيه الإيمان القوي الذي لم يعتمد فيه إلا على الدليل القليل .

في الوقت الذي توجه فيه بستور إلى دراسة التخمر كان البحوث صنعوا الكثير في هذا الباب ، باب التخمر الكحولى . وكانوا عرفوا أن كائناً حياً ، هو الخميرة ، سحب هذه الظاهرة دائماً ، ظاهرة استحالة السكر إلى كحول وغاز كربونيك . ولكن الرأى السائد في العالم العلمى كان يقول إن تكون الكحول كان نتيجة لتحلل الميت من خلايا الخميرة . وكان هذا رأى الكيماوى الألمانى العظيم ، ليبج Liebig . فهو افترض أن نوعاً من ذبذبة وقع في مادة عضوية معقدة التركيب أثناء تحللها ثم انتقل منها إلى السكر فتذبذب السكر مناعماً إياها ، فتحلل ، فكان منه الكحول . تحلل يناغم تحللاً . واختلف بستور وليبج في هذا منذ بدأ بستور دراسة التخمر إلى أن مات ليبج عام ١٨٧٣ . إن بستور رأى سبب التخمر ، سبب تحول السكر إلى كحول ، دفينا في الخميرة نفسها ، في حياتها وما يجرى بها من عمليات . وهو قال اختصاراً : إن لم تكن حياة ، فلا تخمير ولا تخمر . وهذا لا بد أن يعد فرضاً ثانياً من فروض بستور العظيمة . ورأى ليبج أن الحياة نفسها لا شأن لها بالتخمر ، وعنده أن الجوهر كل الجوهر في المادة العضوية التى بالخميرة . وليس خطر هذه الحصومة في أنها وقعت بين هذين العملاقين ،

(١) هو جستش ، بارون فون ليبج ، الكيماوى الألمانى ولد بدارمشتات عام ١٨٠٣ وتوفى في ميونيخ عام ١٨٧٣ . ظل أستاذ الكيمياء ٢٥ عاماً بجامعة جيسن ، ثم في هيدلبرج ثم في ميونيخ . واختارته أكاديمية العلوم في ميونخ رئيساً لها . أنعم عليه بلقب البارون الجرانلون هس . عمل ليبج كثيراً في تحسين طرق التحليل ، ومكثف ليبج منسوب إليه . وبحث في الأطعمة ، طبخها والاستفادة منها . وخدم الزراعة ، ولا سيما من حيث التربة والتسميد .

علاقى القرن التاسع عشر ، فأدت إلى كثير من البحوث المثمرة ، ولكن خطرهما أيضاً كائن في أنها توضح لنا الصعوبات التي تقوم في تعريف المصطلحات في علم الأحياء . مثال ذلك التخمر . فما الذي نعنيه بالتخمر ؟ وستقول بالطبع إنه إنتاج الكحول من السكر في حضرة خميرة . وهذا هو مثل التخمر القديم . ولكن ماذا أنت قائل في إنتاج حامض اللبن (ومعه شيء من الكحول الأميلي) من محلول السكر ؟ فهذا يحدث على ما يظهر من ذات نفسه ، وفي غير حضرة شيء ، وبدون واسطة ، عند درجة حرارة معروفة ، وعلى الأخص في وجود الطباشير وبعض المواد الزلالية . أفيكون هذا تخمراً ؟ إن بستور هكذا سماه عند أول بحثه له . ولما بحثه استخرج منه كائناً حياً ، صغيراً ، غاية في الصغر ، مجهرياً ، هو « خميرة حامض اللبن » . (الحقيقة أنه ليس خميرة ولكن بكتريا) ثم ما بال العمليات التي قام ليبج بدراستها بنفسه ، في شبابه ، جيلاً من الدهر قبل ذلك ؟ مثال ذلك التغير الناشئ في اللوز المر إذا هو هرس بالماء . إن هذا التغير كماوى تضمنت مادة زيتية (زيت اللوز المر) من مادة ذائبة في الماء . وأثبت ليبج أن العامل في هذا التغير شيء موجود في قشر اللوزة المرة . فلو أن هذا التغير أدخل في معنى التخمر ، إذاً لأوجد لبستور متاعب ما كانت تنقضى أبداً . لأن هذا التغير لم ينشأ عن كائن حي ، له عمل فيه . والذي أعلمه أن بستور لم يحاول أن يجد في هذا التغير الكماوى خميرة كحولية أو لبنية أو ما شابههما . وإنما هو أغلق هذا الباب واستراح . قال : إن هذه التغيرات وأمثالها ليست بالتخمر الصادق .

قال بستور في بعض كتاباته الأولى يصف بعض نتائج خرج عليها من دراساته : « إنى وجدت أن كل التخمرات الصادقة ، كالتخمر الذى ينتج حامض اللبن ، أو ينتج حامض الزبد butyric acid ، وكذلك تخمر حامض الطرطير أو حامض المالميك Malic أو البولينية ، كل هذه التخمرات يصحبها دائماً كائنات حية متكاثرة . والرأى عندى أن المواد الزلالية الموجودة مع التخمر لم تكن خمائر أهدأ ، بل هى غذاء للخمائر . إن الخمائر الصادقة ليست إلا وحدات منظمة مُعضّاة » . وهو يقصد بهذا أنها كائنات حية . وهو قد أخرج من معنى التخمر بعض التغيرات الكيماوية الحيوية ، وقد كان مستظاعاً أن يبرر هذا الإخراج بأن التغير الكيماوى الذى هو أخرجه لم يكن تغيراً فى الجزئيات عظيمًا ، يكاد أن يكون هدمًا ، كما هو الحاصل فى التغير بالتخمر ، ولكن الكيمياء العضوية لم تكن تقدمت كل هذا التقدم فى عهد بستور حتى يستطيع أن يدرك من الأمر ما ندرك نحن منه اليوم .

والحق أن بستور ، فى ما ذكر من تغيرات ، لم يثبت فقط أن الكائن الحى لا بد من وجوده ، بل أثبت كذلك أنه لا بد من تكاثره . لا بد من أن يحيى وأن ينمو . والفرق هائل بين الحالين . فليبيح وأتباعه زعموا أن خلايا الخميرة تموت ، وأن ما تتخلف عنها من مادة ميتة يتحلل ، ويخرج من هذا التحلل مواد هى التى تفعل التخمر . ولكن بستور ، باستخدامه المكرسكوب استخداماً رائعاً ، وباختراعه كثيراً من طرائق فى العمل ظلت من بعده طرائق فى علم الحياة المكرووى معتمدة ، بهذين معاً أثبت إثباتاً لا مرية فيه أن التغير الحادث فيما ذكر من أحوال

جرى خطوة خطوة مع نمو هذه الكائنات الصغيرة المجهرية الميكروبية، في غيبة الهواء. وهو لم يلبث من بعد هذا أن أعلن عن فرض هائل جديد، عبر عنه إذ قال « إن التخمر حياة من غير أكسجين ».

ولننظر الآن فيما صنعت أجيال من البحوث جاءت بعد بستور، وكيف تقف من هذه الأبحاث اليوم. ففي ختام القرن التاسع عشر جاء عالم ألماني^(١)، فعصر تحت ضغط عظيم مقداراً من خميرة، فخرج منها سائل به شيء أمكن به التخمر، تخمير السكر إلى كحول. فهذه تجربة لو أنها وقعت في عهد ليبج لأقام الدنيا بها وأقعدها. فما لا شك فيه أن التخمر مستطاع بواسطة مواد تنتجها الخميرة، وأنه لا حاجة بالتخمر إلى وجود الخميرة الحية ذاتها تسعى بالحياة.

ثم جاء بعد ذلك، في الخمسين من السنين الماضية، ذلك الحشد الكبير من علماء علم الحياة والكيمياء الحيوية والكماويين، وأخرجوا لنا من العلم ما استطعنا به أن نبني مشروفاً تصورياً، نظرية، نجد بها مكاناً مهماً لكل هذا الجدل الذي قام بين ليبج وبين بستور بعد صفائه ونقائه واتضح الحقيقة فيه. فنحن الآن نعتقد أن التفاعلات الكماوية في الأحياء والمواد الحية إنما هي تفاعلات منشطة، أو إن شئت فقل تفاعلات catalysed. أى تفاعلات تجرى بسرعة محسوسة في وجود عامل منشط

(١) هو ادوار بوخنر Buchner، الكماوي الألماني. ولد عام ١٨٦٠ في ميونخ. وكان أستاذاً في برلين وبرسلاو وفرتزبرج. انصرف إلى دراسة الخمائر والتخمر، واكتشف أن التخمر غير ناتج عن الخمائر نفسها، ولكن عن مادة كياوية تصنعها الخمائر سماها بالأنزيمات. وعصرها من خميرة البيرة فخرج منها أنزيم كان له في التخمر عمل الخميرة. قتل في الحرب العالمية عام ١٩١٧.

عامل مكتنز ، أو كيتلاز ، وهو تكفي الكميات القليلة منه لإجراء التفاعل .
وعوامل التنشيط هذه التي لا توجد في الطبيعة نسميها بالأنزيمات .
والظاهر أن كلها بروتينات ، وكثير منها استخلص اليوم نقياً . والموقف
الآن يتلخص فيما يلي : أن تكون زيت اللوز المر (ملاحظة ليبج الأولى
السابقة) مثل من التفاعل يحدثه أنزيم يخرج سهلاً من خلايا حية أو خلايا
ميتة على السواء . إذاً فلا صعوبة في إحداث التغيرات الكيماوية في غيبة
الكائن الحي . أما تحول السكر إلى كحول ، أو قلب السكر إلى حامض
اللبن ، وكل ما ذكر بستور من تخمر سماه هو وحده التخمر الصادق ،
فتفاعلات كيماوية تحدثها أنزيمات لا تخرج في الأحوال العادية
المستخدمة الجارية من خلاياها ، من خماتها . ولهذا وجب في هذه
الأحوال أن تكون الخلايا حية ، ففي حياتها وحدها يستطيع السكر أن
يتنفذ إلى الخلية فيلتقى بالذي هو في داخلها من أنزيم ، وبذلك يتحول ،
إلى كحول مرة ، وإلى حامض اللبن مرة ، ثم تنفذ هذه الأنتجة مرة أخرى
من غشاء الخلية ، غشاء الخميرة ، إلى المحلول .

فأيهما إذاً كان الصادق فيما زعم ، ليبج أم بستور ؟ أنا أميل إلى القول
أن كليهما أخطأ . ففكرة ليبج عن المادة العضوية المتحللة المتذبذبة التي
يتذبذب معها السكر فيتحلل ، فكرة غير مشمرة ، ولا هي تتفق مع نتائج
التجارب . وفضلاً عن هذا فقصوره عن إدراك ما قد يكون في فرض
بستور ، من صادق ، أو بعض صادق ، كان عمى علمياً صارخاً . إن
فرض بستور كان خاطئاً ، ولكنه أثمر أكثر الثمر . ولعلي ، وأنا الخذر
الشكاك الذي يتحدث عن الصور الذهنية والمشاريع التصورية وما تخرج

من ثمرات ، يجب على أن أرفض جواب ما أنا سائله . ولعل القارى قد لاحظ أن المزاج البيولوجى ، وأنا أتحدث فى البيولوجيا ، قد غلبنى فى الحملة الأولى من هذه الفقرة عند ما سألت سؤالاً طبيعياً فطرياً مما يسأل السواد من الناس . ولكن عجز كل أحد عن اعطاء جواب حاسم قاطع لهذا السؤال الذى سألته هو عندى مبرر لموقف أفقه من الشك ويقفه كل كيمائى مرتاب . ومع هذا ، فلا أقف بهذا الحديث عند هذا الحد ، ولو أن الإغراء عندى بأن أزيد .

وختاماً أود أن أوكد صعوبتين ، صعوبة تعريف معنى التخمر ، وصعوبة إيجاد صلة بين كائن حى وبين سلسلة من وقائع تقع من حوله . أنك تستطيع ان تستبدل بلفظة التخمر ، لفظة النيومونيا ، أو التيفود ، أو الحصبة أو التيفوس ، وان تستبدل بلفظة الحميرة لفظة البكتريا ، فتقف بعد هذا الإبدال وجهاً لوجه أمام حالات من المرض ساعد بستور بالذى صنع فى حياته على فهمها وعلى حل معضلاتها . من أجل هذا أرى فائدة كبرى فى استعراض بعض ما مرت به نظرية الجرثومة ، جرثومة المرض ، من أطوار ، نردفه بالحديث عما جرى من الأبحاث فى أمر الفيروس virus ^(١) فى هذا القرن . ولكنى لن أفعل . وعضواً عن الدخول فى دائرة الطب هذه ، أقترح على القارئ مرة أخرى أن يقرأ تاريخ حياة بستور تأليف ديبو Dubos . وهناك يستطيع القارئ أن يجد ما بين طرائق يتبعها عالم الأحياء التطبيقي ، وطرائق يتبعها عالم الطبيعة وعالم الكيمياء من فروق وأشباه . كذلك يتضح من قراءة حياة

(١) كائنات أصغر من البكتريا تسبب الأمراض .

بستور هذه قرب العلاقة ما بين العلم والبحث والعلم التطبيقى فى الحقل الحيوى ، على ما سبق أن وصفت . إن حياة هذا الرجل وما قام به من أعمال كثر لا يفى لمن هوايته طرائق العلم ودراستها . إن لبستور جدلاً سابقاً ، جاءه وهو يدخل الحقل الحيوى لأول مرة ، به من النفع ما يستأهل به أن يفرد له فى هذا الكتاب باب . من أجل هذا أنتقل بالقارئ من الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية ، إلى هذا الجدل وهو تولد الأحياء ، من حيوان ونبات ، أيقع تولدها من ذات نفسها ، أم يقع بغير ذلك .

الباب التاسع

الملاحظة والتجريب^(١) في علم الأحياء أمثلة مقتبسة مما قام حول التولد الذاتي من جدال

أتينا في الجزء الأخير من الباب السابق على دراسة بستور للتخمير ،
ومنها عرف القارئ بعض شئ عن الصعوبات التي تقوم في تحديد
معنى العمليات الحيوية وفي دراسها . وأتينا على شبه مقدمة لهذين الفرعين
من علم الحياة اللذين نسميهما اليوم علم وظائف الأعضاء والكيمياء
الحوية . وفي هذا الباب الحاضر سأوضح طرائق علم الحياة التجريبي
بعرض بحث لا تكاد تدخلها الكيمياء الحوية . وسألقت النظر على
الأخص إلى صعوبة التحكم في « العوامل المتغيرة »^(٢) variables في
التجريب الحيوي ، وإلى الحاجة إلى ذلك الصنف من الإجراء التجريبي
الذي ابتدع فيه ما نسميه بتجربة المقارنة control experinent^(٣)

(١) راجع معنى هذين اللفظين في الاصطلاح العلمي وذلك بالهامش بصفحة ٢٣
(٢) كل تجربة تقام في ظروف وشروط ، بعضها يؤثر في النتيجة وبعضها لا يؤثر
فيها . والشروط والظروف التي إذا تغير أحدها أثر في النتيجة تبعاً لذلك تسمى بالمتغيرات
والعوامل المتغيرة .

(٣) تجربتان ، أولى وثانية ، يجريان معاً بإجراء واحد ، وفي ظروف وشروط واحدة
إلا شيئاً واحداً اختلفا فيه ، كان في الأولى ولم يكن في الثانية . ويظهر فرق في النتيجتين

وقد وجدت بلوغ هذه الغاية أن ندرس حقبة مختلفة من تلك التي مرت بها المشكلة التي قامت حول مبدأ التولد الذاتي وسوف نستعرض في اختصار كبير عمل باحث إيطالي أجراه في القرن السابع عشر ، ونقاشاً جرى بين رجل إنجليزي وآخر إيطالي في القرن الثامن عشر ، ثم جرداً شديداً وقع في الربع الثالث من القرن التاسع عشر طوى فيمن طواهم من الرجال علماء فرنسياً وآخر إنجليزياً . ونحن إذ هكذا نختار نعطي نماذج من عمل علماء الحياة نرى منها أنه لا يوجد خط واضح المعالم يفصل بين الملاحظة والتجريب ، ولو أننا في الباب السابق وجدنا من المفيد أن نميز بين العلماء التنسيقيين والعلماء التجريبيين في علم الحياة . ومن قبل قال « هويت هـد » Whitehead إنه لا يوجد من حيث الطريقة تمييز بين الفلك والطبيعة ، أي الفزياء ، ولو أن الفلك قد يعتبر علم ملاحظة ، وتعتبر الفزياء علم تجريب .

إن العلاقة بين الملاحظة والتجريب تتضح في بساطة فيما قام به فرنسيسكو ريدي Francisco Redi^(١) من دراسة تولد الديدان من اللحم الفاسد تولداً زعمه الزاعمون ذاتياً . وقد سبق أن قلت عن هذا الرجل الباحث الباكر أنه جمع إلى عادات الرجل المدارس للطبيعة في مبادئها ، عادات الطبيب ، وضم

فيعزى هذا الفرق في النتيجة ، إلى الفرق في هذا الشيء الواحد ، هذا العامل الواحد المتغير ، الذي كان في التجربة الأولى ولم يكن في أختها الثانية . وتسمى هذه التجربة الثانية بتجربة المقارنة ، لأن بها تقارن التجربة الأصلية الأولى .

(١) فرنسيسكو ريدي هو العالم الطبيعي والإيطالي ، والشاعر . ولد عام ١٦٢٦

إليها طرائق البحث التجريبي التي تعلمها من أكاديمية شيمنتو بفلورنسا وقد مر ذكرها تكررًا. وكان أن نشر «ريدى» عام ١٦٦٨ نتائج أبحاثه عن تولد الديدان في اللحم ، فإذا ثبت إثباتاً مقنعاً أن الدود الذى ظهر فى اللحم بعده بضعة أيام لم يتولد من ذات نفسه ، وذلك نقضاً لرأى سبق إليه الناس . وأثبت على نقيض هذا الرأى أن الدود إنما جاء اللحم من بيض وضعه الذباب عليه لما هبط على اللحم . وبدأ «ريدى» تقريره عن هذا بوصف هذه الظاهرة ، كما تحدث فى الطبيعة ، وصفا أساسه الملاحظة دقيقةً . ووصف لنا بيناً كيف هو بدأ بالملاحظة ثم انتهى بالتجربة .

بدأ ريدي وصفه بذكر ما لاحظ على سطح لحم وضعه فى صندوق مفتوح بمدينة فلورنسا لعدة أيام فى أواسط شهر يوليو . وهو يحدثنا ، لا عن ديدان ظهرت على سطح اللحم فحسب ، بل كذلك عن أشياء صغيرة بيضاء سماها بيضا (الحقيقة أنها شرانق) . ثم هو يصف ما لاحظ من فقس كثير من الذباب . قال ريدي : « وقد رأيت أنسالا كثيرة من ذباب صغير أسود ... ورأيت أن اللحم الفاسد . . . مغطى ، لا بالدود وحده ، ولكن ببيض كذلك ومن هذا البيض تفقس الذباب على ما سبق أن ذكرت . وهذا البيض جعلنى أفكر فيما أسقطه الذباب على اللحم ، ذلك الذى صار من بعد ذلك دوداً . وهذه حقيقة مذكرة فى قاموس أكاديميتنا ، أكاديمية شيمنتو . وهى حقيقة معروفة كل العرفان عند الصيادين والجزارين ، وهم من أجل ذلك يغطون لحومهم فى أشهر الصيف الحارة بقماش أبيض »

فهذا بعض ما سجل هذا العالم ، عالم التاريخ الطبيعي ، الرجل
 الملاحظ الدقيق الملاحظة لظواهر الحياة وهي تجرى على طبيعتها . وهذه
 الملاحظة يظهر أنها ساقته إلى فرض : أن كل الديدان جاءت مما أسقط
 الذباب على اللحم . يظهر هذا مما جاء في الفقرة التالية من تقريره . قال :
 « وبعد اعتبار كل هذا بدأت أعتقد أن كل الديدان التي وجدت في
 اللحم إنما جاءت من سقوط الذباب وليس من فساد اللحم . فهذا مثل من
 الفرض الضخم العريض يُفترض في الحقل البيولوجي . ومنه يخرج بالاستنتاج
 أشياء يمكن امتحان صدقها أو بطلانها بالتجربة . وما التجربة إلا ملاحظة
 يجريها صاحبها على ما يجري في موقف بالذات مصطنع ، هو الذي دبره
 وصنعه اصطناعاً . إن « ريدي » كان في هذا يتبع طراز البحث الذي
 اتبعه في ذلك الوقت زملاؤه من أعضاء الأكاديمية ، أكاديمية شيمنتو
 بفلورنسا ، وكانوا في ذلك الوقت يبحثون في الهوائيات وعلم السوائل .
 والتجارب الذي أجراها كانت غاية في البساطة ، ولكنه رآها ضرورية على
 بساطتها ، فهو قال : « إن العقيدة عبث إذا لم تدعمها التجربة »

وبدأ « ريدي » في سبيل إثبات نظريته التي تقول بضرورة وجود
 الذباب لحديث الدود ، بدأ بأن حذف الذباب . وفعل ذلك بأن وضع
 قطعاً من اللحم في قبابات من زجاج ، وختمها حتى لا يدخل إليها الذباب
 ومن بعد أيام قال في كثير من الارتياح « ولو أنه مضى على اللحم أيام
 كثيرة » فإني لم أر دوداً قد تولد فيه . ولكنه في نفس الفقرة يقول شيئاً آخر
 لا يقل عن هذا خطورة ، ذلك أن قطع اللحم الأخرى ، المأخوذة من نفس
 اللحم ، التي وضعها في قبابات كتلك ، إلا أنها مفتوحة ، « تولد فيها

الدود وظهر من الدود ذباب « . فهذا مثل من طراز متكرر من أطرزة البحث البيولوجى : تجربة المقارنة . وسأعود إلى الحديث عنها عند ما أفرغ من الحديث عن « ريدى » وما صنع .

إن ريدى بمنعه الذباب من أن يدخل إلى القبابات قد منع بذلك الهواء من أن يدور فيها . وقد يقول قائل إن حبس الهواء هكذا هو الذى سبب أن لا يتولد الدود . ورداً على هذا أجرى « ريدى » تجارب كهذه غطى فيها القبابات « بغلالة من غلالات نابل الرقيقة حتى يأذن للهواء أن يدخل ويدور » ، ومع هذا لم يجد أن دوداً قد تكوّن . وبهذا رأى أن المسألة قد حلت ، وعلى قدر ما أعلم لا أحسب أن هذه المسألة قد أعيد فتح باب الحديث فيها قط . ومع هذا فلا بأس من إنفاق دقيقة أخرى نرى فيها إلى كم يذهب ذو الشك فى شكه ، وإلى أى حد يستطيع أن يظن فيما تخرجه التجارب من نتائج . ونحن إذ نتحدث فى هذا ستبين لنا بعض الأشباه وبعض الفروق التى هى كائنة بين التجريب فى الميدان الحيوى والتجريب فى الميدان الطبيعى ، ميدان الفزياء والكيمياء .

تجربة المقارنة

إن تجربة المقارنة ، تلك الوسيلة الجديده الهامة التى سبق أن أشرنا إليها ، وأوضحنا خطرهما فى التحكم فى العوامل المتغيرة فى ظاهرة ما ، هذه التجربة ستظهر فيما نورد من تجارب ، ولكن بعد شىء من التعديل . ونحن إذ نتفهم ما اتخذ « ريدى » من إجراءات ، نتبين أن عنده العوامل

المتغيرة ثلاثة : (١) الذباب ، (٢) الهواء الذى يدور فى القبابة ، (٣) مجموع المؤثرات الأخرى من وقت ومكان ودفء ، واللحم من أى نوع هو ، وهلم جرا . أما طريقة امتحان أثر العامل الأول والعامل الثانى فهى طريقة الطبع التى يتبعها السواد ، فلا كبير فكر فيها ولا فلسفة ، وهى لا تختلف فى هذا عما اتخذ بوييل فى تجاربه من إجراءات . أما العامل الثالث فهو العامل الغريب . ولم يذكر « ريدى » عنه شيئاً . لم يذكر تصريحاً ، ولكنه ذكره كل الذكر بالذى أجرى من تجارب للمقارنة . إنه وضع القبابات جنباً إلى جنب ، هذه مضمومة وهذه مفتوحة ، وفيها جميعاً لحم واحد ، وبهذا أجاب عن كل ما يُحتمل من نقد ، حتى الناقد الذى كان فى استطاعته أن يقول : « ولكن ما أدراك أن فى هذا اليوم بالذات يظهر الدود فى اللحم ، حتى المكشوف منه ؟ » .

إن الغرض الجوهرى من تجربة المقارنة فى البحث البيولوجى إنما هو التحقق من أن عاملاً واحداً متغيراً هو وحده الذى يؤثر فى نتيجة التجربة . وليست هذه الطريقة مقصورة على علم الأحياء . فبريار Perier (صفحة ١٢٠) اتبع هذه الطريقة لما جعل أحد رجاله يقف عند سفح الجبل ببارومتر ثان يرقب ضغط الهواء عند السفح ، بينما رقبه هو عند قمة الجبل وعلى شتى ارتفاعاته . ولكن قيمة هذه الطريقة فى علم الأحياء التجريبى أكبر لأن العوامل المتغيرة كثيراً ما تكون خافية لخصاء طبيعتها . وصاحب التجربة يحذف هذه العوامل الخافية بأن يجرى تجربتين أو ثلاثاً أو أكثر معاً ، وهى متفقة فى كل ظرف من ظروفها وصفة من صفاتها ، إلا شيئاً واحداً يتغير بينها ، وتختلف فيه . فيكون ما ينشأ من اختلاف فى

نتائجها راجعاً إلى هذا العامل الواحد المختلف المتغير .

وهناك اختلاف غير هذا بين طرائق العلوم الطبيعية في البحث ، وبين علوم الأحياء ، يتضح من درس ما أجرى « ريدى » من تجارب وما خرج به منها من نتائج . إنه كثيراً ما يصعب على المرء أن يعرف إلى أى بعد يستطيع أن يذهب بمبدأ خرجت به التجارب ، وإلى أى درجة يعتمده . انظر إلى « الحقائق » ، بالمعنى الضيق الذى نقصده حين نستخدمها هنا ، التى نجدها فى تجارب « ريدى » . إن الشئ الذى يمكن إعادة إثباته بالتجربة هو « أنه ما منع الذباب فلم يدخل إلى اللحم ، إذاً فلا يظهر فى اللحم دود » . ولكن هذه الحقيقة إنما ثبتت فى فلورنسا ، فى منتصف شهر يوليو . أفنتظّل هى كذلك فى كل بقعة من بقاع الأرض ، ولكل نوع من أنواع اللحوم ؟ ثم ماذا يقصد « باللحم » وماذا يقصد « بالذباب » إن الإبهام الذى كان فى معنى هذين اللفظين عام ١٦٦٨ لا يزيد لا شك عن إبهام كان عند ذلك فى معانى « النار » و « الزيت » و « الكبريت » ، ولكنه أكثر إبهاماً من معنى « أكسيد الزئبق الأحمر » الذى فهمه لا قوازيه ، وفهمه بريستلى . واختصاراً أقول إن من الصعوبة بمكان فى حقل علم الأحياء التجريبي أن تحدد ظروف تجربة تحديداً دقيقاً ، أو أن تضمن الخروج بالنتيجة الواحدة دائماً ضمناً كبيراً . وهذه صعوبة موجودة فى كل علم من العلوم ، لا شك فى هذا ، ولكنها فى علم الأحياء أكبر وأشد منها فى علم كالفيزياء والكيمياء . وسنرى قريباً ما صنع بها بستور ، وكيف تخطاها . إنه من غير المأمون أن يقول المرء قولة قاطعة أخيرة ، إن التولد الذاتى لا يحدث أبداً ، حتى لو دلت كل التجارب بكل صنوف اللحم ، تجرى

في كل الأجواء ، على أن الدود لا يتكون إلا مع وجود الذباب . إن « ريدى » نفسه اعتقد أن الدود يظهر من ذات نفسه في عفص النبات . وإذا نحن انتقلنا نطاً إلى منتصف القرن العشرين ، إلى أيامنا هذه ، ظهر لنا في وضوح أنه لا سبيل إلى إثبات قضية كهذه تقول « إنه في جهة ما على ظهر هذه الأرض ، تنشأ اليوم الكائنات الحية من مادة ميتة » ، وبالطبع لا سبيل إلى إثبات بطلانها . ولو أتى أشك أن رجلاً واحداً خبيراً بعلم الحياة يصدق اليوم قضية كهذه . ولكن إذا جاءنا رجل يقول « إن التولد الذاتي يحدث في ظروف كذا وكذا » ، وكم أتى من رجال يقولون هذا منذ عهد « ريدى » إلى اليوم ، إذاً لتغير وجه القضية . فهذا قول يمكن إثباته أو إبطاله ، ولو أنه من العسير الوصول في مثله إلى أدلة قاطعة ، وقد دل على هذا العسر ما جرى في أواخر القرن التاسع عشر من مناقشات ومحاولات .

ولقد أجد من القراء من يعترض على استخدامي عبارة « الأدلة القاطعة » فيما كنت فيه ، ذلك لأني إلى الآن كنت أحاول أن أكون حذراً في تعبيرى ، وكنت أتحدث بلغة التجارب التي تتفق أو لا تتفق والمشروع التصورى القائم . وقد أخطأت فعبرت بهذه العبارة قصداً وعمداً ليلترك القارئ أن علم الأحياء ، حتى في القرن التاسع عشر ، كان أقرب إلى التعقل الفطرى ، إلى تعقل السواد ، وأقرب كثيراً من فزياء القرن التاسع عشر وكيميائية . إن أكبر شكك مرتاب لينسى نفسه وهو يستعرض ما درس من التولد الذاتي ، فيتحدث على عادته القديمة عن الأسباب ومسبباتها .

إنه من الواضح أننا في موضوع كهذا ، عند ما نجرب ، نقرب من صنف تلك التجارب التي يأتيها الناس وهم في سبيل العيش ، كمن يسمع في الليل صوتاً مزعجاً فيقوم يبحث عنه وعن أسبابه . وهو يقوم فيفتح هذا الباب أو يزيح هذا الحاجز أو يخلق هذه النافذة ، ويفعل هذا حتى يسكت الصوت . فهذا هو التجريب الفطري ، تجريب السواد من الناس . ولن نجد إلا فيلسوفاً ، مُغرَقاً في فلسفته ، يسمى هذا الرأي ، الذي جاء هذا الرجل في منتصف الليل ، فرضاً أو نظرية ، ويسمى ما قام به من فتح وإغلاق ، تجارب لتحقيقها . وسيجد القارئ وقع قولي هذا في نفسه كوقعه عندما أقول إن الفرق بين تصوّر تورتلسى الجو كأنه « بحر من هواء » ، وتصور « ريدى » « أن الذباب يسقط بيضه على اللحم فيفقس دوداً » ، ليس إلا فرق درجات . ولكن لا بد من الاعتراف بأن فرق الدرجات قد يزيده فيصير فرقاً في النوع . قارن مثلاً بين الصور الذهنية المجردة الحديثة للألكترون والبروتون والنيوترون ، وبين الصور الذهنية التي في مثل حداثتها ، أعنى « الريكتسيا » (أحياء غاية في الصغر) ، بحسبانها سبباً لمرض الحمى المترقطة Spotted fever . وانظر ما بين هاتين المجموعتين من الصور من فروق . إن الصور الأولى ، وهي صور من علم الفزياء ، نتصورها فنحس أننا إنما نعالج أشياء أبعد ما تكون من أحاسيس الناس الخمسة . أما الصور الأخرى ، وهي تتصل بأمراض الناس وأسبابها ، فنتصورها فنحس أننا نعالج أشياء محسوسة ملموسة . ولكن قرب هذه الصور الذهنية الأخيرة من الأحاسيس قرب ظاهر خادع . ويظهر ذلك إذا نحن حاولنا تعريف صورة نتصورها عن الحمى المترقطة ،

أو صور نخالها عن هذه الأجسام الصغيرة ، الريكتسيا ، التي هي سبب هذه الحمى . عند ذلك تظهر لنا متاعب لم نكن نراها . وعند ذلك نظنّ اضطراراً إلى إيراد الكثير من الوقائع ، منها ما جاء بالخبرة الفطرية المحضة ، ومنها ما نشأ بعيداً عن فهم رجل الشارع وعن السائد من آرائه . وعند ذلك نجد أن في الأمر مشاكل كالتى أشرنا إليها في محاولة تعريف التخمر .

السبب والمسبب في البيولوجيا أو علم الحياة

إننا في الطب وفي علم الحياة التجريبي نعالج موضوعات لا نفتأ نشغل فيها من صور للذهن فطرية ، إلى صور مما ابتدعه العلم . ونحن « نحس » بـ « حقيقة » الصورة فنميل إلى التحدث عن الأسباب والنتائج ، ونستخدم في حديثنا معاني صارمة قاطعة فنشير إلى دليل فنقول إنه « دليل حاسم » . ونحن نحس بجدّة الصورة أو بغرابتها أو أجنبيتها فنسارع في أمرها إلى الحديث عن الصور الذهنية والمشروعات التصورية .

وميلنا لاستخدام المعاني الفطرية ، من « أسباب » ومن « نتائج » في ظواهر علم الحياة لا يرجع إلى إيمان غريزي فينا بحقيقة الصور البيولوجية ، وإلى هذا الإيمان وحده . إن فرقاً من الفروق الكبيرة بين علم الحياة ، وبين علم الفزياء وعلم الكيمياء ، يرتكز على فرق ما بينهما من حيث ترتيب الوقائع في الزمن . فإذا أعقبت واقعة واقعة في الحدوث ، ملنا إلى اعتبار التي وقعت أولاً سبباً في وقوع التي وقعت ثانياً . والعكس غير صحيح . وإذا دلّت الملاحظة المتصلة على أن واقعة هي اتتقدم دائماً واقعة أخرى بـ ،

قبلنا بمنطق الفطرة أن ا هي السبب في ب ، ولو أننا نذكر أنه قد تلزمتنا حجج متطاولة نثبت بها أنه لم تكن هناك واقعة أسبق ، هي سبب ب ، أو لعلها سبب ب و ا معاً . ولد رمى حجراً في نافذة جار له فكسر زجاجها . فما سبب كسر الزجاج ؟ أهو الحجر ، أم هو الولد ، أو هو ذلك الولد الآخر الذي أوعز إلى هذا الولد أن يصنع ما صنع ؟ إن المهم هنا هو تتابع الحوادث في الزمن . ونحن في الحياة نرى الحوادث تتتابع ، وهي تتقدم في الزمن ، ولا نراها ، إلا بالشرط السينمائي الذي يبدار عكسياً ، وهي تتأخر في الزمن . فنحن لا نرى في الحياة الجارية نافذة مكسورة ، ثم نراها غير مكسورة ثم نرى حجراً يقترب من النافذة ، ثم نرى الولد وفي يده الحجر . هذا الترتيب ، ترتيب القهقري ، لا نراه في الحياة أبداً .

وظواهر علم الحياة ، علم الأحياء ، ما هي إلا وقائع في الزمن لا تختلف كثيراً عن هذه الواقعة البسيطة التي سبق أن ذكرنا . وليس عالم الأحياء هو وحده الذي يتابع هذه الوقائع في ترتيبها الزمني ، بل كذلك الرجل الذي ينظر إلى هذه الأحداث نظرات عابرات يدرك أن البرعم تليه الزهرة يليها الثمر ، وأن هذا الترتيب لا ينعكس أبداً . وحتى عالم الأحياء التجريبي ، وهي يقوم بأكثر تجاربه اصطناعاً ، لا يمكنه أن يعود بهذه الأحداث القهقري كما يجري في الفلم السينمائي أبداً . وهو لا بد أن يقبل غضباً أن البيضة يليها الفرخ تليه الدجاجة ، ويقبلها « حقيقة » في هذا الترتيب الذي لا ينعكس أبداً فإذا وجدنا من بعد ذلك أن الذباب يُرى وهو يسقط البيض على اللحم ، ووجدنا أن الديدان تخرج من البيض ، حكماً من بعد ذلك أن الذباب هو « سبب » هذه الديدان . وفي ظواهر

أعقد ندور فتصيد الأسباب لهذه الظاهرة أو لتلك .

قارن بعدئذ بين الأمثلة هذه التي ضربناها وبين التجربة الكيماوية البسيطة التي أجراها لافوازييه وبريستلي في أكسيد الزئبق الأحمر . إن تسخين الزئبق في الهواء مدة طويلة ، إلى درجة دون درجة غليانه بتقليل ، ينتج هذا الأكسيد الأحمر (صفحة ٢٧٢) . وهذا الأكسيد يسخن إلى درجة حرارة أعلى ينتج الزئبق وغاز الأكسجين . ومعنى هذا أن الزئبق قد يسبق أكسيده ، أو أن يسبق الأكسيد الزئبق تبعاً للحرارة ، فأيهما السبب وأيهما النتيجة ؟ أيهما العلة وأيها المعلول . أو عدنا بنا إلى مبادئ الادرساتيكما الأولى (صفحة ١٩٢) . إننا قلنا إن الماء يبحث فيجد مستواه بنفسه ، وشرحنا ذلك بأن صببنا الماء في وعاء ذي ذراعين . وبالنفخ في إحدى الذراعين نستطيع أن نرفع مستوى الماء في الذراع الأخرى أن نرفعها قليلا . ولكن لا يلبث أن يتعادل الضغظان في الذراعين فيتساوى مستواهما . ويستطيع الإنسان أن يصنع بحيث يسبق ارتفاع المستوى في الذراع اليمنى ، أو يسبق ارتفاع في الذراع اليسرى . ومعنى هذا أن العملية عكسية ، تبدأها من ناحية أو تبدأها من الأخرى . وكذلك تكوين أكسيد الزئبق الأحمر من الزئبق ، على شرط تغيير درجة الحرارة واستغراق الزمن الكافي . ففي العمليات الكيماوية والعمليات الطبيعية ، الفزيائية ، يستطيع صاحب التجربة كثيراً أن يغيّر من ترتيب الوقائع فيها . وفي هذه الحالة وأمثالها يصعب التحدث عن السبب والنتيجة ، أو ما يقول المناطقة العلة والمعلول . وهذا سبب من الأسباب الذي من أجلها يقل استخدام هذه المصطلحات في العلوم الطبيعية عنه في العلوم البيولوجية .

وسبب آخر يشكك في قيمة هذه المصطلحات عند استخدامها في الطبيعة والكيمياء حتى في الأغراض التعليمية . وذلك صعوبة أن نختار واحداً من العوامل المتغيرة القائمة لنقول إن هذا و هذا وحده ، هو السبب وهو العلة . مثال ذلك إشعال الأدروجين في الهواء وتكوين الماء . فحدثني ما السبب في هذه الشعلة ؟ أهو الأدروجين ، أم هو الأكسجين ؛ أم هو الحرارة المنبعثة ، أم هو اجتذاب ذرة الأدروجين لذرة الأكسجين ، أم هو توزع الألكترونات حول الذرات ؟ وما هذا إلا مثل من أبسط أمثال التفاعلات الكيماوية ، فما بالنا بالذى هو أقل بساطة ، والذى هو أكثر تعقيداً . وإذا نحن رجعنا إلى الوراء عدة من صفحات ، إلى دراسة بستور لظاهرة التخمر ، إذآ لوجدنا عند التأمل أنه يفرض لهذه العملية المعقدة ، عملية التخمر ، سبباً . وكان هذا السبب عنده هو وجود الكائنات الصغيرة المكرووية الحية المتكاثرة . والذى ينظر إلى ما انتهت إليه هذه القصة ، يتعلم منها أى الظروف يحمل على استخدام فكرة السبب والمسبب ، فتنفع ، وأيها يحمل على ترك هذه الفكرة ، فينفع تركها . إن بستور عند ما قال أن السبب هو « كائنات مكرووية حية متكاثرة » إنما ذكر سبباً تضمن عدة من أسباب . تضمن عدة من عوامل متغيرة تصح ، بعضاً أو كلا ، أن تكون سبباً . غشاء الخلية ، ما بالخلية من أنزيمات ، العملية الإنسالية التى تحدث في الكائن الحى ، وما إلى هذه . إنه جمع في صرة واحدة معدداً من المجهولات ، ومن أجل هذا استطاع إلى حين أن يدرس علاقة هذه الصرة ، وهى من جهل ، ببعض التغيرات الكيماوية . وفي هذه الظروف العلمية البدائية إذا سأل السائل « ما العامل الذى يخرج

حامض اللبن من السكر ، كان سؤاله له في التجريب معنى ، وله بالتجربة جواب . واليوم ، بعد أن عرفنا ما عرفنا عن الأنزيمات ، يجده المرء صعوبة في الجواب على السؤال : « ما سبب التخمر » .

إن خروجنا عن موضوعنا زمنياً ، نبحث فيه في التعبيرات التي نستخدمها لتفسير العلم ، كان خروجاً نافعاً إن كان قد أنتج عند القارئ حساً بتعدد العوامل المتغيرة في ظاهرة قائمة في شتى حقول العلم . كذلك هو قد يأتقنا إلى أن القول الذي نسمعه كثيراً ، بأن الأسباب والمسببات قد اختفت من العلم الحديث ، قول يجب أن نستمع له ولكن في حذر شديد . إنني في هذا الكتاب لم أتعرض لظواهر الكوانتم . أو التناظم Quantum^(١) ولا تعرضت لمبدأ « أن لا يقين في الطبيعة » The princible of uncertainty^(٢) هذا الذي نشروا عنه وأعلنوا وأكثروا . ولكن لعلى بلغت في استعراض المناهج العلمية وأساليب التبدليل حداً يجب عنده أن نتخير أحد طريقتين ، فإما أن نوغل إيغالا في نظرية المعرفة ونحللها تحليلاً فلسفياً ، وإما نقتنع باستخدام مصطلحات السواد من الناس ما سهل استخدامها ونفع . إن « العلة والمعلول » عبارة يعمل في نطاقها صاحب التجربة ما نفع ، وهي قد لا تنفع ولا يكون منها إلا اختلاط واختباط .

(١) انظر شرح النظرية في الهامش بصفحة ٥٤ .

(٢) مبدأ « أن لا يقين في الطبيعة » هو المبدأ المعروف بمبدأ هايزنبرج Heisenberg وهو مبدأ نتج عن تحول معنى الحقيقة تبعاً لما اكتشف في علم الفيزياء في هذا القرن الحاضر مما اختلت به الموازين القديمة كل الاختلال . فقد اتضح في هذا القرن أن كل المعرفة الطبيعية التي حصل عليها العلم ليست إلا معرفة إحصائية تختفي وراءها حقيقة الأشياء ،

جدل القرن الثامن عشر حول التوالد غير المتجانس

إذا نحن رجعنا إلى مناقشة مبدأ التوالد الذاتى ، لوجدنا أن الفكرة انتهت بناء على تجارب « ريدى » وأضرابه ، وذلك فيما يختص بتوالد النباتات الشائعة والحيوانات . إنها تتوالد من شىء ، لا من ذات نفسها ، ولكن كشف المكرسكوبيون فى أواخر القرن السابع عشر دنيا جديدة من الكائنات الحية فتحت باب ذلك الجدل من جديد . كانت الخلاصات النباتية والحيوانية ، والفضلات من هذه وتلك ، تُخرج طائفة من الكائنات الحية يكشف عنها المكرسكوب فتصبح موضوعاً للجدل بين علماء الحياة فى القرن الثامن عشر . وكان من هؤلاء العلماء رجل كبير المقام ، هو الكونت دى بوفون Conte de Buffon^(١) ، دافع بقوة عن مبدأ « التوالد غير المتجانس » Heterogenesis ، فهذا كان الاسم الجديد

وحقيقة الدنيا بالذى فيها من علل ومعلولات . وأن هذه الدنيا المحتفية وراء ما نعلم من ظواهر ، ليست معروفة ، وبناء على نظرية أينشتين ، غير قابلة لأن تعرف . وهذه الدنيا المحتفية ، ليست فقط غير معروفة ، وليست فقط غير قابلة للعرفان ، بل هى أيضاً غير قابلة للتصور .

(١) هو جورج لويس بوفون^(١٧٠٧ - ١٧٨٨) عالم التاريخ الطبيعى الفرنسى . عين فى عام ١٧٣٩ مشرفاً على الحديقة الملكية بباريس (الآن حديقة النباتات) وانصرف إلى تأليف كتابه الضخم الذى أسماه « التاريخ الطبيعى » وأنفق فيه عمره ، وهو بضع وثلاثون مجلداً ، فى النباتات والحيوانات والطيور والمعادن والأرض . وترجم إلى كل اللغات الأوروبية وأذاع اسم مؤلفه . ومنحه لويس الخامس عشر لقب الكونت ، وكان أثيراً كذلك عند لويس السادس عشر .

« للتولد الذاتى » . اعتبر « بوفون » أن كل مادة حية تتألف من جسيمات متعضونة ، الأصل فيها أنها لا تتلف ولكنها تدخل فى عدة من تراكيب مختلفة . فهذه « الجزئيات المتعضونة » تؤلف جوهر الحياة . ويجب أن نذكر أن هذا الآراء قال بها أصحابها قبل الثورة الكيماوية (الباب السابع) ، وقبل النظرية الذرية لدالتن بنحو نصف قرن (صفحة ٢٨٠) . وعارض بوفون كل المعارضة رأى من قالوا أن الكائنات المكرسكوبية الصغيرة ، كالكائنات الحية الكبيرة ، لها أصول من كائنات حية أخرى تخرج منها . عارض أن يكون للكائنات المكرسكوبية جراثيم تخرج منها ، كما يخرج نبات من حبه ، أو حيوان من بيضه .

وأعان بوفون رجل إنجليزى هاو فى علم الأحياء ، اسمه جون نيدم John T. Needham^(١) . أعانه فى بعض ما كتب أخيراً ، وجاء من التجارب بما اعتقد أنه دليل مقنع على قدرة الميت من المواد أن يخرج الحى والظاهر أنه كان أول رجل استخدم درجات الحرارة العالية محاولاً بها إتلاف كل الكائنات الحية فى مادة سائلة أو صلبة . ومن هذا أنه وضع حساء من ضأن فى قارورة ، ثم سدها بفلين وسخن القبابة فى رماد ساخن ، وزعم أن هذا يقتل كل ما بالقارورة من جراثيم حية . ومع هذا فهو لما برد القارورة ، وصبر عليها بضعة أيام ، ثم فتحها وجدها تمتلئ بالأحياء المكرسكوبية . ونحن اليوم إن نظرنا إلى ما صنع نيدم قلنا إن آراءه التجريبية طيبة ، ولكن تفسيره لنتائج التجارب كان خاطئاً . والعجيب أن هذا الرأى كان رأى معاصر له عالم فى الطبيعة الحية إيطالى اسمه إشبيلترانى

(١) هو جون تريرفل نيدم ، ولد عام ١٧١٣ ومات عام ١٧٨١ .

Spallanzani^(١) . و هو ، مثل نيدم ، استخدم درجات من الحرارة عالية يقتل بها أى « جرثومة » توجد فى أى من الأخلاط التى صنعها من أنسجة نباتية وحيوانية عمد إلى دراستها . وكان أكثر ما يصنع أنقعة من مختلف الحب يضعه فى الماء الدافئ . واستنتج من تجاربه أن الإنسان إذا اتخذ الاحتياطات الكافية ، وسخن النقيع من هذه الأنقعة مدة كافية ، لا يظهر فى النقيع من بعد ذلك كائنات حية .

إن بعض من يقرأ ما كتب اشبلنزاني يحس أن فيها ما كان يكفى لإنهاء هذا الجدل ، ومما لا شك فيه أنه كان رجلاً نافذ البصر جاء سابقاً لأوانه . وانتهت المشكلة بين ما صنع نيدم وما صنع اشبلنزاني بأن ظل العالم العلمى منقسماً على نفسه . حتى إذا جاء بستور بعد ذلك بمائة عام ، وراجع ما صنع الرجلان ، أدرك السبب فى أن اشبلنزاني أخفق فى السير بالجدل إلى نهايته الحاسمة . وهذا مثل من الأمثلة التى يجب أن يتوقف المرء عندها طويلاً ، لأنه يوضح مرة أخرى تلك الصعوبة التى يجدها المرء عندما يحاول أن يعرف معنى تصورياً من معانى علم الحياة بناء على ما تخرجه التجارب من نتائج . إن نيدم دافع عن رأيه بأن نقده ما صنع اشبلنزاني ، فقال ما خلاصته إن اشبلنزاني منع تولد الأحياء الميكروبية فى أنقعة المواد النباتية والحيوانية التى حضرها ، وذلك بتعريضها لدرجة حرارة غليان الماء مدداً أطول من التى يراها نيدم كافية لقتل الكائنات الحية ، وهو

(١) هولازارو إشبيلنزاني ، ولد عام ١٧٢٩ ومات عام ١٧٩٩ ، وهو عالم إيطالى فى التاريخ الطبيعى ، وأكثر بحوثه فى الفسيولوجيا . وكان أستاذاً فى عدة جامعات ، ومنها جامعة يافيا ، وفيها ملاً متحفها بما جمع فى رحلاته من سواحل البحر الأبيض المتوسط .

بذلك قد أضعف إن لم يكن أتلف « القوة الإنبائية » vegetative force الموجودة في الأنقعة. إنه آذى هذه الأنقعة أى إيذاء . وهنا يجب أن نذكر أن نيدم وبوفون فرضا وجود « قوة حيوية » vital تختلف اختلافاً بيئياً عن « الجراثيم الحية » على اختلاف أنواعها ، فأما الجراثيم فتموت بتعريضها للماء الغالى ، لأن هذا الماء يسلق البيضمة « ويقتل » الصغير من النبات والحيوان ، فأما القوة الحيوية فتحتمل السلق ولكن لمدد محدودة قصيرة . وهى حساسة فلا تستطيع أن تصمد للغلى الطويل الذى عرضها له اشبلنزانى . فهذا ما رأى نيدم . وأنت إذا حددت معنى « القوة الحيوية » أو حتى « الجزئيات المتعضونة » اعتماداً على درجة مقاومتها لدرجات الحرارة العالية فسوف تنتهى إلى مبدأ « التوالد غير المتجانس » وهو مبدأ لا تخطئه تجارب اشبلنزانى . وقد نحس أن فكرة « القوة الحيوية » فكرة أشبه بأفكار عصر ما قبل العلم الحديث ، ولكننا لا نستطيع أن نقول هذا فيما يخص « بالجزئيات المتعضونة » التى تتغير بتعريضها للماء الغالى ، فهذه فكرة لا تتنافر مع ما عرفناه من كيمياء البروتينات في القرن العشرين .

إن المناظرة التى وقعت بين نيدم و اشبلنزانى لم تنته إلى شىء ، فلم يكن فيها غالب ولا مغلوب . ولكن عاد فعقد من أمرها كشف تجريبي رائع كشفه رجل فرنسى فى أوائل القرن التاسع عشر . كان هذا الرجل صانع حلوى ، وكان اسمه أبرت Appert ، وأراد أن يطبق ما قرأ من أعمال نيدم و اشبلنزانى على الذى يصنع من طعام ، رجاء حفظه من الفساد . وقد يعتبر بحق أنه منشىء طريقة التعليب (١) لحفظ الأطعمة التى نألفها اليوم

(١) الوضع فى العلب .

فهو أثبت أنك إذا ملأت وعاء زجاجياً إلى قمته تقريباً بطعام ما ،
 وسخّنت الوعاء في الماء الغالي زمناً ، وسدّدت الوعاء فأحكمت سدّه وهو لا
 يزال ساخناً ، فإن الطعام يبقى صالحاً زماناً طويلاً فلا يتطرق إليه فساد .
 وهذا ، على فكرة ، مثل آخر من نجاح إجراء عماده الخبرة كل الخبرة ،
 عماده الاختبارية البحتة ، قبل أن يفحصه العلم بالتجريب فينتهي إلى حل
 فيه . فهذا الرجل اقتبس هذا الكشف العلمي فانتفع به في فن عملي قبل
 أن يدرك العلم ما « العامل المتغير » ، أو العوامل المتغيرة ، التي أثرت في
 هذا الإجراء ، في هذا السخين الذي عقم الأطمعة ، ومن أجل هذا
 أسميناه « بالتعقيم بالحرارة » تمييزاً له عن تعاقيم أخرى نعرفها اليوم لا تدخل
 الحرارة فيها .

وزاد العلماء ربكة ما خرج به العلم في تقدمه ، وخرجت به الكيمياء
 في حملاتها ، من تجربة رجاها الراجون منها الهدى ، فإذا بها للضلال .
 ذلك أن كياوياً فرنسياً له مقامه أعاد ما أجرى « أبرت » من تجارب ،
 وأثبت أن الهواء الذي كان فوق الطعام في الأوعية الزجاجية بعد ملئها
 وحفظها ، لم يكن به أكسجين ، واستنتج من ذلك أن « العامل المتغير »
 في فساد الطعام أو إصلاحه ، في عملية الحفظ هذه ، هو وجود الأكسجين
 فوق الطعام أو اختفاؤه . أو بعبارة أخرى قد يكون هذا الأكسجين هو
 « العنصر الحيوى » الذى اتهم نيدم فيه اشبلنزانى بأنه أتلفه بالتسخين
 الطويل .

ثم حادثة تاريخية أخرى أضيفها إلى ما ذكرت من تاريخ ، وذلك
 قبل أن أدخل في أعمال بستور الخالدة في موضوع التولد الذاتى .

في عام ١٨٣٧ ابتدع باحث ألماني طريقة في التجريب جديدة قُدِّر لها أن لعبت دوراً ذا بال فيما استجد بعد ذلك من أبحاث في التوالد غير المتجانس وأثبت هذا الباحث الألماني أن الهواء إذا أدخل من بعد تسخينه إلى قارورة بها عصارة لحم لم يسبب وجوده فساد العصارة . فأتضح من هذا أن الهواء لا شأن له بالفساد ، واتضح كذلك أن المهم ليس الهواء ولكن ما حمل الهواء من تراب هو حامل الجراثيم افتراضاً . وزاد هذا ثبوتاً بالذئى أجراه باحثان ألمانيان من بعد ذلك بعشرين عاماً ، إذ أمرّا الهواء في قطن ليصفياه من ترابه ، فلما صفا كان كالهواء المسخن من حيث أنه لا يسبب فساداً في الأطعمة . ونحن ننظر اليوم إلى الوراء فنجد أن هذا الدليل كان قاطعاً ، لأننا قد تعودنا فكرة أن « الجراثيم » لا بد من وجودها لظهور الكائنات الميكروبية في الأطعمة والأخلاط النباتية والحيوانية الأخرى . إن هذا الربط بين وجود الكائنات الميكروبية وبين ما يحدث من فساد أو من تخمير هي التي ساقطت بستور فانتقل بها من الكيمياء إلى علم الحياة (صفحة ٣١٨) .

إن اهتمام بستور بالتولد الذاتي كان نتيجة طبيعية لدراسته ظاهرة التخمر . والواقع أنه في نشرته المهمة الأولى في التولد الذاتي تحدث في التخمر وعرض ما له من آراء فيه . ولكن مؤرخو حياته أرونا في كثير من الإقناع أن الذي حفز بستور إلى الدخول في هذا الموضوع إنما هي نشرة نشرها بوشيه Pouchet . وكان بوشيه عالماً في التاريخ الطبيعي ، وكان مديراً لمتحف التاريخ الطبيعي بمدينة روان Rouen ، وكان قد اقتنع بفكرة التولد الذاتي ، أقنعه بها تجارب أجراها ونشرها عام ١٨٥٨ .

وأجاب بستور ما جاء بهذا النشرة إجابة مطولة ظهرت في عام ١٨٦٢ .
 واتصل بينهما الجدل عنيفاً لسنوات بعد ذلك ، ثم ظهر أن بستور كان له
 الغلبة فخبأ ما كان بينهما . ثم حدث في العقد الثامن من هذا القرن أن عاد
 طبيب إنجليزي يدعى هنرى بستيان ^(١) Henry C. Bastian ، ففتح
 الموضوع وأعاد الجدل إلى ما كان عليه يدافع عن نظرية التولد الذاتي ،
 وكان جدلاً مثيراً ، أفاد منه العلم وتقدم . ولكن ما جاء العقد الثامن من
 القرن وكاد أن يختتم حتى تكاثرت الأدلة ضد التولد الذاتي ، أو إن شئت
 فالتناسل غير المتجانس . ونشر بستيان آراءه يدافع عنه في عام ١٩١٠ ،
 ومع تأخر هذا التاريخ ووقوعه في القرن العشرين فإنك لن تجد أحداً من
 أنصار هذه النظرية عاش إلى القرن العشرين .

ونشر بستور في عام ١٨٦٢ مقالا في « الأجسام المتعضية » ^(٢) التي توجد
 في الجو « فكان وثيقة كبرى في تاريخ العلم التجريبي . واستعرض صاحب
 المقال في مقدمته عمل ريدى ، ونيدم ، و شبلنزاني ، والأعمال الأحدث
 التي كان قام بها الألمان في ألمانيا ، ثم كتب فيما كتب ما يلي :
 « بعد هذه التجارب التي تحدثت عنها ، حدث أن عالماً في التاريخ
 الطبيعي ماهراً ، من مدينة روان ، اسمه پوشيه أطلع الأكاديمية على نتائج

(١) طبيب إنجليزي ، ولد عام ١٨٣٧ ومات عام ١٩١٥ ، وتقلد مناصب
 للأستاذية كثيرة بجامعة لندن .

(٢) هي من العضو ، أي الجزء من الجسم وغيره . والفعل عضا يعضو . والمتعضية
 المتقسمة إلى أجزاء أو أعضاء . والعضو هو الجزء من الجسم الذي يقوم بوظيفته . ومن وظائف
 الأعضاء جميعاً ، وهي تعمل باتفاق ، يكون الكائن الحي . وهو الجسم الكامل المتعضى .

ظن منها أنه قادر بها على إرساء نظرية التناسل غير المتجانس (نظرية التولد الذاتي) على قاعدة ثابتة . ولم يستطع أحد أن يدرك عندئذ موضع الخطأ في تجاربه . ولم تلبث الأكاديمية أن رأت حاجة إلى مواصلة التجارب ، فأعلنت عن جائزة عن مقال يكتب عنوانه : محاولات تلقي ضوءاً على نظرية التولد الذاتي بإجراء تجارب حسنة الفكرة والإجراء .

« وأعضل الأمر وانهم إلى حمد أن بيو Biot ^(١) (عالم فزياء فرنسي ممتاز) ، وهو رجل اتصل عونه لي في عملي ، ذكر لي أسفه على أني شغلت نفسي بهذا الموضوع أبداً ، وأخذ مني وعداً أن اجعل لهذا البحث أمداً ، إذا أنا لم أخطئ فيه ما أجهد من عقباب ، إذا أطرحه وأغلق بابيه . وكذلك دوماس (وهو عميد الكيماويين الفرنسيين) ، وهو الذي شارك بيو فيما أسلى إلى من خير ، قال لي إنه ما كان لينصح أحداً أن ينفق في هذا البحث زمناً طويلاً .

« وماذا كانت حاجتي أنا للدخول في هذا الموضوع ؟ إن الكيماويين وقعوا منذ عشرين عاماً على مجموعة من ظواهر جمعوها جميعاً تحت اسم التخمر . وكل هذه الظواهر تتطلب وجود شيئين : أحدهما مادة تتخمر ؛ كالسكر ، والآخر مادة أزوتية في شكل زلال دائماً . والنظرية التي قبلها الجميع تضمنت أن هذه المواد الزلالية تتغير في الهواء (أكسدة خاصة غير معروفة طبيعتها) ، فتتحول بذلك إلى شيء له صفة الخميرة ، أي شيء يفعل بعد ذلك بالمس في مادة تتخمر فيخمرها . »

(١) هو عالم فرنسي ، رياضي وفزيائي وفلكي ، ولد عام ١٧٧٤ ومات عام ١٨٦٢ . تولى أمر مرصد باريس ، ثم كان أستاذاً للفزياء الفلكية بجامعةها .

وأخذ بستور بعد ذلك يتحدث عن عمله هو في التخمر الذي يعطى حامض اللبن ، ذلك الذي ذكرناه في الباب السابق (صفحة ٣٢٢) ، ويقارن آراءه بآراء ليبج Liebig ، ثم هو يقول :

«قد علمتُ أن الخمائر تنتج من مس المواد الزلالية لأكسجين الهواء. وعلمت هذا فقلت لنفسى إنهما شيئان ، أحدهما وحده هو الحق : فأما أن الخمائر وحدات متعضية ، وأنها تمتج من الأكسجين وحده ، بحسبانه أكسيجنًا ولا شيء إلا أكسجين ، عند مساسه بالمواد الزلالية ، فهي إذاً تتولد تولدًا ذاتيًا ، وإما أنها لا تتولد تولدًا ذاتيًا ، وإذاً فلا يكون الأكسجين وحده المتدخل في تكوينها ، ويكون تدخله بأنه يُنعش ويحيي جرثومة ، هو نفسه قد حملها معه ، أو هي موجودة في المادة الزلالية أو في المادة التي تتخمر . وعند هذا المفرق ، الذي جاءت بي إليه دراسة التخمر ، وجب علىَّ أن أرى رأيًا حاسمًا في أمر التولد الذاتي . فقد ظننت لعلى واجدٌ هنا سنداً قوياً أعمد به آرائى في ظواهر التخمر ، تلك التي يصدق وصفها بالتخمر حقاً لا تجوزاً .»

”والأبحاث التي أنا قادم على وصفها كانت انحرافاً عن طريقى في البحث ، انحرفت إليه غضباً ، بسبب بحثى الأصيل ، بحث التخمر . وبذلك شغلت نفسى بموضوع جديد لم يشغل حتى ذلك الوقت إلا عقول علماء التاريخ الطبيعى ويتطلب مهارتهم وحكمتهم“ .

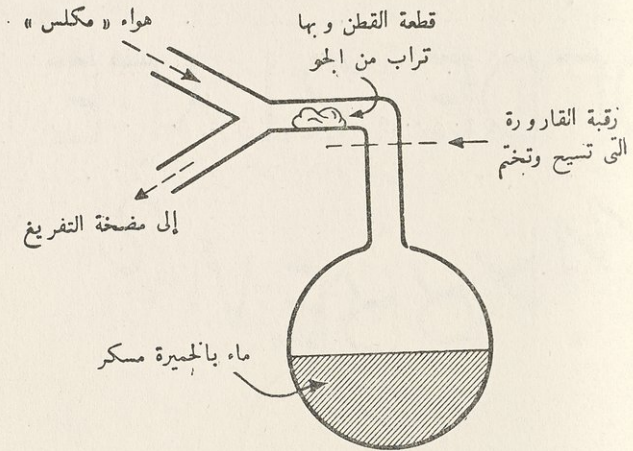
فإذا نحن ذكرنا العوامل التي حدثت ببستور إلى دراسة التخمر ، وأضفنا إليها ما ذكره هو الآن ، وكيف خرج من التخمر إلى التولد الذاتي ، تألفت منها جميعاً صورة كاملة عن كيف تحول عالم الكيمياء إلى عالم

أحياء . ولكن بصرف النظر عن هذا ، وبصرف النظر عما تلقينه النشرة من ضوء على العوامل التي تحرك الرجل العبقري ، فهذه النشرة جديدة بالقراءة ، لأن بستور فيها وضّح العلاقة بين ظاهرة التخمر وظاهرة الفساد والتعفن ، وبين نظرية التولد الذاتي . وفيها قرر أن يبحث أكان نجاح تجارب كالتى أجراها « أبرت » ، بسبب استهلاك الأكسجين فى هذه التجارب ، أم بسبب أن الجراثيم كانت أتلفت بالغلى . ثم هو ينتقل إلى جمع مقدار من الأدلة التجريبية هائل غامر إذا ما هو قيس بأعمال من سبقوه .

وسوف لا أحاول أن أُلخص حتى هذه المقالة الواحدة لبستور ، ولكنى سأذكر نوع التجارب التى أجراها ، وبعض ما لاقى من صعوبات فى تفسيرها . ويجب أن نذكر أننا هنا فى صدد الحديث فى مجموعة الأدلة التى عملت برمتها على إضعاف حجة القائلين بالتولد الذاتى ، فلم تكن هناك من تجربة واحدة تستطيع وحدها الرد على ما أثاروا من اعتراضات . وأعاد بستور تجارب من سبقوه توتاً فى هذا الحقل ، وأكد ما صنعوا . وهو أثبت أن الهواء الذى مرّ من أنبوبة محماة (هواء مكلس) ثم أدخل إلى وعاء (سبق أن عقم بالغلى) به مادة تتخمر ، فإن هذا المادة لا تبدأ فتنخمر . وأثبت ، على نقيض هذا ، أن الهواء العادى ، دون إخفاء ، إذا أدخل إلى وعاء مثل هذا ، به مادة مثل تلك ، فإن تلك المادة تأخذ فى التخمر (لاحظ تجربة المقارنة هذه) . والوعاءان وضعهما بستور فى خزانة دافئة ليعجل بالتخمير . والمادة التى اختارها بستور لتتخمر سماها هو « ماء خميرة مسكر » . وكانت خلاصة مائة لخميرة ، أضاف إليها سكرآ .

ولم يكن بها خمائر حية ، ولكنه أضاف مع السكر مواد زلالية وأملاح معدنية مصدرها الخميرة نفسها . ومعنى هذا باختصار أن بستور ، بطريقة الفطرية جهز من الخميرة بيئة زراعة Culture Medium مغذية طبيعية . وهذا الاختيار ، اختيار هذه البيئة الزراعة ، على ما نسميها اليوم ، كان له نتائج هامة ستذكر بعد قليل . وهي تدل على أن الفطرة في التجريب جزء لا ينفصل عن إجراءات التجارب جميعاً .

اقتنع بستور بأنه يستطيع أن يحضّر ، وأن يعيد تحضير ، « ماء خميرة مسكر » ، في ظروف لا تأذن لها بالتخمر في خزانة دافئة . اتخذ

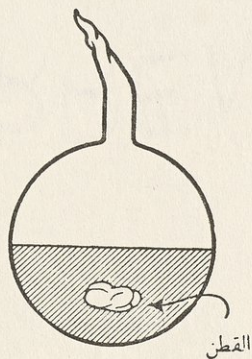


(شكل ٣١)

رسم يوضح طريقة بستور . أن الخميرة المسكرة تغلى ، ثم توضع قطعة من القطن في الأنبوبة ، ثم يفرغ الهواء من القباية ويحل محله هواء بعد تسخينه (تقليبه) ، ويعاد هذا حتى يكون هواء القباية كله مكلساً . ثم تمال القباية حتى تقع قطعة القطن في سائلها . وعندئذ يسبج زجاج رقبة القباية وتختم (كما في شكل ٣٢) .

من هذه الحقيقة أساساً للتجريب . ومن ذلك أنه جمع ، من مقدار عظيم من الهواء ، ما به من تراب ، وجمعه على قطعة من القطن أمر عليها هذا الهواء مصباً ، ثم أدخل هذه القطعة من القطن بالذى عليها من تراب في قباية بها ماء الحميرة المسكّر ، ثم لا شيء إلا هواء مسخن (انظر شكل ٣١ وشكل ٣٢ لإيضاح الطريقة التى اتبعت) . وانتظر ، فإذا ما بالقباية يختمر ، بينا القبايات الأخرى ، مثيلة هذه ، سوى أنها لم يكن بها قطن بتراب ، لم يختمر فيها مختمر .

إن استخدام بستور « لتجارب المقارنة » ظاهر من هذا المثل من أعمال بستور . والذى يقف الموقف السلبي من هذا الجدل لا يستطيع إلا أن يعترف بأن الفشل في اتخاذ الاحتياطات لقتل الجراثيم أو إبعادها يؤدي حتماً إلى تخمر يقع . من أجل هذا وجد بستور أن هذا الإثبات لا يمكن أن يتحقق إلا إذا هو أجرى تجربتين ، بإحدهما قطن ليس مثله



(شكل ٣٢)

القباية التى بشكل ٣١ بعد ختمها

بالأخرى ، فتخمر الندى مع القطن ، وتخمر وحده . إن القطن وحده هو وجه الاختلاف الواحد ما بين التجريبتين ، فالاختلاف في النتيجة لا بد منسوب إليه .

وذهب بستور أبعد من هذا ، وأجرى تجارب للمقارنة أخرى . مثال ذلك أنه أبدل بالقطن حريراً صخرياً ، أزبستس . وخرج على نتيجة كالتى خرج منها من تجاربه بالقطن . واستنتج أن نوع المادة التى تحبس التراب من الهواء غير ذى بال . ولكن بإدخاله الحرير الصخرى ، وهو لا يتأثر بالحرارة ، اهتدى إلى ملحق آخر بارع لهذه التجارب . فهو جمع التراب على الحرير الصخرى ، فلما أثبت وقوع التخمر ، أعاد التجربة ، ولكنه سخن الحرير الصخرى بالندى عليه من تراب قبل إدخاله فى القبابة . وفى هذه الحالة لم يقع تخمر .

والآن فلنستعرض فى اختصار ما أجرى بستور من تجارب باقية على الدهر ، ونستعرضها بالقران إلى ما أراد بستور إثباته أو إيضاحه . إنه اعتقد أن أجساماً صغيرة جداً من مادة حية (جراثيم) لا بد من وجودها حتى يبدأ ماء الخميرة المسكّر فى التخمر . وأن هذه الأجسام كانت من الصغر ومن القلة بحيث تتعذر رؤيتها بالمجهر . لهذا وجب أن تكون طريقة إيضاحه أو إثباته ، إثبات وجود هذه الأجسام ، طريقة غير مباشرة . ومع هذا فقد استطاع أن يثبت أن شيئاً ما فى الهواء العادى لا بد من إدخاله إلى القارورات لكى يبدأ التخمر . وفوق هذا أثبت أن هذا الشئء أمكن جمعه مع تراب الهواء على مرشح كالقطن وغيره ، كالحرير الصخرى ، وأنه عند ما أثلفه بالحرارة على المرشح لم يقع تخمر . فأى شئء

يكون هذا « الشيء » الذى هكذا حددته التجربة ، إن لم يكن هو أصل هذه الكائنات الحية التى تنمو وتتكاثر فى ماء الخمير المسكر تحت الظروف العادية ؟ فىلى هنا أصاب بستور . وهو لم يضطر أبداً إلى التمهق خطوة عن هذا الموقف الذى أوصلته إليه التجارب . ولكنه حاول بعد ذلك أن يستزيد من الأدلة وهنا دخل أرضاً غير مأمونة العقبي .

مناظرة « بستور » و « بوشيه »

لا بد للذى يريد أن يتابع هذا الباب من القصة أن يتذكر أن الأكسجين كان السبب الذى عزى إليه العلماء التخمر ، وأن هذا الرأى دام سنوات . وأن هذا الرأى كان رأى بوشيه Pouchet . وأن كثيراً من تجارب التخمر أو الفساد والتنتن ، التى أمكن فيها بدأ هذا التخمر أو الفساد بإدخال مقادير صغيرة من الهواء إليها ، هذه التجارب كان فى الإمكان نسبة ما حدث فيها إلى أحد شيئين ، فإما الأكسجين وإما الجراثوم . وكانت تجربة بستور ، تجربة « الهواء المكلس » ، فيها الكفاية من إقناع ، أى هذين الشيئين هو سبب ما حدث من تخمر أو فساد . ولكن بستور لم يكتف بهذا ، وابتدع تجارب بسيطة يزيد بها إقناعاً . وضع ماء خميرة مسكر فى قباية ، ثم أغلى الماء ، ثم ختم القباية بإساحة رقبتها فى شعلة من نار حتى التأمت وانسلت . وبعد أن بردت ، كسر أعلى الرقبة ، أعلى الخاتم ، فدخل إلى القباية شىء من الهواء اندفاعاً ، بسبب ما كان بها من فراغ بسبب ختم رقبتها بالنار فى درجة حرارة عالية .

وعاد بستور فحتم رقبة القبابة من جديد ، ووضع القبابة ، بل القبابات من أمثالها ، في خزانة دافئة . ثم أخذ يفكر : إذا كان الأكسجين هو سبب التخمر ، إذاً لتخمرت القبابات جميعاً ، لأنها جميعاً دخل إليها الأكسجين . ولكن التجارب أثبتت غير ذلك . أثبتت أن بعضها يتخمر ، وبعضها لا يتخمر ، وكل هذا يتوقف على المكان الذي فتحت فيه القبابة فأخذت من هواء الجو ما أخذت . وقل أن حدث أن قبابات عشر أو اثنتي عشر ، عولجت جميعاً معالجة واحدة ، فاختمت جميعها . وهى لما فتحت في الريف تخمر ثمانية قبابات من ٧٣ قبابة . وفتح بستور عشرين قبابة عند جبل للثلج ، هو المير دى جلاس Mer de Glace (١) ، فلم يظهر أثر لاختمار إلا في قبابة واحدة منها . فلما فتح ١٣ قبابة في حجرة في خان بمدينة شامورنى Chamonix ، في المنطقة التى يوجد جبل الثلج فيها ، ظهر اختمار في عشر منها .

إن التراب لا شك يختلف توزيعه في الهواء من مكان إلى مكان ، وهو لا شك أقل في الهواء عند رأس جبل منه في خان بقرية . لهذا جاز لبستور أن يستنتج أن الاختلاف في النتائج كان بسبب اختلاف في توزيع الجراثيم التى يحملها التراب في الهواء . ولكن أهم من هذا أن الهواء كان يدخل إلى كثير من القبابات ثم هو لا يحدث اختماراً . إن تحليل الهواء بقبابات « أبرت » Appert التى حفظ بها مأكولاته ضلل الناس . أنه لا يوجد أكسجين فوق الأغذية المحفوظة في قبابات أو علب . وسبب هذا أن في هذه الأطعمة ما يمتص الأكسجين امتصاصاً بطيئاً . هكذا قال

(١) جبل الثلج هذا في القرب من شامونى بفرنسا .

بستور، وهذا هو التفسير الذى نحن نقبله اليوم . ولخص بستور ما وجد من ذلك فى مقال له عام ١٨٦٢ ، قال : « إنه ليس صحيحاً أن أقل مقدار من الهواء العادى يكفي لأن يحدث فى خلاصة ما تلك الحياة المتعضية organised التى هى خاصة بهذه الخلاصة » .

ولم يقتنع پوشيه ولا اقتنع أتباعه بمقال بستور . وأخذوا يجربون بأنفسهم على قمم الجبال وجاءوا بنتائج عكس تالك التى جاء بها بستور . وفتحوا وأغلقتوا قبابات بها مواد تختمر ، عند قمة جبل مونت بلانك Mont Blanc وجبل مونت روزا Monte Rosa ^(١) ، وعلى جبل ثليج فى جبال البرينيز Pyrenes . وقالوا إنهم اتخذوا فى هذه التجارب ما اتخذ بستور من احتياط ، ولكن فى كل منها حدث التولد عند ما تركت الأوعية فى مكان دافئ . وعزا بستور طبعاً هذه النتائج إلى سوء فى التجريب . والحق أن كل خطأ فى أمثال هذه التجارب يؤدي حتماً إلى نتيجة تناصر أهل الرأى فى التولد الذاتى . وهذا مؤدى نظرية بستور . فكل تدهير فى إتلاف الجراثيم أو إخفاق فى حبس لها خارج الأوعية ، يعطى نتائج خاطئة تؤيد نظرية خاطئة هى نظرية التولد الذاتى .

وتألفت لجنة من الأكاديمية الفرنسية لتقضى فيما بين بستور وپوشيه من نزاع . وعرض بستور على اللجنة قباباته وليس فيها أثر للتخمر مع أنها فتحت ثم أغلقت . وكانت أدلته غاية فى الإقناع . أما پوشيه وأعوانه ، فلاسباب غير واضحة ، أثاروا اعتراضات تافهة على ما رسمت اللجنة من

(١) كلاهما جبل فى سويسرا ، وقممهما مغطاة بالثلوج .

شروط ، وانتهوا بأن رفضوا أن يقوموا بإجراء التجارب ، ثم خرجوا من التحكيم . وقضت اللجنة بنصرة بستور . وظهر النصر حاسماً في عام ١٨٦٥ . ولكن لم يمض عليه غير عشر سنوات حتى تراءى ، حتى لبستور نفسه ، أن پوشيه ، عند ما خرج من ميدان المعركة ، خرج قبل أوان الخروج . وليس معنى هذا أنهم وجدوا عندئذ أدلة على التناسل غير المتجانس تصمد للتجريب الدقيق . ولكنهم كشفوا أن الأخطاء التي كانت بتجارب پوشيه لم تكن بأى حال من سوء تجريب پوشيه . كان لها أسباب أخرى . فبوشيه استخدم خلاصة من الحشيش الجاف مادة للتخمير في تجاربه ، بينما بستور استخدم ماء الخمير المسكر . وفرض الرجلان ، وفرض معهم العلماء والناظرين ، أن نوع المادة التي لا تتخمّر لا يؤثر في النتائج شيئاً . واتضح أنه من الأشياء المتغيرة ، من العوامل الهامة التي تتغير في التجربة فتغير بها النتائج . لم ؟ لأن الأحياء المक्रوية الموجودة بالطبيعة في الحشيش الجاف ، تصنع بزوراً ، هي دور من أدوار حياة هذه البكتريا . وهذه البزور تقاوم الحرارة مقاومة شديدة ، ولكنها لا تنمو فتعطي الكثير من الحيوانات المक्रوية إلا في حضرة الأكسجين . لهذا لا يكتفى الغلى الذي كفى لتعقيم ماء الخميرة المسكر لتعقيم مستخلصات الحشيش الجاف الذي استعمالها پوشيه . أعنى اختصاراً أنه فيما يختص بقبايات پوشيه كان الأكسجين هو الشيء الأهم ، وجوده أو غيابه ، وليست الجراثيم ، وجودها أو غيبتها .

وكل هذه الصعوبات في التعقيم ، تعقيم صنوف خاصة من المنقوعات والخلصات ، لم تتضح طبيعتها إلا عام ١٨٧٠ . وكان ذلك نتيجة لجدل

آخر . كان النصير الأكبر لنظرية التناسل غير المتجانس الطبيب الإنجليزي بستيان ، وقد سبق ذكره . ووقف من الجانب الآخر منه بستور يعارضه ، وكان له حليف شهيد الإيمان خبير ، هو عالم الفزياء جون تندال John Tyndall ^(١) . ولست أريد الدخول في تفاصيل هذا ، وإلا احتجت إلى باب بأكمله ، ولكن يكفي أن أقول إن بستيان غصب بستور وتندال على تغيير آرائهما فيما يتخذون من إجراءات لقتل كل أصل محتمل لكائن حتى أن يكون . ومن هذا الوقت استُخدمت للتعقيم درجات للحرارة أعلى من درجة غليان الماء . ودخل إلى أدوات التعقيم حلّة بابن Papins Digestor (صفحة ١٦٠) ، وتغير اسمها فصار أوتو كلافا Autoclave ، وصارت جزءاً راتباً من معامل علم الحياة ، ومن هذه المعامل انتقلت إلى المستشفيات للتطهير ، ولهذا قد نسميها مِطْهَرة .

ولقد كان في الإمكان أن يسمع الناس روح « نيدم » تحتج على ما اتخذ البكتريولوجيون لأنفسهم من أساليب تطهير استتبوا عليها في عام ١٨٨٠ . وإذا لقالت إن أساليب عنيفة كهذه لا بد أنها عدّبت ما في النبات والحيوان من أصول حيوية ، برفعها إلى ما فوق درجة غليان الماء كثيراً ، أو حتى قليلاً ، وأنها بذلك أزلت هذه الأصول . ولكن صوت هذا الروح ما كان بالغاً أحداً ، أو مقنعاً أحداً ، فقد كان وليّ الزمن الذي كان فيه الناس تقنع بمعان مبهمّة كهذه . وكان علم البكتريا وعلم

(١) هو عالم الفزياء الإنجليزي ، ولد عام ١٨٢٠ ومات عام ١٨٩٣ .

الكيمياء الحيوية ، كلاهما آخذاً في إيضاح معانيه وتحديد مصلحاته وما تمّ عنه في الدهن من صور . وما جاء آخر القرن التاسع عشر حتى فقدت تجارب بستور وتبدال خطرهما من حيث علاقتها بنظرية التولد الذاتي . ولكن بقي لها خطرهما من حيث أنها كانت الأصل الثابت الذي بنى عليه علماء البكتريا وعلماء الحياة الميكروبية أساليب للعمل راتبة في معاملهم . واتبع العلماء ما اتبع بستور في مقاله الأول عن التخمر المعطى حامض اللبن (صفحة ٣٢٤) ، وتعلموا منه كيف يفصلون ثم يزرعون سلالات نقية من الكائنات الميكروبية . وبهذا أمكنهم أن يُخرجوا من أخلاط الميكروبات التي تنمو من تراب الهواء إذ يُقذف به في خلاصة تختمر كماء الخمير المسكّر ، أن يُخرجوا ميكروباً واحداً بطريقة حقن مناسبة . وبهذا اقترب العلماء فكادوا أن يروا ما أرتهم إياه الميكروسكوبات بعد ذلك من تلك الجراثيم الأولى ، على شتى أنواعها ، التي كان من عندها يبدأ التخمر أو يبدأ الفساد والتحلل . أو بعبارة أخرى إن تقدم أساليب التجريب ، وما استجد من تصورات في علم البكتريا ، غصبت كل مناصر للتولد الذاتي ، على أن لا يعمم في القول ، وأن يخصص ، فيقول لنا أي من هذه الكائنات العضوية خالصة نقية هي التي جاز عليها التولد الذاتي أو يجوز . وبهذا تعسر حتى على روح نيلدم أن تدعى أن أصلاً حيويّاً يستطيع أن يولد لنا من ماء الخميرة المسكّر نوعاً من الأحياء ، بقطرات تقطرها فيه من سائل ، ثم هو نفسه يولد من نفس ماء الخميرة هذا ، نوعاً من أحياء أخرى بقطرات تقطرها فيه من سائل آخر . والمواد الزلالية التي جاءت من الخميرة ، أو من اللحم ، أو من الحشيش المجفف ،

أو من أى شىء يقبل التخمر أو يقبل الفساد والتحلل ، ما كان يمكن
تصويرها إلا « غذاء للخمائر » لا « الخمائر » نفسها . وهذه هى كلمات
يستور نفسها .

إن النتائج التى خلاصنا إليها من هذا الاستعراض تقع اليوم من البدهة
بحيث أننا نقبلها دون أى اعتراض . وهى قد جرت فى فكر الرجل العادى ،
فلا يجد اليوم أحد فيها شبهة أى شبهة . ولكن هذا يفوت علينا كثيراً أن
ندرك الصعوبات التى تقوم عن ربط صور الإنسان الذهنية بنتائج
التجارب العملية فى علم كعلم الأحياء التجريبي . وبهذا التفويت يضع ما
فى هذه القسمة من قيمة . إن دراسة تاريخ هذه النظرية ، نظرية التولد
الذاتى ، وإعادة دراسته ، عمل نافع يدرك منه المتأمل كيف وقع فى
ظواهر التخمر ، أن أفكاراً مبهمه من أفكار الناس السائدة انقلبت رويداً
رويداً حتى صارت أفكاراً علمية وصوراً من صور العلم ذهنية . وأن
يدرك أن طريق هذا الانقلاب لم يكن بالطريق السوى ، وأنه ما أكثر ما
التوى . وأن يدرك الصعوبات التى تصحب كل محاولة تمس فكرة أو
أفكاراً فى سواد الناس شائعة ، يحيطها الكثير المبهم مما لا يرتضيه منطق ،
لتصوغها صياغة جديدة ، أكثر منطقاً ، وأقل إبهاماً ، وأكثر ارتباطاً
بنتائج التجارب التى تجرى فى معمل أو حقل . إن الأسماء التى
استخدمناها ، من « كائنات حية » ومن « أصول سوابق للكائنات
المكرووية » ومن « جراثيم » ، كل هذه اقتبست أسماء لمعان تجرى فى
أفكار السواد من الناس ، وكل منها يعتمد عند الناس على عمله نفسية
وأخرى اجتماعية . وهى لا تصبح صوراً فى الذهن علمية إلا ببطء شديد

ومن بعد عمل شاق كثير .

ونحن إذا واصلنا رواية هذه القصة إلى هذا العصر الحاضر لوجدنا أن أمثال هذه المتاعب القديمة لا زالت قائمة تعكس صفو العامل الذي يعمل في علم الحياة ، من بحث وتطبيقي . فهو اليوم يتساءل ما الفيرس virus (١) شيء حيّ هو أم غير حيّ؟ والناقلات الأمراض ، هل هي أسباب للأمراض ، وهل هي أسباب كافية؟ فإن لم تكن كافية فما هي « المتغيرات » الأخرى التي بحضورها يتم وقوع المرض ، وفي غيابها لا يقع؟ وهكذا ، من أسئلة لا تكاد تُحصر ، لو أننا تابعتها لدخلت بنا إلى معامل علم الأحياء ، ومحطات التجارب الزراعية ، ومدارس الطب والمستشفيات وعديد من المعاهد المتخصصة في هذه الأمور وأشياء لها . نحن إذا دخلنا هذه المعامل والمحطات والهيئات لوجدنا أبحاثاً جارية ما كانت تخطر من بستور على بال ، ولكن لوجدنا أساليب للعمل وأطرزه للفكر هي في جوهرها أساليب عمله وأطرزه فكره . وإذا نحن التقينا في هذه المعامل والمعاهد بعقريّة دفاعة ، إذاً لوجدنا فيها من الفروض والنظريات الجريئة ، ومن التأثير بماضى الفكر (وقد كدت أن أقول الهوى العلمى والتعصب) ، مثل ما وجدنا في عقريّة بستور .

بقى أن يسأل السائل : فما بال أصل كل هذه الكائنات الحية؟ فإذا هي لم تتولد من ذات نفسها ، فكيف بدأت كل هذه الكائنات من نباتات وحيوانات ، صغیرها وكبيرها؟ للإجابة على هذا السؤال ، أو

(١) الفيرس كلمة لاتينية بمعنى السم ، وهي في الطب السم أو أسباب العدوى التي تدخل الجسم فتمرضه مثال ذلك فيرس الجدري .

على الأقل للنهوض ومحاولين إجابته ، يجب علينا أن ندرس طرائقنا في درس ما وقع في الماضي ، في تلك الأزمنة الطويلة الحالية . أن أحداً لا يستطيع عقلاً أن ينكر قاطعاً أن التولد الذاتي جارٍ اليوم على هذه الأرض ، ولكن الذى نستطيع أن نقوله بحق أنه ليس من ظاهرة درست إلا وتفسرت بالنظرية التى تقول إن لكل حىّ أصلاً حياً سبقه ، وأنه منه خرج ، وتفسرت خيراً مما تفسرت بأية فكرة أخرى ، وخيراً كثيراً . أما عن دراسة ما وقع في الماضي البعيد فسأفرغ له الباب التالى ، وفيه نستعرض بعض ما تم من تقدم في العلم في هذه الناحية ، وكذلك نستعرض ما قام في سبيل ذلك من عقبات .

الباب العاشر دراسة الماضي

ذكر أحد الكتاب الحديثين ، في نشأة الآراء العلمية ، أنه كان في تاريخ العلم الحديث ثورات ثلاث . الثورة الكوبرنيكية Copernican ، والثورة النيوتونية Newtonian ، والثورة الدروينية Darwinian . ولعل القارئ يذكر أنى إلى الآن لم أشر إلا قليلا ، أو لم أشر أصلا ، إلى حوادث العلم هذه الثلاث الكبرى . ولن أشير إلى إياها في الذى بقى من صفحات . والسبب ظاهر . فهذا الكتاب لا يختص بدرس آثار الآراء العلمية في عقول أهل الغرب ، ولكنه يختص على الأرجح بالمناهج التى استنها العلم التجريبي في الثلاثة القرون الماضية ، أما القراء الذين يُعنون بتاريخ النظريات العلمية ، وعلاقتها بآراء الناس المتغيرة ، في أصل الدنيا وأصل سكانها ، فهؤلاء أحيلهم إلى كتب حديثة تتناول هذه الموضوعات ، مثل كتاب « نمو الآراء العلمية » لصاحبه ويتان Wightman's The Growth of Scientific Ideas ، ومثل كتاب « أصول العلم الحديث » لصاحبه بترفيلد Butterfield's The Origin of Modern Science ومثل كتاب « العلم والدنيا الحديثة » لصاحبه هويتهد Whitehead's Science and the Modern World ومع هذا فإنى في هذا الباب سأقترب حتى أكاد أطلّ على تلك

المنطقة من الفكر التي يجمع عندها اللاهوت والفلسفة والعلم . لأنى أعتزم أن أتناول فى اختصار بعض تلك المسائل الخاصة الى تعرض عندما يتحدث العلماء وأهل الدراسات عن الماضى البعيد . وعلى الأخص سأتناول بالفحص طرائق علم الجيولوجيا (أى علم الأرض) وعلم البلينتولوجيا Paleontology (أى علم الأحياء المستحجرة أو الحفريات) ، وما سلّم به علماءها من فروض ونظريات أساسية ، مضافاً إلى هذا نظرة عاجلة فى مسائل علم الكون cosmology العامة . والحق أنه فى هذه الحقول الثلاثة من حقول الفكر ، وقعت فى المائة من الأعوام الماضية وقائع ، واستجدت آراء كان لها أثر بالغ فى نظرة المسيحي المثقف إلى الكون عامة ، وإلى العيش والحياة ، بل أزيد فأقول إنه لا جدوة اليوم يحسبها فى التقدّم من نظريات النشوء وجديدها ، وأن رجال اللاهوت واللاهوتيين (الذى لا يعتقدون بكفاية العقل فى استكناه ما وراء الطبيعة)^(١) يختصمون اليوم إعلاناً ويعتكرون اعتراكاً عنيفاً فى سبيل تفسيرهم آراء العلماء ، من علماء نفس ، إلى علماء أجناس وسلالات بشرية ، إلى علماء اجتماع هذا ولم يمض غير خمسين عاماً على الحال التى اضطرت « أندرو هويت » Andrew White ، أول رئيس لجامعة كورنل Cornell ، إلى كتابة كتابه التاريخى المسمى « الحرب بين العلم واللاهوت » The Warfare of Science & Theology . وهو كتاب كبير فى جزأين . وقد قال « هويت » فى مقدمة كتابه هذا أنه ضاق ذرعاً بكثرة ما أقيم فى سبيل إنشاء جامعته الجديدة من عقبات ، وما اعترضها به المحافظون من البروتستانت من

(١) انظر هامش صفحة ٦٥ .

اعتراضات ، فلم يسعه إلا أن يضرب ضربته ، وأن يضربها شديدة دفاعاً عن حرية البحث العلمى . ولا زال كتابه يستأهل القراءة لأكثر من سبب . ولكنى أشرت إليه هنا خاصة لأن المتصفح له يدرك تواءم أن الخصومات قامت على الأكثر حول الماضى وتفسير وقائعه . واحتشد المتخاصمون ، فكان على أحد الجانبين رجال اللاهوت المحافظون ، وكان على الجانب الآخر العلماء من أصحاب النظريات الحديثة فى أصل هذه الأرض ، ومعهم علماء التاريخ والدارسون له ممن جاءوا بطرق النقد التاريخى يطبقونها على كل وثيقة وكل كتاب قديم عتيق . وظاهر طبعاً أن الإنسان ، حتى لو اقتصر على بحث ما اتبع هؤلاء الدارسون القدماء من طرائق ، فهو لا بد مقترب ، رضى أو لم يرض ، من أرض سلاحها ما يتسلح به المتعصبون من بغضاء وأهواء يدفعون به عن رأى لا يبعون عنه تحولا .

إنى ما بقيت فى حظيرة الكيمياء والطبيعة ، أى الفزياء ، وحظيرة علم الأحياء التجريبي ، فأنا آمن من الإساءة إلى أحد ، إلا القليل ، لاسيما وقد دخلت هذه الحظائر دخول المحتاط الحذر . وكل دُجماطيقى^(١) ، وكل ذى عقيدة من قرأى لا يبعى عن عقيدته حتى بالمنطق بديلا ، يستطيع أن يجد عقيدته فيما قلت وما وضعت بتغيير فى القول أو الوصف جد يسير . مثال ذلك أن قوماً يعتقدون أن الذرة ، وأن الجزىء ، وأن الحين^(٢)

(١) الدجماطيقى لفظ أغريق يعنى به الفلاسفة الرأى أو العقيدة تفرض بقوة السلطان ، بقوة الكنيسة ، وعكسها الرأى الذى يأتى من الفكر أو من الخبرة والتجربة . اختيارا
 (٢) الحين والجمع جينات . وهى من أصل يونانى يتصل بمعنى الولادة والأجناس . ولتفسيره يرجع المرء إلى كل حى ، من نبات وحيوان ، فيجد أنه يبدأ من خلية واحدة تتقسم ،

(وحدة التناسل) ، كلها وقائع لا مرية فيها ولا في وجودها . فهؤلاء سوف يضايقهم بعض الشيء أنى لا أعترف لهذه الأسماء بأكثر من أنها أسماء لصور ذهنية فرضية . وهم قادرون على أن يوقفوا بين يقينهم وتشككي . وأمثال هؤلاء القراء سيوافقونى على أنه من النافع لمن يريد أن يفهم العمليات التى بها ينشأ الحديد من الآراء ، وبها تبتدع التجارب لتُحسَن ، أن يتقمصوا إلى حين مزاج هؤلاء البحاث عند ما بدأوا فرضهم فى شك كثير ، وبدأوه شيئاً مؤقتاً ، ثم هو استحال من بعد ذلك إلى شىء ثابت مستقر . ومن الجانب الآخر ، جانب قرأتى من اللاهوتيين ، هؤلاء الذين يعتقدون أن حكاية العلم عن الكون حكاية ناقصة قاصرة . فهؤلاء لا بد مرحبين بالذى عندى من شك ، وإعوازى الدُّجماطيقية أن يكون لها فى مزاجى موضع . واختصاراً أحسب أن بجحى المنهجى الذى استعرضته فيما مضى من أبواب هذا الكتاب ، على ما به من نقص سوف يُرضى كثيراً من أهل الفلسفة على اختلاف مذاهبهم ونحلهم . ولكن ذو مذهب واحد سوف لا يرضى ، ذلك الرجل النافر الناشز الذى يعتقد أن العلم كفىل بتفسير كل شىء . فهذا سوف يسوعه أكبر السوء إبائى أن أرضى لنفسى أن أكون دوجماطيقياً فى العلاقة ما بين الحقيقة ومعناها ، وبين الصور

فينتج منها خليتان ، يتقسمان وهلم جرا حتى يتم الجسم نموه . والخلية عند ما تنقسم ، تنقسم نواتها ، وعندئذ يظهر فيها عصى تعرف بالكوموسومات . وفى خلية الرجل ٢٨ كروموسوما ، وفى خلية الصرصار ٣٤ وهلم جرا . وتنقسم الكروموسومات طويلاً ، فتذهب بنفس هذه الأعداد إلى الخليتين الحادثتين . وفى الكروسومة الواحدة حلقات غاية فى الصغر عدة ، هى الجينات . وفيها سر أوصاف الكائن الحى ووظائفه . وأى خلل أو نقص فيها يؤدي إلى خلل فى الكائن الحادث فهى إذن خزائن الوجود الأولى .

الذهنية والمشاريع التصورية التي يبتدعها العلم . وحتى مثل هذا الرجل يستطيع أن يكون معي كريماً في خصوصته ، ذلك لأن الموقف الذي وقفته وأشعت معناه ومغزاه في الأبواب السالفة ، يمكن اعتباره أداة تعليمية يبدأ جوجية قليلة الضرر نسبياً .

ورجل ثالث ليس إلى رضائه من سبيل ، ذلك الذي يؤمن بمذهب المادية المنطقية ^(١) dialectical materialism . فهو لا شك سيحس بأن هذا الكتاب لا موضع له ، ، وما يجب أن يكون . وهذا الرجل إذ يرى ذلك يكون منسجماً مع سائر عقائده ، لا سيما إن كان من ذلك النفر الذي تقيد برأى للاتحاد السوفيتي رسمي . فنحن يجب أن نذكر أن من رسائل لينين الفلسفية الهامة ، رسالة كتبها عام ١٩٠٩ ، وكانت نقداً شليداً لشرح ماخ Mach ^(٢) لتصورات علم الطبيعة . وكان ماخ انتقد في صرامة بعض ما كان شائعاً عند ذلك من فروض للعلم . وعدوا نقده

(١) هي مادية كارل ماركس ، فهكذا هو سماها ، ليفرق بينها وبين المادية الكلاسيكية . ومنها في نظرية المعرفة ، أن عملية المعرفة ليست ، كما فهم منها قديماً ، عملية يبق في الشيء أو الموضوع ، موضوع المعرفة ، ثابتاً جامداً ، بينما الشخص ، كاسب المعرفة هو وحده الذي يتغير ويتعدل . وإنما هي عملية يعدل فيها الموضوع الشخص ، والشخص الموضوع ، في سلسلة من التبادل لا تنتهي أبداً . ومن أجل هذا سميت منطقية ، أو نقاشية ، أو جدلية ، لأن النقاش والجدل فيها لا ينتهي أبداً .

(٢) هو أرنست ماخ ، فزيائى وعالم نفسانى . ولد عام ١٨٣٨ ومات عام ١٩١٦ . وتولى منصب أستاذية الطبيعة في براغ وفي فيينا . وكانت له فلسفة مزج بها الفزياء مزجاً غريباً وفيها رأى أن الحياة كلها إحساسات . وانتهى إلى أن ظواهر الحياة كلها ليست إلا ظواهر فزيائية . والجزء حتى الذى أسميه « أنا » ، والجزء منك الذى أسميه « أنت » ، ليس له وجود منفصل عن سائرى وعن سائرک ، ولكنه معبر إلى حمل المشاعر الإحساسية .

هذا رجعيًا لأنهم تخيلوا أنه به إنما يفتح الباب إما إلى مذهب الارتياحية (مذهب الشكك) Skepticism^(٢) أو إلى المذهب التصوري Idealism^(٣). فالذي يريد أن يؤسس فلسفة على ما وجد القرن التاسع عشر من معرفة، وجب عليه عندهم أن يأخذ هذه المعرفة بحذافيرها، قاطعة حاسمة، فهم لا يطيقون منه شكًا فيها أو تحويراً أو تعديلاً لها.

إن أسلوبى فى تناول شئون العلم التجريبي، والترفق والحذر اللذين اتبعتهما فى هذا الكتاب، كلها جديرة بأن تأتلف وصنوف العقائد، من فلسفية ودينية. ولكن إذا نحن فرضنا على أنفسنا الترفق والحذر فى العلم، وأن لا نصدر فيه عن إيمان لا يطلب الدليل ولا يطبق البحث، فيجب أن لانكون فى الفلسفة واللاهوت والتاريخ أقل ترفقاً وأقل حذراً. والشك والريبة والحيطه التى كانت شعارنا عند النظر فى نظريات العلم يجب أن تكون هى هى شعارنا عند النظر فى الوثائق الدينية. لهذا أرى أن هذا الباب قد يسىء إلى المقلد فى الدين كما يسىء إلى الرجل الذى يقول بالطبيعة^(٤)، وإلى ذلك الآخر الذى يقول بالمادة، ثم هما يُصمان آذانهما

(٢) المذهب الارتياحي هو المذهب الفلسفي الذى يشك فى أن الإنسان فى استطاعته أن يعلم شيئاً. ولهذا المذهب طوائف وأول طوائفه أسسها بترو (٣٦٠ - ٢٧٠ قبل الميلاد) وهو قد علم أن المتناقضات أشياء ممكنة. وأن ليس فى المظاهر ما هو حقيق وما هو باطل. وأن الجهال وأن العدل لا يميزان شيئاً عن شيء ولا عملا عن عمل. وعلم أن الغاية من الفلسفة بالرائق وعقل مرتاح يكسبه الإنسان بالامتناع عن الحكم فى أى شيء.

(٣) المذهب التصوري هو المذهب الفلسفي الذى يرى أن كل الأشياء المادية ليست إلا تصورات فى أذهاننا، وأنه لا شيء ولا وجود حق إلا أشخاصنا هذه التى تتصور، وأنه لا عيش إلا تصورات.

(٤) مذهب الطبيعيين هو فى الفلسفة مذهب يقول بأن الطبيعة هى أصل كل شيء،

عن استماع إلى مناقضة في مادة أو طبيعة . وهو مسيء لا شك إلى صنف آخر من الرجال ، فهو لن يترك لهم من القواعد التي يقيمون عليها فلسفة حياتهم إلا القليل الضيق . لقد قيل حديثاً « إن المشكلة التي سيواجهها ما سوف يأتي من أجيال هي أن يحاولوا التوفيق بين العلم وبين الحكمة حتى تجمعهما روحية متسقة حية » . وليس منا من لا يوافق على هذا ، ولكن قد نختلف جميعاً ، ونختلف شديداً ، عند ما ننظر فيما يحول دون هذا التوفيق من عقبات . وهذه العقبات لا توجد في حقل الكيمياء أو حقل الطبيعة والفيزياء ، أو حقل علم الحياة التجريبيّ عامة . ولكن العقبات ستوجد في سجل الماضي ، وفي الموضوع التي تحتله بعض الوثائق . إن الآراء التقليدية لكثير من رجال اللاهوت يجب أن تتسق والنتائج الذي يخرج بها النقاد من دارسي الإنجيل والمؤرخون تاريخ الدين . كذلك يجب التنسيق بين اللاهوت التقليدي وبين العلوم البيولوجية التي تبحث في الماضي البعيد أو في سلوك الرجل الفرد على ظهر هذه الأرض .

إن كل هذه العقبات يمكن تخطيها ، لا شك عندي في هذا ، ولكن ليس بالشره التي يعرضها بعض رجال الكنيسة من المحافظين . إننا لا نتخطاها ، فيما يبدو لي ، إلا إذا قمنا بفحص كل ما سجل ودون من أدلة اشتققنا منها المبادئ المسيحية أو اليهودية أو مبادئ أي دين آخر ، وأن نفحصه بنفس الجرأة التي يفحص بها الجريء البالغ الجرأة

ويجحد ما فوقها من قوة . وهو مذهب ينكر الثنائية التي هي المادة والفعل ويقول إن العقل صفة من صفات المادة . وهو مذهب كذهب المادية ولكنه لا يشغل نفسه بالبحث في جوهر المادة .

في العلم أصل الإنسان وكيف تنشأ . ولن أطيل في هذا الموضوع ، فالوفاء به يحتاج إلى باب آخر جديد خارج عن نهج هذا الكتاب خروجاً كبيراً . ويكفي أن أقول إنه ، تمهيداً للتوفيق المثمر الذي نرجوه ، لا بد أن نقف بأحكامنا ، فلا نقضى قضاء مبرماً في شيء من هذا العقائد الدجماطيقية ، التي يعتمدها معتقدها ولا يطلبون لها دليلاً ، ولا يطبقون لها نقضاً ، سواء كانت هذه العقائد من عقائد العلم أو عقائد اللاهوت . إن الشك في غير سخرية ، وعلى الحذر ، هو سبيل كثير من العقول ، على اختلافها ، إلى علم أو دين . ولا يمنع هذا السبيل سالكيه من اختلاف في عقائدهم ، ولا اختلاف في صيغ يصوغون بها حكمة روحية جاءت أهل الغرب من سكان الأرض من طرقات في التاريخ متعددة .

إن دراسة الماضي تصل صاحبها بأرض حارب عليها رجال اللاهوت ورجال العرفان ورجال العلم معاً ، وهي فضلاً عن ذلك تثير مشاكل لكل من يلح في أن لا تعتبر النظريات العلمية شيئاً أكثر من مشروعات تصورية نافعة مثمرة . إنني سبق أن شرحت كيف أن كثيراً من الآراء العلمية قد اختلطت أشد اختلاط بآراء الناس اليومية الدنيوية حتى ما يكاد المرء يفرق بين المعنيين ، معنى المشروع التصوري ومعنى الحقيقة الواقعة . ومن الآراء ما بدأ فروضاً عامة افترضها العلم لغاية ، ثم صارت من بعد ذلك مشاريع تصورية أفادها العلم ومنها أثمر ، ثم إذابها تصير عند الناس جميعاً مسلمات لا مرية فيها ، فكأنما هي أوصاف وقائع قائمة كائنة ، لا وقائع يحتمل أكثر احتمال أن تقوم وأن تكون . إن الناس يتحدثون في ساعة يفتقدون فيها الدقة في القول ، والحذر عند التعبير ، فيقولون إن من الحقائق « أننا

نعيش على كرة يحيطها بحر من هواء» ، وإن من الحقائق أن « الأرض تدور حول الشمس » ، وأن « المادة تتألف من ذرات » ، وأن « الكائنات الحية اليوم لا تنتج إلا من كائنات حية سبقتها » . ولكن ، لفهم العلم حق فهمه ، أرى أنه من المهم أن نفرق بين آراء هكذا نصوغها ، وبين حقائق كالتى نعبر عنها بقولنا « إن المضخة الماصة لا تستطيع أن ترفع الماء إلى أكثر من ٣٤ قدماً عند سطح البحر ، وترفعه إلى ما دون ذلك عند شتى الارتفاعات على جبل » . وقولنا « إن أكسيد الزئبق الأحمر يعطى الزئبق والأكسجين عند تسخينه » . ولكننا نتساءل : هل فى استطاعتنا أن نحذر هذا الحذر نفسه عند ما نتلقى نتائج يخرج بها بُحاث الماضى ؟ وهل فى إمكاننا أن نستقبل بمثل هذه الريبة ما يخرج به علماء الجيولوجيا ، علماء الأرض ، وعلماء الحفريات ؟ وإذ قلنا نعم ، فما بال نتائج يخرج بها المؤرخون وعلماء الآثار ؟

لإيضاح هذا نبدأ بمثل من أمثلة المعارف المتراكمة عند الناس على الدهر ، تلك التى تخرج بالتعريف عن نطاق العلم . وليكن هذا المثل واقعة من وقائع الماضى نشعر فى تأكيد كثير أنها وقعت فى البضعة الآلاف من السنين الماضية . فهذه مثل من التاريخ المكتوب . ونحن إذ نتحدث عن هذا المثل من التاريخ المكتوب ، وعن أضراب كثيرة له ، نحس بالطبع والعادة أننا نتحدث عن حقائق وقعت . ولكن بالرجوع إلى حوادث التاريخ نجد أنها تختلف ، أو يظهر لنا أنها تختلف من بعض الوجوه عما أسميناه إلى الآن ، فى حذر ، حقائق . أنها تختلف عن حقائق يتلوها علينا الكيمائى والفيزيائى وعالم الأحياء بمقدار ما تختلف عبارة من يقول « إنى قضيت

الصيف في مدينة كذا ، على ساحل البحر ، منذ خمس سنوات » عن عبارة من يقول « إن في المطبخ مضخة ترفع الماء من البئر » .

إنك لا تستبين فرقاً بين العبارتين لأول وهلة ، وقد تقول إن كليهما جائز تحقيقه والخروج من بعد التحقيق بصحته أو ببطلانه . ولكن ، انظر إلى إجراءات التحقيق في كل ، ألا تجد بينها فرقاً ؟ إن العبارة الأولى تقترح على سامعها سبيل تحقيقها ، أن يدخل إلى المطبخ وأن يرفع الماء بالمضخة بيديه ، ففي هذا الإقناع كل الإقناع . وهي مثل للعبارة تتضمن حقيقة تؤدي طبيعتها إلى تحقيقها ، ورسم طريقة التحقيق واضحة ، وهي تحقق اليوم وتحقق غداً ، والذي يحققها أنا وأنت وكل أحد . وهي مثل لكل العبارات التي تتضمن الحقائق التي هي مجموعة المعارف العملية في الحياة ، ومجموعة المعارف التي هي لحمة العلم وسداه ، فن حقائق العلم أن أكسيد الزئبق الأحمر يعطى الزئبق والأكسجين بنسب معينة إذا رفعت حرارته إلى درجة معينة . فهذا معنى يتضمن تعريفاً لمادة ، وهو قد رسم طريقة التثبت منه لمن شاء في أى وقت في المستقبل شاء .

ولكن انظر إلى العبارة الأخرى « إنى قضيت الصيف ، في مدينة كذا ، على ساحل البحر ، منذ خمس سنوات » ، إنها تقنع زبداً ، قائلها ، بسبب ثقة له في ذاكرته . ولكن لإقناع عمرو بها يُحتاج إلى أمر أقل بساطة ، وأصعب إثباتاً ، من قولك في الحالة الأولى « ادخل إلى المطبخ وانظر بنفسك » . إنا جميعاً نعلم أن في ماضينا حقائق كثيرة وقعت ، ولكن لا دليل على وقوعها . كذلك به وقائع كثيرة تثبت منها بشهادة أفراد معينين أو قراءة سجلات خاصة بها . ولكن من الوقائع الكثير الذي نتشكك

فيه لضعف ذاكرتنا . ففي هذه الحالة يسلك الإنسان إلى تحقيقها نفس الطريق الذى يسلكه لدى لجنة التحقيق أو هيئة من المحلفين لإقناعها بحقيقة ليس عنده ظل من الشك فيها . ولكن فى هذه الحالة لا يكفى دليل للإثبات بسيط واحد . فلا بد هنا من تعدد الأدلة التى تشير جميعها إلى هذه الحقيقة الواحدة ، تماماً كما يفعل المحامون فى المحاكم والمؤرخون فى بحوثهم ودراساتهم .

إن من العبارات التى تتصل بالماضى ما يتكشف عند الامتحان أنه الحق ، وما يتكشف أنه الباطل ، وما لا يتكشف حقه ولا بطلانه . وذو الشك والريبة يطلب دائماً من الأدلة مزيد مما يطلب القريب التصديق . ولكننا لا يساورنا شك على الأقل فى حقيقة ماضينا هذا القريب ، ذلك لأننا نثق فى ذاكرتنا ثقة هى فى عمومها صحيحة . ونحن نعلم ، بالطبع ، وبالحس العادى ، أن عبارة تتضمن وصف جزء كان لنا فى حادثة هى إما صادقة وإما كاذبة . ونشعر شعوراً غريزياً أننا نستطيع أن نعود بأنفسنا فى الزمن إلى الوراء ، إلى مسرح وقعت فيه هذه الحادثة . ذلك أن ذاكرتنا تستطيع أن تعود بعقارب الساعة إلى الوراء فتطلع بذلك مرة أخرى على الحوادث الكبرى التى جرت بها أعمارنا وجرى عيشنا .

إنى عند ما بحثت أعمال العلم التجريبي عبرت عن شىء فقلت إنه «الفرض المحدود الميسر للعمل» ، وقصدت بذلك معنى مؤقتاً ينقلب بعد التحقيق حقيقة (صفحة ٩٠) . مثال ذلك أنى أرى زجاجة بها مسحوق أحمر ، فأصيغ لنفسى فرضاً محدوداً ميسراً لما بعده فأقول إنه أكسيد الزئبق الأحمر . ثم أجرى فى تحقيق هذا الفرض على ما سبق أن وصفت . وهذا

الفرض المحدود الميسر يختلف في نظري عن تلك الفروض الضخمة العامة الأخرى التي تلد من بعد ذلك المشروعات التصورية والنظريات . وإذا أنا لم أكن فرقت هذه التفرقة بين المعنيين فيما سبق فقد والله خبت فيما قصدت إليه من إفهام دخائل العلم للقارئ . وأعود إلى الماضي ووقائعه فأقول إن عبارة تتضمن واقعة وقعت في الماضي القريب هي أشبه شيء بعبارة تتضمن « فرضاً محدوداً ميسراً للعمل » كالذي نقول به في العلم ، هذا مع اختلاف في طريقة تحقيق الشئيين ، في تاريخ وفي علم . ولن نستطيع أن نجمع فرضاً كهذا إلى فرض ثان إلى ثالث ، وهلم جراً ، فنؤلف هذه الفروض المحدودة ، الميسرة ، لنصنع منها فرضاً ميسراً عاماً ، أو لنصنع منها ما هو أكبر ، مشروعاً تصورياً ضخماً . فمجموعة من هذه الفروض المحدودة لا تكون إلا قطعة من المعرفة التي تتألف منها خبرة الناس . وأنت تحتاج إلى أن تتدخل إلى مفردات هذه المعرفة بخيالك وتصورك لتخلق منها مشروعاً تصورياً يضمها فيقلبها إلى نسق علمي ، وبذلك تصبح علماً .

إن معارف التاريخ ليست في حاجة إلى مشاريع تصورية كالتى يتطلبها العلم ما دام أن المؤرخ لا يهدف إلا إلى وصف الحوادث كما وقعت والرجل الشكاك قد يشك في هذا الحادث أو ذاك لقلّة ما يجد من أدلة على هذا أو ذاك ، ولكن ليس في هذه الوقائع موضع لصحة مشروع تصورى أو بطلانه . وأنا هنا بالطبع لا أتعرض للتاريخ عند ما يبحث أطرازة الحوادث حين تتكرر ، ولا لتفسير القوى التي تحرك التاريخ كيف تعمل ، ولا للمسائل التي يثيرها المعنيون بفلسفة التاريخ . إنى لا أحسب أن هناك رجلا

قد اكتملت مداركه ، ينكر أنه كان بروما ، منذ ألفين من السنين أو نحوها ، رجال مثلنا ونساء . والتاريخ ، كما كتبه في العادة كاتبوه ، لا يثير من النقاش مثل ذلك النقاش الذى أثرناه ونحن نبحث الصور الذهنية لمعنى المسائل الحرارى ، ومعنى الذرات والجزيئات . ولهذا السبب أحس أن هناك فرقاً ذا بال بين العلم والتاريخ .

وقد أجد ، ممن يخالفونى فيما أتوخاه من حذر عن حديثى فى العلم ، من يسرع فيقول لى : وكذلك العلم ، كان يجب أن يكون كالتاريخ ، لا نقاش فيه . فحقيقة المشروعات والتصورية العلمية عندهم ، هى كحقائق التاريخ ، سواء بسواء . وتظهر خطورة هذا الموقف قريبة عند ما ندخل فى علم الأرض وعلم الحفريات . ولكن ، حتى هؤلاء الذين يعرفون العلم بأنه مقصد غاية فهم الحقيقة ، لا يستطيعون أن ينكروا أنه جاء على العلم زمن ، قامت فيه مشاريع تصورية جاءت بالكثير من التجارب النافعة والملاحظات المفيدة ، وأثمرت الكثير من البثر ، ثم ظهر من بعد ذلك بطلانها ، فوسمناها « بالخطأ » كتبناه واضحاً عريضاً على جبينها . ثم أين مثل هذا فى البحوث التاريخية ؟ وقد يجاب على هذا بأن من مثيلات هذا ما يعمد إليه المؤرخون فيعيدون تصميم حقبة من التاريخ كما يحسبون أنها وقعت ، وأن هذا العمل هو مثل افتراض وجود سائل حرارى أو أثر يحمل الضوء (وكل من الفرضين الآن باطل ، إلا أنه نافع كأسلوب تعليم) . ولسنا ننكر أن المؤرخ المحترف قد يبلغ به احترافه أن يرى فيما يستجد من وقائع حوافز إلى استجداد غيرها ، وبذلك تتصل البحوث التاريخية وتمتد . ولكن القارئ العادى ، وكثيراً من الدارسين ، لا يهتمون

بما يكتب المؤرخون إلا لأنهم يحسون وهم يقرأونه أنه وصف صادق لوقائع سلفت. وإلا فما كان أيسر على هؤلاء أن يكتفوا بقراءة القصص والروايات. أنه ليس أيسر على إنسان يقرأ عن قيصر ، أن يتصور أنه كان مع قيصر قاعداً إلى بجانبه ، وهو يعبر نهر الروبكون Rubicon^(١) . والحق ، أنى لو سئلت رأياً في التاريخ ، إذاً لقلت إن أكبر أهداف التاريخ أن يزيد علمنا بسلوك الناس في مختلف الظروف . إنى لازلت أذكر قولة شهيرة قالها علامة القرن السابع عشر ، جون سلدن John Selden^(٢) ، لخص فيها الأسباب التي تدعو إلى أن يكون التاريخ أوسط شيء في برامج التعليم ، قال : « إن دراسة الماضي تكاد أن تزيد في أعماراً أعماراً حتى ليأتي وقت نحس فيه أنا عاشرنا الخلائق منذ أن بدأ الزمان » .

فإن صح تحليلي هذا لكل هذه الأمور ، إذاً لكان الخلاف بين الشكاك وبين الدجماطيقي ، ذى العقيدة التي لا يريد لها سنداً ولا يبغى عنها حولا ، في حقل التاريخ ، خلافاً من نوع آخر غير الذي يكون بينهما في حقل العلم . إن من الواضح البين احتمال الخطأ فيما يستنتجه الباحث من أدلة التاريخ . فبيل الناس إلى العبث بهذه الأدلة ، وتزوير السجلات ، أو حتى سوء تفسير الماضي ، كل هذه ظواهر نراها تحدث أمام أعيننا كل يوم نحياه . يضاف إلى هذا ما نعلمه جميعاً من فعل الزمن

(١) هو نهر كان في إيطاليا في عهد الرومان عبره قيصر فدخل في غير أرضه فلم يكن أمامه إلا الحرب . وهم يقولون عبر الروبكون عن الذي أتى أمراً فوجب عليه أن يواجه عواقبه .
 (٢) رجل قانون إنجليزي ومؤلف ، ولد عام ١٥٨٤ ومات عام ١٦٦٤ . وسجن مراراً بسبب آرائه .

بالحوادث . أنه ما أسرع ما يذهب بوضوحها وبجلائها فلا تكتسب على مر السنين إلا انهماماً . ونحن كلما ذهبنا إلى الوراء ببحوثنا التاريخية ، قرناً أو قرنين أو قرونًا ، زاد عرفاننا به إيهاماً وقل ما فيه من ثبوت (أنا هنا أستخدم « العرفان » بالمعنى الذى أحسه من اللفظ إذا تحدثت عن واقعة رأيها غبّ وقوعها ، كأن تكون وقعت باشتراكى أنا فيها ، فى هذه الحجرة التى أكتب فيها ، منذ دقائق) .

قرأت لأحد الناس قولاً يقارن فيه إدراكنا الماضى بإدراكنا لرقعة من الأرض بعيدة ، وهى مقارنة لا تخلو عندى من فائدة . تصور أنك واقف عند شاطئ بحيرة . وأن بالبحيرة جزيرة تراها على مدى بصرك . وأنت لا تستطيع إليها عبراً . وأردت أن تصفها . فأنت تأخذ تتأملها ، فتلاحظ شيئاً مما فيها ، ارتفاعاً هنا ، وانخفاضاً هناك ، فتعلم عن طوبوغرافيتها بعض الشيء . وقد ترى فيها خيالا سريعاً عابراً فتحسبه حيواناً أو إنساناً . وقد تسير على ساحل البحيرة لتطوق بنظرتك الجزيرة ، لترأها من أكثر من زاوية . وقد تستطيع مع كل هذه المصاعب أن ترسم للجزيرة خريطة تقريبية بالذى رأيت من أرضها . وتبقى هذه الخريطة زماناً وهى خير ما يرجى من الجزيرة علمه . ثم يأتى زمن تهباً التلسكوب فيه لناظر ، أعنى النظارة المقرّبة وهذه النظارة يستطيع المراقب أن يزيد من عرفانه للجزيرة فوق ما عرفت أنت منها . وقد تهباً له من بعد ذلك طائرة يطير بها فوق الجزيرة العاصية ، فيرى منها ما يرى ، ثم يعود ويرسم لها خريطة طيبة ، يرسمها ولم تطأ رجلاه الجزيرة أبداً . كذلك حقائق التاريخ ، كان الكثير منها أول الأمر منبهماً ، جاء نقاد التاريخ وبحثه ، والناباشون لسجلاته من قبورها . فهم

أخذوا يزيدون بما يجدون في هذه السجلات علمنا ، و بما يرفعون عنه التراب من آثار ، فاتضح لنا بعض حقائق التاريخ رويداً رويداً ، وجيلاً من بعد جيل ، بسبب ما سُلط عليها من زوايا عدّة من أدلة كشفت عن شتى جوانبها . فهكذا هم فعلوا في المائتين من الأعوام السالفة . ونحن اليوم ننظر الى ما أعاد المؤرخون تصويره من حوادث التاريخ ، فيقل إيماننا بها أو يزيد تبعاً لما سلط عليها التاريخ من أدلة . ولقد تعود المؤرخون اليوم ، عند ما يكتبون للمؤرخين من زملائهم ، أن يذكروا أدلتهم ويذكروا مصادرها ، ويزنوها ليقدروها ، ويقدرها مكانها من احتمال خطأ واحتمال صواب . وتقرأ كتب التاريخ فلا تجد لما كتب علماء التاريخ ونقاده ذكراً ، ولالما وزنوا وما قدروا . فلا تعرف لما تقرأ مكانة من خطأ أو صواب . وفي هذا يجد الدجماطيقيون مرتعهم ومراحهم ، فهم يريدون لقارئ هذه الكتب أن يقرأ ، وأن يؤمن ، وأن لا يسأل عن سبب إيمانه أصلاً .

إني مدرك أنه ما أسهل على المرء أن يعيب ، وأن يذكر الأخطاء ، وما أصعب عليه أن يجد للخطأ تصويماً ، أو للداء علاجاً . وأنا إذ أنظر في أمر علاج هذا قد أرى من علاجه إضافة تعليقات وتفسيرات للنص في أسفل الصفحات ، ولكن هذا إجراء مسمّ مثير لهمة القارئ أن يستمر في قراءته ، سواء من الطلاب كان أو من الجمهور عامة ، وعلى كل حال فأظن أنه من المسموح لكاتب مثلي أن يسجل ما قد يراه من نقص في روح التقدم عند من يكتبون في التاريخ لجمهرة الناس . مثال ذلك أني لا أحسب أن لدينا علماً كاملاً واضحاً عما كانت عليه أئمتنا

في عهد سقراط ، أو روما في عهد قيصر ، ومع هذا ندر أن يبين كاتبٌ ، وهو يكتب في هذا للقارئ العادي ، ما فيما يكتب من حقائق ، وما فيما يكتب من ظنون . وإذا أردنا وجهنا ناحية التاريخ الإكليريكي ، والتاريخ الكنسي ، إذاً لوجدنا الجدل فيها محتدماً عنيفاً بين رجل مزاجه الشك ، ورجل مزاجه المحافظة على القديم . قال أحد الدارسين للتقدم في الشؤون الإنجيلية يستعرض ما صنع بحاث مثله في هذا الحقل : « إن التاريخ ليس علماً استنتاجياً كسائر العلوم ، وليس به قواعد تطبق فيه فتكشف عما فيه من حقائق وتكشف عما فيه من زيف . إنه توجد قواعد لكشف الخيال وما أدرّ من قصص ، ولكن هذا شيء آخر مختلف عما نقصد كل الاختلاف . ومن أجل هذا لا غرابة في أن نرى ، في هذا العصر ، أكثر من رجل له أكثر من رأى في قيمة إنجيل مرقس من حيث أنه وثيقة تاريخية » . ونحن نود لو أن المؤلفين الذين يكتبون التاريخ ، لا التاريخ الديني وحده ، ولكن كل تاريخ ، لا سيما هذا الذي يهدف إلى تصوير حوادث وقعت قبل اليوم ببضعة آلاف من السنين ، نودّ لو أنهم نورّوا القارئ فذكروا له ما عند الدارسين للتاريخ في هذا الأمر من اختلاف في النظر .

حول أهداف الحيولوجيا

إن في كتاب كهذا ، كتب في العلم الحديث ، لا يستطيع كاتبه أن يفرد صفحات كثيرة لغيره من صنوف العرفان . وإني بعد ما وصفت الذي يقع في قلب الشكاك من ريبة ، وهو يقرأ كتب التاريخ (لا سيما

الكتب التي يكتبها المتحرّزون ، بالذدى تحتويه من عواطف تأبى إلا أن تنعطف فتميل) ، أودّ لو أتجه إلى ما يضعه علماء الأرض وعلماء حفرياتها لأنظر فيما يفترضون من فروض ، وما يتبعون من طرق . إن الذدى يقرأ تاريخ الحىولوجيا ، تاريخ علم الأرض ، من غير علمائه والدارسين له ، لا يلبث أن يدرك أن علماء هذا العلم استهدفوا فى دراسة القشرة الأرضية هدفين . أما الهدف الأول فتصور ما كان حصل فى تلك الأزمان البعيدة الحالية ، ثم إعادة بنائه قصة متصلة ما أمكن فى الخيال . وهذا الهدف يجعل من الحىولوجيا شيئاً أشبه بالذراع يخرج من جسم التاريخ ممتداً فى الزمن إلى الوراء ، هذامع اختلاف ظاهر . فالأحقاب الحىولوجية أكثر تباعداً من حقب التاريخ ، والصور الحىولوجية أكثر انبهاًماً . وأما الهدف الثانى فقد ظهر فى رغبة الحىولوجيين فى اتباع ما اعتاده أهل العلم من تقسيم ، وربط ما وجدوا فى ماضى الأرض بالذدى يجدون فى حاضرها ، وابتداع النظريات التى تعين أهل هذا العلم على زيادة الإنتاج والإثمار . وهنا هم يقتربون على ما يتراعى لنا من علم الحياة التنسيقي Systematic biology أشد اقتراب ، سوى أن الصور الذهنية اللازمة للتقسيم هنا تعتمد على وحدات من الزمن بالغة المدى . وهنا نتساءل : هذه النظريات التى يصنعها الحىولوجيون ، أنعمدها صوراً من الصور التى يتصورها المؤرخون لإعادة بناء الماضى ، وبناء أحداثه ، علما بأنها فى الحىولوجيا صور يحيطها شىء من الشك كثير ، أم نعددها مشاريع تصورية نحكم على قيمتها بمقدار ما تعين هذا العلم فى الإنتاج والإثمار ؟ إنه لا شك فى أن المؤلفين الحىولوجيون عند ما يكتبون للطلاب

البادئين ، وللقراء عامة ، يكتبون في هذا العلم كما يكتب مؤلف التاريخ لقارئه ، أحياناً يتلو بعضها بعضاً . وإني لأرجو أن لا أغضب أصحابي الجيولوجيين إذا أنا قلت إن كتابة علم الأرض على مثل هذا الأسلوب التاريخي مضلل لتأثره من غير الجيولوجيين أى تضليل . ولو أن حقبة من التاريخ الإنساني ، وبها من الشك أو عدم الثبوت ، ما ببعض النظريات الجيولوجية ، إذا ما استساغ السواد من الناس أن يقرأوا عنها قصة متصلة كأنما وقعت وقائعها من غير ريب . إن التاريخ لو أنه امتلأ بما تمتلئ به الجيولوجيا من فجوات في المعارف وفراغات ، ومن تشككات وارتيابات ، ما تجمع له من حوادث السنين المتصلة ما يأذن له باصطناع الفروض واصطناع النظريات ، كما يجرى في سائر العلوم . إن الجيولوجيا ، كما تراعى لى ، علم أقرب إلى علم الأحياء منه إلى التاريخ ، وأقرب كثيراً . ومناهجه أشبه بمناهج الفزياء ومناهج الكيمياء . بل انى لأستطيع أن أخرج من هذا العلم عدداً من قواعده العامة الهامة التى خرج بها العلم منذ عام ١٨٠٠ وأدرسها وأحللها بمثل ما درست وحألت معنى الجو ، ونظرية الفلوجستون ، والسائل الحرارى ، والنظرية الندرية ، وما إليها .

إن المشروعات التصورية التى ابتدأ بها الجيولوجيون تغيرت وتحورت في خلال الخمسين والمائة سنة الأخيرة ، على مثال ما تغيرت نظائرها في العلوم التجريبية . ولكن لولا هذه المشروعات التصورية لبقى علم الجيولوجيا إلى اليوم حقائق مبعثرة ، مما تأتى به الخبرة والفطرة ، لا رابطة بينها . ولقد كانت هذه المشروعات التصورية ، هذه الفروض والنظريات ، مثمرة ، لا شك في هذا . وهى كانت في الجيولوجيا ، كما كانت نظائرها في الفزياء

والكيمياء وعلم الأحياء ، ثمرة ، ليس فقط من حيث أنها زادت للحقائق العلمية كشافاً ، بل ذلك من حيث أنها هبطت بالقدر الكبير من الخبرة البدائية التي صحبت مجهود الباحث عن المعادن في الأرض ، وعن الفحم ، وعن زيوتها المعدنية . وفي هذا القرن لا يقاس نجاح النظريات الجيولوجية بالذى يجرى في الحقول وحده ، بل هو كذلك يقاس بالذى يجرى في المعامل والمختبرات . والكثير مما يجرى في الحقل صار اليوم في جوهره أرساداً طبيعية-فيزيائية كتقدير ثوابت الجاذبية الأرضية واختلافها من موضع في الحقل لموضع ، وكتقياس سرعة موجات من الهزات يصطنعها الباحث في القشرة الأرضية اصطناعاً ، ومن اختلافها يدرك ما يختلف من تراكيب القشرة وما احتوت من ركائز . والأصول التي خرجت منها الصور الذهنية والمشروعات التصورية في علم الأرض هي نفس الأصول التي خرجت منها في سائر العلوم الطبيعية . آراء تظنمية ، يتبعها استنتاجات واستدلالات ، يتبعها فرض عام يربط هذه النتائج جميعاً .

كتب كارل فون زيتل Karl von Zittel ^(١) كتابه « تاريخ الجيولوجيا وعلم الحفريات » History of Geology & Paleontology ، في أول هذا القرن ، وفيه تحدث عن « عصر البطولة في علم الجيولوجيا » ، وجعله العصر الواقع بين عام ١٧٩٠ وعام ١٨٢٠ . ووصف العصر بأنه العصر الذى أعرض عن الظنون في هذا العلم ، واتجه إلى الحقل وإلى العمل يبحث في جهد كبير عن حقائق ، ولا شيء غير الحقائق . وهذه النظرة الجديدة ، نظرة ذلك العهد ، جدّدت شباب هذا العلم . وكتب

(١) عالم حفريات ألماني : ولد عام ١٨٣٩ ومات عام ١٩٠٤ .

السير شارلس ليليل Sir Charles Lyell^(١) كتابه الشهير « مبادئ الجيولوجيا » Principles of Geology ، وفيه وضع هذا العصر الانقلابي في تاريخ الجيولوجيا في زمن متأخر عن ذلك قليلا . وهو يتحدث عن الأثر الذي كان لتأسيس الجمعية الجيولوجية Geological Society ، ويشير في طبعة ١٨٧٣ إلى مثل ما أشار إليه المؤلف الألماني من سوء الظن بمعالجة هذا العلم بالظنون . قال :

« إن الخصومة بين الفاكانيين Vulcanists والنبتيونيين Neptunists^(٢) بلغت حداً جعلت من هذه الأسماء هدفاً للوم . فقد شغلت الفريقين عن البحث عن الحقيقة بالبحث عن صنوف من الجدل يزيدهم فياهم فيه قوة ، ويزيد خصومهم ضعفاً وعتناً . ونشأت أخيراً مدرسة للفكر جديدة رائدها الحيدة كل الحيدة ، والأغضاء عن كلا الحزبين . . . وجعلت ديدنها البحث عن حقائق ونتائج . وكان من أثر ما غلا هذان الحزبان أن كانت صفة العهد الجليدي الكبرى الحذر غاية الحذر . . . »
« وغالى رجال العهد الجليدي بعض المغالاة في اطراح النظريات ، وترك اصطناعها ، ومع هذا فلم يكن أقمن لهذا العهد بعد الذي كان ، ولا أكثر سلاماً ، من إيقاف كل محاولة تهدف إلى صياغة ما كان يسمى في ذلك الزمان بنظريات الأرض . وكان العلم في حاجة كبيرة إلى قدر

(١) هو جيولوجى إنجليزى ، ولد عام ١٧٩٧ ومات عام ١٨٧٥ . كان أستاذاً بكلية الملك بلندن .

(٢) الفلكانيون والنبتيونيين طائفتان قديمتان في علم الجيولوجيا متعارضتان . الأولى ترى أن طبقات الأرض تكونت ووسيلتها انصهار الصخور من أحداث بركانية . والثانية ترى أنها إنما جاءت ووسيلتها الماء ، وفلكان إله النار عند الرومان ، ونبتيون إله البحر .

عظيم من الحقائق . فقامت الجمعية الجيولوجية بلندن ، وكانت تأسست عام ١٨٠٧ ، فشجعت على هذه الغاية . واستهدفوا جمع كل ما يمكن جمعه من معلومات ، وتركوا ما يستنتج منها إلى زمن يأتي بعد ذلك . وكانت عقيدتهم أن الوقت لم يحن بعد لاستنباط نظام جيولوجى عام ، وأن الخير فى أن يقنع الجميع لسنوات تأتى بالجمع لهذا النظام المنتظر . والتزموا بما اعتقدوا فلم يجادلوا عنه ، فلم تمض على ذلك غير سنوات حتى ذهبت الأهواء ، وعاد إلى العلم أمنه ، ففقد كان يعد من يتابع هذا العلم فى خطر من خصومه ، أو على الأقل رجلا يجرى وراء الخيال .

إن الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، والأيام الأولى من القرن التاسع عشر ، صرفها المتخصصون من الجيولوجيين ، من كلا المدرستين ، فى نزاع عنيف ، ذاك الذى أشار إليه السير شارلس ليبل . أما النبتونيون فقالوا بأن الصخور ترسب على ظهر الأرض طبقات من الوحل ، وذلك من أقيانوس مائى عظيم غطى فى أول أمره الأرض كلها . وأما التلكانيون فرأوا فيما تصنع البراكين فى عهدهم مثلاً من القوى التى فعلت قديماً فى سطح الكرة ، وأنه إليها يعزى ما يرى من أشكال جمدت عليها الأرض . وقد كان من حق خلاف عنيف كهذا ، بين رأيين ، أن يفرد له فى تاريخ هذا العلم باباً . ولكن الحقيقة هى ما قالها « فون تستل » ، وقالها « ليبل » ، تلك أن علم الأرض لم يبدأ ليكون علماً إلا عند ما بدأت تلعب الآراء فيما تجمع عند العلماء من حقائق ، فخرجت من ذلك فروض نظرية عامة نافعة أدت بعمليات متسلسلة من عمليات العقل والمنطق ، كالتى استخدمت فى الكيمياء وفى الطبيعة ، إلى ما يمكن أن

يتنبأ به المتنبئ^١ فيما يوجد في الحقل عند العيان (انظر الباب الثالث) .
 ان ما صنعه وليم سميث بإنجلترا William Smith^(١) في ختام
 القرن الثامن عشر مثل طيب للجمع بين النظرية وبين الحقائق الفردية
 لدراسة القشرة الأرضية . هذا الرجل كانت مهنته الهندسة ، ولكن هوايته
 الجيولوجيا ، وكان أول من صنف ورتب طبقات الأرض بإنجلترا بناء
 على ما بها من معادنات ومن حفريات . والخريطة الطبقيّة هذه التي
 رسمها لإنجلترا تمثل خطوة خطتها الجيولوجيا في سبيل كينونتها علمياً . ثم
 هو من بعد ذلك استخدم هذه الخريطة ليتنبأ بواسطتها لطبقات الأرض
 التي يجدها من بعد ذلك أيها الأسبق موضعاً وأيها الأحدث ، وما الذي
 ينتظر أن يكون بها من حفريات . وكان مشروعه هذا الذي ابتدع مشمراً
 في إيجاد حقائق غير ما كان وجد ، وفي تصنيف هذه الحقائق جميعاً ،
 قديمها والحديث ، وتبويبها . واختصاراً هذا النظام الطبقي الذي ابتدعه
 سميث فيه كل ما لا بد أن ينعت به المرء الفكرة لتكون مشروعاً تصوراً
 علمياً ، فرضاً كان أو نظرية .

وما كان أحد يستطيع أن يطلب إلى سميث ، أو إلى أي جيولوجي
 آخر ، أن يعتبر آراءه هذه محض افتراض نظري لا يرتبط بالذي حدث

(١) وليم سميث ، هو أبو الجيولوجيا الإنجليزية ، ولد عام ١٧٦٩ ومات عام
 ١٨٣٩ . بدأ حياته مساحاً للأرض ، ثم مهندس مناجم ، وقاده ذلك إلى دراسة الجيولوجيا .
 واقنع بأن كل طبقة من الأرض لها حفرياتها الخاصة بها . ورسم خريطة جيولوجية كاملة
 ملونة لإنجلترا وويلز قدمها لجمعية الفنون . وأخيراً وقع في أزمة مالية اضطرته إلى بيع
 مجموعته الجيولوجية فباعها للمتحف البريطاني بلندن . وعلى أثر ذلك رتبته له الحكومة
 معاشاً سنوياً .

فعلا في ماضى الأرض. إذأ لطلب المستحيل. أنه جاء وقت على الكيماويين
 يسوا فيه من الذرات أن تكون حقائق واقعة ، وقد رأينا (صفحة ٢٩١)
 كيف جاء عليهم وقت كادوا أن يطرحوا فيه النظرية الذرية ، محتفظين
 بجزء منها ، لا لتقصده إلا لسهولة الحساب . ولقد اختلف الجيولوجيون على
 مرّ العصور في تقدير هذه النظرية الجيولوجية أو تلك ، واختلف حفظ
 هذه النظريات من نصرتهم حيناً بعد حين ، ولكن لم يختلف أحد من
 الجيولوجيون في حقيقة الطبقات التي تغطى بها سطح الأرض ، وحقيقة
 تتابعها للمدى في الدهر طويل . ولم يكذب أن يوجد جيولوجى واحد ، ذو
 مكانة ، لم يؤمن بأن في الإمكان الكشف عن ترتيب زمنى لأحداث
 وقعت في القشرة الأرضية جعلتها هي ما هي الآن . وهذا إيمان يأتلف
 وإيمان الطبع وإيمان الفطرة والمعقول بداهة في الأمور . أنه لا يكاد يوجد
 رجل ذو عقل يشك في وجود دنيا لها أبعاد ثلاثة ، وفي وجود قوم آخرين
 غير قومه ، وكذلك لا يكاد أن يوجد رجل ذو عقل يشك في أن للأرض
 ماضياً . وإذأ جاز للمرء إما أن يتظن الظنون عن ماضى هذه الأرض ،
 أو يحاول أن يجد الدليل أو الأدلة عن هذا الماضى البعيد . والرأى الباده ،
 كالمنهج العلمى ، كلاهما يتطلب أن يدخل عنصر الزمن عنصراً أصيلاً في
 أية صورة ذهنية ، أو نظرية ، تحاول أن تصور ما حدث في هذا
 الزمان العتيق .

كلنا يعلم أن من العقبات التي قامت في نشأة علم الأرض الأولى
 الاعتقاد السائد في الأمم المسيحية أنه لا بد من تفسير قصة الخلق التي
 جاءت بالعهد القديم ، أعنى التوراة ، تفسيراً حرفياً . وقام رئيس الأساقفة

أشر Usher (١) ، في القرن السابع عشر ، يحسب تاريخاً بدأت فيه الخليقة فجعله ٤٠٠٤ من الأعوام قبل الميلاد . وصدق الناس ما قال . صدقه رجال ذوو معرفة وذوو فطنة ، وظلموا يصادقونه إلى الجزء الأول من القرن التاسع عشر . وقام الجيولوجيون يجمعون الحفريات من الأرض أول جامعين ، وربط الكثير منهم بين ما وجدوا من آثار هذه الحيوانات وبين قصة الطوفان ، ولم يكونوا هازلين . وسادت العقيدة بين الناس في أوائل القرن الثامن عشر ، بأن هذه البقايا إن هي إلا بقايا حيوانات مضت ، ولكن كثيراً ما اتخذها الناس دليلاً على ما كان في الأرض من طوفان ، مصداقاً لما جاء بالإنجيل . إن في هذا الحقل من حقول العلم اشتبكت الآراء الأولى اشتباكاً كبيراً بالتعاليم الدينية .

وحتى اليوم يستطيع الشكاك أن يُلح في شكه فيما يختص بحقيقة الحفريات ، وأن يجابه به علماءها . ولكنه لا يلبث أن يلقى منهم جواباً كهذا : إن هذه الحفريات لا شك بقايا مما خلقت حيوانات ونباتات عاشت في قديم الزمان ، يدل على ذلك أن من هذه البقايا ما تتمثل فيه أحياء تعيش في دنيانا هذه اليوم ، وهي شبيهة ببقايا من حيواناتنا ونباتاتنا لم ترسب في طبقات الرمل والطين إلا حديثاً . ويدل عليه كذلك الاتصال المستمر القائم بين بقايا مما نعرف من أحياء ، وبقايا مما لم نعرف منها قط . وفي سبيل إقناع الشكاك يذكر العالم الحفري له مثالا مما كشف العلم من ذلك : ذلك اكتشاف الكركدن ذى الصوف ، لحمه وشعره ،

(١) هو القس الأيرلندي الذى صار رئيس أساقفة أيرلندا أخيراً . ولد في دبلن عام ١٥٨٠ ومات عام ١٦٥٦ . وكان واسع الاطلاع .

أو اكتشاف الماموث ، الفيل البائد ، فى البرارى الجليدية بسيبيريا .
وعندئذ لا يسعه أن ينكر ما لا بد أن يسلم به العقل السليم من أن هذه
البقايا لا بد هى بقايا لحيوانات كانت تعيش فى هذه البرارى دهرأ ما .
وإذا هوسلم بهذا ، أمكن أن يؤخذ فى رفق من طبقة فى الأرض قديمة
إلى طبقة أحدث ، حتى يأتى فى باطن الأرض على عظام من أحياء كالتى
يجدها اليوم على ظهرها . وعندئذ لا يمكن أن يخالجه شك ، لاتصال هذه
الظاهرة على القرون ، فى أحياء لا يجد أشباهها اليوم لا بد جاءت
من أحياء انقرضت وعفى عليها الزمان .

وإذا أوتى هذا العالم الحفرى المزيد من الصبر ، إذاً لاستمر فى حديثه
مع الشكاك يربط له ما بين طبقة من الأرض وبين ما وجد فيها من
حفريات . وهو قد يأتى له بكثير من الأمثلة يرى منها أن طبقات الأرض
العليا فيها الكثير من الأحياء التى لا تزال إلى اليوم حية فى الدنيا تسعى ،
وأنه كلما تغلغل الباحث فى طبقات أعمق اختلفت تلك الأحياء اختلفاء
يكاد أن يكون تدرجاً . فأى شىء يستنتج العقل الفطرى السليم من هذا ؟
يستنتج أن الطبقات التى على السطح هى التى رسبت أخيراً ، وأن الطبقات
الأعمق هى التى رسبت أولاً . فإذا كان حدث أن أنواع الحيوانات تغيرت
على الأحقاب (طبيعة هذا التغيير مسألة أخرى) لتنتج عن هذا أن تكون
أحياء اليوم أكثر وروداً فى الطبقات العليا منها فى السفلى . وجمع الكثير
من المعلومات تتكاثر الأدلة على صحة هذا الفرض الذى اتخذه العلماء
أساساً لدراسة الصخور الرسابية ، حتى لا يكون عند رجل ذى عدل فى
حكمه أى ريبة فيه . وحتى أكثر نقاد العلم حذراً ، والمتهملين فى قبول

دعاوا أكبر التمهّل ، لا يستطيعون إلا أن يسلموا بأنه ، على الرغم مما تضمنته نظرية الطبقات هذه من افتراضات كثيرة تعوزها الأسانيد ، فإن اطراد النتائج في مواضع كثيرة من الأرض وتوافقها وتعزيزها جميعاً لهذه الافتراضات ، أعطى هذه الافتراضات أخيراً ما يعوزها من أسانيد فثبتت بذلك ثبوتاً لا يحتاج إلى مزيد من برهان .

ومع هذا فلم يكن سبيل هذا العلم أيسر من سبل جرت فيها علوم أخرى كالطبيعة وكالكيمياء . يوضح هذا مثل آخر نصر به بزيادة البحث في النظريات الجيولوجية التي انبعثت في ال ١٥٠ عاماً التي انقضت أخيراً . كان السير شارلس لييل Lyell نصيراً قوياً للمبدأ المسمى في الجيولوجيا « مذهب اطراد القوى » Uniformitarianism ، وهو المذهب الذي بدأه « هاتون » Hutton^(١) . وهو في سبيل ذلك كان يعارض كل المعارضة من يقول إنه لتفسير سطوح الأرض ، كيف تشكلت حتى صارت على ما هي عليه ، لا بد أن نتصور أن أحداثاً عارمة قاسية جائحة وقعت في القشرة الأرضية في الماضي البعيد ، أبعد ما تكون طبيعة عما نعرف اليوم من أحداث . وكان هذا رد فعل طبيعي لما سبق أن ذكرنا مما كان رجم به وتظنن الفلكانيون والنبتونيون من قبل ذلك .

واتجه « لييل » إلى الهواء يؤكد أثره في التغيرات الأرضية ، ويؤكد

(١) هو جيمز هاتون الجيولوجي الأسكتلندي ، ولد في أدنبرة عام ١٧٢٦ ومات عام ١٧٩٧ . وهو صاحب المذهب الذي يقول بأن العمليات التي جرت في سطح الأرض فنيرتها في الماضي كما هي في الحاضر . وصاحب النظرية الفلكانية التي تقول إن الانصهار الناري يفسر أكثر الظواهر الجيولوجية .

أثر الماء ، والترسب في البحار والبحيرات ، وانبراء الصخر ، وكل فعل من أفعال القوى الطبيعية التي يلقاها الرجل اليوم في الحقل . ويقول إنها تفعل اليوم ، وإنها هي التي فعلت بالأمس . ولكنه غالى في موقفه من إنكار التغيرات العنيفة المحتملة مغالاة صرفت عنه الجيولوجيون من بعد . كتب أحد رجال هذا العلم منذ قريب يقول : « إن مذهب اطّراد القوى ليس صحيحاً كله في كل وقت » . ويزيد فيقول : « وعلينا أن نتمسك بمبدأ اطّراد القوى ما وسعنا ذلك ، وما اتسعت له ضماثرنا » . والعلماء التجريبيون وقعوا في مثل هذه المغالاة . من ذلك أن بستورغالى في تبسيط العلاقة بين التخمر والحياة (صفحة ٣٢٥) . ونحن إذا قرأنا اليوم في كتاب في الجيولوجيا شعبي « أن الصخور تصنع اليوم بنفس الطريقة التي صنعت بها منذ مئات الألوف من السنين » وآمنا بكل ما في هذه الجملة من معنى ، لم نأمن ضلالاً . وهذه العبارة ، بحسبانها فرضاً يفترضه مذهب « اطّراد القوى » ، يشبه عند المقارنة فرض دلتون ، في النظرية الذرية ، أن كل ذرات العنصر متطابقة . ولكن الرجل العادى سوف يميل إلى وضعها ، من حيث مكانها من الحقيقة ، في مثل الموضوع الذي يضع فيه عبارات مثل « أن أكسيد الزئبق الأحمر يعطى الزئبق والأكسجين عند التسخين » ، أو مثل « أن جورج وشنجطن كان أول رئيس للولايات المتحدة » . وما أسرع ما يعتاد ، كلما قرأ هذا التكييف لتكوّن الصخور منذ مائة ألف عام ، أن يحسب أنه حقيقة علمية ، لاظناً ولا فرضاً .

إني أعتقد أن الصعوبة تنشأ على الأكثر من أن الجيولوجيا ، في إيراد حوادثها ، كثيراً ما تشبه التاريخ . حكوا أن جورج الرابع تكلم كثيراً عن

واقعة «وترلو» حتى صدق أخيراً أنه كان حاضرها . كذلك مدرس التاريخ المتحمس الغيور قد يتحدث عن الثلوج التي مرت بالأرض كما لو كان رآها بعينه . إن الجيولوجيا إذا درست على أنها تاريخ الأرض ، لا تلبث أن تنزياً زياً دجماً طيقياً ، فيؤخذ ما يقال فيها على أنه حقائق لا تقبل الجدل أبداً . إن الفشل في تقدير ما في النظريات الجيولوجية من احتمال ، كبيراً كان أو صغيراً ، ووقوف الأدلة الجيولوجية يعارض بعضها بعضاً ، وليس من يقدر إلى أى حد تبلغ بينها هذه المعارضة ، كل هذا يترك القارئ لها من سواد الناس حائراً ، ويغادرها وهو يحسب أن كل ما قرأ من نظريات ذو قيمة سواء . وهو عندئذ يكون بحيث يقبل كل ما قرأ جملة ، أو يرفض كل ما قرأ جملة ، وهو يرفضه أو يقبله ، لا بأنه نظريات ، ولكن بأنه تاريخ واقعي لحوادث الأرض الماضية . ثم هو يقرأ في الصحف السيارة من آن لآن ، عرضاً لفرض جديد ، يملوه فرض آخر ، عن وجه من وجوه الجيولوجيا ، فقد ينتهي بأن يكفر بكل ما قرأ جميعاً .

إن إقبال الجمهور الشديد الغريب على قراءة الكتاب العجيب ، «عولم في اصطدام» ، يدل على رغبة في الجمهور شهيدة في قراءة كل ما يكتب في مهاجمة العلم الحديث وإنكار نتائجه . إن ذبوع هذا الكتاب هذا الذبوع في الولايات المتحدة ظاهرة محرجة حقاً . وهو دليل على أن المجهودات التي نبذلها لإعطاء الناس شيئاً من فهم العلم عن طريق المدارس والكليات ، عن الطريق الرسمي ، لم تأت بكل ما رجونا منها من ثمرة . ومثل هذا الحرف ، والرجم بالغيب ، لو أنه حدث في الكيمياء والطبيعة ، لما وجد اليوم من الناس قبولاً ، إلا قليلاً . لأن أى وحشى

حوشى من الرأى يمكننا فضحه ، وكشف ستره ، بأن نسأل إلى أى شىء
يؤدى من جديد التجارب ، فى حقل أو معمل . وغير ذلك العلوم التى
تعالج الماضى وأحداثه ، فموقفها من الجمهور ، ومن الرأى الباده للناس ،
غير موقف العلوم التجريبية . فإذا جاء رجل يصف ما جرى منذ آلاف
السنين وصفاً يضحك العلماء لشذوذه ولغرابته ولسخفه ، فما أيسر ما يتقبله
الناس فى جدّ على الرغم من أنه بنى على ظن ، وعلى افتراض يفترض
لحاجة طارئة ، وأحياناً على تمزيق ما نسجت العلوم ما أدّى إلى بلوغ
الغاية . والنتيجة شىء قد يدغدغ الخيال ، ولكن لا هو بالعلم ، ولا هو
بالتاريخ .

ولعل الجيولوجيا هى من بين العلوم العلم الذى يلذ القارئ غير العالم
أكثر مما تلذّه سائر العلوم الطبيعية ، وقد نستنى من ذلك بعض أطراف
من علم الأحياء التنسيقي . من أجل هذا آسف أن لا يقدر الناس ما فى
هذا العلم ، علم الجيولوجيا ، من حركة دائبة متغيرة الوجهات هى بعض
خصائصه . وهى الحركة التى تجعل منه علماً ، وتفرق بينه وبين التاريخ .
وأود لو عنى الكاتبون الذى يكتبون المقالات للنس ، والكتب للجماهير ،
بأن يبينوا للناس الفرق بين الآراء التنظيمية . والفروض العلمية العريضة
التي تثمر التجارب ، والمشاريع التصورية التى ما بلغت هذه المرتبة إلا بعد
أن قامت عليها الأدلة تعملها (ولو أن حدودها بين هذه الأشياء الثلاثة ليست
واضحة المعالم جداً) . إذاً لاستطاع القارئ أن يضع المسائل الجارية
فى مواضعها الصحيحة من العلم ، أو على الأقل فى مواضع أقرب إلى
الصدق ، وإذاً لرحب فى علم الجيولوجيا بأن يرى النظرية تحل مكانها

النظرية سريعاً ، فلا يأخذ من ذلك يأس أو قنوط . وإذا لعلم أنه لولا هذا التغير ما تقدم العلم ، بل ما كان العلم علماً أبداً .

الطبيعة الأرضية ، علم تجريبي

إن الجولوجيا تعتبر في العادة علماً أساسه الملاحظة ، لا علماً أساسه التجريب . ولكن الجولوجيا ، مثل علم الفلك أو علم البيولوجيا ، لا تستند صفاتها المميزة لها على مقدار ما لها من طرق ملاحظة أو طرق تجريب . إن الصفة المميزة للجولوجيا ، ولعلم الحفائر ، هي إدخال الفترات الطويلة من الزمان فيما يبتدع فيهما من مشروعات تصورية . أما من حيث الملاحظة والتجريب ، فقد أخذ علماء الجولوجيا ، في هذا القرن ، يعتمدون أكثر فأكثر على ما أخرجته علوم أخرى من نتائج تجريب . وأقصد بهذا فيما أقصد علم الطبيعة الأرضية ، وهو علم لا يكاد يفرق المرء بينه وبين علم الطبيعة من حيث نظرياته وفروضه ، ومناهج التجريب فيه . مثال ذلك أن به يمكن تقدير السرعة التي تجرى بها عبر طبقات الأرض موجات الهزات الأرضية ، تأتي طبيعية ، أو تأتي بتفجير المفجرات اصطناعاً ، وتقديرها بدقة . ودراسة مثل هذه الظواهر الارتجاجية هي من دراسة الطبيعة بمقدار ما منها قراءة البارومتر لقياس الضغط ، أو تسجيل الرطوبة ، أو دراسة تغيير مقدار التوصيل الكهربائي في أشابة alloy من معدن ولو أنه من المفيد مراعاة أن صاحب التجربة ، في الحالة الأخيرة ، له اختيار في تجاربه أوسع من دارس فزياء الهواء ، فعالم الظواهر

الجوية meteorologist ، كعالم الأحياء وعالم الجيولوجيا ، لا بد أن يقبع من قرب عند ظواهره الطبيعية) . وفي كل هذه الأمثلة نستطيع أن نسمى نتائج التجارب « بالحقائق العلمية » ما دمنا نستطيع أن نعيد تجاربها لنأتي بنفس نتائجها . إن دراسة سريان الموجات الزلزالية seismic في الأرض تضارع تماماً دراسة سريان الموجات الصوتية في الهواء أو نفاذ الضوء في الفراغ .

ومن أمثلة ما يُعنى به علم الفزياء الأرضية ، أو الجيوفيزيقا Geophysics تقديرات التغيرات الصغيرة في ثوابت جاذبية الأرض التي تحدث بالانتقال من موضع إلى موضع ، وربطها بطبيعة الصخور التي هي عند هذه المواضع في باطن الأرض . وهذه التغيرات تستخدم كما تستخدم سرعة نفاذ الهزات في الكشف عن كيفية توزع الأجسام الصلبة في القشرة الأرضية . وكلّ هذه النتائج يمكن أن يجمعها مشروع تصويري مستقل كل الاستقلال عن معنى الزمان . ويجوز هذا أيضاً على كل النتائج الجيولوجية الأخرى والملاحظات . حتى مبادئ علم تتابع الطبقات الأرضية Stratigraphy يمكن صياغتها بدون فرض فروض تتصل بالذاهب البعيد من الزمن : فالمعدنيات المميّزة لشتى الطبقات ، وكذلك حفرياتها ، يمكن ربطها معاً في صور ذهنية مشتقة من ملاحظات أجريت فقط في المائة سنة الأخيرة في مواضع مختلفة من سطح الأرض . وإني أقر بأن هذه ليست الطريقة التي جرى على أسلوبها هذا العلم في تنشئه من الوجهة التاريخية ، وليست هي مما يقبله الجيولوجيون ، ومع هذا فإن مكان مثل هذا التحول يلتقي ضوءاً على المنهج الكلاسيكي في الجيولوجيا . أن

وليم سميث ، عند ما استخدم الحفريات وخواص الصخور ، في تتبع طبقات الأرض ، صاغ صورة الذهنية صياغة تاريخية . ولكن من المستطاع القول بأن هذا لم يكن ضرورياً . فهو كان في استطاعته أن يصنع لنفسه مشروعاً تصوراً يساعده في تقسيمه . ولو أنه فعل لكان أقرب شياً ، لا بعالم التاريخ ، ولكن بعالم الأحياء ، عالم التاريخ الطبيعي ، ذلك الذي نجح في القرن التاسع عشر في حل معقّدات تواريخ حياة النباتات والحيوانات .

ومن المعجب اللطيف أن نذكر أن في هذا القرن الحاضر ، أُدخلت الكيمياء والفيزياء إلى علم طبقات الأرض . وهذه واقعة لها خطرهما في علم الجيولوجيا الحديث . فالجيولوجي ، كاليولوجي التجريبي ، عليه أن يرعى صورته الذهنية ، الخاصة بعلمه ، ومشروعاته التصورية ، حتى تتفق وقواعد علم الكيمياء والفيزياء . بل هو قد يذهب أكثر من ذلك فيستفيد من كل نتيجة حديثة تخرج في هذين العلمين . وقد حدث فعلاً أنه فعل . ففي السنوات الختامية من القرن الماضي اكتشفت ظاهرة النشاط الإشعاعي Radioactivity . وما كاد هذا النشاط أن يكتشف حتى نشأ منه في الخمسين من السنوات علم الماضي جديد يسمى أحياناً بالكيمياء الإشعاعية radiochemistry . وهذا العلم ، وهو مزيج من التجارب والنظريات ، ما كان يقوم لولا جهود الفزيائيين والكيميائيين ، وهو يتركز على ما في هذين العلمين من مشروعات تصورية . وقد ظهر أنه علم نافع شديد النفع للجيولوجيين ، فقد وجد أنه به يمكن تحديد تاريخ طبقات الصخور المختلفة ، بمعونة بعض افتراضات معقولة (ومع هذا

فهى افتراضات) ، وبناء على تحاليل المعادنات اليورانيومية أو الثريومية .
والغاية من هذا هى فى الواقع إيجاد علاقة بين ما يلاحظه الجيولوجى وهو
يعمل فى الطبقات الأرضية ، وبين ما يجده المحلل وهو يعمل فى معاملة
الكىماوية . ثم تأتى التصورات الذهنية الكىماوية فتعيننا على حساب عمر
الطبقات الأرضية على افتراض أن سرعة التغير الحادث فى النشاط الإشعاعى
كانت ثابتة على الأحقاب الكبيرة الكثيرة الماضية ، وأيضاً على افتراض
أن المعادنات التى حللناها بقيت ثابتة التركيب طوال تلك الأجيال ثبوت
غيرها من صخور تلك الطبقات .

وقد أنتجت هذه الطريقة نتائج عن أعمار التكوّنات الجيولوجية
متفقمة اتفاقاً لا بأس به مع نتائج عن هذه الأعمار سبق أن جاء بها الجيولوجيون
بناء على طرائق وأدلة من نوع آخر . وهذا التوافق ذو معنى لا شك كبير .
وقد دلّت هذه الأعمار على أن الصخور أطول عمراً مما قدر لها مؤسسو علم
الأرض فى القرن الثامن عشر . فأقدم الصخور الى احتوت حفريات
قُدر لها أنها رسبت منذ ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ عام مضت ، وأنها تحولت
تحولاً بالغاً *metamorphoses*^(١) دون أن تتأثر بذلك وحدة هذه
الصخور . كذلك قدر لأعتق الصخور ، صخور ما قبل العصر الكبرى

(١) المقصود بالميتامورفوزس بمعناه الواسع تحول فى الصخور . ولكنه عادة يطلق
على التحول البالغ الذى يحدثه الضغط والحرارة والماء ، مجتمعة كلها ، وتكون نتيجة صخور
أكثر اكتنازاً وأكثر تبلوراً . وقد يعبر عن هذا الوجه من الميتامورفوزس باللفظ أنامورفوزس ،
ونقيضه الكاتامورفوزس ، وهو تفكك الصخور بالعوامل الكىماوية أو الميكانيكية .

Pre-Cambrian^(٢) ، أن لها عمراً لا يقل عن ١,٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠ عام .
وعمر الأرض يقدره اليوم الفلكيون وعلماء الكون في العادة بشيء مثل
٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ عام .

وبالطبع للمرء أن يتساءل هل في الإمكان تطبيق أصول الكيمياء
والفيزياء الحاضرة على الماضي هذا البعيد . إن أكثر من عالم فزيائى شك
في صحة فرض أن المادة كانت تتطبع في تلك الأعمار البعيدة كما هي
تتطبع اليوم ، وتساءل : ما أثر هذا المعنى الجديده ، معنى الزمن يقاس
بآلاف الملايين من السنين ، فيما نحن فيه اليوم من أمور ؟ إن الفزيائى
وجد أخيراً أن الضرورة تضطره إلى تغيير آرائه عن كل من الفراغ والزمن
لما واجهته في بحوثه سرعات عالية ، بالغة العلو ، ومسافات صغيرة ، بالغة
الصغر ، لم يكن له بها عهد . والذي جاز هناك يجوز هنا ، وإذاً يصح
أن نقول إن صورتنا الحاضرة عن الزمن لا يصح نقلها في الشؤون الكونية
إلى ملايين السنين . ومشروعاتنا التصورية في العلم ، عند ما يدخلها
هذا العامل الجديده ، عامل هذا الزمن البعيد ، قد تتعرض لمعارضات
ومناقضات كلما حاولت أن تحتوى الجديده من حقائق العلم . وهذه
الشكوك ، وهذا التساؤل ، إنما نثيره بمعزل عن صحة مذهب « اطراد القوى »
الذى سبق ذكره ، أو بطلانه . فهذا المذهب هو من بعض المبادئ
الأولى التقريبية* التى اصطنعها الأوائل السابقون في العلم لقضاء حاجات

(٢) كبربا هي ويلز ببريطانيا . والعصر الكبرى عصر جيولوجى تميز أول ما
تميز في ويلز ولذلك سمي باسمها . والعصر الذى قبل الكبرى هو كل ما سبق هذا العصر
من الصور .

عرضت . أما اليوم فكل النظريات الجيولوجية متفقة على أنه كان على هذه الأرض أحداث عنيفة ، في أحقاب سابقة بعيدة ، كان فيها بناء الجبال وأشباه الجبال ، عملت فيها قوى هائلة أعنف كثيراً لما تعودنا منها على ظهر الأرض .

تقدم في الفنون التطبيقية

إن نجاح الجيولوجيا الحديثة ، وعلم الحفريات ، والفزياء الأرضية ، في حل بعض المشكلات العلمية يتمثل في نجاحها ، في الثلاثين سنة الأخيرة ، في تعيين المواضع التي بها زيت البترول من الأرض . ولنلخص هنا طريقتين من طرائق تعيينها : أما الأولى فتعتمد على تطبيق أصول علم الفزياء الأرضي : أما الثانية فتعتمد على علم الحفريات . مثال ذلك قياس سرعة سريان الموجات الزلزالية في الأرض ، تلك التي يمكن إحداثها بتفجير مفجر ، فمن هذا القياس يستطيع علماء الفزياء الأرضية التعرف على نوع الصخور التي مرّت بها الموجات . وبما أنهم عرفوا قبل ذلك في أي أنواع الطبقات وجد زيت البترول ، إذأً يتهاى لهم السبيل بذلك إلى معرفة البترول أين يوجد . وعالم الحفريات التطبيقى يدخل في قصة البحث عن البترول لقدرته على تعيين نوع طبقات الأرض بفحص ما بها من حفريات ، وهي حفريات في هذه الحالة صغيرة غاية الصغر . وهي تأتي إليه حفراً ، إذ تُخرق الأرض خرقاً ، خروفاً عميقة مناسبة ، وتجمع من الأعماق عينات يقوم بفحصها . فإن هو وجد بها حفريات فهو يستدل

بها على ترتيب الطبقات . وعند الخبراء خرائط كهذه ، حفريه ، تصف الأعماق . وبالرجوع إلى الخبرة القديمة التي تربط بين الطبقات واحتمال وجود زيت فيها ، يستطيع أن يتنبأ العالم عند أى عمق من الحفر يَحتمل وجود الزيت . إن العالم الحفري التطبيقى ، والفزيائى الأرضى ، وهما يبحثان عن البترول (أو المعدنيات) يجمعون بين استخدام الخبرة ، وهى خبرة أشبه ما تكون بخبرة الحياة ، وبين استخدام ما فى علم الجيولوجيا من فروض ونظريات . ولكن نجاحها فى هذا لا يمكن أن يتخذ دليلاً على صحة ما نتصور حدوثه فى الأرض منذ ملايين السنين ، كما لا يمكن أن يتخذ نجاحاً فى تفجير الذرة دليلاً على حقيقة النيوترونات Neutrons والبروتونات protons^(١) .

ومهما تشكك الإنسان فى الصحة النهائية لنظريات الكيمياء ونظريات الطبيعة ، أى الفزياء ، ومهما حذر المرء عند استخدام لفظى « الحقيقة » و « الواقعة » ، فلن يؤثر شىء من ذلك لا فى الكماوى ولا فى الفزيائى وهو واقف يعمل فى معمله . فهو عندئذ لا يتشكك أبداً فى الذرات ولا فى الجزئيات ، ولا فى الألكتروليتات ولا فى النيوترونات . وكذلك الجيولوجى والفزيائى الأرضى ، وعالم الحفريات ، لا يستطيع وهو قائم فى عمله أن يتشكك فى أن نظرياته هى على الأقل وصف تقريبي لما حدث فى الأرض منذ ملايين من السنين . لهذا أجد ، على الرغم من فروق أساسية ظاهرة تفرق بين الجيولوجيا والعلوم الطبيعية الأخرى ، أن كثيراً مما ذكرته فى

(١) هى من الأشياء التى تتألف منها نواة الذرة .

صفحات أسبق ، عن العلوم الطبيعية ، ينطبق كذلك هنا ، على العلوم التي أنا متناولها في هذا الباب .

وإني أذكر بهذه المناسبة الكتاب الشهير الذي كتبه السير أرشبلد جيكي Sir Archibald Geikie^(١) في تاريخ الجيولوجيا . ففي هذا الكتاب لخص المؤلف بعض الخصائص الذي وجدها في تاريخ هذا العلم في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر . ومن الطريف أن نقارن ما خرج هو عليه من ذلك ، بالذي قلنا ونحن نستعرض مسالك سلوكها رجال العلم ، في الفزياء والكيمياء والبيولوجيا التجريبية ، وما احتمالوا فيها ليتخطوا بها ما لقوا من مصاعب . ذكر « جيكي » فيما ذكر أن قليلا من الرجال الذي أخذوا بيد الجيولوجيا فقدّموها ، إلى آخر القرن التاسع عشر ، كانوا من رجال هذا العلم الأصيلين الممتننين . فكل الرجال النابيين التي ذكرت أسمائهم في ذلك العهد كانوا إما رجلا ذوى ثراء « احتقروا حياة لا يكون فيها إلا الراحة والرخاء، فوقفوا أنفسهم ووقفوا أموالهم على دراسة تاريخ الأرض » وإما أهل تدريس يدرّسون فروعاً من العلم أخرى . واختصاراً ، نجد هنا في الجيولوجيا ، كما وجدنا في غيرها ، في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، رجلا هواة أخذوا بالزمام فساقوا العلم أول سائقين . ونتيجة أخرى خرج عليها المؤلف ، نوردها بلفظه : « إن تاريخ الجيولوجيا به بعض أمثلة ترينا كيف يطول الزمن بفكرة تلقحت ، قبل أن تنتبث ويخرج منها الثمار » . فهذه عبارة تؤكد الظاهرة المتكررة في تاريخ كل

(١) هو الجيولوجى الأستكتندى ، ولد في أدنبرة عام ١٨٣٥ . كان أستاذ الجيولوجيا في جامعة أدنبرة نحواً من عشرين عاماً . وله مؤلفات عديدة .

العلوم الطبيعية ، أن الزمن لا بد أن ينضج قبل أن تنضج الفكرة الجديدة فتثمر أو تتفتح الأعين فترى تجريباً جديداً فيُقدّر .

وثالث ما خرج به المؤلف من نتائج يتلخص في قوله « إن درساً من الدروس التي يتعلمها الإنسان من تتبع الخطوات التي خطتها الجيولوجيا في تأسيسها ، وتنشئها ، هو ضرورة أن يتجنب المرء ما أمكنه الدجماطيقية في العلم . أن يتجنب التسلك برأى لا يطلب له أدلة ، ولا يبغى عنه حولا . . . إن الدجماطيقيون من النكبائين Catastrophist ، كان لهم يومهم ، ثم جاءهم المطردون للقوى على الأزمان Uniformitarians^(١) فغلبوهم على أمرهم ، ثم لم يلبثوا أن جاءهم النشوئيون Evolutionists^(٢) فأخذوا مكانهم . . . إن الجيولوجيا ليس في طبيعتها ، على العموم ، أن تأذن بدخول الرياضة إلى نتائجها تصوغها في أرقام . ذلك لأن هذه النتائج تستند إلى موازنة بين عدّة من احتمالات ، ولكنه ميزان قد ترجح كفته هذه ، أو كفته تلك ، تبعاً لما يستجد من حقائق أو من زيادة فهم لها . لهذا قد نجد استنتاجاً يستقر في جيل فإذا به في جيل آخر يتقلقل فيعزى إليه الخطأ قليلاً أو كثيراً . وعلى مرّ الأيام ، ومن عام إلى عام ، تزيد

(١) هذان مذهبان في الجيولوجيا متعارضان ، أما النكبائين فيرون أن ما حدث في القشرة الأرضية من تغير كان سببه عوامل فزيائية عنيفة قلبت الأمور قلباً ، فكأنها النكبات أما المطردون للقوى فيرون أن العوامل الطبيعية التي عملت في القشرة الأرضية كانت واحدة ، وكانت مطردة على الزمن ، مطردة في شدتها .

(٢) النشوء في الجيولوجيا يظهر في صنوف الحفريات التي توجد في الصخور . فالصخور العليا بها أحياء راقية ، وكلما تدنى الإنسان في الصخور ، تدنى كذلك نوع الأحياء الحفرية التي يجدها ، وذلك في اطراد به الكثير من الفجوات .

الحقائق التي تبنى عليها هذه النتائج تبيننا بما نزيدها من امتحان وما نزيدها من فهم . إن الجيولوجيا اليوم بها عدد من الحقائق هائل ، وهي تزيد دائماً ، وهي حقائق ثابتة ليس فيما يكتشف غداً ما يدحضها . وكل ما يصنعه الغد بها أن يزيدها كثرة ، وقد يلقى على الكثير من جوانبها أضواء فزيد نحن فهماً لما كنا حسبننا أننا فهمناه كل الفهم » .

وشبه آخر ذكرناه ، بين التقدم الذي وقع في الجيولوجيا ، والتقدم الذي وقع في سائر العلوم ، يحتاج إلى إعادة توكيد : ذلك أثر الآلة الجديدة تكتشف ، أو طريقة العمل الجديدة ، الصناعة ، تبتدع في إجراء تجربة أو إجراء ملاحظة . وقد سبق أن ذكرنا القيمة الكبرى لدراسة بنية الصخور ومقارنة بعضها ببعض ، وكذلك دراسة الحفريات . وهذه الدراسات هي في ذاتها أدوات في الملاحظة جديدة مكنت من تقدم علم الطبقات . وتقدم علم الكيمياء في أوائل القرن التاسع عشر مكن من جعل دراسة المعادن علماً *mineralogy* لولاه ما استطعنا دراسة ما احتوته طبقات الأرض منها . وبعد حقبة دخل إلى علم الجيولوجيا مكرسكوب فحص الصخور *petrographic microscope* ، دخلها في الربع الثاني من القرن التاسع عشر ، فمكن من إرساء الصخور على قواعد أرسخ . وفي هذا القرن جاءت الفزياء الأرضية بعدد من الآلات والأجهزة زادتنا عن الأرض علماً . كذلك فحص مكونات المعادن في المعامل ، كيف تصنع في درجات الحرارة العالية ، وتحت الضغوط العالية ، أعطانا طريقة نمتحن بها صحة افتراضات كثيرة فرضناها عما قد يكون حدث في الصخور في الأزمان القديمة البعيدة . دع ذكر ما صنع اكتشاف النشاط الإشعاعي

في الجيولوجيا من أثر يكاد أن يكون انقلاباً ، وذلك باستخدامه في تقدير أعمار الصخور .

إن الفقرة الأخيرة تدكر مثلاً مما أصابته الجيولوجيا من عون على التقدم الذي أحرزته في الخمسين سنة الماضية ، بسبب ما حدث من تقدم في علوم أخرى . ومن هذه العلوم نذكر الفلك والكيمياء وعلم الأحياء . إن نسيج كل علم دخلت فيه فتائل كثيرة من علوم أخرى كثيرة ، حتى لوجب على كل نظرية تُبتدع في العلم الواحد ، أن لا تفسر حقائق هذا العلم الواحد فحسب ، بل حقائق غيره من العلوم (كذلك قد تخرج فكرة جديدة ، أو تكشف التجربة عن حقائق ، فيكون لها أصلاء بعيدة في غير ما خرجت فيه من علوم) . والنظرية تصاغ في الجيولوجيا اليوم تخضع لامتحان يكون في المعمل ، كما تخضع لامتحان يكون في الحقل ، فهي لا بد أن تتفق وحقائق عرفت في الكيمياء وأخرى عرفت في الفيزياء ، وهي لا بد أن لا تصطدم اصطداماً عنيفاً بنظريات هذين العلمين .

ولإيضاح علاقة الحقل ، حقل الملاحظة ، بالمعمل ، معمل التجريب ، نسوق مسألتين من المسائل الجارية بين العلماء اليوم ، إحداهما تتعلق بأصل الجرانيت ، والأخرى تتعلق بأصل زيت البترول . أما عن الجرانيت وأصله ، فكل فكرة ذهنية تبتدع عن كيفية تكون أي معدني ، لا بد أن يخرج منها بالاستدلال شيء ، يخرج منه فرض ضيق محدود يمكن امتحان صحته بالملاحظة تُجرى في مواضع من الأرض خاصة . والفرض العام الواسع العريض كذلك قد يؤدي إلى تجارب يراد بها معرفة خواص لمركبات كيميائية يكشف المعمل عن خواصها . وكثيراً ما تكون هذه الخواص

معروفة من قبل . فإن صح هذا ، لم يكن للفكرة الجديدة من حاجة غير ترتيب الملاحظات والحقائق حتى تأخذ وضعاً لها جديداً يتناسب والمسألة القائمة . ولكن إذا كان هذا الفرض أو الفروض من النوع الذى يقدم العلم ، إذاً وجب أن يؤدي إلى استنتاجات يتأدى تحقيقها إما فى الحقل وإما فى المعمل .

أما عن البترول ، فهذه مسألة تخرج من الجيولوجيا لتدخل إلى الكيمياء العضوية وإلى علم الأحياء . إن هذا الزيت يتألف من خليط معقد من مركبات كيميائية عناصرها الكربون والأدروجين . ونستطع أن نصرف النظر مؤقتاً عن تاريخ تكوّن هذا الزيت ، وعن مواضعه اليوم من شتى الطبقات ، لننظر فى فروض متعارضة اصطُنعت تتعلق بالكربون ، من أى شىء جاء . إن الكيماوى ، بقبوله لتواعد الجيولوجيا ، قد ينظر فى هذا الزيت ، وما به من عديد المركبات ، فيقترح له مصادر فى الأرض مختلفة . وهو قد يرى أن الكربون سبق فى وجوده ، وأن منه تكون بعد ذلك مركبات وُسْطى مثل كربيد الكلسيوم ، وأن هذه تتفاعل بعد ذلك مع الماء فتنجح إدروكربونات^(١) بسيطة ، كالأستيلين . وبالوصول على هذا المركب وأضرابه لا يجد الكيماوى بعد ذلك صعوبة فى تخيل ما قد يكون حدث بعد ذلك ، فى الضغوط العالية ، وعلى الزمن الطويل ، من

(١) الأدروكربونات هى مركبات عضوية تحتوى الكربون والأيدروجين ولا شىء غيرها . وهى تختلف باختلاف أعداد الذرات التى فى المركب ، وكيف ترتبط فيما بينها . والأستيلين أحدها ، وهو يتألف من ذرى كربون وذرى أدروجين ، وهو الغاز الذى يسترقده به فى مصابيح الدراجات .

تألف مركبات عضوية إدروكربونية كالتى توجد فى البترول . ولكن استخدام الخيال على هذه الصورة لا يزيد العلم إلا فكرة تظنية أخرى .

ومن التظن ما يربط أصل البترول بتحليل مخلفات حيوانية تحللت تحت الضغوط ودرجات الحرارة العالية . ويمكن فى المعمل إجراء تجربة تمثل ما حدث ، فيها يؤخذ السمك مثلاً وترفع حرارته فوق حرارة غليان الماء كثيراً فيخرج من ذلك خليط من الأدرركربونات يشبه البترول ظاهراً . وتجربة كهذه تعنى احتمالاً أنه لا يوجد بين هذا التظن الخاص وبين حقائق الكيمياء تعارض . وفكرة أخرى عن أصل البترول ، وهى فكرة سائغة محببة اليوم ، تقول بأن الطحالب *Algae* التى وجدت فى تلك الأزمان الخوالى هى أصل الكربون ، ذلك بأنها تمتص وتمثل غاز الكربونيك الذى بالهواء مستعينة بضوء الشمس . وتقوم فى سبيل هذه الفكرة عقبه ، تلك أن نتيجة تمثيل كهذا واقعة اليوم فى كل أخضر من النبات ، وهى تؤدى ، لا إلى تكوين إدروكربونات كالتى يتطلبها البترول ، ولكن تؤدى إلى تكوين بروتينات وشحوم وكربوهيدرات . وبالطبع قد يتدخل المرء فى سبيل إزاحة هذه العقبة فيقول إن هذه الطحالب أو أشباهها التى وجدت منذ ملايين من السنين كانت تمثل غاز الكربونيك بطريقة أخرى غير الذى نعرفها اليوم ، تخرج الأدروكربونات فى كثرة هائلة بدلا من نتائج يجرى بها التمثيل البنائى اليوم . ولكن فرض كهذا هو من نوع الفروض غير المثمرة ، لأنه يفترض أن العمليات التى كانت تجرى فى النباتات فى تلك الأزمان هو غير ما يجرى بها اليوم ، وإذاً فهو فرض لا يمكن التحقق من صحته اليوم فى المعمل . ولا أكاد أدرك كيف يمكن

التحقق منه بالملاحظة الجيولوجية وهو يتعلق بعملية كيمائية في أجسام حية .

إننا لم نسق مسألة أصل البترول ، ونلخصها في اختصار ، إلا لنندل على سهولة التظن في المحيط الجيولوجي ، وعلى صعوبة صياغة حتى الفروض العامة المثمرة عند العمل ، دع عنك تلك الفروض التي يزيد حظها من الثبوت فترفع في المقام فتسمى عند ذلك بالنظريات . إن هذا ليس موضعاً نلخص فيه ما لدينا من أدلة على أصل البترول ، ولكن خشية أن أكون قد خلطت في تصوير ما هو قائم حول هذا الأصل ، أزيد فأقول إن وجود بعض المركبات العضوية المعقدة ببعض عينات في البترول يدل على (أ) أن البترول ينجىء كله أو بعضه من أنسجة حيوانية أو نباتية ، (ب) أن الزيت قد لا يكون ارتفع إلى درجات من الحرارة عليها قط . إن هذا الباب لا يزال باباً مفتوحاً متهيئاً لتقبل آراء جديدة مثمرة ، تشر التجارب التي تجرى في المعمل ، أو الملاحظات التي تجرى في الحقول الجيولوجية . والتظن الذي ينتهي إلى مثل هذه الآراء لا شك نافع ، أما التظن الذي لا ينتهي إلى شيء فخيال لا يصيب منه الإنسان إلا بمقدار ما في تحريك الخيال من لدّة .

أصل الأحياء ونشأتها

إن العقل الفطري يقول بأن لكل شيء بداية . ونحن نحمل هذا القول إلى نطاق العلم فنفرض طبعاً أن لهذا الكون ، ولهذا الأرض ، وللحياة

عليها بداية ، بدأت في وقت ما . وقد يدخل هذا الافتراض فيما يجوز من من الأشياء مناقشته أو لا يجوز . والحكم في هذا هو نفسه في احتياج إلى مناقشة . ولكن بحسبان هذا الفرض عنصراً من فرض عام مثير ، لا يمكن إنكار تجويزه أحد ، حتى الشكاك البالغ في شكه . والآراء التي تدور حول أصل الكون وأصل هذه الكرة تدخل في النطاق العلمى الذى يختص به فى العادة الفلكيون والفزيائيون الفلكيون Astrophysicists . وهذان الصنفان من العلماء ، ما عملوا فى حل هذه المسألة وأشباهها ، إنما يعملون فى مشاريع تصورية نظرية تدخلها أحقاب الزمن الطويلة بعضاً من عناصرها الجوهرية . ولا أكاد أجد حاجة إلى القول أن هذه المشاريع ، هذه النظريات الكونية ، لا بد أن تتسق والمعروف من حقائق علم الفلك وحقائق الطبيعة ، ولا بد أن تكون مثمرة ، ثمر الملاحظة وثمر التجريب .

إنى فى معالجة مناهج العلم لم أعرض لمنهج علم الفلك ، لهذا لن أعرض للمسائل الشائكة فى علم الفلك ، وبدلاً من أن أتناول ما فى هذا العلم من آراء تظننية وفروض علمية جارية ، أرى أن الأفضل أن أختتم هذا الباب بإشارة خفيفة إلى ما صنعه علماء علم الأحياء مما يُعنىون بأصل الحياة ونشأتها وهنا يجد الإنسان الفرق واضحاً بين الآراء التظننية المبهمة والمشاريع التصورية المثمرة . إنا نستطيع أن نتظن فى أمر الحياة ونشأتها ما وسعنا الظن . ولكن الباحث فى هذا الأمر أحسبه لن يجد إلا آراء قليلة تقدم بها أصحابها فى هذا الموضوع لا يمكن إلا بشئ من الكرم أن نسميها حتى فروضاً مثمرة نافعة . وقارن بين هذا وبين ما حدث فى نطاق علم النشوء . إنه من عهد دارون إلى اليوم خرجت آراء كثيرة نشوئية خرج منها مشروع

تصورى مثير حتى ما يمكن أن يكون لإثماره حد .

إن الآراء التي تخرج تحاول تفسير أصل الحياة كثرة ، كل عشرة منها بقرش . ولكن المشكلة هي قلب هذه الآراء إلى فروض عامة مثمرة ، تنتج من النتائج الفكرية ما يمكن تحقيقه في حقل أو معمل . فهذا هو الإثمار . وغير ذلك العقم . انظر معى في هاتين الخاطرتين الشائعتين اليوم (وأنولا أستطيع أن أسميهما بأكثر من خواطر) . أما الأولى فتفرض ذلك الفرض القديم أنه عند بدء الخليقة لم يكن على الأرض من المواد الكربونية غير ثانى أكسيد الكربون (إما غازاً خالصاً في الجو أو متحداً في الحجر) . وبدءاً من هذا الفرض يستطيع المرء أن يتصور طرائق للانتقال من هذا الغاز إلى مواد كالسكر وكالأحماض الأمينية (١) التي هي لازمة للحياة كما نعرفها اليوم . ومما يتصوره تحولات اعتمادها على هذا النوع من البكتريا الذى نعرفه ونعرف أنه يستطيع أن يمتص ثانى أكسيد الكربون ويمثله ويحوّله إلى مواد عضوية بغير حاجة إلى ضوء الشمس . وإذا وصل الإنسان إلى هذا الحد أمكنه أن يتصور تخليق المادة النباتية الخضراء من بعد ذلك ، تلك التي تقوم بالتمثيل الضوئى photosynthesis ومن بعد تخليق هذه الصبغة لا يكاد يعوق التخيل الكيماوى عائق .

ثم الفكرة الأخرى ، وقد صيغت حديثاً ، وهي تقع من الظن

(١) الأحماض الأمينية هي أحماض عضوية تتألف أصلاً من الكربون والأدروجين والأكسجين والنيتروجين ، وقد يدخلها عناصر أخرى . وهي الوحدات التي تتألف منها البروتينات (ومنها الزلال) . ومن البروتينات تتألف مادة الخلية ، البروتوبلازم ، مادة الحياة الأولى .

والتظنن بحيث تقع الفكرة السابقة، وهي مستساغة مثلها . وهي تفرض أنه قبل أن تبدأ الحياة على الأرض بزمان طويل تجمعت على الأرض مقادير هائلة من المركبات الكربونية التي هي في التركيب أعقد كثيراً من ثاني أكسيد الكربون . فلو أن خليطاً كهذا تضمن الأحماض الأمينية البسيطة، والألدهيدات والأحماض الكيتونية ketonic^(١) التي تنتسب إلى السكريات، لاستطاع المرء أن يتصور تكون جزيئات أعقد منها، مثل الصبغة النباتية الخضراء، الكلوروفيل، ومتى وجدت هذه سهل الطريق إلى تكون النباتات وسائر الأحياء .

ولكننا، بعد كل هذا، نتساءل إلى أي شيء تؤدي بنا هذه الظنون وهذه التخيلات؟ قد يقال إنها تؤدي إلى تجارب في المعمل لتحقيق بعض ما فيها . فإن كان هذا، فالحمد لها، ولكنني إلى الآن، يقرأ الناس الآن ما يقرأون عن أصل الحياة، ولا يجد الرجل الشكاك منهم إلاعلامات استفهام كبيرة يخطها أمام كل ما يقرأ .

إننا لا نعرف إلا القليل جداً في هذا الشأن، ومع هذا لا بد أنؤكد أنه من التعنت في القول أن نقول إنه لن ينشأ في المستقبل مشروع تصويري مثير يصف لنا ما سبق أقدم النباتات على هذه الأرض من أحياء . ونحن إذ نذكر على التحديد ما نجهل، ونذكر على التحديد ما نعلم، ونقدر درجة الثبوت فيما لدينا من معارف يجب أن نحذر حتى لا ننزلق إلى موقف اليائس من دراسة الماضي . إن المستقبل قمين بأن يأتي بكل ما

(١) كل هذه مركبات عضوية يجوز منها تخليق السكريات والبروتينات وكلاهما ضروري للحياة .

لا يرتقب . فمن منا كان في استطاعته أن يتنبأ منذ جيل مضى أو جيلين بأن الكيمياء ستأتى بأنواع من تحليل المعادنات جديدة تعطينا نتائج ترتبط بأعمار الصخور وتقديرها ؟ من منا كان يستطيع أن يتنبأ باستخدام النشاط الإشعاعى لنوع من أنواع الكربون في تأريخ بعض ما صنع الرجال البدائيون على الأرض . فهذا أمر أمكن حديثاً ، حققه تعاون الكيماويين وعلماء الآثار .

إن العلم لو دُفع في الخمسين من السنوات الآتية بمثل ما دفع في الخمسين من السنوات الماضية ، إذاً لأصاب ما نجد اليوم من مشاريع تصويرية في علم الأرض وعلم الكون شىء من التغيير كبير . وأنا على الأقل أرى أن التنبؤ بمآل رأى علمى ، في الباقي من هذا القرن ، أنفع من التنبؤ بمقدار ما فيها من صدق وبطلان ، إذا نحن عنيينا بذلك قربها من الحقيقة أو بعدها عنها . ذلك أن البحث في « حقيقة » الأشياء يقع الإنسان في مشاكل فلسفية لا مخلص منها . وبناء على هذا أجزأ فأقول إن الجزء من النظرية الذرية الجزئية الذى عاش المائة والخمسين الماضية من السنين ، سيعيش هذه الخمسين الباقية من هذا القرن . هذا مؤكد عندى . ولكنى أقل تأكيداً فما يختص بأفكارنا عن النيوترونات والبروتونات والألكترونات . وأبى تنبئى هذا على أمرين ، طبيعة هذه النظرية عندى وعدد ما عاشت تلك الأفكار من السنين . وإذا أنا توجهت إلى دراسة الماضى أتنبأ فيها ، إذاً لرحوت أن يؤذن لى في القول أن أصول علم طبقات الأرض المعروفة المقبولة اليوم لن ينالها إلا القليل من التغيير . أما فيما يختص بمسائل مثل أصل الجرانيت والبتروك والحياة ، فسوف ننظر إلى

ما كنا نقوله فيها في عام ١٩٥٠ عند حلول عام ٢٠٠٠ ، ونعجب من أنفسنا كيف قلناه وكيف أسغناه .

وإذا نحن أردنا أن نترك الآراء التظننية غير المثمرة ، إلى المشاريع التصورية ذات الأثمار ، فما علينا إلا أن نترك الحديث عن أصل الحياة ونتركه نظماً إلى الحديث عن أجناس النباتات والحيوانات كيف تنشأت على ظهر هذه الأرض . ولن أتحدث عن وقع الآراء الدروينية في العالم المسيحي ، وأثر ذلك في نظرة المسيحيين إلى الكون وإلى الحياة . فإني لو تحدثت عن هذا لخرجت عن الموضوع خروجاً بيئناً . ولكن لي كلمة أو كلمتان في هذا الصدد تنتظم مع ما أهدف إليه ، أضع بهما نظرية النشوء في موضعها من وسائل العلم وأهدافه . إن الفكرة التي تقول بأن أجناس النباتات والحيوانات لم تثبت يوماً في الدهر على حال ، فكرة لم يستجدها دارون ، وإنما الذي استجده دارون فسلسلة من فروض عامة مثمرة تشرح لنا كيف يمكن أن جنساً يتغير فيتحول إلى جنس غيره . لهذا إذا أراد أحد أن يبحث نظرية النشوء بحثاً مجدياً وجب عليه ، لا أن ينظر في فرض مثير نافع واحد ، ولكن في عدة من فروض .

وبصرف النظر عما سببته نظرية النشوء من مصاعب للمسيحيين الذين يقرأون كتبهم الدينية، ويتخذون المعنى الحرفي منها، فهناك مصاعب أخرى جديدة جابهت في المائة من السنين الماضية كلا من علماء الأحياء وعلماء الحفريات وهم في سبيلهم لتثبئة هذه النظرية وتقديمها . واستفحل أمر هذه المصاعب في نحو ختام القرن التاسع عشر . فأفكار دارون عما حدث للنباتات والحيوانات في الماضي كان لا بد من اتساقها مع ما

اكتشف القرن التاسع عشر في حقل الوراثة والتناسل . فأعمال مندل Mendel^(١) ، وهى أساسية في هذا الحقل ، أعيد اكتشافها في ختام ذلك القرن . وما كادت تكتشف حتى اصطدمت ظاهراً ، في أول الأمر ، ببعض فروض دارون التي ضمنها نظرية نشوئه . ولكن حدث في القرن العشرين ، وعلى الأخص في العشرين سنة الماضية ، أن ظهر أن الأدلة التي خرجت من علم الحفريات من جانب ، ومن علم التوارث والتناسل من جانب آخر ، ظهر أنها تهدف متركرة على إثبات ما تعمى في أول الأمر من ظاهرة النشوء .

إن رؤية بعض صنوف من البكتريا ، رأى العين ، تتغير وتتحول وفقاً لتغير البيئة وتحولها (تغير نحدته بعقار كالبنسولين مثلاً) للدليل ليس بعده دليل لكل باحث شكاك لا يؤمن بحقيقة التغير البيولوجى الذى يطرأ على الأجناس . وإنى أشير هنا على كل من يهمله الأمر ، ويهمله علم ما استجد في هذه الأيام منه ، أن يقرأ مقالا كتبه كاتبه للقارىء العادى في عدد يناير عام ١٩٥٠ من مجلة The Scientific American . وعلى الذين يريدون أن يقرأوا فوق هذا ، أشير بقراءة الكتاب الصغير الذى كتبه جوليان هكسلى Julian Huxley وأسماه « الوراثة : في غرب

(١) هو جريجور جوهان مندل ، البيولوجى النمساوى ، ولد عام ١٨٢٢ ومات عام ١٨٨٤ . دخل الدير في مدينة برون Brunن عام ١٨٤٣ . وأجرى تجارب في وراثة النبات في حديقة الدير ليعرف قواعد هذه الوراثة ونشر نتيجة أبحاثه عام ١٨٦٦ . ولكنها أغفلت إغفالاً إلى عام ١٩٠٠ ، وفي هذا العام بعثت من قبرها . وصارت أساس البحوث الحديثة في الوراثة . ونظريتها مشهورة .

وشرق . Heredity, East & West ، ثم كتابه الثاني الأكبر ،
 واسمه « النشوء : التخلق الحديث » Evolution : The Modern Synthesis
 فالقارئ لهذه قراءة إمعان سيدهشه كيف تشير الأدلة كلها ، من حقول
 في العلم متفرقة ، إلى النتيجة أو النتائج الواحدة . ومن الأدلة ما يأتي
 من مقارنة الحفريات في القديم من الطبقات . ومنها ما يأتي من تجارب في
 تناسل الأحياء من نباتات وحيوانات . ومنها ما يأتي من تغيرات تُصطنع
 اصناعاً في كائنات مكرسكوبية ، قصيرة الأعمار ، فهي تتناسل سريعاً
 فتولد منها في الوقت القصير عدة من أجيال .

لهذا أقول إن مبدأ النشوء ، في الوقت الحاضر ، يستقر على قواعد
 ثابتة لم يستقر على مثلها قط فيما مضى . ومع هذا فهو لا يزال باقياً مشروعاً
 تصورياً . وإن صح ما نراه في شئون العلم جاز أن نقوم هذا المشروع (أ) من
 حيث فائدته في استيعاب كل ما يعرف من حقائق ، ثم (ب) من
 حيث إثماره ، واستخراج أشياء منه يكون تحقيقها بالعمل ، بالتجربة في
 معمل أو بالملاحظة في حقل . وهنا أسمع قارئاً صلب العود يسألني :
 ولكن هل هذه النظرية حقيقة واقعة ؟ وعندئذ يكون جوابي له ، هو ما
 سبق أن قلته ، أعيدته على رغم ما قد يسببه تكراري له عند بعض القراء من
 ضيق : إن الحذر في معالجة شئون العلم لا يجب إلا بقوله إن قيمة
 النظريات هي في مقدار مما تتنبأ به عن احتمالات ما قد يسلكه العلم في الغد
 من مسالك . وظني الآن ، أن ما سماه هكسلي « بالتخلق الحديث » اليوم ،
 لن يكون حديثاً جديداً من بعد خمسين من السنين ، ومع هذا سوف يظل
 خطوة مرضية في اتجاه نافع . واختصاراً ، ستظل الثورة البروينية تعتبر ،

كما اعتبرت من قبلها الثورة الكوبرنيكية Copernican والثورة النيوتينية Newtonian ، مدخلا طبيياً إلى مشروع تصورى ناجح أكبر النجاح .

ثم فقرة أخرى أخيرة فى هذا الباب ، أجيب فيها على سؤال لا بد خطر على بال كثير من القراء . إذا كان التاريخ يختلف نشاطاً عن العلم ، فما بال علم الآثار؟ والجواب أن هذا العلم من العلوم التى تقع عند الحدود . فهو فى ناحية من نواحيه يمس العلم ، فى ذلك الجانب منه الذى لا يرى الشكاك فيه من العلم غير الفروض والنظريات . وهو من ناحيته الأخرى نجده يمس التاريخ المرقوم ، ملحقاً له ، حيث لا يشكو الشكاك إلا من قلة كفاية فى الأدلة التى يبنون عليها صور الحياة التى كانت للإنسان فى عهوده الماضية . إن الذين يعنون بما يسمى أحياناً ما قبل التاريخ prehistory أو بما يسمى ما قبل قبل التاريخ protohistory ، إنما يعالجون فيما يعالجون قطعاً من أدلة عن حياة الإنسان قبل نحو عشرة آلاف من الأعوام . والآراء التى يخرج عليها أمثال هؤلاء العلماء . لا تعطى إلى القارئ غير المختص نوع المعرفة التى يعطيها إياه المؤرخون . وليس من هدفهم أن يصوروا كيف انفعل الإنسان القديم الأقدم لما صادفه من مشاكل الحياة . فليس فيما يبحثون « سنوات متراكمة » . والهدف لا شك فيما يصنعون علمى . وفى هذه البحوث ، كما فى الجيولوجيا ، تروج ظنون العلماء وواجباً كبيراً . إنه لا شك نشأت ، فى القرن الماضى ، فى علم الآثار آثار ما قبل التاريخ ، فروض مثمرة ، ولكن الإنسان يشك فى أن تكون هذه الفروض قد بلغت مرتبة المشاريع التصورية ، فيما يختص بالذى

يسمونه الإنسان البدائي . إننا قد نعلم عن أصل الإنسان أسهل مما نعلم عن أصل الحياة ، ولو أنى أميل إلى الشك في هذا . وعلى كل حال فكلتا المسألتين ، في الرأي الباده ، يضعهما الباحث الحذر في دائرة العلم ، لا دائرة التاريخ . ولكنى مع هذا أقر بأن الخط الذى نرسمه ، بقصد التفرقة بين المشروعات التصورية التى يدخلها الزمن عنصراً من عناصرها ، وبين التاريخ في علم الآثار ، خط يختلف موضعه من رقعة هذا العلم باختلاف مزاج من يرسمه ، أكان مزاج شكاك كثير الشك ، أم مؤمن كبير الإيمان .

الباب الحادى عشر أثر العلم فى الصناعة وفى الطب

فى الباب السابق كان حديثنا فى دراسة الماضى ، فى نظريات تلك الدراسة أكثر منه فى تطبيقها ، وكان موضوع الحديث فى تلك المواضيع ذات الجدل الذى لا ينتهى . وتقدير القارئ لما قلته فى هذا الباب يتوقف على رأيه ، أو رأيها ، فى طبيعة الإنسان ، وطبيعة ما ينتظره من مقادير . ولو أنى أكملت هذه الجولة القصيرة فى التاريخ ، بباب آخر أفردته لدراسة علوم للإنسان ، من علم الإنسان أو الإثنوبولوجيا Anthropology إلى علم النفس ، إلى علم الاجتماع ، إذاً لضاق ذرع القارئ بى أكثر مما ضاق . وعندئذ أكون قد وثبت من المقالة ، مقالة الماضى ، إلى النار ، نار الحاضر ذات الألسنة الصارخة . والحق أنى لا رغبة لى فى أن احترق فى مثل هذه النار . لهذا لن أفرد لإبضع فقرات ، فى الباب التالى والأخير من هذا الكتاب ، أتناول فيها تطبيق تحليل العلمى للعلوم الطبيعية ، على دراسة الإنسان بحسبانه حيواناً اجتماعياً .

أما هذا الباب والذى يليه فسيخصص أصلاً للحديث فى أمور عملية حاضرة النفع ، تلك هى تنسيق وتمويل البحوث البحتة والتطبيقية فى مجتمع حر ، وصلة هذا بالصناعة والطب والحرب . والمواضيع التى سوف نعالجها فى هذا الصدد لن يكون فيها من الجدل أقل مما كان فى مواضيع

عاجلها سلفت . واختلاف الرأي هنا لن يكون سببه اختلافاً في عقيدة دينية ولكن اختلافاً في نظرات اجتماعية وأخرى فلسفية . وأثر ما سوف أقول عن الحاضر ، وما سوف أقترحه عن المستقبل سوف يختلف اختلافاً كبيراً في أنفس قارئيه تبعاً لأهوائهم السياسية وميولهم الاجتماعية ، ولأى حزب أو لأى مذهب هم متمون . ولن تعجب من هذا فمضى العلم نفسه ، وتاريخه في الثلاثمائة سنة الماضية ، يقرأه الناس فيجدون لوقعه في نفوسهم أثراً يختلف باختلاف نزعاتهم السياسية . مثال ذلك ماركس ، والمركسيين ، في تفسيرهم صلة ما بين العلم والمجتمع ، فقد أبرزت طائفة منهم مجموعة خاصة من الحقائق التاريخية ، وأكدتها ، ثم أخذت تقترح للمستقبل اقتراحات متطرفة . وعارضتهم طائفة من معارضي سياستهم . عارضتهم في فهمهم التاريخ وتفسير التاريخ ، وفيما اقترحوا للمستقبل . وبدأت المعركة بين الفريقين في بريطانيا العظمى قبل أن تقوم الحرب العالمية الثانية بقليل . ومن شاء أن يقرأ ما اختلف فيه القوم في تفسيرهم تاريخ القرن السابع عشر فعليه أن يقرأ كتاب كلارك G.N. Clark في « العلم وخير المجتمع في عصر نيوتن » Science & Social Welfare in the Age of Newton وفيه يعالج المشكلة التي قامت ، على غير ما عاجلها المركسيون .

وجرى الجدل ودار النقاش حول مسألتين ، أولاهما (أ) هل هناك مبرر للتفريق بين علم بحت وعلم يطبق ؟ ، وثانيتهما (ب) كيف يؤثر المجتمع في وجهة يتخذها العلم في المستقبل ؟ أما المركسيون ، ومن اعتنق فلسفتهم ، فقد أنكروا في عمومهم فكرة أن العلم عمل قائم بذاته منفصل متميز عن أعمال أخرى تهدف إلى تحسين الفنون العملية . وبناء على هذا

هم يقولون « إن تقدم العلم في جبهاته الواسعة . . . متوقف على ما ينتج عن هذا من نفع في سد حاجات المجتمع الجارية » (هذا مقتبس من كتيب اسمه « نشأة العلم » The Development of Science نشرته رابطة المشتغلين بالعلوم Association of Scientific Workers ^(١)) .
ومن هذا التفسير لتاريخ العلم استنتجوا ما يلي استنتاجاً سهلاً : « ففياً بعد الحرب ستقع على عاتق الناس واجبات ثقيلة في التنظيم وإعادة بناء ما انهدم من كل شيء ، وستطرح على العلم والعلماء مسائل ومشاكل ، فعندئذ لا يتقدم العلم إلا بمقدار ما يستطيع لهذه المسائل من جواب ، وما يستطيع لهذه المشاكل من حل . وليس معنى هذا ترك البحث العلمي البحث لصالح الأمور التكنولوجية الحالية (وتلك سياسة لو صحت لكانت سياسة انتحار وقتل للعلم) ، ولكن معناه أنه لا بد من بعض تخطيط وتنسيق لكل الجهود العلمية لصالح المجتمع كله » .

فهذه عبارة رابطة المشتغلين بالعلوم ، وقد أجاب عليها تيلر F.S. Taylor نيابة عن « جمعية الحرية في العلم » Society for Freedom in Science (في النشرة الخاصة ، بأبريل ١٩٤٥) ، متسائلاً :

« ولكن ما معنى بعض تخطيط وتنسيق لكل الجهود العلمية ؟ . . .
أىكون معناه أن القوميسار يأتي فيقول إن هذه البحوث في تركيب بلورات هذه الفسفونجستات phosphotungstate لا تنفع الجمهور في شيء

(١) توجد مثل هذه الرابطة في أمم كثيرة ، ولعل المقصود هنا الرابطة التي بالولايات المتحدة . وهذه الروابط هدفها اشتراكي ، وهي أشبه باتحادات العمال . وفي الولايات المتحدة هيئة أخرى تعمل بأغراض اتحادات العمال لرجال العلم .

وإذا فقوموا فاشتغلوا في شيء أنفع ؟ » .

إن من الواضح أن هذا النقاش في حسن فهم التاريخ ، وفي الموضوع الذي يتخذه العلم البحث في هذه الدنيا الحديثة ، ذلك الذي جرى واستمر يجرى في إنجلترا لأكثر من عشر سنين ، نقاش غير منفصل عن مسائل سياسية واقتصادية متغلغلة في نفوس القوم ظلت هي أيضاً تحتل الصدارة في هذا البلد زماناً طويلاً . وهو نقاش كذلك غير منفصل عن المسألة الأساسية الأخرى ، مسألة حرية المشتغل بالعلم فيما يشتغل فيه . وهي مسألة تؤدي إلى مسألة أخرى ، هي مسألة البحث العلمي ، في الصناعة وعند الحكومة وفي المعاهد والجامعات ، كيف ينظم وينسق .

مراتب العلم والاختراع كيف تغيرت وتبدلت

إن رأي الخالص ، فيما يتعلق بالعلاقة ما بين الفنون العملية وأصول العلم الحديث ، قد أوضحته في باب سابق (صفحة ٨١) ، وهو يتلخص في أن الفلسفة التجريبية ولدت في القرن السابع عشر وأن زماناً طويلاً مضى بعد ذلك قبل أن تستفيد الفنون العملية استفادة ذات بال من التقدم في العلم . وقد رجا العلماء في القرن السابع عشر أن تخرج من مجوهم ، ومن النوع الجديد من فلسفتهم ، منافع عملية عظيمة ، ولكن رجاءهم مع الأسف كان بعيد التحقيق .

ولتقصّر ههنا مؤقتاً على النظر في العلوم الطبيعية وما يخرج عنها من تطبيقات ، ثم لننظر فيما حدث في القرن الثامن عشر ، بعد أن بدأت الثورة

الصناعية ، من أحداث . ونظراً في صناعة الحديد خاصة ، فنجد أن التحسين دخل الأفران العاصفة *Blasting furnaces* (١) ، باستخدام فحم الكوك ، في هذا القرن . أدخله اسميتن *Smeaton* (٢) لإنتاج حديد الصب *Cast iron* (٣) (١٧٦٠) . ونجد اختراع طريقة تحضير الفولاذ بالبوتقة (٤) ، وطريقة كورت *Cort* (٥) لصناعة الحديد المطاوع *wrought iron* (٦) . ونجد إدخال الآلة البخارية التي اخترعها *Watt* إلى مصاهر الحديد (عام بضع وتسعين وسبع عشرة) . ونجد ختاماً أن إنتاج الحديد الصب في عام ١٧٨٦ بلغ في بريطانيا العظمى ١٢٥٠٠٠ طن ، أى ضعف ما كان منذ عشر سنين قبل ذلك التاريخ . وبينما كانت هذه الثورة الصناعية قائمة ، كان العلم هو أيضاً في

-
- (١) هي أفران يساق إليها الهواء تحت ضغط ، وبذلك تعلق حرارتها . وهي تستخدم لصهر المعادن من خاماتها ، لاسيما الحديد .
- (٢) هو جون اسميتن ، مهندس إنجليزي ، ولد عام ١٧٢٤ ومات عام ١٧٩٢ ، وبدأ محامياً ، ثم صار مهندساً ، اشتغل في بناء المنارات البحرية والتقنات وغيرها .
- (٣) هو الحديد المعروف بالحديد الظهر ، ولست أدري من أين جاء هذا الاسم حديثاً ، وهو إلى حديد الصب أقرب . وهو الحديد التي يخرج من الأفران العاصفة ، وهو لقلّة نقائه أسهل صهراً في المسابك .
- (٤) فولاذ البواتق هو فولاذ يصنع من الحديد المطاوع بصهره مع الفحم ليأخذ من كربونه ، ثم هو يذاب من بعد ذلك في بواتق ، ومن هذا الفولاذ تصنع العدد .
- (٥) هنري كورت ، إنجليزي ، ولد عام ١٧٤٠ ومات عام ١٨٠٠ ، وله في صناعة الحديد عدة ابتدعات غاية في الخطورة . وأقلس أخيراً فرتبت له الحكومة معاشاً .
- (٦) هو أثنى أنواع الحديد العادية المستخدمة في الفنون العملية ، وبه من الكربون نحو من نصف في المائة من وزنه . وهو سهل الطرق طبع . ويستخرج من حديد الصب .

تقدم . وكان رجال الصناعة ورجال العلم على اتصال ، ولكن تقدم صناعة الحديد ، وحتى تنشأ الآلة البخارية ، كسبا القليل مما حدث في العلم من تقدم . يجب أن نذكر أن الكيمياء الجديدة التي جاء بها لافوازيه لم يقبلها الناس عامة قبل العقد الأخير من القرن الثامن عشر ، لهذا جرى كل تحسين في صناعة الحديد وصناعة الفولاذ قبل أن يعرف الكيماويون الفروق الكيماوية الأصيلة بين الحديد الصب ، والحديد المطاوع ، والفولاذ (إن الفروق في الخواص الطبيعية بين هذه سببها اختلاف فيما تحويه من كربون) . وكانت الخبرة البحتة هي السائدة في ذلك القرن فلم تتأثر بالعلم إلا قليلا . وكانت الخبرة البحتة ، تلك التي تتمثل في « اكسر وانظر » ، هي كل شيء في الفنون العملية .

إن القرن الثامن عشر قرن ساد فيه نيوتن بما جمع بين الميكانيكا وعلم الفلك ، وخلق منهما صورة كونية جديدة تأثر بها العالم الفكري تأثراً كبيراً . وكانت نظرة الرجال المثقفين إلى العلم تغيرت في المائة من السنين التي سبقت تغيراً كبيراً . ونزاع جاليليو مع الكنيسة عن دوران الأرض حول الشمس ، أصبح هو أم باطل ، قد نسي كل النسيان . وكانت الجمعية الملكية Royal Society والأكاديمية الفرنسية يواصلان نشاطهما منذ أجيال كثيرة . وكانت مجلاتهما العلمية معترفاً لها بأنها سجلات العلم التي يسجل فيها كل جديد من الآراء ، وكل جديد من التجارب . وكانت لهما اجتماعات كانت تقرأ فيها الأبحاث الكثيرة الهامة وتناقش . ومع هذا يجب أن لا ننسى أن عدد الباحثين عند ذاك كان من القلة بحيث

لو نسب إلى عدد من نعلم منهم الآن لم يكن شيئاً . وكان جميعهم ، في جوهرهم ، هواة .

وينتصف القرن التاسع عشر ، وننظر إلى ما يجري فإذا المنظر قد تغير كله . فالعلوم البحتة قد خبطت في عصرها الحديث . والهواة لا زالوا يعملون وينتجون ، ولكن إنتاجهم يتناقص سريعاً . وفرداى Michael Faraday يقوم ببحوث معهد وحده ، تلك « المؤسسة الملكية » بلندن Royal Institution in London (مؤسسة خيرية غربية ، أسسها رمفورد Count Rumford ، ثم حولها السير همفري دافى Sir Humphry Davy إلى معمل للبحث ومنبر للمحاضرات مشهور) . وفي القارة الأوروبية يعمل أساتذة الفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعى والطب يجد في أبحاثهم . وكان أوشك الإصلاح البرلماني أن يضع كلا من جامعة أكسفورد وكمبردج في الموضوع الذى يبدأون فيه حياة جديدة يلعب فيها البحث العلمى دوراً كبيراً . وتنظر إلى رجال العلم العاملين فتجد أعدادهم زادت عما كانت في القرن الأسبق أضعافاً . وتهايم العلم لأن يحتل مكانه في الحقل الأكاديمي فلا ينتهى الربع الثالث من هذا القرن حتى يكون احتله واستقر في بريطانيا العظمى ، وفي القارة الأوروبية ، وفي الولايات المتحدة سواء بسواء .

ولكن أهم من هذا كله دخول العلم إلى الصناعات الكيماوية ، وتأسيس الصناعات الكهربائية على أساس من الكشوف العلمية . ومهد هذا التطور الصناعى في ألمانيا إلى دخول طائفة كبيرة من حملة الدكتوراه Ph.D. إلى حظائر الصناعة ، دخلوها في عام ١٨٨٠ فما بعده .

وبدأ العلم أن يكون مهنة يكتسب منها الرزق . وما جاء ختام القرن التاسع عشر حتى كان الهواة ، لا المحترفون ، هم النادرون بين الرجال النابهين في العلم . وصار البحث العلمي ، في الجامعات ، وإلى درجة ما في الصناعة ، مهنة معترفاً بها . والعلم التطبيقي ، في الدوائر المدنية ، والدوائر الميكانيكية ، وفي الهندسة الكهربائية ، أخذ ينتعش فيضم إليه من رجال العلم الكثير فالأكثر .

في القرن الثامن عشر كان المخترع الناجح مزيجاً من رجل أعمال جرىء ، ومن رجل يحسن الابتداع بالقطرة ويحسن التجريب معتمداً فيه أكثر اعتماداً على الخبرة (كان من حسن حظ Watt أن وجد شريكاً من رجال الأعمال هو بلطن Boulton ، لولاه ما كان لوط نجاح) . وكذلك كان الرجال الذي شيّدوا الصناعات الكهربائية التي نشأت بغتة في الربع الثاني والثالث من القرن التاسع عشر ، إلى حد كبير . ولكن هنا يختلف الأمر قليلاً ، بأن علم الكهرباء أعطى هؤلاء الرجال على الأقل شيئاً يبدأون به ، فيجربون وينجحون . يتضح هذا من قراءة تاريخ حياة سيمنز Siemens^(١) (وهو الرجل الشهير في الهندسة الكهربائية شهرته في صناعة الفولاذ) . وهي حياة ممتعة القراءة حقاً ، وهي وسط بين حياتين

(١) هو السير وليم سيمنز ، ولد في هانوفر بألمانيا عام ١٨٢٣ ، ولكنه استقر في إنجلترا ، لما وجد بها من حماية لمخترعاته . وله اختراعات كثيرة . وهو صاحب القرن المشهور لصناعة الفولاذ . وقام هو وإخوته باقامة مصنع كبير في إنجلترا لصناعة الكبلات . وهم الذين قاموا بوصول أوربا بأمریکا بالكبل البحري الأول في عام ١٨٧٤ . وأعطى له لقب سير عام ١٨٨٢ ، ومات عام ١٨٨٣ .

متعارضتين ، حياة وط Watt من جانب ، وحياة من أنشأوا للراديو
صناعته الحديثة ، من الجانب الآخر .

واتضح أن تطبيق العلم في الصناعة سيحدث فيها انقلاباً ، وكذلك في
حياة الناس . ومع هذا لم يستبشر العلماء بذلك ، أولئك الذين قاموا على
العلم يزيدونه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . إن الجليل الذي
سبق هؤلاء ، من رجال كليبج Liebig ، وهو الذي أدخل الكشوف
الكياوية في الزراعة ، وحتى فرداي Faraday ، لم يكونوا يجدون السوء
في الدخول إلى حظيرة العلم التطبيقي . وهم دخلوا إلى العلم التطبيقي وخرجوا
منه ، وما وجدوا فيما صنعوا شيئاً غريباً . ولكن غير ذلك كان الحال في
هذا الجليل ، في بعض طوائف من العلماء ، أخذوا يترفعون عن الصناعة ،
ويحافظون على أكاديميتهم أن تنزل إلى هذا . واختلقت نظرهم إلى العلم
البحث ، ونظرتهم إلى العلم التطبيقي ، وتعارضت النظرتان . فالعلم البحث
كان عندهم شيئاً صعباً مجهداً ، ولكن فيه نبل . والعلم التطبيقي كان عندهم
شيئاً سهلاً ميسراً ، ولكنه محط مندل . واختصاراً نظر العلماء الباحثون نظرة
احتقار إلى المخترعين . وكثيراً ما رد المخترعون التحية بأحسن منها . ضحكوا
من الرياضيين وبحاث المعامل النظريين بأنهم لا يفقهون من الحياة ، وهي
عملية ، شيئاً .

وأضرب مثلاً ممتعاً لهذه الكبرياء ظهر في افتتاح خطاب مكسويل
James Clerk Maxwell ، ألقاه عن التليفون ، في جامعة كمبرج ،
عام ١٨٧٨ . فهذا أستاذ شهير بالذي أداه إلى العلم البحث من إنتاج نبيل

وهذا ما قاله عن « بل » Alexander Graham Bell^(١) مخترع التلغون ، ذلك الاختراع الذى انقلب به العالم انقلاباً عظيماً . قال مكسويل :

« منذ سنتين جاءتنا الأخبار عبر المحيط الأطلنطى بأن طريقة ابتدعت تنقل الصوت الآدى ، بواسطة الكهرباء ، حتى لَيْسْمَع على بعد مئات من الأميال . والذين منا سمعوا الخبر ، وكان لديهم من الأسباب ما يدعو إلى تصديقه ، أخذوا يُعملون خيالهم ليرسموا لأنفسهم صوراً طريفة من أداة جديدة تظهر فيها مهارة الابتداع فائقة رائعة . أداة تعلقو فى مهارة إبداعها على ما ابتدع السير ولیم طمس من مسجل سيفونى Syphon recorder ،^(٢) وتعلقو عليه فى دقته وفى تعقده ، وتعلقو عليه بمقدار ما يعلو هو على الجرس العادى ، تشده ، فيدق . فلما رأينا هذه الأداة الصغيرة أخيراً ، وجدناها من حيث التأليف تتألف من أجزاء ليس من بينها

(١) هو إسكندر جراهام بل ، ولد فى أذنبه عام ١٨٤٧ ، وتعلم بها وفى ألمانيا . واستوطن كندا عام ١٨٧٠ . ثم ذهب إلى الولايات المتحدة عام ١٨٧٢ . وكان أستاذ الفسيولوجيا الصوتية فى جامعة بسطن . وهو مخترع التلغون والفونوغراف . مات عام ١٩٢٢ .

(٢) السير ولیم طمس هو اللورد كلفن . أما المسجل سيفونى فأداة كاتبة تسجل الإشارات الكهربائية التى ترسل عبر البحار والمحيطات فيما استقر فى قاعها من كبيلات . وهذه الإشارات تاتى ضعيفة . ولذلك كان لا بد أن تكون أداة استقبالها حساسة . وقد استخدم الجلفانومتر ذو المرأة ليبدل على الإشارة الكهربائية . ولكنه لا يكتب . فالمسجل سيفونى جلفانومتر مركب من مرآته قلم يكتب على شريط مستمر الجريان . وهو يكتب خطأً مستقيماً على الشريط إذا لم تكن هناك إشارة . فإذا حدثت ارتفع عن الخط أو انخفض عنه . وهذا القلم يستق الجبر بالسيفون .

ما لا نعرف وما لا نألف ، ووجدناها من حيث التركيب قميئة بأن يركبها أى رجل هاو . عند ذلك خاب أملنا أكبر خيبة . وخاب لمظهرها الوضع خيبة لم يخفف من أثرها بعض تخفيف سوى أننا وجدناها تتحدث حقاً .
وقال مكسويل بعد ذلك فى نفس هذه المحاضرة :

« إن الأستاذ جراهام بل ، مخترع التليفون ، ليس بالكهربائى الذى اكتشف كيف يجعل من صفيحة خرساء صفيحة تتكلم ، ولكنه متكلم ، صار ، فى سبيل نيل أهدافه الخاصة ، كهربائياً » .

لقد كان من خصائص المخترع ، فى عهد الاختراع العلمى الأول ، من عام ١٨٢٥ إلى عام ١٩٢٥ مثلاً ، أن يقوم هو بنفسه بعمله وحده ، فلا شريك ولا معين . فى عنبر أو حجرة بسقف بيت ، ومنضدة صغيرة ، تضاف إلى خيال بديع ، وعقل قوى ، وصبر طويل ، كانت كل ما يحتاجه المخترع فى ذلك العهد . وغير هذا الحال هذه الأيام . لقد استبدل المخترع الواحد المتوحد ، بمعمل للبحث العلمى التطبيقى ، أعنى مجموعة من الرجال المدربين تدريباً عالياً فى العلم ، وفى التكنولوجيا . نتج هذا عن امتزاج العلم فى تقدمه ، بالتكنولوجيا فى تقدمها ، دفع بالمخترع المتفرد أن يخرج عن تفرده فيطلب الشركة بغيره من المخترعين لهم كفايات غير كفايته ، ومعرفة غير معرفته . واحتاجوا فى شركتهم إلى الأدوات وإلى الأجهزة ، فنشأ من هذه الحاجة وسائل أكبر تمتد الاختراعات ، ومن هم فى سبيلها ، بالمال . وأنت ، فى أى صورة عبرت عما حدث ، فلن تجد وصفاً لما بين هاتين الظاهرتين الاجتماعيتين من علائق خيراً من أن تقول إنها علائق ما بين السيارات الحديثة والطرق الطيبة ، هذه استدعت تلك ،

وتلك استدعت هذه ، وكلاهما أعان في إيجاد ما نحن فيه اليوم من حسن حال .

إن هذه الزرارية التي استشففناها من محاضرة مكسويل ، بمخترع التليفون « بل » ، لا نزال نوجد إلى اليوم أمثالا لها في الدوائر الأكاديمية ، ولكنها قليلة . ولكن على العموم نستطيع أن نقول إن العداء الذي كان بين العالم البحث والعالم التطبيقي (المخترع في صورته الحديثة) قد ذهب ، ذهب به أسلوب جديد يسلكه اليوم المخترعون إلى اختراعاتهم . ولا يأسف اليوم على ذهابه أحد ، إلا طائفة قليلة ، تأسف ولا تُسمع ، وما أسفها إلا عن خوف أن يذهب هذا المزج بين الجانبين من العلم آخر الأمر بكل تقدم يرجى في العلم نفسه ، العلم البحث أصلا . ولا يكاد أحد يخلص القول أن ينكر صحة هذا الخوف . وللاقاة هذا الخطر لا بد من الدعاية الدائمة المثمرة بين الناس لتناصر البحث العلمي في جميع صورته .

العلم والصناعة : الموقف الحالي

قبل أن نغرى السواد من الناس بمناصرة البحث العلمي البحث ، يجب علينا أن ننظر قبل ذلك في موضع العلم الحاضر من الصناعة . إن الرجل العلمي الذي يميل بطبعه إلى البحث أثبت قدرته ، وأثبت لإثماره ، والذي قام به في الصناعتين ، الصناعة الهندسية والصناعة الكيماوية ، في أواخر القرن التاسع عشر . ورسمت له طرائق العمل ، وأطرزته ، في ألمانيا وفي البلاد التي كانت تدخل عند ذلك في مجالها الثقافي . أما في

الولايات المتحدة فلم يظهر البحث العلمى فى معونة الصناعة ، لم يظهر شيئاً منسقاً يضاف إلى الشركات الصناعية محتفظاً بذاتيته ، إلا قبيل الحرب العالمية الأولى وفى أثناءها . ومن ذلك الزمن اتسع اتساعاً هائلاً عجبياً ، وعجبياً كذلك فى أعقابه . فعدد الذين كانوا يعملون فى البحث الصناعى كانوا عند ختام الحرب العالمية الأولى ١٠٠٠٠ فزاد حتى صار ٥٠٠٠٠ عند بدء الحرب العالمية الثانية ، ثم زاد إلى أكثر من ١٣٠٠٠٠ فى عام ١٩٤٩ . وبلغ ما أنفق فى هذه البلاد ، فى البحث ، وفى نقل البحث إلى الإنتاج ، ما أنفقته الصناعة ، مضافاً إلى ما أنفقته فى ذلك الحكومة والجامعات ومعاهد البحوث ، نحواً من ١٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ريبالا فى عام ١٩٣٠ ، و ٣٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ فى عام ١٩٤٠ ، ونصف بليون دولار ٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ فى عام ١٩٤٨ . إن ضخامة هذه الأرقام تدل على مقدار ما حدث من انقلاب قام به نفر قليل من الرجال فى جيل واحد . وكان من نتيجة ذلك أن اختفى المخترع الواحد المتفرد ، كما اختفى من قبله العالم الهاوى . انقرضا كما انقرض الجاموس الأمريكى من أرض أمريكا أو كاد .

إن الأرقام الإحصائية التى تتصل بمناشط البحوث فى أمريكا قد يكون فيها بعض التضليل ، ذلك لأن نفقات البحث العلمى ونفقات تصنيعه تجمع فى العادة معاً . وهذا بمثابة ضم العلم والاختراع وهندسة الحديد فى الصناعات فى القرن التاسع عشر تحت عنوان واحد . إننا اليوم نجد من الأسهل أن نفرق بين (أ) البحوث العلمية البحتة أو الأساسية (ب) البحوث التطبيقية (ج) التنشئة الهندسية engineering development

(٤) الهندسة الإنتاجية production engineering (٥) الخدمة الهندسية service engineering (أنا في هذا أتبع مصطلحات مكلورن W.R. Maclaurin كما أوردها في كتابه الممتع النافع المسمى الاختراع والتجديد في صناعة الراديو Invention & Innovation in the Radio Industry). ونحن نضع تحت العنوان الأول ، البحوث الأساسية ، كل المناشط التي وصفناها إلى الآن بالعلمية ، ونلخصها بأنها لإيجاد صور ذهنية جديدة وتحسين الصور القديمة (وتقليل الخبرة الفطرية في الساحات العلمية) ، وكذلك استخدام الأداة الجديدة وطرائق العمل الجديدة في الكشف والبحث. ونحن نعني بالبحوث التطبيقية ذلك الجانب من العلم الذي يهدف إلى الانتفاع بالقائم من الصور الذهنية العلمية ، والمشاريع التصورية ، والفروض والنظريات في حل المسائل العملية ، والبحث عن منافع جديدة لكل كشف تجريبي جديد، وكذلك تحصيل المعارف الذي تنطوي على حقائق للإفادة العاجلة منها . أما أعمال التنشئة فتتضمن الخطوات الأولى لتحويل الآراء إلى أعمال صناعية . والحد بين التنشئة الهندسية والهندسة الإنتاجية غير واضح المعالم . ولكن ، على العموم ، يقصد بالتنشئة الهندسية إقامة النماذج المصنعية pilot plants ويقصد بالهندسة الإنتاجية التحسين فيما هو قائم فعلا في المصانع . أما الخدمة الهندسية فالقائمون بها وثيقو الصلة بأقسام البيع ، وإذا فبالمستهلك . ولعل مما يوضح العلاقات بين العوامل المختلفة التي تجتمع لتحسين الأساليب الإنتاجية في الصناعة أن ندخل بالحديث إلى ما كان يجري والحرب العالمية قائمة من أمثال هذه الأمور . والحرب العالمية لعب البحث

العلمى فيها دوراً عظيماً . واتصلت مناشطه بالجيش وبالبحرية وبمكتب البحث العلمى والتنشئة . والذى جرى أنه كان يخرج من كل هيئة تضع البحث أو تنتفع به ، آراء ، وتدخل إليها آراء ، تجرى فى طرقات معبدة سهلة ، يأذن المرور فيها بالذهاب والحيئة ، بدون إبطاء أو تعويق . فكانت تخرج المقترحات من المعامل بمشروعات ، فتذهب إلى أقسام هندسة التنشئة لترى رأيها فيها ، فإن أقرتها ، ناولتها إلى الصانع . وهذا يقوم عليها بالإنتاج التجريبي . وتخرج من عند هذا ، بعد الامتحان والفحص ، لتوضع فى يد المستهلك ، وهو فى هذه الحالة الجندى المحارب . ويأخذها هذا ويستعملها ، ويقترح المقترحات لتعديلها وتحسينها . وتأتى منه مقترحات عن أسلحة جديدة أخرى ، وأدوات أخرى ، ومواد ومهمات أخرى . وقد أضيف هنا ، على الهامش ، أنه لم يكن سهلاً فوات كل هذه المعلومات والاقتراحات من الجندى المحارب من كل هذه المسالك لتصل أخيراً إلى رجال البحث فى المعامل ، ورجال التنشئة .

ولم تكن الحاجة ماسة إلى سهولة انتقال المعلومات والاقتراحات بين هذه الهيئات فحسب ، بل قد كان من الضرورى كذلك أن تتخذ القرارات الحاسمة فى مواضع كثيرة من هذا الطريق . ولقى أصحاب هذه القرارات عناء كبيراً عند اتخاذها بسبب السرعة الواجبة اللازمة التى حتمتها معارك الحرب القائمة . وأعطيت الأسبقية للقوات المحاربة فى كل ما تحتاجه فنشأ عن هذا حذف خطوات كان لا بد من خطوها فى سبيل الدقة فى عهود السلام والحرب غير قائمة . وبدلاً من جمع المعلومات لينتقى منها المنتقى خير ما فيها ، عمد القائمون بالأمر إلى تجربة جملة من أشياء دفعة

واحدة ، لعل أن يكون من بينها المراد . ومن أمثلة ذلك ما حدث في إنتاج القنبلة الذرية . ففي أول الأمر ، والبحوث لا تزال قائمة في المعامل ، كان عند القائمين عدة احتمالات لإنتاج الوقود الذري . وكما يرى القارئ واضحاً من تقرير سميث Smyth^(١) ، كان هناك حتى عند بلوغ البحث مرحلة التنشئة عدة من احتمالات تتبّع . وودّ المحافظون من أهل الإنتاج أن يزيدوا في أعمال التنشئة بحثاً وفحصاً ليضيّقوا مجال هذه الاحتمالات الواسعة المتعددة قبل أن تقام المصانع للإنتاج . ولكن الذي حدث ، كما يعلم الناس اليوم ، أنه لم يستطع أولو الأمر على ذلك صبراً ، لم يستطيعوا الصبر ليختاروا أحسن الطرق وأرشدتها ، فأمروا فاتخذ الإنتاج سبيله كاملاً على أكثر من طريقة وأكثر من جبهة .

إن الزمن في الحرب عامل من أكبر العوامل . ولهذا فرضت في الحرب ، من أجل الحرب ، فروض خاصة على كل الناس . ومن الناس الذين يعملون في العلم وفي تطبيق العلم . لهذا يجب على الناظر أن يحذر عند ما يستنتج النتائج مما وقع في الحرب من نجاح ومن إخفاق ، فالقياس لحالة السلم ، من حالة الحرب ، لا يستقيم دائماً . ومع هذا فالذي ينظر فيما كان قبل الحرب ، وفي أحوالنا الحاضرة فيما بعد الحرب ، يجد ما وصفنا من سلسلة من العلاقات ، تتبدئ في المعمل ، وتنتهي عنده المستهلك ، لا يزال قائماً .

(١) هو التقرير الشهير الذي كتبه ه . د . سميث في عام ١٩٤٥ ، وعنوانه « الطاقة الذرية في الأغراض الحربية » وهو تقرير رسمي من تقارير الولايات المتحدة عن المدة ما بين ١٩٤٠ و ١٩٤٥ .

إن من أكبر صعوبات التنظيم مسألة الاتصال بين الهيئات ،
والمواصلات ، لنقل المعلومات . والإدارات الصناعية كثيراً ما تجابه هذه
الصعوبات فتعاني الكثير في تيسير الطريق حتى تنتقل الحقائق وضرور
المعارف بين حلقات هذه السلسلة الواحدة المتصلة . ويحاول علماء البحث
ومهندسو التنشئة والتنمية أن يجمعوا أكثر ما يستطيعون من ذلك ليجد
الزعماء طريقهم لرسم سياستهم ، ولكن هذا الجمع يجرى في العادة بطيئاً .
لهذا كثيراً ما يكون الزعماء رأيهم ويرسمون خططهم على قواعد من
التكنولوجية غير كافية .

إني أحسب ، بناء على لمحات نلتها مما يجري داخل الأسوار من
صنوف من الأبحاث والتنمية مختلفة ، أن الرجل لا بد أن يرتبك ويحار
فلا يستطيع حكماً إذا هو جوبه بمسائل معقدة كهذه . مثال ذلك اقتراح
فنى للغاية فى تفصيله ، يُعرض ، ويرتب بناء على قبوله أو رفضه نتائج
غاية فى الخطورة . والحكم فيه مقامرة . وهى مقامرة بينى المرء فيها اختياره
على احتمال ما فيها من نجاح (وهذا أمر فى جوهره فنى) ، وعلى أعقاب
تأتى بعد نجاح فيها أو خيبة . فالمسألة إذاً تتعلق بخطوط السياسة الكبرى .
ولا بد من أن يتحملها رجال يحملون التبعات الكبيرة العامة ، أعنى مجالس
تنفيذية يستطيع رجالها من حيث يجلسون أن يدركوا علائق ما بين الأمور
وعواقب ما يتخذون من قرار . والمقترح الذى يقرونه قد يكون جاء من
هيئة لها مكانها فى السلسلة التى تبدأ بالعمل وتنتهى بالمستهلك . وهو قد
يكون اقتراح بيرنامج بحث ، أو اقتراح لتنشئة مشروع ، أو بتصميم
مصنع جديد أو إقامته ، أو بتعديل إجراء قائم متبع . فمن يحكم فى هذا ؟

وكيف تقدر العوامل الفنية فيه ؟

الجواب عن هذا أنه في المنظمات الصناعية الكبيرة ، حيث الأعمال تجري هيئة سهلة ، وحيث تقع كل هذه السلسلة من المناشط تحت إدارة مسؤولة واحدة ، نجد أن الذى يتخذ القرارات فى كل هذه الأمور الخطيرة رجال نشأوا مع هذه المنظمة الصناعية أو تلك فصاروا كأنهم بعض أجزائها . ومهما كان سابق تعليم هؤلاء الرجال ، فهم نشأوا وتعودوا كيف يزنون ما يأتهم به رجال البحث ورجال التنشئة والتنمية من آراء . والرجل الناجح من رجال مجالس التنفيذ هذه يكاد بحكم طبعه ، الذى اكتسبه بالمران ، أن يتجنب المزالق الذى انزلق فيها كثير من غير المحجرين والحرب قائمة ، لا سيما أولئك الذين ادعوا من الخبرة ما ليس لهم . والرجل الناجح من رجال التنفيذ يدخل فى اعتباره ، بحكم الطبع والمران ، وهو لا يدرى ، ما قد يكون من ميل وهوى عند من يتقدمون له من رجال البحث بأمر ، فهو يعلم أن العلماء ، على غير ما يعتقد السواد ، لا يفكرون دائماً فى برود الحكيم ، وأن لهم عواطف وأن لهم أهواء . وهو يعلم أن صاحب الفكرة ومبتدعها ، له كبرياء المبتدع ، فهو لا يريد أن يُجرح فيها . والرجل الذى ليس عالماً ، إن كان عاقلاً ، وازن بين ما يسمع من أدلة ، من شهود قضية ، ليستطيع أن يتجنب ما قد يكون عند الشهود من زيغ . وأخيراً ، أود أن أقول إن رجال أعمال كهؤلاء الذين تجمعهم مجالس التنفيذ فى المنظمات الصناعية لهم فهم للعلم وتطبيقه (على الأقل من الصنف الذى يتصل بواجباتهم) يجعلهم يدركون ضرورة تقدير ما فى مقترح جديد من جودة ، وما فى علم تضمنه من خبرة عامة وما فيه من تجريب .

والجدة قد تنتج من أن تصورات علمية في حقل من العلم خاص قد تشكلت شكلاً جديداً ، وهي قد تنتج من حقائق علمية جديدة ، وجدت في حقل من العلم بعيد ، ومع هذا لها مساس بالقائم في المصنع من أعمال . والجدة قد تكون بإدخال مادة جديدة (أشابة معدنية alloy أو لينة plastic أو أشباه هذه) أو مكنة جديدة machine أو أداة ابتدعت في مكان غير هذا المكان . وعلى كل حال قد يحسن عضو المجلس التنفيذى أن يسأل : ولم لم يعمل هذا الشيء قبل ذلك ؟ ومن الأجوبة التي هي قيمة بفقدان الثقة في قائلها « أن أحداً لم يفكر في هذا من قبل » . وهو جواب مع قمانته بفقدان الثقة ليس دائماً يلقي رفضاً . إن أحسن جواب في رأي هو « أن هذه أول مرة نتمبه فيها إلى هذا العمل أو هذا المقترح » ، أو « كانت الحقيقة التجريبية ، التي بنينا عليها هذا الرأي ، إلى الشهر الماضي ، غير معروفة . بل كانت غير متوقعة » .

وهذا العمل ، أو هذا المقترح ، هو على العموم ، أحد شيئين . فهو إما شيء فيه الخبرة الفطرية كبيرة المقدار ، ولكن الفائدة منه كبيرة ، وإذا فهو الاقتراح الأزل القديم يهدف إلى تحسين فن من الفنون العملية . أو هو شيء فيه الخبرة الفطرية صغيرة المقدار ، ونريد أن نزيدها صغراً ، وإذا فهذا وجه من وجوه النشاط الثوري الجديد الذي بدأ من ٣٥٠ عاماً والذي نسميه علماً . أن هذه النظرة إلى البحث الحديث لها في اعتقادي شيء من الفائدة لدى هؤلاء الرجال الذين عليهم تقع تبعة قبول مشروع للبحث أو رفضه . ذلك أننا ، على العموم ، كلما فهمنا الأسس العلمية لشيء ، كلما زاد احتمال نجاحه وقل احتمال إخفاقه . واختصاراً ،

كلما قلت درجة الخبرة الفطرية فيه ، درجة الاختبارية ، كلما زاد قدراً .
ولأضرب مثلاً لما ترتب على اختلاف في مقدار الخبرة الفطرية
بمسألتين علميتين هامتين قامتا في الحرب العالمية الماضية ، وكيف
صنع هذا الاختلاف بهذه ، ثم بهذه . كان على وشحنجن أثناء الحرب
أن تقضى في أمرين خطيرين جاءا في برامج التنشئة والإنتاج . وقضت
في الأول بالإيجاب . وكان يختص بإنفاق نفقات هائلة لإنتاج الوقود
النووي nuclear للقتال الذرية . وقضت به ولم يكن جرى من بحثه إلا
تجارب أجريت في معامل لم يستخدم فيها من مقادير المواد التي
استخدمت إلا مقادير غاية في الصغر ، هي ما دون ما يرى بالعين
المجردة ، بل ما دون ما تراه المكروسكوب . وقضت في الأمر الثاني بالنفي ،
وكان خاصاً بالنسليين . وكان البنسليين يستحضر بالطريقة البيولوجية
المعروفة ، طريقة تحضير العفن ، ثم منه يستحضر البنسليين . فقام اقتراح
بتحضيره صناعياً بعد تخليقه Synthesis (١) ، وأن تنفق الأموال في
سبيل تخليقه وتصنيعه . وطريقة كهذه لا شك لو نجحت لانتجت

(١) كل مركب يتألف من عناصر ، ولكل عنصر من المركب عدد معين من الذرات
وذرات العناصر مترابطة فيما بينها على نظام خاص ، وكل ذرة تشغل في الفراغ من المركب
موضعاً خاصاً . فهي أشبه بالبيت كل شيء فيه ذو موضع وشكل معلوم . وهذا المركب قد
تصنعه الطبيعة من عناصره ، أو من مركبات أصغر ، وإذا يكون كل مجهود الإنسان هو في
استخلاصه من موطنه نقياً . ولكن الإنسان ، بعد أن يعرف بناء المركب كما يعرف تصميم
البيت ، يمكن أن يبنيه ، إما من عناصره الأولى ، أو من مركبات أبسط . وهذا هو الذي
يسمى التخليق . والكياوى يخلق في المعمل مركبات خلقها الطبيعة ، ويخلق ما لم تعرفه
الطبيعة أبداً .

البنسلين وفيراً سهلاً . ومع هذا رفض الاقتراح . رفض في الوقت الذي ظهر فيه أن الكيماويين أوشكوا على كشف تركيبه وكشف بنائه وكيف ترتبط الذرات في جزيئه ، ولم يكن من بعد هذا الكشف إلى تصنيع البنسلين إلا خطوة .

وكان الحكمان صحيحين ، من قبول ومن رفض . فقد دلت الحوادث من بعد ذلك على أن المقامرة بالنفقة على إنتاج الوقود النووي للقنبلة الذرية كانت في موضعها . أما المقامرة على تخليق البنسلين وتصنيعه فكانت في غير موضع . كانت خاطئة قاتلة . إننا إلى اليوم لم نجد سبيلنا إلى صناعة البنسلين تخليقاً .

فما السبب الأساسي في قبول هذا ، ورفض هذا ، وصحة الرفض والقبول؟

السبب أن العالم الفزيائي النووي كان في استطاعته أن يتنبأ عن ثقة ، وصدقت نبوءاته ، لأن التفاعل ما بين النيوترونات والنواة سبق أن صيغ في عبارة هي مشروع تصوري كاف . فدرجة الخبرة التي في هذا الحقل العلمي صارت من بعد المشروع التصوري قليلة ، على الرغم من حداثة . أما مقدار الخبرة التي في الكيمياء العضوية التخيلية فكانت على النقيض كبيرة ، أكبر مما تأذن عند الكثير بالمقامرة على نجاح تخليق مركب معقد كالبنسلين ثم تصنيعه في مدة اقتضت الحرب أن تكون قصيرة .

إني موقن أن هذا التعبير « بدرجة الخبرة » أو إن شئت « فالدرجة الخبرية » أو « الدرجة الاختبارية » degree of empiricism لم يرد قط ، في أي وقت ، عند البحث في أمر البنسلين أو أمر الوقود النووي ،

فهذا التعبير تعبيرى ، وهو اختراعى . وأعنى به ، كما سبق أن قلت درجة الخبرة الفطرية البادئة الجارية فى الناس . ومع هذا فأنا أميل إلى الظن بأن التفكير الذى أدى إلى الرفض فى حالة ، والقبول فى حالة ، إنما جرى على مثل هذه التفرقة بين ما فى شىء من خبرة وفطرة ، وما فى شىء من تصور ذهنى بناؤه التجريب العلمى . وعلى كل حال قد بررت النتائج وجهة نظرى ، تلك أن كل تقدم يراد فى الفنون العملية لا بد أن يحكم له بالنجاح أو الفشل بمقدار ما فى العلوم التى يستند عليها هذا التقدم من خبرة فطرية أو تجريب علمى .

مسائل فى التنظيم

من الجلى الواضح أنه من الضرورى لسهولة العمل وحسن إنتاجه أن توضع حلقات السلسلة التى تبدأ بمعامل البحث فى صناعة ، وتنتهى بالمستهلك فى الشارع ، تحت رقابة واحدة ، وبهذا يتجنب الإنسان مصاعب كبرى ، تتعلق بالاتصال والمخابرات وبالبيت فى الأمور ، مضى ذكرها . ولكن المسألة ليست من السهولة بأن يكتفى فيها بالقول أن السلسلة يجب أن توضع تحت رقابة واحدة . فبالدخول فى التفاصيل لا يلبث الداخل أن يصطدم بعقبات كالاختكار ، وكلوائح الحكومات وملكيته . إن الإنسان يستطيع أن يتصور ، لأسباب خاصة لا تتعلق بالفن ، أن يكون من الضرورى وجود احتكار فى حقول خاص (احتكار شخصى يتضمن الرقابة والتمويل ، أو احتكار حكومى) . وعندئذ تكون علاقة ما

بين البحث العلمي ، وتنشئته ، ثم ما يقوم على البحث العلمي من صناعة علاقة داخلية بحتة . ولكن احتكار كهذا يصعب فيه جداً تحريك القائمين بالبحث أو بالتنشئة وحفزهم إلى العمل بنوع من التنافس الفني يقوم بينهم . إن التنافس الفني جوهرى لازم فى البحث العلمى ، من بحث وتطبيق ، لينفخ فيه الروح ، وينفخها قوية ، لزومه فى أى منشط آخر من المناشط الإنسانية .

أما إذا نظمت الصناعة بحيث كان بها جملة من هيئات مستقلة تنتج ، فقد لا تستطيع الهيئة الواحدة منها نفقة معمل للبحوث ، أو نفقة فرقة تقوم بما تقتضيه البحوث من تنشئة وتنمية وتصنيع . ولهذا المشكلة حلان : أولهما أن تقوم الحكومة عن هذه الهيئات بالبحث وأعمال التنشئة ، وثانيهما أن يقام للبحث والتنشئة معهد أو معاهد للأبحاث خاصة ، يشترك فيها عدد كبير من المتنافسين على أساس تعاوى . والنقد الذى يوجه إلى هذين الحلين اللذين بهما تتمول البحوث أن السلسلة لا تقع كلها تحت رقابة واحدة ، وأن الاتصال وتبادل الخبرات يصعب فى هذه الحالات جداً ، ثم فيما يُفتقد عادة الرجل ذو السلطة الذى لا بد أن يقضى قضاءه فى أخطر الأمور عندما يجىء حينها . وصعوبة أخرى ، إن نظاماً كهذا ليس فيه حافز للباحثين على البحث ، وذلك بانتفاء كل منافسة علمية أو فنية . من أجل هذا ، إذا اقتصر الإنسان على النظر إلى العوامل الفنية وحدها ، لم يجد خيراً من أن يقترح ، فى تلك الصناعات الواحدة الصغيرة المتفتتة ، أن يجمع شمل بعضها إلى بعض ، وأن تُسلم أشاتها حتى لا يكون منها فى النهاية غير وحدات ست أو عشر تقوم بينها المنافسة الواجبة فى الحياة .

والواقع أنى علمت أن هذا كان المسلك الذى سلكه التاريخ فى بعض الصناعات ، فجمع منها المتفرق ، ولأم المتفتت ، لأسباب من بعضها ما ذكرت . إن من صالح الأمم أن يكون عندها ، فى حقل صناعى معين ، هيئتان كبيرتان قويتان ، تقوم بينهما منافسة قوية ، كل منها سيد فى نطاقه ، يتحكم وحده فى سلسلة الإنتاج من بدأ دخولها إلى معمل البحث إلى ساعة خروجها إلى المستهلك فى الطريق .

الطب والصحة العامة : طيف من العلوم الطبية

إن هذا القرن لم يتميز فقط بثورة علمية وقعت فى الصناعة ، ولكنه تميز كذلك بثورة علمية وقعت فى فن الإنسان القديم ، فن العلاج . وعلى العموم يستطيع الإنسان أن يقول إن دخول العلم إلى الطب أحدث من دخول العلم إلى الصناعة . وخطر ما صنع «بستور» فى هذا الأمر خطر كبير لا داعى إلى إعادة ذكره . إن هذا الكيماوى الفرنسى عند ما دخل إلى العلوم البيولوجية اشتبك بفروع من العلم خرجت منها نتائج عملية لم تبعد يوماً عن أفكار الناس (صفحة ٣٠١) . وحياة هذا الرجل حياة تقوم مثلاً للحياة المنتجة أفخم الإنتاج . وقدم إنتاجها العلم فى ناحيته البحثية والتطبيقية . إن العالم البيولوجى ، سواء كان همه فى الزراعة أو كان همه فى الطب (وكان بستور همه فى الاثنين معاً) ، استطاع أن يتنقل فى المائة من السنين الأخيرة على الأقل ، تنقلاً سهلاً ، من النطاق البحث إلى النطاق التطبيقى ، ومن التطبيقى إلى البحث . تنقل على كل حال أيسر مما

استطاع أن ينتقل الفزيائى أو الكيماوى . وهذا الفرق يُعزى بعضه إلى اختلاف فى علاقة المجتمع المدنى بالزراعة ، وبالطب ، وبالصناعة . إن الحكومات كانت دائماً أميل إلى معونة الزراعيين (ومنهم من يربون دودة القز ، وزارعو العنب لصناعة الأنبذة)^(١) بإسداء النصائح الفنية إليهم ، منهم إلى معونة الصناعيين . إن الحكومات تعين المخترع بتسجيل اختراعه وحمايته لعدة سنين . وأنت إن بحثت عن مقابل هذا عند الزارع لوجدته فيما تشرف عليه الحكومات من بحوث تعطى نتائجها للزارع جميعاً لينتفعوا بها .

كتب دافى Davy رسالته فى الكيمياء الزراعية فى أوائل القرن التاسع عشر . فلو أننا اتخذنا هذه الرسالة مبدأ لوجدنا الجهود تبذل من بعدها ، فى إنجلترا ، وفى القارة الأوروبية ، وفى الولايات المتحدة ، للانتفاع بالكيمياء فى الزراعة ، وتبذل متصلة . ولفقت آفة البطاطس Potato blight ، والمجاعة التى سببتها فى إرلندة^(٢) ، لفقت الأنظار إلى علم الأمراض النباتية ، وعلم الأحياء الميكرووى Microbiology ، الذى تقدم هكذا سريعاً فى يدى بستور وغيره من السابقين السابقين ، ولم يلبث أن جاء الزراعة بخير كثير . وفى هذا القرن الحاضر طُبِّق علم الوراثة فكانت له نتائج تتكاثر كل يوم وتطيب . ويجب أن نذكر أنه فى ختام

(١) يشير المؤلف بهذا إلى ما شغل به بستور نفسه فى أول حياته ، فقد هرع إليه أصحاب هاتين الصناعيتين يطلبون عونه ، فالود أصابه المرض ، والنيذ ، وهو من عنب ، أصابه الفساد .

(٢) هذه حادثة تاريخية وقعت فى إرلندة عام ١٨٤٦ ، فقد أصيب البطاطس بها إصابة كادت أن تكون كاملة فحدثت مجاعة مذكورة لا تنسى .

القرن التاسع عشر كانت المحطات التجريبية الزراعية التي أنفقت عليها الولايات والحكومة الفدرالية بالولايات المتحدة . كانت أخذت تدخل إلى تربية الحيوانات وإلى طرائق استخدام الأرض ، فتوثق ثمارها طيبة في هاتين الناحيتين .

وكانت الكشوف العلمية والصور الذهنية التي استجدت في علم الأحياء الميكروبي أكبر خطراً للجراح والطبيب منها لزراع المحاصيل ومنتج الطعام . ولكن لم يتبين الناس أن أعمال الكيمياء الحيوية والفسيولوجية أخذت تتحول إلى العلم الطبي وتغيره تغييراً كبيراً إلا في القرن العشرين . واليوم لا يستطيع أحد أن يتصور أن مستشفى يكون بلا معمل . إن العلوم الطبية صنعت الأعاجيب في ربع القرن هذا الأخير . وفيه تعاون الكيمياء ، والكيمياء الحيوية ، والفسيولوجي ، والبكتريولوجي ، وعملوا جميعاً متعاونين والطبيب الأكلينيكي . وقلت درجة الخبرة الفطرية في علاج الأمراض ، عاماً بعد عام . ومع هذا فكثير من العقاقير ، وكثير من طرائق العمل ، ابتدعت بالخبرة ، بالسليقة ، لا بناء على طرق علمية مرسومة منظمة ، تدعمها من ورأها نظريات . والواقع أن الخبرة الفطرية في علم الأقرباذين ، على الرغم من تسميتها الحديثة بعلم العلاج الكيمياء Chemotherapy ، لا تزال كبيرة المقدار ، ولو أنه في هذا العلم ، في العشر السنين الأخيرة ، ظهرت تصورات ذهنية علمية جديدة ، وأجريت تجارب رائعة تبشر بأن سوف يكون في هذا العلم انقلاب بديع .

إن السلسلة التي ذكرناها في البحوث الصناعية ، تلك التي تبدأ بالمعمل ، وتنتهي بالمستهلك ، لها نظيرتها في الطب ، سلسلة تبدأ بالكيمياء

والباحث الحيوى ، وتنتهى بالطبيب المعالج . وأحب أن أنتقل من تشبيهها بالسلسلة إلى تشبيهها بالطيف الضوئى (١) . وأسميها بطيف العلوم البيولوجية . وفى طرف من هذا الطيف أضع الباحث العلمى الذى لا همّ له إلا زيادة المعرفة العلمية لذاتها . وفى الطرف الآخر من هذا الطيف أضع الطبيب والجراح وكل رجل همه شفاء المريض ، وكذلك رجال الصحة الذين همهم منع المرض أن ينتشر فى الناس . إن مقابل معمل البحوث التطبيقية الذى فى المصنع ، نجد فى المدارس الطبية ومعاهد البحوث حيث يبحث الكيماوى الحيوى ، وعالم الأقرباذين والفسىولوجى والبكتريولوجى ، ويبحثون معاً . ومقابل الفرقة الهندسية فى المصانع نجد القائمين بالبحوث العلاجية الأكلينيكية . وهنا ، كما فى الصناعة ، يصعب على الإنسان أن يرسم خطأً فاصلاً بين هذه المناشط فصلاً كاملاً . بل على التقيص هذا الفصل غير مرغوب فيه ، إنما المرغوب أن يعمل الجميع فى تعاون وثيق ، فى أى موضع كان مكانهم من الطيف .

(١) الطيف الضوئى يتألف من موجات ضوئية تتدرج فى صورها الظاهرة للعين من الأحمر إلى البرتقالى إلى الأصفر إلى الأخضر إلى الأزرق إلى النيل إلى البنفسجى . وهى موجات لا حصر لها تتزايد تدرجاً . والتدرج هذا هو الذى قصده المؤلف من تشبيهه .

الباحث وفق برنامج ، والباحث الطليق

إن التشبيه الذى جمعت به بين الصناعة والطب قد لا يرضاه طلبة الطب ، فهم يؤكدون أن عملهم فى الطب ليس إلا بحثاً علمياً بحتاً ، لا يقل فى صنفته هذه عن عمل يقوم به زملاؤهم الفزيائيون والكيميائيون فى معاملهم . حتى الأطباء المعالجون كثيراً ما يتشبثون بأن مايقومون به من بحث إنما هو بحث بحت . ولست أجد وقتاً يضيع أضيع من وقت ننفقه فى جدل غير مثمر لنبيين ما يدخل فى نطاق البحث وما يدخل فى نطاق التطبيق ، من أعمال تقوم فى الحقل الطبى ، أو أعمال تقوم فى الكثير من المصانع . إنى فى محاولة إيضاح علاقة ما بين هذين الجانبين من العلم ابتدعت فكرة السلسلة وفكرة الطيف . أما السلسلة فبدأتها من المعمل بالمصنع وختمتها عند المستهلك . وأما الطيف فبالبحث الطبى البحت ثم البحث التطبيقى . ومن السهل جداً فى الطب التعرف على الرجل الذى يبذل جهوده لغاية عملية قريبة ، كاصطناع دواء أو معالجة مريض . ومن السهل كذلك ، بل مما لا يقبل الجدل القول ، بأن عالم الفزياء النظرى ، الذى يولد النظريات فيما يختص بالزمان أو الفراغ ، أو الذى يدرس كيف يكون التجاذب والتنافر بين الأجسام ، رجل لا غرض له إلا تقدم العلم . وبين هذين الطرفين المتباعدين ، الطبيب المعالج ، والفزيائى النظرى ، فى غضون تلك السلسلة ، أو غضون ذلك الطيف ، يستطيع كل فرد أن يلبى بحجته فيما يعمل ، فيطلب معونة المجتمع بسبب ما ينتج من نتائج

عملية نافعة ، أو ، وهو في مزاج آخر ، بسبب ما ينتج من حقائق تتصل بالعمل البحت أكبر اتصال .

إن الذى جرى فى الجيلين أو الثلاثة الماضية أن الرجل الواحد عمل بالذى قدم العلم ، بصرف النظر عن تطبيقاته ، ومع هذا فهو فى نفس الوقت أعان ، بعمل آخر قام به ، فى تقديم فن من الفنون العملية . والمثل التاريخى لذلك ، فى البيولوجيا ، بستور . وفى الفيزياء قد نذكر اللورد كلفن Kelvin مثلاً . وإذا نحن اعتبرنا قدرة الرجل العبقري على الإحاطة بنطاق علمه كله ، من بحث وتطبيقى ، لم تعد بنا حاجة إلى أن نقوم إلى معمله ، فى زمن معين ، فنكتب عليه أكان هذا المعمل ، فى هذا الوقت ، للعلم البحت أو العلم التطبيقى . كذلك المعمل فى الصناعات فى هذا العصر الحديث قد يجمع بين الصنفين . وكذلك معمل فى مدرسة طب أو معهد . والذى يهتم المستهلك من كل هذا هى وحدة السلسلة واتصالها ، والنشاط القائم عند كل حلقة من حلقاتها . والذى يهتم المريض من كل هذا هو اتصال الطيف الذى عليه يبنى شفاؤه وتطبيب صحته .

إنى أخشى أن أكون ملأت هذا الباب بالتعاريف اعتباراً ، ومع هذا أود أن أزيد معنى آخر يتصل بالبحث العلمى ، وهو معنى فى رأى خطير لأنه يتصل بالمعونات التى تعطىها الصناعة إلى العلم ، ويعطىها الخبيرون وتعطىها الحكومات . إن العالم الهاوى الذى كان منذ قرن مضى ، والباحث الذى كان يعمل وحده ، كانا فيما يختارانه من بحث كالريح انطلاقاً . كانا يختاران اليوم أو غداً من البحث ما يشاءان ، يركزان عليه

فكرهما ويصرفان فيه مجهودهما . حتى المعهد الأول للبحث ، المعهد الملكي Royal Institute ، وكان يعمل فيه رجل فرد واحد ، من العباقرة . لم يكن له برنامج . وأراد فرداي Faraday أن يُرضى القائلين على شئون هذا المعهد فأعطى محاضرات للجمهور عامة كانت في غاية الروعة ، وأرضاهم برفع سمعة المعهد بالبحث ، تلك السمعة التي كان أسسها من قبله سلفه ، السير همفري دافي Davy . والحق أن حياة فرداي مثل رائع للرجل الباحث الذي لم يقيده شيء . الباحث الطليق كما أود أن أسميه ، وهو تنقل بين الكيمياء والفيزياء ، وتنقل بين مختلف فروع هذا العلم الأخير . كذلك بستور كان باحثاً طليقاً عند ما بدأ ، ولكنه لما شاع ذكره ، وأسسوا معهداً موتوه وجهازه له خاصة ، أخذ رويداً رويداً يتقيد بتطبيق العلم لغاية خاصة ، تلك تحسين أجسام بنى الإنسان . وحمله المجتمع ، وهو لا يكاد يدري ، على إغلاق الباب بينه وبين بحوث كان بدأها في الكيمياء شاباً تتعلق بالنشاط الضوئي لبعض المركبات العضوية . إن الرجل ، وإن المعمل الذي يتعهد بدراسة مساحة محدودة من حقل علمي ، مهما كان الهدف من هذه الدراسة ، كلاهما قد ربط نفسه وقيده حريته وارتبط ببرنامج . برنامج يتحدد واسعاً ، أو يتحدد ضيقاً ، ترسم حدوده منحة من مال ، أو عقد وإمضاء ، أو حتى بالشيوع والذيع ، جاء هذا عن أغراض أعلنت ، أو بمكتشفات سوابق مجيدة ، للباحث أو للمعهد ، وقعت ، وعنه عرفت . أن مناشط البحث ، في ميدان العلم بالبحث أو ميدان الاختراع ، قد اتسمت في هذا القرن العشرين بسمعة البرامج ، تربطها وتقيدها . والباحث الطليق كاد أن يكون كالعنقاء لا وجود له ،

وقوته التي كانت تحس في تقديم الفنون العملية قد اختلفت في أكثر من حقل .

وصار اليوم واجباً على كل شركة صناعية ، وكل مستشفى أو معهد بحث ، وكل رئيس لقسم في مدرسة طب ، صار واجباً عليهم أن يرسموا من عام لعام خطة للبحث ، على أي سعة أو أي ضيق يكون ، وكم يكون فيه من العلم البحث . أن « ميس » G.E.K. Mees ^(١) يفرق في المعامل الصناعية بين المعامل ذات الهدف الواحد والمعامل ذات الأهداف المتعددة . ولكن حتى في هذا النوع الثاني لا تستطيع هيئة صناعية إلا أن تفرض على رجاله شيئاً من التحديد . إن قليلاً من الصناعات تستطيع أن تبرر مجهوداً تبذله في تقديم العلم في نواح بعيدة عن أهدافها هي الصناعية ، إلا أن تهدف عمداً بأن ترفه عن علمائها بشيء من البحث الكمال الممتع من العلم . كذلك أستاذ الكيمياء الحيوية بمدرسة طبية لا يستطيع أن يتبع هواه إلى بحث في العناصر النادرة يصرف فيه كل مجهوده لسنوات ، إذاً لنظر له زملاؤه الأساتذة نظراً شزراً بحسبان أنه تركهم يجدفون بالسفينة وحدهم . ومع هذا فمن الجائز جداً أن يقع هذا الكيماوي الحيوي في بحثه العادي على دليل يقوده ، لو اتبعه ، إلى غير حقله الذي يعمل فيه . فهكذا انكشفت كثير من الكشوف الهامة في العهود الماضية (صفحة ١٦١) ، انكشفت كشف مصادفة غير مقصودة . إن العالم الباحث الهاوي كان من الحرية بحيث لم يكن له حد يحده ، ولو بعيد ، وهو الذي

(١) هو الدكتور كنت ميس ، وكيل رئيس شركة كوداك ، بالولايات المتحدة ، وهو المشرف على بحثها .

بيديه وضع أساس هذا العلم الحديث .

إن الذى يستعرض تاريخ العلم ، ويدخل فى استعراضه العلم الحديث الحاضر ، لا يكاد أن يتردد فى القول بأن الخير فى أن لا يتقيد الباحث فى بحثه كل التقيد، وأن هذا القيد كلما خف كلما صلح بذلك العلم ، على شرط أن يكون الباحث موهوباً بآدم النشاط . ذلك لأن من واجبات الأمم الحرة اليوم أن تستمر فى تقديم العلم . فإذا نحن سلمنا بالذى أقول ، لكان من النافع أن نبحث عن العوامل التى دفعت بالبحوث إلى أن تكون ذات برنامج تخضع لها . وأول هذه العوامل المال . إن التجريب الحديث فى الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء على النفقة . ولن تجد إلا النادر من الرجال الذين يستطيعون وحدهم أن ينتجوا أنتجة فى العلم قيمة بأجهزة عتيقة أو أجهزة مما يقترضون . إن كل الذين يعملون فى العلم اليوم يقررون أن البحث العلمى لا بد له اليوم من ميزانية كبيرة ، تسد نفقات أجهزته من ثابتة ومستهلكة ، ولا بد له من الفرق من الرجال تقوم بأعبائه . وقد صار اليوم أمراً عادياً أن نجد رئيس فرقة نشيط له ميزانية للبحث تبلغ عشرة أضعاف مرتبه . إن الفرقة فيها تركيز كبير للمجهودات الفنية للرجال الكفاة . هذا إذا ما اعتبرنا الرجال . أما إذا نحن اعتبرنا ما تحتاجه الفرقة من مال ، فإننا لا نعدم أبداً من يسأل : « ولكن ، قل لى بالله عليك ، من يدفع هذا المال ؟ » ويحىء من يدفع المال ، أو من عليه تبعه دفعه ، فيسأل فى دوره « وفى أى شىء ، ولأى شىء تنفقون هذا المال ؟ » . وبناء على هذا وجب على كل معمل ، حتى المعامل التى ليس لها أهداف عملية ، أن ترسم لها برنامجاً تقدمه وهى تطلب لنفسها المال . ويعطى المال مقروناً بهدف للعمل (٢٩)

معين . وبقبوله يصبح الباحث مقيداً . وبحثه يصبح بحثاً ذا برنامج .
والعامل الثانى الذى يزيد فى البحوث المقيدة ذات البرامج أن الرجل
الباحث يدخل إلى الأبحاث وهمه فى البحث منها ، فلا يلبث أن يعجبه
ويستهويه الجانب العملى منها . يقع هذا فى الكيمياء وفى الفيزياء ،
ومخرجهما العملى إلى الصناعة . ويقع هذا أكثر ما يقع فى العلوم الطبية
والبيولوجية . والإغراء دائماً قائم بأن يتزحزح العالم عن طرف الطيف
البحث إلى طرفه التطبيقى . وأسباب الإغراء كثيرة . منها ما هو مالى .
فالباحث يجد أن مستوى معيشته يرتفع إذا هو تحول إلى المسائل التطبيقية ،
إما بانتقاله إلى معمل صناعى ، أو بأن يعمل مستشاراً له أجر لاستشارته
كبير . ومن هذه الأسباب ما يكون مالياً ، ولكن غير شخصى . إن
ميزانية البحوث التطبيقية للبرامج العملية فى العادة أكبر من الميزانيات التى
تخصص لتقديم العلم . ومن الأسباب ما يتصل بالسمعة بين الجمهور ،
وأثر عمل العامل فى رأى العام . أن العلماء الذين لا يطلبون جزاء أبداً عن
مجهودهم قلّ عددهم من زمن حتى لا يكاد يعد منهم اليوم إلا القليل (إن
النزاع حول الأسبقية إلى الكشوف مثل يثبت ما أقول) . والواقع ما المدافع
الذى يدفع رجلا ، فى منتصف القرن العشرين ، فى الولايات المتحدة
مثلا ، إلى أن يبذل عمره كله فى البحث العلمى فى مناطق أبعد ما تكون
عن الحياة الحارية وعمما يجرى فيها من أعمال ؟ ومن من الناس يبالى ، نجح
مثل هذا الرجل فى مجهوده أو أخفق ؟ إلا أن يأتى كاتب أو صحفى يكتب
للجماهير فينفخ فيما صنع هذا الرجل نفخاً يُفرّعه هو من بعد ذلك إذا قرأه .
ورجل الشارع قلما يذكر أن الرجال الذين يبذلون أعمارهم لتقديم

العلم ، دون نظر إلى هدف عملي ، إنما يقامرون أكبر مقامرة . ذلك أن نجاحهم أو فشلهم يتوقف على ما يتبدعون من صور ذهنية في العلم جديدة ، أو على ما يوسعون به مشروعاً تصورياً قائماً ، أو على ما يكشفون في تجاربهم عنه من حقائق تثمر ، لا منافع مادية ، ولكن منافع ذهنية علمية . ولهذا الغرض الأسمى ، الغرض الذي يهدف إلى تقليل الخبرة البدائية في محصول معارفنا ، يُدعى كل الناس . يُدعى كل رجل دخل العلم مهنة ، ولكن لن يختار منهم للوصول إلى هذا الهدف إلا القليل . لا يختار إلا أولئك الذين قضوا سنوات كثيرة في هذا الصنف من الأعمال . أولئك الذين يدركون أى المخاطرات يختارون ، ويدركون وقع ما اختاروا على ما بهم من أحاسيس ، وما بهم من عواطف . لا عجب إذاً إن رأينا هجرة العلماء قائمة في العشر السنوات الماضية متصلة ، من طرف الطيف إلى طرفه الآخر ، حيث الحظوظ أكثر وأكبر ، في الحقول العملية ، وحيث الجزاء يأتي عاجلاً في صور من التقدير مختلفة .

ونحن يجب أن نعرف بأن هذه الهجرة ، في بعض الأحوال ، نافعة ذات خطر في المجتمع . إن المجتمع في حاجة إلى رجال من الطراز الأول على طول « السلسلة » الصناعية ، وعلى طول « الطيف » في العلوم الطبية . وتزويد المجتمع بهؤلاء الرجال لا بد أن يأتي بهجرة رجال العلم البحث ما دام أن متخرج الكليات العلمية ، بحكم دراسته ونشأته ، يبدأ حياته العلمية في النطاق البحث . ولكن إذا صح ما أقوله ، وصح أن التاريخ يعزني فيه ، وهو أن الثورات التي حدثت في العلم ، والفكر الأولى التي تنبتت وازدهرت فكان منها العلم الحديث ، إنما جاء بها رجال بحاث

طليقون غير مقيدين ، إذاً فالحالة الحاضرة ، من حيث انصراف العلماء عن الحقول البهتة إلى الحقول التطبيقية ، تحمل أخطاراً للمستقبل كبرى ، لمستقبل العلم في الولايات المتحدة . إن من السهل القول أن الرجل العالم ، حتى إذا قام يبحث في النطاق التطبيقي ، فهو ، إذا بدرت له بادرة في أثناء بحثه تتصل بالنطاق البحث فهو لا شك تتبعها حتى يقضى منها وطراً . ولكن هذا قول يناقضه ما صنع ذلك الكيماوى القدير ، ذو الضمير ، رئيس مصلحة حكومية ، فهو لما عثر على طرف الخيط الذى لو اتبعه لأوصله إلى كشف الغازات النادرة ، أبى عليه ضميره أن يتابعه (١) . وفاته بذلك أن يكون مكتشف هذه الغازات . وهو شرح لنا لِمَ فاته هذا الاكتشاف (صفحة ١٧٨) . « إن الفرص تأتي العقول المهينة للقائها » ، ولكن لا يتبع هذه الفرص من العقول إلا تلك التى هياها المجتمع بصنوف من التنشئة الاجتماعية معقدة ، حتى صارت تحتل أعقاب أكبر مقامرة بالجرى وراء أثر علمى لا يؤدى بمقتفيه إلى شىء سوى معرفة نظرية لا تفيد إلا ذوى العقول من العلماء .

الدور الذى تلعبه الجامعات

بالطبع لا بد أن نعترف فى غير تردد أن هناك رجالا كثيرين ، يعملون فى فرق للبحث ويحسنون ، ولكن ليس لهم صفات الكُشاف

(١) يشير إلى الكيماوى الأمريكى ، هيلبراند ، وما وقع منه ، على ما حدثنا به

السابقين . كذلك يوجد بحاث في العلم طليقين ، لا يتقيدون ببرنامج ، لم يؤدوا للعلم شيئاً جديداً سوى مجموعة من حقائق تضاف إلى خزائن العلم . فهؤلاء كانوا أكثر إنتاجاً ، وأفعال إنتاجاً ، لو أنهم انضموا إلى فرقة وعملوا وفق برنامج أحسن رسمه وتخطيطه . ولكن ، إن كان العلم منذ خمسين عاماً أعمالاً فردية بالغة الفردية ، لا يجمعها نظام ، فكان العلم بذلك أقرب إلى الفوضى ، فالخطر الذي يصيب العلم اليوم يأتي من نقيض ذلك . حقاً إن من المعامل الصناعية ما قد يأذن لرجل بحت أن يعمل فيه . رجل يستطيع بعلمه النظرى أن يخرج عن الطريق المعبود إذا لمح صيدا سميناً عن يمينه أو يساره فيصيد ويقتنص . وكذلك قد يأذن بذلك معهد البحث المرتبط ببرامج من النوع العريض الغايات نوعاً ما . ولكن موضع الباحث الطليق الحق إنما يكون في الجامعات . وبما أن صناعتي قد تجعلني متهماً في قولي هذا ، فأنا أسوق شهادة رجل ، مدير ناجح في البحوث الصناعية ، هو الدكتور ميس Dr. C.E.K. Mees ، نائب الرئيس لشركة كوداك ايسمان Kodak Eastman Company ، وهو القائم على بحوث هذه الشركة . قال في كتابه « تنظيم البحوث العلمية الصناعية » The Organisation of Industrial Scientific Research ، وهو يتحدث عن الإنتاج العلمي :

« إن المؤسسة التي يعتمد عليها كل شىء آخر ، هي مجموعة الأقسام العلمية في الجامعات . وهي تختلف عن سائر المؤسسات بأنها لا تتقيد ، ولا يجوز أن تتقيد ، بشىء يأتيها من خارجها ، وبأن لها الحرية المطلقة في اختيار مواضيع بحوثها . إن من الجامعات تخرج أكثر الأفكار الجديدة

التي بها يتقدم العلم . ذلك لأن سائر المؤسسات غيرها ، بها شيء من قيد ، وسيكون دائماً عليها بعض الحجر أن لا تعمل في حقل غير حقلها المخصص لها .

وأزيد إيضاحاً لهذا القول المختصر عن دور تقوم به الجامعات فأقول إن التقاليد الطويلة أعطت لأستاذ الجامعة حرية كاملة من حيث مناقشته العلمية . وهو لا يلبث أن يستقر في منصب بالجامعة دائم حتى يصبح عضواً دائماً في جماعة علمية هدفها في الحياة التعليم وزيادة العلم . ويصبح واجبه الرسمي التعليم ، وواجبه الأدبي البحث العلمي ما استطاع إليه سبيلاً . ومعنى هذا أنه إذا دخل من بحثه إلى مأزق لم يدر كيف يخرج منه ، وإذا هو بقي في هذا المأزق قابلاً عاماً ، أو عشرة أعوام ، أو حياته كلها ، فهذا شأنه هو لا يحدثه فيه أحد . إن أقرانه ، أولئك الذين نالوا مناصب دائمة مثله ، فصاروا أعضاء في هذه الجماعة طول العمر كما صار ، سياسيون لا شك لعقمه ، ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا في ذلك شيئاً . وبما أن واجبه مزدوج ، فهو تعليم وبحث ، أحدهما مفروض والآخر أدبي ، فهو قد يجد مخرجاً إلى الهناءة ، وتعويضاً عما افتقد في البحث ، في التعليم . بهذا عوض كثير من الأساتذة الذين لم يفلحوا في البحث (أو ساء حظهم فيه) . وهذا الوضع هو من بعض الأسباب التي مكنت للجامعات أن تكون هي المواضيع الوحيدة الباقية التي يقصدها طالب البحث العلمي البحث فيجد فيها رزقاً طيباً ، بالتعليم أو بالبحث أو بكليهما .

إن هذا الذي قلته يصدق على كل عضو ثابت من أعضاء هيئة

التدريس ، ولكن قد تنشأ ظروف تقضى بالتضييق على هؤلاء الباحثين في مجتهم . يظهر هذا عند ما يقتضى البحث أجهزة غالية الثمن ومساعدتين في البحث كثيرين . أعنى عند ما يقتضى البحث الكثير من المال . وهذا المال لا يعطى ، سواء أعطته الجامعة ، أو أعطته الحكومة أو غير الحكومة على صورة منح وإعانات ، إلا إذا ارتبط إعطاؤه ببرنامج يرسمه الأستاذ ويقدمه . وهو إذ يقبل المال مرتبطاً بهذا البرنامج يصبح مقيداً بنظ السير الذى رسم ، مفروضاً عليه تقديم الحساب عن النتائج . وهذا الفرض ، وهذا القيد ، ليس حتماً أن يكون ضاراً ، ولكنها فروض وقيد على أية حال ، تحدت من حرية الباحث . وهما قد لا يميلان به إلى ناحية التطبيق ، ولكنهما كثيراً ما يفعلان ، وأستطيع أن أضرب الأمثال لتوكيد هذا . نعم إن الفلكيين يظهر أنهم فى سنين مضت استطاعوا أن يجروا أبحاثاً ، يحنون لها الباحث ، ويأتون لها بالعالى من الأجهزة ، واستطاعوا مع هذا أن لا ينحرفوا عن خططهم فى البحث انحرافاً ذا بال . ولكن يجب فى هذه الحالة أن نذكر أن الفلكى لا يستطيع أن يتحول إلى بحث تطبيقى . إن فى الفلك لا يوجد البحث التطبيقى .

مما سبق ينتج أنه لا بد أن يكون فى مناصب الجامعات إغراء . ونوع هذا الإغراء يكون عند العالم القمح فى الفرص التى تهباً له فى الجامعة ليعمل العمل الذى تحبه نفسه ، وأن يعمل فى أى وقت وكل وقت . ولهذا العالم يجب أن تعطى الحرية أكبر الحرية فيما يختط من عمل ، وأن لا يربط إلا أقل ربط بأى برنامج . والمنحة التى تعطى له ، يجب أن تعطى للرجل لا للبحث . ويجب أن يقال دائماً للذى عندهم المال يفرقونه على

الأبحاث لإعانتها : « لا تنظروا عند تقديركم المال إلى برنامج البحث ، ولكن انظروا إلى الرجل المقترح للقيام به . لا تقامروا على الموضوع ولكن قامروا على الرجل . وككل مقامر ناجح لا تقامروا بالقليل . لا تبعدوا مالكم في كل صوب فلا يكون حظ الرجال منه إلا التافه القليل » .

إني أرى أن البندول اليوم في خطر أن يتأرجح إلى الناحية البرنامجية القصوى ، إلى ناحية البحث المنظم الذي يُربط بالبرنامج ربطاً . إن من الناس من يميل إلى البرامج في البحث خشية إفساد الأشخاص من طلاب المنح ، فلهؤلاء أقول إن الحال في العلم كالحال في الصناعة ، لا تستقيم إلا بالمنافسة . وفي الأبحاث البحتة ، كما في الأبحاث التطبيقية ، لا بد من إيجاد مراكز للأبحاث قوية (مدارس طبية ، أو مستشفيات ، أو معامل جامعية ، أو معاهد أو محطات أبحاث) . ففي هذه المراكز سوف تبحث الإدارات الرشيدة عن أحسن البحوث تضعهم في مواضع التبعة ومواقع الزعامة ، وبذلك تحتدم المنافسة ويتميز الرجال . فإذا جاءت المنح إلى هذه المراكز جاءت بطبعها إلى الرجال لا على البرامج . وقد أرى أن الجهات الخيرية آخذة عاماً بعد عام في اتباع هذه السياسة أكثر فأكثر ، على الأقل في العلوم الأساسية من كماوية وفزيائية وبيولوجية . وهم باتباعهم هذه السياسة إنما يتبعون ، واعين أو غير واعين ، أ نموذجاً استقر في ألمانيا في عهدها العلمي الذهبي ، بين عام ١٨٥٠ إلى عام ١٩٣٣ . فهناك كانت المنافسة القائمة بين عشر أو أكثر من الجامعات هي العامل الأول في نقل الأمة الألمانية إلى موضع الزعامة العلمية بين الأمم . ولست أنكر أنه كان هناك وجوه غير مستحبة ، يؤسف لها ، في التعليم العالي في عهد

ألمانيا الإمبراطورية . ولكن من حيث تقدم العرفان ، لم يكن في الأجواء العلمية ، أجواء المعارف والآراء ، جو يضارع ذلك الذى كان في الأمم التى كانت تتكلم اللغة الألمانية في القرن التاسع عشر .

لماذا نطلب للعلم زيادة من مال

إن الجمهور الأمريكى يظهر في عمومه أنه مقتنع بضرورة بذل مقادير من المال عظيمة للبحث ، لفائدة الصناعة والطب وللتجهز للحرب (عن هذا الأخير سوف أتكلم في الباب القادم) . ولكنى أجد عند القارئ على أمر هذا المال يبذلونه للبحث ، سواء من موارد حكومة أو موارد خاصة ، أجد عندهم تردداً عند ما يكون البذل لبحث بحت ، أو أجد خلطاً عندهم بين البحث وغير البحث . ولقد سبق أن أشرت إلى أسباب هذا الخلط . أنها جاءت من خلط العلم بالبحث بالاختراع في الصناعة الحديثة .

إن الأسباب التى تدعو المجتمع الحر أن يعاضد الأبحاث العلمية بالمال كثيرة ومختلفة ، والباحث العلمى نفسه يميل إلى أن يحتج فيقول إن الأمة المتمدنية لا بد أن تناصر رجال العرفان فيها تماماً كما ناصر الأمراء في عهد النهضة الأوربية الفنانين والكتاب . وحجة كهذه تشف عن روح العالم الهاوى ، عالم القرن السابع عشر والثامن عشر ، وهى تقرب أحياناً أقرب اقتراب من القول بحب « الفن للفن ذاته » . وحجة كهذه ،

يلتزمها بعض صنوف من البحوث ، لعلها تعين جوهرياً فيما هم قائمون فيه من أبحاث . ولا أود أن أعارض حجة كهذه إذا ما وضعت موضع الجدل . ولكن المجتمع قد يحتمل الناس الذين يقولون إنهم يعالجون العلم للعلم ، بل قد يمدحونهم ويشيدون بذكورهم ، ولكن عند ما يطلب إلى هذا المجتمع أن يخصص تلك الأموال الكبيرة التي تحتاج إليها بعض البحوث البحتة ، يتحول ، وينظر إلى المسألة نظرة أخرى مختلفة كل الاختلاف .

إن دراسة تاريخ الثلاثمائة من السنين الماضية تعطي المدارس حججاً أقوى لا تلبث أن تلين لها عريكة المواطن الذي لا يكاد يلين لشيء ، ذلك الذي لا يفتأ ينظر إلى المال الذي ينفق بعين حذرة ساهرة . إن سجل التاريخ واضح : إن مجهودات هؤلاء الرجال الذين لم يكن همهم إلا تقديم العلم هي التي جاءت لنا بالأفكار ، وبالكشوف ، وبالأدوات الجديدة التي خلقت لنا هذه الصناعات الجديدة ، وقلبت تلك القديمة رأساً على عقب . أو بلفظ هذا الكتاب الذي جريت على التعبير به ، أقول إن خفض «مقدار الخبرة البدائية» حتى في العلوم البحتة أثمرت أخيراً تلك التكنولوجيا التي فعلت لهذه المدنية ما فعلت . أما عن الكشوف فيمكن فيها أن أذكر بأن الصناعات الكهربائية الحاضرة ما قامت إلا على ظاهرة المغناطيسية الكهربائية ، تلك التي ظهرت أول ما ظهرت في تجارب أجراها العلماء في أوائل القرن التاسع عشر . ولكن أعود فأقول إن الجمهور قد يحار بين كشوف جديدة تكشف في سبيل تقديم العلم ، وبين ما يخترعه المخترعون مما ينفع مباشرة في الحياة . والسبب في هذه الحيرة أن العلم امتزج اليوم بالاختراع ، وقام في الصناعة معمل البحوث التطبيقي ، وإلى

جانبه قسم التنشئة الهندسى ، وقام كلاهما فى الصناعة الحديثة مقام المخترع القديم . ومن أجل هذا إذا أنت طلبت إلى مواطن ما ، أو إلى زمرة من سواد الناس ، مالا للبحث التطبيقي ، فما أسرع ما يستجيبون . أما إذا طلبت مالا للبحث البحت ، فما أسرع ما يسألون : ولماذا نعطي مال الدولة أو مال الخيرين لجماعة من البحوث لا يهتمون أقل اهتمام بإدخال العلم إلى الصناعة ، أو إلى الطب ، أو إلى الزراعة أو إلى الدفاع القومى ؟

وجواب هذا السؤال يجردونه فى التاريخ الحديث لكثير من الصناعات . إن العالم التطبيقي قائم قاعد ينتفع بكل جديد يخرجه العالم البحت الذى لا يعمل إلا لتقديم العلم . وهو لن يمضى عليه وقت طويل حتى يجد أن الصور الذهنية العلمية التى ابتدعها العالم البحت ، تلك التى كان يتمنون بها منه ، قد فرغت ، فيقف حيث هو من بحثه التطبيقي ككلاً لا يعمل . ويظل حائراً حتى يأتيه الممدد ، صوراً ذهنية جديدة ، أو مشاريع تصورية ، أو جهازاً جديداً ، أو أسلوباً من أساليب العمل جديداً . ومن أين يأتيه هذا ؟ يأتيه فى كل تسع مسائل من عشر ، من المعمل الذى وهب كل مجهوده للبحث العلمى البحت . والمهندس الذى ينشئ الفكرة العلمية التطبيقية ، سوف يعود إلى باحثه التطبيقي ، ثم يعود . ولكن يأتي وقت يجد أنه لا فائدة من العودة . لأنه نضب ما عنده . نضب ما عند الباحث من وقود عزيز هو وقود البحث التطبيقي والاختراع — تلك الآراء الجديدة والحديد من أنتجة التجارب .

إن حكاية مكلورن Maclaurin عن نشأة صناعة الراديو تمثل

الدور الذي لعبه العلم والتكنولوجيا معاً في صناعة هي من إنتاج هذا القرن الحاضر. كذلك الأبواب الأولى من كتاب هوارد F.A. Howard عن نشأة الزيت وصناعة المطاط الصناعي تضرب نفس المثل ، ولكن بإحلال الكيمياء محل الفيزياء ، بحسبانها العلم الأساسي الذي لعب في هذه النشأة . والحق أنه لم يكن مصادفة أن أكثر من نالوا جوائز نوبل في الكيمياء كانوا من الألمان ، وأن ألمانيا هي التي سبقت إلى إنتاج زيت البترول المخلّق Synthetic من الفحم ، وإلى إنتاج المطاط المخلّق الصناعي أيضاً إن الكيمياء العضوية ، الجانب النظري منها والجانب التطبيقي ، مشى كلاهما في ألمانيا يداً بيد ، من عام ١٨٦٠ إلى الحرب العالمية الثانية . وإن كان الماضي دليلاً على المستقبل ، وجب على الأمة التي تريد أن تسبق في التكنولوجيا ، أن تسبق في العلم . فهذا جواب حاسم قصير لمن يسأل : لماذا نطلب للعلم زيادة من مال ؟

الباب الثاني عشر

العلم والاختراع والدولة

إن أثر العلم البالغ في الصناعة وفي الطب في هذا القرن كان له نتائج عظيمة ، في الدائرة السياسية . والشىء العلمى أو الصناعى أو الطبى الذى كان أولاً من اختصاص المؤسسات الخاصة قد نال من هم الدولة رويداً رويداً . واليوم صارت الجماهير في الأمم الديمقراطية تعلم ما العلم ، وما الاختراع ، وتهتم لهما ، ويزيد اهتمامها على الأيام . وفي غير الأمم الديمقراطية ، في الأمم الدكتاتورية ، تلك التى تمسك حكوماتها بزمام كل أمر في الدولة ، كان من رؤسائها من فطن إلى ما للبحث العلمى من خطر . والأموال الهائلة الذى أنفقته الحكومة في الولايات المتحدة ، عن طريق وكلائها العدليدين ، في البحوث ، أثناء الحرب العالمية الثانية ، ضربت مثلاً جديراً بأن يغير من صور الأشياء بالموطن الأمريكى . إن الدافع على النفقة أثناء الحرب كان بالطبع تنفيذ البرنامج الحربى (وهو قد تضمن أشياء كثيرة جداً غير إنتاج الأسلحة ، فقد كان البحث الطبى ذا خطر كبير فيما يختص بالقوات المحاربة) . وفي تلك الأيام الحرجة ، منذ عام ١٩٤٥ ، استخدمت الأموال التى تجنى ضرائب من الناس ، لتعين البحث العلمى ، وما يتبعه من تنشئة ومن تصنيع . أنفق منها مقادير تعد طائلة إذا هى قورنت بالذى كان ينفق من أمثالها من قبل حرب . وأكثرها

أنفق في التنشئة الهندسية أو في الهندسة الإنتاجية . ومع هذا فقد أنفقت ملايين كثيرة من الدولارات لإعانة برامج في الأبحاث البحتة والتطبيقية في الجامعات وفي معاهد للبحث مستقلة . وناب عن الحكومة في القيام بهذه النفقة والرقابة عليها هيئات كثيرة يأتي في مقدمتها ثلاث : مؤسسة الدفاع القومي National Defense Establishment (الجيش والبحرية والطيران) ؛ ووكالة الطاقة الذرية Atomic Energy Commission ، وهيئة الصحة العامة Public Health Service . وإلى هؤلاء يجب أن نضيف اليوم المؤسسة العلمية القومية التي تأسست بقرار من الكونجرس الأمريكي في ربيع عام ١٩٥٠ .

إن الحكومات لا يمكنها في العصر الحاضر أن تتغفل فلا يكون لها هم كبير بالعلم وبالذي فيه يطبق العلم . فالحكومة يهملها تشجيع الأبحاث الصحية ، والأبحاث الطبية ، والتجارب الزراعية ، تعينها بشئيت من الطرائق . أما الأبحاث التطبيقية وأعمال التنشئة الهندسية في الحقل الصناعي فإنفاق الحكومة عليها من ضرائب يدفعها المواطن أمر يختلف فيه الرأي كثيراً . وهو يختلف كذلك بين الأمم . فالأمة التي ترمى إلى تأميم أكثر الصناعات بها لها رأي يختلف عن أمة ترى أن تكون الصناعة ملكاً لأفراد الشعب وجماعته . إن الأمة حتى الحرة ، ذات المجتمع الحر ، إذا هي أرادت أن تضع عدداً هاماً من صناعاتها تحت مراقبة الحكومة ، تحت سلطانها ، كما يظهر أنه الحال في بريطانيا العظمى ، فقد أوجبت على حكومتها بمقتضى هذا أن تتدخل في إدارة الأبحاث الصناعية وأعمال التنشئة والتصنيع . وقد يعجب الأمريكي ، وهو يرقب ما يجري عبر

الحيط في بريطانيا ، فيسأل : ما الذي يحل بعد التأميم محل المنافسة التي لا بد أن تكون بين رجال الصناعات والبحوث لتندب فيهم الحياة قوية دفاقة ؟ وأي الدوافع وأي الجوائز سوف تبتدع لتشجيع الاختراع والتجديد في مجتمع سيطرت الاشتراكية على اقتصادياته سيطرة كبرى ؟ إن هذه أسئلة ذات معنى . وهي أسئلة تسوق إلى أسئلة أخرى تتصل بسُلطان الحكومة على البحوث التطبيقية ، وسُلطان وكلائها ، وأخيراً تتصل بعلاقة الصناعة ذاتها بالدولة . إن رأى المركسيين في مستقبل العلاقات بين العلم والمجتمع معروف ، صاغوه في عبارات محددة مشهورة ، وهو رأى يناقض رأى قوم يرون الاقتصاد رجحاً وخسارة .

إنه منذ بدأت الثورة الصناعية كانت المنافسة هي السائدة في العالم الغربي في أكثر الأوقات . وكان عمل الحكومات مقصوراً على حماية الاختراعات الجديدة ، تحميها بالتسجيل ، وإلى عدد من السنين . إن قصة التسجيل هذه ، والذي كان للمسجلات فيها من خطورة ، وكان في نظام التسجيل من صعوبات ، جديرة بأن تكون قصة فنية شيقة ، تضم كثيراً من تواريخ اختراعات هامة . وقد يبدأ كاتبها بمخترع الآلة البخارية الأولى ، وط Watt ، وينتقل من هذه إلى كثير من مخترعات القرن التاسع عشر ، وهو منته في القرن العشرين بالصناعتين الكبيرتين اللتين سبق ذكرهما ، صناعة الراديو وصناعة المطاط الاصطناعي . وهذه القصة ، لو أنها كتبت ، لأظهرت أنه رغماً عما كان في التسجيل من صعوبات ، وما كان فيه من سوء استعمال بسبب طبيعة ذلك النظام ، فالتسجيل كان له أثر بالغ في تنشئة الصناعة الحديثة وتنميتها . أما أن

نظام التسجيل في حاجة إلى الإصلاح فأمر لا يختلف فيه الكثير . ولكن الذى سوف يختلف فيه الكثير هو ما قد يقترح من إصلاح . لقد دلت التجارب على أن الاتفاق على تفاصيل الإصلاح صعب عسير . ولا ينفع في حل المشكل جمع المؤتمرات بسبب ما في الموضوع من عقدة قانونية كثيرة ، وبسبب ضخامة ما لا بد لعضو المؤتمر من معرفته في كل مثل يضرب .

إن تسجيل المخترعات هو في الأصل ، طبعاً ، نوع من الاحتكار الشديد يعطى لصاحب الاختراع لعدة من سنين . وهى حماية لولاها لبقى كثير من الأفكار الصناعية رسوماً على ورق فلم يتم تصنيعها قط . والمال اللازم للتصنيع ما كان في استطاعة أحد أن يجمعه لولا حماية الحكومة . وهى حماية لصاحب الاختراع ، وحماية لبازل المال للتصنيع . وإذا قلنا صاحب الاختراع فما نقصد به فرداً ، فالمخترع الفرد ذهب أيامه ، وحلت محله فرق البحوث ، وهى تتضمن العلماء والمهندسين معاً . فالحماية التى تعطى هى إذاً ، لا لفرد ، ولكن للشركة التى وقع فيها هذا الاختراع . ومنافع هذه الحماية (وكذلك بعض مشاكلها) تتمثل في نمو صناعة الراديو في هذا العصر الحديد ، وفي تنشئة الصناعة الحديدية ، صناعة المطاط الاصطناعى ، وتنميتها . والذى له شغف بأن يعلم فوق هذا من مسائل التسجيل وحمايته ونظمه وإشكالاته ، في منتصف هذا القرن الحاضر ، القرن العشرين ، عليه أن يقرأ ما حدث من ذلك في هاتين الصناعيتين المذكورتين ، وهو قارئه في كتابي مكملون وهوارد ، وقد مر ذكرهما .

والاختراع الذى يسجل ، إذا تم تسجيله ، نُشر له وصف . وقد

نشأ عن هذه الأوصاف المنشورة مجموعات من النشر هائلة . ولكن الكثير من هذا المنشور قليل الفائدة للجمهور . فالوصف المسجل قد لا يتناول إلا التافه من الأمور ، أو يتناول أموراً متروكة مهجورة . أو هو وصف ناقص لا يكفي ، وقد يكون مضللاً عمداً . وهو وصف لا يتناوله الفحص والتمحيص الذى يجرى على المنشور من أبحاث العلوم ، ذلك الفحص وذاك التمحيص اللذان أكسبا المنشور من العلوم ثقة العلماء وتقديرهم واحترامهم . فالذى ينشر من العلوم اليوم له مستو رفيع معلوم ، وهو لا ينشر إلا من بعد مراجعة ، يراجعها إياها الناشرون . ومن وراء ذلك كله حرص المؤلف وحرص الناشر على السواء على سمعة طيبة نالها أو ينالها . وهذه كلها أشياء ، وكلها عوامل لا توجد فى المسجل المنشور . وفى الكيمياء ، على الأقل ، لا تجد كيمائياً يعتمد على شئ فينعتبه بأنه حقيقة لأنه منشور فى وصف اختراع مسجل ، إذا لم يكن له غير هذا سند يسند . ومع هذا ، فهذه المنشورات المسجلة لها قيمتها ، وهى قيمة تزيد فى مجالاتها الثنية عند بعض . وليس رجل يعمل فى المجالات الصناعية يستطيع أن يغفل فلا يتتبع ما ينشر من ذلك فى مجاله الخاص . ولقد تجمع من هذه المنشورات مجاميع فنية للناس ، يرودها ويطلع عليها كل الناس ، زادت وتراكت بالذى ابتدع المبتدعون فى بقاع الأرض (إن التقارير التى تنشرها الشركات عن صناعة جديدة من بعد تسجيل ، ومن بعد تصنيع ، ومن بعد أن يعمل المصنع الحديد وينتج ، تكون فى العادة أكثر تفصيلاً وأكثر من تلك الأوصاف الأولى التى تصحب التسجيل ويقرأها القارئ فلا يكون له منها إلا الحيرة وإلا الخبال) . ولكن من النادر جداً أن شركة تعلن عن

كل التفاصيل التي لا بد منها للإجراء وللإنتاج . وكثير من الصناعات به تقاليد في السرية قائمة . ولكن إذا لم يكن هناك نظام للتسجيل إذاً لاضطرت الشركات إلى اتخاذ وسائل شديدة للسرية المطلقة لحماية مخترعاتها وحماية أبحاثها وطرائقها في تنشئة هذه الأبحاث وتصنيعها . ولا شك في أن السرية لا يمكن أن تتفق والتقدم العلمي ، والتقدم الصناعي اليوم مشتبك أى اشتباك ، معتمد أى اعتماد ، على التقدم العلمي .

إن نظام التسجيل هو الطريقة التاريخية التي لجأت إليها المجتمعات المنظمة لتشجيع المخترعات وتشجيع تصنيعها . فإذا بقي بعد هذا من تبعات تحملها الحكومات لتشجيع البحث العلمي التطبيقي ؟ بقي المشاريع ذات العمر الطويل . مثال ذلك استخدام الطاقة الشمسية ، أو تغويز الفحم تحت الأرض ، أو استخدام الطاقة الذرية في الأغراض الصناعية . فهذه مشاريع قد تعينها الأمم ، حتى تلك الأمم التي اعترمت أن تقف صامدة تمنع الحكومات من أن تمتلك وسائل الإنتاج . ولكن حتى في هذا تختلف الآراء كثيراً عند ما تعرض إلى مقدار الإعانة ، ونوع الرقابة على الأبحاث وعلى ما يعقبها من تنشئة وتصنيع . وهو خلاف لا يمكن أن يجادل المرء فيه باهون الرجوع إلى اعتبارات بعيدة الغور ، بعضها الاقتصادية وبعضها الاجتماعي ، وبعضها السياسي . على أن الحكم الأخير فيما ينفق وكيف ينفق لا يمكن بلوغه إلا بالنظر إلى الأهداف البعيدة المقصودة منها . وهذا يصدق على الأمم كما يصدق على الصناعات . فإذا كنا نعيش في عصر من السلام ، وإنقاص من السلاح ، كانت مسألة الإعانات الحكومية للبحث الصناعي مسألة يحوطها الجدل من كل جانب ، في

الولايات المتحدة . أما ونحن نعيش في هذه السنين الكالحة ، فكل ما يثار في جمل كنهذا خارج عن الموضوع . فالأسبقية الملحة اليوم هي للتسلح الكافي السريع . وما بقيت الدنيا منقسمة هكذا إلى معسكرين ، وجب على المرء أن يحكم على سياسة الحكومات بعد النظر إلى الموقف الدولي وإني لأخشى أن لا يظهر هذا الكتاب إلا وقد قامت حرب عالمية ثالثة . فإن صح هذا فكل الذي سرف أقول لا موضع له . أما إذا صح ما أرجحه ، وهو أن تبقى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في سلام اسمي ، فسنبقى نواجه هذه الضرورة الملحة : أن نبقى العالم الحرّ مسلحاً أثقل تسليح . وحتى إذا نحن بلغنا الهدف الذي عنده نطمئن على الدفاع عن أوروبا الغربية ، فلن تنف النفقة عندنا على التسليح . إنه لا بقاء لنا من استمرار النفقة ، وأن نفقتها هائلة ، وذلك على عتاد للحرب جليدي . إن هذا القرن قرن تحديات فيه ، في التكنولوجيا ، انتقالات هائلة ، وتحديات فيما يتصل بالحرب سريعة ، وكثيراً ما تصبح الأسلحة بين يوم وليلة عتيقة غير كافية . لهذا ، عند ما نبحث في الدور الذي تقوم به الحكومة في العلم وفي الاختراع ، يجب أن نحني الرأس لعواصف هذه الأيام ، ونقلب عادة السلم في الأمة الأمريكية ، ونبدأ نبحث ما تحتاجه الحرب ويحتاجه الدفاع .

العلم والدفاع القومي

دعنا نبدأ بالإشارة لحظة إلى الحرب العالمية الثانية . إننا نستطيع والحرب قائمة أن نتصور سلسلة الإنتاج تجرى من المعمل وتنتهى فى ميدان الحرب . وكل حلقات هذه السلسلة شبيهة بحلقات ذكرناها لسلسلة الإنتاج الصناعى - بحث تطبيقى ، تنشئة هندسية ، هندسة إنتاجية ، خدمة هندسية . وهذه السلسلة الصناعية تنتهى عند المستهلك . أما المستهلك فى الحرب فالجندى الواقف فى الميدان . وفى الوقت الذى أنا أكتب فيه هذا ، تجرى هذه السلسلة لتغذى ميداناً خاصاً ، هو ميدان الحرب بكوريا ، وميادين أخرى محتملة فى غير كوريا ، فى الهواء ، أو على الأرض أو تحت الماء . وإلى هذه الميادين الأخرى المحتملة يرجع كثير من المسائل والمشكلات التى يعالجها المسئولون اليوم بوشنجن ، وعليهم أن ينتهوا فيها إلى قرار .

إن الصناعة تبيع منتجاتها ، ويتصل بيعها ، وهى تتلقى من مشريها ، من مستهلكيها كثيراً من المعلومات ، تعود إليها راجعة عن طريق سلسلتها الإنتاجية . وبناء على هذه المعلومات تعيد الصناعة رأيها فيما تنتج ، وفى كيفية إنتاجه ، وفى هندسته ، وحتى فى هدف البحوث الإنتاجية ذاته . والحكومات ، والحرب قائمة ، تتلقى مثل هذه المعلومات ، تأتينا بها التقارير من جبهات الحرب ، وعلى هذه التقارير تبنى خططها . ولكن عند ما لا تكون الحرب قائمة ، أو هى قائمة على الورق ولا شىء غير الورق ، ويجب

على المسئولين أن يتصوروا ما تصنع أسلحتهم والحرب قائمة ، وكيف تصنع . وهم يجرون على الأسلحة التجارب في الميدان ، ويمتحنونها امتحانات شتى ، وبهذا يعلمون عن أسلحتهم شيئاً . ولكنى لا أحسب أن رجلاً محارباً يستطيع أن ينكر أنه ليس للسلاح « امتحان كامتحان الميدان » .

إنه في الحروب الحديثة ليس هناك ما يسمى ميدياناً أنموذجياً يمكن تصوره ، وليس عتاد العدو بالشىء الثابت . إن الحرب الكورية علمت الناس هنا هذا ، وعلمتهم إياه بقوة غير قليلة . فإذا نحن اضطررنا إلى إرسال جنودنا ليحاربوا في غير كورية في السنين القادمة ، وجب أن نتساءل في أى ظروف سوف يحاربون ، وما سوف تكون عليه الحالة الصناعية عند العدو ؟ وإذا قامت الحرب العالمية الثالثة ، وجب علينا أن نحارب في جبهات من الأرض عادة ، وجب علينا أن نتساءل أين تكون ميادين الحرب ، وما درجة الكفاية التي تكون عليها الأسلحة السوفيتية الحديثة ؟ إن هذه الأسئلة وأمثالها ، وهذه المجهولات الفنية التي نتساءل عنها ، كلها يعتمد المشاكل التي يواجهها المخططون للحرب أكبر تعقيداً ، حتى وهم يخططون في أيام يسودها سلام نسبي . إن الأسلحة التي صنعت فعلاً شىء . والأسلحة التي هي في خط الإنتاج الصناعي شىء ثان . وتلك التي في دور التنشئة الهندسية شىء ثالث . وتلك الأخرى التي لم تفارق رسومها الورق شىء آخر أكثر بعداً . وحتى وراء هذه السلسلة الإنتاجية قد تكون في المعامل ابتكارات جديدة قلابة . فكل هذه عوامل تعكر على المخطط للحرب فكره . ويجب أن لا ننسى أن هناك ، وراء ستار حليدي ،

يوجد عنده وسلاسل مثل سلاسلنا الإنتاجية وخططنا الحربية ، ولا يدري أحد ، حتى فيما يختص بتلك الأسلحة التي هي إلى اليوم رسوم على ورق ، أى الفريقين أغنى سلاحاً وأهدى على الورق رسماً . ولا داعى إلى أن أزيد هذه الفكرة شرحاً . إن فانيشار بوش Vannevar Bush^(١) استعرض ما يحتمل من مستقبل التكنولوجيا التي تؤثر في الأسلحة والأعمال الحربية في كتابه « الأسلحة الحديثة والرجل الحر » (١٩٤٩) Modern Arms and Free man . والذي أنا أعنيه بالحديث الآن إنما هو شؤون التنظيم والإدارة . والأمر هنا ليس أمراً تكنولوجياً ولكنه على الأكثر أمر السياسة على أوسع معانيها . والمسائل المعنية هنا ليست بجديدة ، إنها قديمة قدم الإنسان يوم قام ينظم المجتمع الذى يعيش فيه . وكثير من هذه المسائل الخاصة تناوها الفلاسفة السياسيون في هذا البلد منذ تأسست الجمهورية . فالنظام الذى يأذن بمراقبة الهيئات بعضها بعضاً ، وموازنة القوى بعضها بعضاً ، ذلك الذى سنه من الناس الرجال الذين يخشون السلطة المركزية أن تطغى ، والتقاليد البرلمانية التى اقتبسناها تدرجاً من بريطانيا العظمى ، والحاجات الحديثة التى تحتاجها الدولة الحديثة ، كل هذه تعاونت على خلق شكل من الحكومة الفيدرالية ، من الحكومة الاتحادية يعز وصفها أو تعريفها . وهى تتراعى لبعض من يزورون وشنجطن أنها حكومة مجانيين . ومع هذا فهى تعمل ، لا سيما فى أوقات الأزمات ، على صورة تكذب كل من يتنبأ لها بالسوء من العارفين بأصول الحكم الجديرين بنقده الحكام .

(١) هو رئيس البحوث العامة والتنشئة فى الولايات المتحدة .

ومع هذا ، فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، جددت مسائل وأنواع جديدة من مشاكل ليس في النظام الحاضر ما يتكفل بها ، ولم تُبتدع بعد لها الأداة السياسية التي تتحمل تبعاتها . إن العوائد والتقليد ينقصها المعونة تسديها إلى الرجال الذين يحملون تبعات الحكم ليسيروا دفقة الحكم بحيث تستطيع حكومة الولايات المتحدة أن تبسط سلطانها على سلسلة البحوث التطبيقية وأعمال التنشئة والتصنيع التي تهدف إلى ابتداع الجديد من الأساحة للرجل المحارب في الميدان .

مسائل خاصة بتقدير الأبحاث الموجهة إلى إنتاج السلاح

إن أى إدارة لشركة صناعية حديثة ، طالباة للتقدم ، لها ميزانية كبيرة للبحث وشئون التنشئة والتصنيع ، تجاء نفسها مضطرة بحكم الواجب دائماً إلى أن تتخذ قرارات حيوية تتعلق بالبحث والتنشئة . ورجال هذه الإدارة ، ومن تقع عليهم المسؤولية في الشركة ، لهم أن يسبقوا بعمل دون عمل ، ولهم أن يطلوا عملاً قائماً ، ولهم أن يبدلوا بعمل عملاً ، ولهم أن يهدموا مصنعاً تجريبياً وأن ينشؤا غيره . والشركات الصناعية الكبرى التي من هذا الطراز قد ربّت على الزمن عندها رجالا كفاة يستطيعون أن يتنبأوا بالمستقبل تنبأ عجبياً وأن يتفحصوا بناء على ذلك في أمور المستقبل أفضية ناجحة موفقة . وليس عنده الحكومة الاتحادية اليوم هيئات من رجال يقاربون هؤلاء الرجال قدرة وكفاية . وأخطر من هذا أنه ليس لدى الحكومة تقاليد تصف كيف يمكن تقدير ما يُجمع من المعلومات

التكنولوجية من طول البلاد وعرضها . إن كثيراً من أخطر المسائل التي تتصل بمستقبل قواتنا العسكرية قضى فيها تحت ضغط اجتماعي لا يعرف مثله رجال الإدارة والتنفيذ في مصانعنا . إن القوى السياسية (ولست أعني القوى الحزبية) تعمل في الحكومات الديمقراطية كما تعمل جاذبية الأرض في الناس والأشياء طبعاً وحتماً . من أجل هذا لا يمكن تطبيق الأسلوب الذي تجرى عليه الصناعات ، على الحكومات ، إلا إذا أدخل تغيير كبير على كل وكالات الحكومة في هذه الشؤون . إن البرلمان ، الكونجرس ، يحكم الأموال . والهيئة التنفيذية لها أن تتخذ القرارات المباشرة ، في حدود ما أذن به البرلمان ، وهي قرارات لا تنفذ إلا بعد أن تنتقل هنا وهناك في سلسلة من الأوامر طويلة . وقد تصل الجمهور أثناء ذلك أخبار خاطئة ، تجد طريقها تلصصاً إلى الصحافة ، عمداً أو على غير عمد ، فيثور الجمهور ثورة تمنع أولى الأمر من اختيار الأوفق من الأشياء والأصلح . وكل هذا يحدث طبيعة بحكم أننا نعيش في مجتمع حر . وإذا كان لا بد من حدوث هذا ، وأمثال هذا ، إذاً وجب علينا ، إذا ما أردنا مواجهة ظرف لا بد فيه من نفقة هائلة تنفق على السلاح وعتاد الحرب ، أن نحسن طرقنا التي بها نقدر نتائج البحث والتنشئة لدينا . إننا في حاجة إلى إيجاد تقاليد صالحة تبسط سلطانها على المسائل الفنية التي يتضمنها برنامج التموين والتجهيز العسكري طويل .

إنى لأعني في أي شيء أقوله رجالاً أداروا أو يديرون وكالة الطاقة الذرية Atomic Energy Commission ، ولا رجال مجلس الأبحاث والتنشئة Research & Development Board بمؤسسة الدفاع

Defense Establishment ، من مضى منهم ومن حضروا . فهؤلاء رجال عملوا بإخلاص ، في النطاق الذي ورثوه من الوكالات الفدرالية ومن الحرب ، ونجحوا نجاحاً ما كان يرحوه أحد في هذه الظروف . ولكن ليس ممن تابعوا إنتاج العتاد الحربي إلا التقليل الذي لا يرى أننا نستطيع تحسين الطرق التي بها تقامر المعلومات الفنية الهائلة التي لا بد منها في التخطيط الحربي . وأهم من هذا أنا بحاجة إلى البت الحازم الحاسم في الأمور الفنية ، وأن لا نحاول أن نعمل التقليل الذي فيه تفريط ، أو الكثير الذي فيه إفراط . إن السياسة تعمل في كل خطوة ، والنتيجة محاولات للتوفيق في التمرارات في كل خطوة ، والسير في أوسط الطريق وإرضاء للجانبين المتنازعين ، وذلك في أمور فنية . إن الذين عليهم تبعة التخطيط للمستقبل لا يستطيعون أن ينتفعوا بأكبر الرؤوس إحاطة بعلم ، ولا بأكثر الناس خبرة في فن ، إلا إذا حماهم حام من أن يدخل إليهم بنفوذه من الخارج داخل ، بخبرة يدعيها أو للمأرب يريد قضاءه .

ولست أطلب قلب النظام الحكومي الذي يعالج البحث والتنشئة . إن بعض الجهات قد تكون في حاجة إلى إعادة تنظيم ، ولكن هذا يؤخر الأعمال ، وليس هذا وقت يأذن بتأخير . إنما الذي أودّه تغيير مرفق يقفه السياسيون والموظفون والعسكريون من العلاقة القائمة بين البحث والتنشئة وبين إنتاج السلاح والرجال الذين تقع عليهم التبعات في عدة من مناصب ، بعضها العالي وبعضها الواطئ ، يجب أن تزداد سلطتهم زيادة صادقة ، وأن يُحتموا فلا تأتيهم من الخارج مؤثرات تعمل فيهم . إنه يترامى إلى أنّا في حاجة ماسة إلى إنشاء تقليد يأذن بقيام نوع من

الرقابة شبه القضائية يعرض عليها كل ما يثار في هذه الشؤون من خلافات. فإذا عرضت مسألة من هذه، عرضت على حكم أو أكثر حتى والمسألة في بادئ أمرها، وبينها وبين السلطة التي تقضى نهائياً فيها ثلاث أدوار للرأى لا بد أن تمر بها قبل أن تنفذ ويصغى الحكم أو الحكمان أو الأكثر إلى ما يقول الطرفان المتخاصمان فيها. فإذا لم يكن في المسألة معارضة عيّن خبير فنى ليتحدث نيابة عن دافعى الضرائب في تنفيذ المقترح من بحث علمى أو عمل فى تنشئة أو تنمية أو تصنيع. ثم تكتب الأطراف جميعاً تقارير عما وجدت (لا محضر توفيق فيه تنازل من أجل تقارب). ومن هذه التقارير المتعارضة ، ومما أدلى به من حجج وجرى من مناقشات ، ومن الأسئلة والاستجابات ، ستظهر وجوه المسألة كلها ، وكل هوى وكل ميل يحمله الشهود بين جوانبهم سيظهر للملأ إعلاناً . وعندئذ يكتب الحكم أو المحكمين تقاريرهم ويرسلونها إلى الرجال الذين تقع على عواتقهم تبعة القرارات ، وعندئذ يتخذون قراراتهم واضحة صريحة تدعمها الأسانيد المكتوبة . فإذا رفعت هذه القرارات إلى درجات فى سلم التتميد أرقى ، لم يستطع أحد بعد ذلك أن يلغى أو يعدل هذه القرارات إلا لأسباب جديدة خطيرة . وتظل التقارير محفوظة ، من محبذة وناقضة ، للدلالة على أن كل سبيل إلى حجة قد سلك .

إننا نستطيع أن نقول إن العلم يتنبأ فيتوخى المأقبة فى تبيته ، ولكن ليس كذلك العلم التطبيقي . ففيه يظهر الضعف الإنسانى وقصوره . فالحكم فى الأمور الفنية يتطلب الموازنة بين كل الاحتمالات ، واستبعاد الميول والأهواء . فإذا نحن اتبعنا نظاماً شبه قضائى كالذى اقترحه ، لم نخرج

منه إلا على التقليل من القرارات الضعيفة التي أضعفها التوفيق بين الخصوم .
إن الذي يجري الآن أن يأتي خبير فيرجم بشيء ، فيأتي آخر فيرجم بشيء
آخر ، ونريد أن نحل المعضل بينهما فنأخذ طريقاً وسطاً به إضعاف لكل
من الرأيين المتعارضين .

إني لا بد أن أعتذر عن دخولي في موضوع لا أدري فيه إلا التقليل ،
ذلك اقتراحى بضرورة إدخال نظام شبه قضائى فى برامج الحكومة الفنية .
ولكن بصرف النظر عما فى هذا الاقتراح من خطأ وما فيه من صواب ،
فالأمر الذى أثرت بصدده قد تؤكد ما لكل مواطن فى الولايات المتحدة
من التبعة فى كل ما تقوم به الحكومة من مشروعات ضخمة ، بعد أن
دخلت الحكومة إلى أعمال البحوث والتنشئة بدرجة لم يسبق لها أن دخلت
بها من قبل (إلا والحرب العالمية الثانية قائمة) . وعلى الطريقة التى تنفذ بها
هذه المشروعات يبنى مستقبل هذه البلاد وبها تتعلق حياتها . فنفقة الأموال
الهائلة فيما يظهر فشله من بعد ، تهدد سلامة اقتصادنا . وعجزنا عن مناصرة
بعض الجهات مناصرة فيها الكفاية قد يؤدي إلى تخلفنا فى سباق التسليح
التائم تخلفاً كبيراً . إن التبعة فى كل ما يجرى فى سلسلة هذا الإنتاج ،
من معمل العلم البحت إلى ميدان القتال (الواقع أو المحتمل) ، إنما هى
تبعة واقعة على عاتق نواب الأمة . فلا بد من نقد ما يجرى على طول هذه
السلسلة نقداً عارفاً متفهماً بريئاً ، ولا بد من تفهم الرأى العام إلى جانب
ذلك . كلا الشئيين ضرورى إذا ما أردنا إنجاح الأعمال فى جميع
خطواتها ، لا سيما فى وقت الضيق والأزمات .

مال الاتحاد الفدرالى للبحث العلمى البحث

دعنا الآن نبحث فى الجانب الآخر من السلسلة ، ذلك البحث العلمى البحث . ويجب فى هذا أن نذكر ما لعب العلم البحث من دور عظيم فى الصناعات الحديثة ، وأن ندرك خطورته فى البرامج الدفاعية البعيدة المدى . فإن صح هذا وجب على ممثلى الأمة أن يرقبوا ما يجرى فى الدولة من بحوث علمية بحتة ، وكيف يجرى ، وأن يتوسلوا الوسائل ويتدعوا الأساليب لتشجيع تقدم العلوم ، تتقدم البحث العلمى ، وأن يحذروا أن يكون هذا الرجاء فى التشجيع سبباً فى عكس الحال ، وأن يتخذ من المعونة التى تسدى تَعَلَة فتوضع من جرائمها العقاب فى سبيل الآراء الحرة أن تنطلق ، والعقول الكبيرة المبتكرة أن تتفتح . وإذا كان رجل العلم الباحث الطليق ، الذى لا تربطه البرامج ، هو مفتاح الأمر كله فى هذا الصدد ، وبهذا اعتقد ، وجب عليه أن تركز الأنظار . فإذا أريد للأموال العامة أن تنفق فى سبيل تشجيع البحوث العلمية الأساسية ، العلوم البحتة ، وجب أن تنفق هذه الأموال ، كما قدّمت فى غير هذا المكان ، لمعونة رجل بذاته ، لا لمعونة برنامج بذاته ، ونرجو أن تكون هذه سياسة المؤسسة الجديدة ، «مؤسسة العلوم القومية» National Science Foundation . ولكن هذه السياسة سهل وضعها ، صعب تنفيذها ، لا سيما فى وقت التوتر والتسلح . ذلك لأن كل القوى ، من سياسية ومن اجتماعية ، تعمل عندئذ ضد هذه السياسة . وإنى لمتأكد أنه فى العشر السنوات القادمة ، سينفق المال بسخاء على

البحث التطبيقي وعلى التنشئة في المعامل الحكومية ، وفي الصناعة ، وفي الجامعات بطريقة التعاقد على تنفيذ البرامج . ولكنني غير متأكد من أن ينال البحث الطليق عناية ويجد رخاء . ومع هذا فليس قول يقوله الإنسان ويظليه ، في توكيد خطر البحث العلمي البحث ، حتى في السنوات التي فيها السلم يسلمح أثقل تسليح ، ببالغ حقيقة ما لهذا البحث من خطر . ليس عندي شك في أن من واجب دافعي الضرائب أن يناصروا تقدم العلم . ولكن من النكبات الكبرى أن لا يعان هذا البحث إلا بأموال حكومة الاتحاد . وليس من العقل في شيء أن قوماً آخرين ، تحت يدهم أموال لينفقوا منها على البحوث ، يضمنون بها على البحث البحث ، تاركين هذا البذل للعم سام . إن تجربة العشر السنوات الماضية دلّت على أن أموالاً ينفقها الخيرون ، حتى فيما تنفق فيه أموال الحكومة بسخاء ، تلعب دوراً عظيماً لا يمكن إغفاله . ومن أمثلة ذلك بحوث السرطان . ففي أمثال هذه البحوث ، التي تنفق عليها الحكومة ، تأتي الجهات المستقلة الخيرة فتساهم في النفقة . وينبني على ذلك أن مساهمتها في النفقة تأذن لها بالمساهمة بالنظرة ، بالرأى تراه ، وتتأثر الحكومة بنظرهم ، وتقدر رأيهم الحرّ المستقل الذي لا تزجيه الأهواء والغايات . والتأتمون على الأموال الخيرة كثيراً ما يضربون الأمثال لموظفي الحكومة الذين يتوكلون عنها في النفقة ويتقدمونهم يدفعون عنهم ضغط السياسيين وسوء تأثيرهم . إن العالم الباحث الطليق ، الذي لا يتقيد ببحث أو برنامج ، يجب صيانته ، ويجب تأمين مستقبله ، وخير وسيلة لهذا أن نعلّق مستقبله بعلمة من خيوط ، ليس منها إلا خيط واحد يأتي بالمال مما يصوّت عليه البرلمان للبحث من أموال .

العلم والسياسة

إني في مناقشتي الدور الذي تلعبه الحكومة لم أذكر غير وجهين من وجوه اهتمام المجتمع بتقدم العلوم والتكنولوجيا ، ذان إنتاج جهاز للحرب ، وتنمية بحوث العلوم الطبيعية ، في بلد من بلدان الأرض ، تلك الولايات المتحدة . والذي حذفته فلم أذكره من الوجوه الأخرى يدل على شيئين ، أولهما مزاج هذا الزمان الحاضر ، ثم ميولي ، أنا الكاتب ، من اقتصادية وسياسية . أنه في أوقات أكثر سلاماً من هذه يكون من اللائق أن يذكر النواكر برامج للبحث تقوم على إنفاذها حكومة الاتحاد في معاملها هي لأغراض غير حربية . وكذلك أن يستعرض الجهود الكبيرة التي بذلت في البحوث الزراعية في الخمسين سنة الماضية . وكذلك الأعمال الهامة التي قام بها « مكتب المعايير » Bureau of Standards ^(١) ، و « المساحة الجيولوجية » Geological Survey ، والأعمال الجديدة التي قامت بها « الخدمة الصحية العامة » Public Health Service ، إن هذه المناشط العلمية التي تجرى في جهات مختلفة من الحكومة الفدرالية

(١) اسم صغير على مؤسسة عظيمة في خارج وشنجن تحتل من الأرض بضع عشر من الفدادين بها معامل كثيرة للبحث من كل صنف . كان من حظ المترجم أن يقيم بها زائراً أسبوعاً . والمعايير هي الوحدات التي يصطلح عليها لتقاس بها الأشياء كمعايير العقاقير والهرمونات وأشعة س إلى جانب واجبات أخرى كثيرة .

للولايات ، تتصل اتصالاً وثيقاً بخير الأمة مجتمعة ، وهي من المناشط التي لا تستطيع ولا تحسن القيام بها حكومة الولايات منفردة ولا الوكالات الخاصة . من أجل هذا هي مناشط مما يجب أن يربهاها المواطنون جميعاً في أى ركن من البلاد عاشوا . وإني لا بد من أن أعترف بشك أحسه في نفسى في صحة ما جرت عليه الحكومة في العشر السنين الماضية من توسيع معاملها بهذا القدر الذى حدث . إني أخشى أن تاريخ هذه المعامل في الماضى لا يؤيدنى إذا أردت أن أقول إن هذه المعامل هي أنسب الأماكن لإنعاش البحث العلمى الأساسى ، العلمى البحت . وفوق هذا ، فالبحث التطبيقى الذى يهدف إلى توسيع الصناعات لا ينعشه كالصناعات ذاتها .

وما فاتنى ذكره ومناقشته كذلك ، العلوم الاجتماعية ، وهذا نقص لا شك ظاهر . إن معونة الحكومة تطلب للعلوم الطبيعية والعلوم البيولوجية بناء على ما لهذه العلوم من علاقة بالدفاع القومى ، وبناء على الأثر العظيم الذى لها فى الصناعة وفى الطب . فكيف نقول فى علم النفس ، وعلم الاجتماع وعلم الإنسان ؟ أليس من المهم أيضاً أن تنتعش هذه الدراسات ؟ وقد يجب بعضهم فيقول : لعلها أهم ، لأن التقدم فى الصناعات كان له أثر سيء فى المجتمع ، ولعل من الخير توجيه بعض الكفايات إلى دراسات المسائل الاجتماعية والسياسية هذه . إن القليل من يستطيع أن ينكر أن المجتمع الذى نشأ بهذه البلاد مجتمع فناء فى ذاته . أنه يشبه المجتمعات الديمقراطية الأخرى من وجوه عديدة ، ولكن لنا فى هذا المجتمع مثل فى الحياة هو من نتاج تاريخنا الماضى . وتماسكنا أمة واحدة يتوقف على قبول

هذه المثل ، وعلى عزمنا على أن نسير معاً سيراً متصلاً إلى الغايات الاجتماعية التي يتضمنها هذا المثل . وليس هذا بالأمر السهل ، لأن مجتمعنا الحديث معتقد أكبر تعقيده . والسؤال الذي يخطر من ذلك توأ على البال هو : هل قيام نهر من المدارس الكفاة ، يدرسون الإنسان والمجتمع ، كفيل بأن يجمع لنا في هذه الأمور معارف أساسية ذات فوائده عملية ؟ وهل دراسة علمية كهذه تستلج أن تذهب ببعض ما في الشؤون السياسية من خبرة فطرية وتنقص من درجتها الاختبارية Empiricism (بمعناها الأوسع) ؟ وإذا صح هذا فهل ما سوف ينتج عن هذا من إدخال العلم في فن تنظيم المجتمع الإنساني سيكون ذا فائدة لهذه الأمة الحرة ؟

إن جوابي على هذه الأسئلة بالإيجاب . وثقتي فيما أرجو له من تحقيق تنبني على أن التقدم في علم الإنسان والمجتمع سيجري في نفس الوقت التي تطبق فيه التصورات الذهنية والأساليب العملية الحاضرة تطبيقاً مثمراً . إن القليل من الناس من يدري كم من التقدم حصل في العشر السنوات الأخيرة ، وكم من الأساليب قد ابتدع مما يساعد على حل مشكلات الإنسان التي هي بعض نتاج الحياة . ولكن إذا نحن رجونا شيئاً ذا بال ففي المستقبل نرجوه ، ذلك لأنني أعتقد أن أكثر علماء النفس وعلماء الإنسان anthropologists تحمساً لا يستطيع أن يصف ما لديه من صور ذهنية ، ومشاريع تصورية إلا بأنها نظائر لما كان للفزياء والكيمياء من مثلها في أواخر القرن الثامن عشر . ومعنى هذا أن درجة الاختبارية في كل مثل نسوقه ، من علم النفس أو علم الإنسان لنطبقه على السلوك الإنساني ، درجة كبيرة لا شك عالية .

إني أرى أن الرجال الجديرين بتقديم هذه العلوم هم الرجال الغارقون إلى أذقانهم في المسائل العملية التي تتصل بهذه العلوم ، كما كان في الطب أن الرجال الذين قدموا عاومه في السنوات الأخيرة هم القائمون في الحقل العملي يجتهدون ويبحثون . إن بستور كان كيمائياً جريئاً خولت له جزأته أن يعطى النصائح لقوم من العلماء يعملون في حقل هو أبعد ما يكون من حقله . ولكنه ما لبث أن دخل هذه الحقول بحسبانه عالماً تطبيقياً ، وعندئذ حل كثيراً من المشاكل العاجلة فيها ، وفي الوقت نفسه هبط بالخبرة الفظرية وبدرجة الاختبارية التي كانت بتلك الفروع من البيولوجيا التي جعلها هو فروع درسه وفروع بحثه . إن الأمثال التي تضرب بنيوتن ، وكلاارك مكسويل ، وحتى بلرون ، تضلل كثيراً ، هؤلاء رجال نجحوا حقاً في المجال النظري دون المساس بالمجال العملي . ولكن العلم في أزمنة خاصة ، وأمثلة خاصة ، لا يستطيع البحث منه ، وهو منعزل ، أن يتقدم خطوة . ومن جانب آخر ، ذلك جانب الرجل المستهلك لهذه النتائج الذي يستخرجها العلماء ، أعني الجمهور ، أرجو الجمهور أن لا يطالب ، ولا يلح في المطالبة ، بشمرات من أبحاث هؤلاء العلماء عاجلة . وأرجو أن يذكر أنه ما من أحد في الدنيا يستطيع أن يتنبأ كم من هذه النتائج يخرج حتى لو جعلنا لها نصف قرن أملاً . والمشاريع الخاصة بتطبيق ما جنينا إلى اليوم من معرفة في هذه الشؤون يجب أن تكثر ولا أن لا تكون حاسمة صارمة فتمنع من مجهود قوى يبذل في تخفيض مقدار ما بالطرق الحاضرة من خبرة فظرية ودرجة اختبارية . والبرامج الطويلة الأجل في حاجة إلى إعانة كافية يصحبها صبر طويل . وهذه الإعانة قيمة بأن يأتي بعضها من مال

الحكومة ، ذلك لأن مجتمعنا هذا الحرّ في حاجة إلى زيادة معرفته بأسس الطبيعة الإنسانية أكثر من أى مجتمع آخر . إن المعرفة الفطرية بهذه الطبيعة تكفى أمة يحكمها البوليس قسراً ، ولكن أمة حرة حديثة كأمتنا في حاجة إلى كل معونة تأتيها من كل تقدم يحدث في العلوم الاجتماعية .

وأرجو أن لا يُخدع أحد فيظن أن مشاكلنا الأساسية القومية يستطيع أن يحلها جماعة من العلماء الاجتماعيين يجتمعون كما يجتمع المهندسون لتصميم جسر أو آلة . إن رسم خطوط السير في أمثال هذه المشاكل يجب أن يكون في المستقبل ، كما كان في الماضي ، من عمل الموظفين الحكوميين ، ورجال الإدارة في المصانع ، ورؤساء العمال في النقابات . وهي مشاكل لا يمكن أن تعطى إلى العلماء ليقال لهم من بعد ذلك أفيدونا بالخطوة الصحيحة في هذا والطريق المستقيم في ذلك . إنها مشاكل لا تُحل إلا بناء على الخبرة ، مقرونة بنصيحة تأتي من رجال عندهم القدرة على التحليل ، ومن تلك الجماعة التي قد أتشجع فأسمى رجالها بالفلاسفة الاجتماعيين . أن التاريخ ، بحسابه مكملاً للخبرة الإنسانية (صفحة ٣٧٧) ، سوف يأتي من عنده المدد دائماً للرجل الإداري وللرسم الخطط ، ومع هذا فرأى العلماء الاجتماعيين قد يكون له نفع عاجل . إن النفع الذي نرجوه من عالم النفس الاجتماعي ، ومن عالم الاجتماع وعالم الإنسان ، إنما نرجوه في مجال العلاقات الإنسانية وفي المنازعات التي تقوم بين الأفراد وبين الجماعات ، تلك التي زادت الحياة الحديثة شدة . وسكان الولايات المتحدة هم كاسبوا الخير من كل تقدم يحدث في دراسة الإنسان بحسابه حيواناً اجتماعياً .

العالم الاجتماعي والقيم الجارية في المجتمع

إذا نحن اعتبرنا العالم الاجتماعي هو عالم همه إنقاص ما في السياسة من خبيرة فطرية وزيادتها من تجريب علمي ، فقد شابه هذا العالم الطبيب العالم في أكثر من وجه . ولكن هنا يسأل سائل : ولكن ما بال الأطماع البشرية والأهداف الاجتماعية والاعتبارات الخلقية ، والذي نعلمه أن العلم يقف في هذه الأمور موقف الحياد ، وهو لا يتدخل ليحكم في أمثال هذه القيم ، مع أن هذه القيم هي ألصق شيء بالمسائل السياسية والمشاكل الاجتماعية ؟

ونجيب على هذا بأن نبحث في هذه العبارة التي كثيراً ما تتردد : أن العلم يقف موقف الحياد فيما يتعلق بتقدير القيم . أليست هذه العبارة من العبارات التي تتضمن ثلاثة أرباع من حق ، وأن بها من الخطر مثل ما في العبارات التي تتضمن نصف الحق ؟ ولننظر في العلوم الطبية اليوم . إن الباحثين في علوم الطب والقائمين بالعلاج فعلاً يقبلون ، على غير وعي منهم تقريباً ، طائفة من القيم تحدد من نشاطهم من جهة ، ولكنها من جهة أخرى تعمل على حفز جهودهم . وهذه القيم تُنسى ، ينساها المتحدثون عن حياد العلم . ولست أعني بهذه القيم ما يتضمنه الحلف الأبقراطي^(١) الذي يحلفه الطبيب وهو يدخل يمارس مهنته . إن للمجتمع

(١) أبقراط أشهر أطباء الإغريق ، ولد عام ٤٦٠ قبل الميلاد ومات عام ٣٥٧ قبل الميلاد ، فهو قد عاش طويلاً . ومؤلفاته التي ورثها العالم كثيرة ، وظلت باسمه إلى اليوم ،

أهدافاً أخرى وحوافز أخرى وآمال ومخاوف . إن المجتمع الذى فيه تفضّل الحياة على الموت ، وتُسمجد الصحة تمجيداً ، هو وحده المجتمع الذى يتدفق فيه المال لدراسة الأمراض . والمجتمع الذى يقبدر الفرد ويقدمه ويرعى حرمة ، حتى ليعنى بخلاص الروح الواحدة من الموت مهما كلف تخليصها من مال ، هو وحده المجتمع الذى فيه يسلك الطبيب والجراح والعالم الطبيب هذا السلوك التقليدى الذى نعرفه فيهم اليوم . إن الدرجة التى بلغناها من العناية بالناس فى الطب ، ورغبنا فى الاستزادة منها ، لا يصدران إلا عن سلسلة من أحكام فى التقييم قد عاجلناها واستقرنا عليها . ولست أذكر هذا لأضع ما أقول موضع الجدل ، فهذا أمر فرغنا منه ، وإنما أنا أشير إلى وجود هذه التقييم عندنا ، التى هى أساس لكل عمل يقوم فى العلوم الطبية ، لأقول من بعد ذلك أن الشأن فى الطب ولى الأطباء كالشأن فى دراسة سلوك الإنسان والدارسين له ولعلاقات ما بين الناس ، ولو أنى أخشى أن يكون وجه الشبه لم يتضح إلى الآن كاملاً عند كل إنسان .

إن المبادئ التى هى عند رجال الطب وحلفائهم متفق عليها الآن فى كل أمة متمدينة صناعية حديثة ، ولو أنه فى واقع الحياة تختلف قيمة

وتداولتها الأمم . وهو مارس العلاج فى كل بلاد الإغريق ، يطوف بها ويعالج ويدرس . أما حلفه فهو حلف ذو صيغة معروفة كان يلقنه لكل تلميذ يخرج على يديه قبل أن يحترف مهنة الطب والعلاج . وهو حلف يبدأ بقسم يقسمه بالآلهة كذا وكذا أن يفعل كذا وأن لا يفعل كذا . وأن يمارس المهنة فى صالح المرضى . وأن يحيا حياة نقية طاهرة ، وأن لا يفشى عن المريض سراً .

حياة الفرد اختلافاً كبيراً . والمبادئ التي تلزم عالم النفس وعالم الإنسان وعالم الاجتماع ليؤدوا واجباتهم على الوجه الأكل في مجتمعنا هذا الخاص ، هي مبادئ لا شك خاصة تأتلف وتاريخ مجتمعنا هذا وهو به خاص . وإذا كان هناك حلف كالحلف الأبقراطي يُبتدع ، ليقتر هذه المبادئ وليلتزم به الباحثون في هذه الحقول ، إذاً لوجب أن يأتلف هذا الحلف والمجتمع الذي يعمل هؤلاء القوم فيه . وسيختلف حلف يُصنع للمجتمع الإنجليزى عن حلف يصنع للمجتمع الأمريكى ، ولو أن الجوهر فى كليهما سيكون واحداً . أما الأمم ذات النظم الجماعية الكلية totalitarian حيث يضحى بالفرد فى سبيل الجماعة ، فالذى يخرج به العلماء فيها سوف يستخدم لبلوغ أهداف غير ما نذكر وما نود ، وهى أهداف سوف تتحدد من تقدم العلوم ذاتها . إن هؤلاء العلماء الذين يبحثون فى شئون الإنسان ، بحسبانه حيواناً اجتماعياً ، هم اليوم فى سبيلهم إلى خلق وسائل جبارة يختلف أداؤها باختلاف اليد التي تقع فيها . فهى للموت وهى للحياة . وهى قد تنمى وتقوى سلوكاً معيناً من سلوك الإنسان وأطرزة معينة من أطرزة التخلق فى المجتمع ، أو هى قد تتلفها إتلافاً . من أجل هذا وجب على هؤلاء الرجال الباحثين أنفسهم أن يستوضحوا هم أهدافهم فيما بينهم وفيما بينهم وبين أنفسهم ، وأن يقدروا هذه القيم هم لا أحد سواهم ، كما صنع الأطباء قديماً عند ما حددوا ما يصنعون تجاه ما يعرض لهم من مشاكل يتوقف حلها على ما لديهم من علم فيه الموت للفرد كما فيه الحياة .

رجال العلم والحكومة

إن تقاليد العلم ، مثل قواعد السلوك في الطب ، تولدت في المجتمعات مستقلة عن حكوماتها ، لهذا كان لها صبغة دولية . فهل يمكن الإبقاء على ما لهذه التقاليد من استتملال في أمة صناعية كبيرة التصنيع حيث يتصل وجود هذه الأمة وكيانها بتطبيق نتائج العلم فيها ؟ إنه سؤال جدى لا يمكن أن يكون له جواب شاف عاجل . وقد أرى الذين لا يودون أن ينفقوا من مال الدولة في معونة العلم يتلقون هذا السؤال في كثير من الكراهة وكثير من الغم . ولكن ، بمال من الدولة أو بغير مال منها ، لا يستطيع رجل العلم اليوم أن يهرب من موقف هو فيه ، ارتبط فيه علمه بمستقبل مجتمع منظم . إننا نعيش في زمن لا يمكن فيه الحكومة أن تغفل وجود العلماء ، ولا العلماء وجود الحكومة ، وهذه حقيقة يجب أن نؤمن بها ، كرهناها أو حمدناها . إن السياسى والعالم لا يمكن اليوم أن ينكر بعضهم بعضاً . إن صلة العلم وحدها بالحرب الحديثة تدفع إلى الوصل بين مهنتين قديماً ما تباعدا ، تلك مهنة رجل الحكم ، ومهنة رجل العلم الذى يبحث في أصول الطبيعة . وإذا كان هذا هو الحال فلا بد من أن نقول إن مستقبل العلم سوف تحدده ، بدرجة غير صغيرة ، ما تعمل له الحكومات ويعمل وكلاؤها . وهذا يعنى فى بلد ديمقراطى أن الرأى العام لا بد من أن يلعب فى هذا دوراً كبيراً . إنه لضمان اطراد النشاط فى بحوث العلم والبحث ، فى الولايات المتحدة ، لا بد من تعريف الناخبين بكل أمر يتصل بتقديم البحوث العلمية ،

وأن يُسلك إلى تعريفهم كل سبيل . إنى أكدت هذا فيما سبق من هذا الكتاب ، ولكنى مع هذا أزيد فأذكر مثلاً آخر لما بين العلم والمجتمع من تفاعل ، وأحسبه مثلاً يجيء في موضعه . وليس مثل يضرب للمشكلة تواجه السياسيين والعلماء أكثر إعناتاً من مشكلة السرية المفروضة على البحوث وما على البحوث من رقابة . فمُند انتهاء الحرب العالمية الثانية كثر النقاش حول الموقف السيئ الذى يجد فيه الفزيائى نفسه ، ويجد الكيماوى الذرى ، ذلكما اللذان اتصلا من قرب أو من بعد بصناعة الأسلحة الذرية . إن تصميم المعدات الحربية كان دائماً سراً عزيزاً يُحتفظ به لأسباب ظاهرة . وعلى هذا قد يجادل المرء بناء على هذا فيقول أن كل ما يتصل بالقبلة الذرية لا بد أن يبقى سراً . ولكن العلم لا يتقدم أبداً مع هذا الحفاء والإخفاء . فهذه هى المشكلة ، وهى حقيقة مشكلة . إن السلسلة بين المعمل وميدان الحرب قد اتصلت في العقد الخامس من هذا القرن ، فمن ذا الذى يستطيع أن يقول فيما تجرى به هذه السلسلة أيها العلم ، وإذاً ينشر ، وأياها السلاح ، وإذاً يكتّم . إن مجرد ذكر المشكل يقنع القارئ بما سوف يتمخض عنه موقف كهذا من خصومات لا بد منها .

إن اشتباك العلم بالسلح هذا الاشتباك الشديد نشأ في العقد الخامس من هذا القرن ، ومعه نشأت صعوبة التوفيق بين العلم وما يريد من نشر ، وبين السلح وما يريد من كتمان . ولكن هذه الصعوبة ليست بنت اليوم . ففي ختام الحرب العالمية الأولى لم يؤذن للكيماويين الذين اشتغلوا بصناعة المطاط الصناعى أن يتحدثوا للناس ، خارج المصنع ، حتى في مبادئ الكيمياء التى تتصل بالمطاط . ولكن لم يمض غير سنوات

قليلة حتى تغير الحال ، وأنشئ قسم المطاط في الجمعية الكيماوية الأمريكية صار فيه يبحث المطاط وتبحث مسأله إعلاناً . وقام التسجيل الصناعي مقام السرية الكلية . إن في العصر العلمي الذهبي في ألمانيا ، قام أكثر من عالم نابه يعمل مستشاراً في شركة كيماوية . والذي أنتجه المعامل من صبغات أو عقارات جديدة ، تسجل ، فانتفعت به شركة وانتفع أستاذ . وبيننا كان هذا يجري ، كان لا يقوم النقاش فيما ينتجه يوم الباحث من نتائج إلا بين عدد قليل من الأفراد . حتى الزجاجات كانت تكتب عليها غير أسماء ما فيها . ولكن مع هذا كانت السرية محدودة ، وكانت قصيرة العمر . ومع هذا فهذه السرية حتى المحدودة تُفسد جو المعامل ، وبهذا يشهد الكثيرون . أن النشرة التي بين العلم والكتمان فترة قديمة مكتوبة بحروف غليظة في سجلات التاريخ .

إن التقدم العلمي قد يكون في خطر من التعوق في الولايات المتحدة إذا لم يفهم الشعب خطر النشر الحر والنقاش الحر في العلوم . بالطبع نحن لا ننتظر من القائمين على الدفاع القوي في عهد هلدنة مسلحة كهذه أن يُهدّثوا من يقظتهم . إن من همهم الأول أن يحتفظوا بما لديهم سرّاً أي سر . لهذا السبب أرى من المهم أن تقوم معونة الحكومة للعلم بالبحث (بصرف النظر عن العلم التطبيقي وأعمال التنشئة والتنمية) عن طريق مؤسسة للعلم قومية . إن مؤسسة الدفاع قامت بهذا الواجب في كثير من الصبر وكثير من بعد النظر الذي نحمده حمداً كثيراً ، ولكن ليس مما يتفق أن يوضع أمر تشجيع العلم بالبحث ، وهو منشط دولي عالمي ، في نفس اليد التي تُعنى أولاً بتدبير وسائل الدفاع في الأمة .

ولكن هل السرية الحربية المفروضة على العلوم هي وحدها العائق الوحيد دون تقدم العلم الذي جاء في سنوات ما بعد الحرب؟ وهل صحيح أن العلم الذي كان منشطاً دولياً هو ما زال إلى اليوم منشطاً دولياً؟ الجواب مع الأسف لا. إن من فواجع هذا الزمان أن انقسام الأرض إلى معسكرين جعل النظرة التي ينظر بها الاتحاد السوفيتي والمدثرون في فلكه إلى المناشط الفكرية والمناشط الثقافية عامة، نظرة سداها التحزب، ولحمها التمدد. وهي نظرة زادت وضوحاً حتى ظهرت عارية صريحة. وليس في نظرتهم هذه إنكار لخطورة العلم. إن الأمر في ذلك على التقيض. فقد تأثر أكثر من رجل من رجالنا، في العشرين من السنوات الماضية، بالعناية الشديدة التي خص بها الكرملن العلم. وفي صيف عام ١٩٤٥ دعت الأكاديمية العلمية الروسية إلى احتفالاتها بعض العلماء الغربيين دعوة خاصة، وذهبوا، وعادوا وهم يحمدون أكبر الحمد ما أسبغته ستالين على العلماء من تنظيم وتكريم. وقد يفهم القارئ من هذا أن رؤساء الاتحاد السوفيتي بدلو هذه العناية للعلم والعلماء لتقديرهم خطر العلم، وخطر التكنولوجيا، ولا شيء غير هذا. أما تقدير خطر العلم فلا جدال فيه. وأما أنه الحافز الأول إلى هذه العناية، أو حتى أنه أول حافز، فأمر يخطئ حاسبه خطأ كبيراً.

نشر الاتحاد السوفيتي نشرة أسماها « تاريخ الحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي »، وفيها تحدث مؤلفوها عن « الدور الكبير الذي لعبه في تاريخ الحزب » كتاب لينين الذي كتبه في المادية وسماه Materialism and Emperio-Criticism ، ونشره عام ١٩٠٩ . وذهب المؤلفون

الرسميون لهذه النشرة التي هي تاريخ الحزب البلشفي ، يقولون إنه كتاب يصون ذخيرة نظرية كبيرة من عبث جمهرة غير متجانسة من ناقلين ، ومن أهل ردة جاحدين . والمهم هنا ان نستبين ان المسألة الجدلية التي زعموا أن كتاباً كتبه رجل صار من بعد ذلك حاكم روسيا لعب فيها دوراً كالذي يصفون كبيراً ، هذه المسألة تضمنت شيئاً عن من طبيعة الحقائق العلمية . وقالوا في هذه النشرة أن مستقبل الحزب الشيوعي كله تعرض إلى الخطر منذ أربعين عاماً أو تزيد ، بسبب مبادئ باطلية تتصل بصداق المبادئ العلمية ومعانيها في علم الفيزياء . أفبعد هذا يعجب المرء من حزب سياسي ، قام على فكرة واحدة جامدة ، وهي من صخر أصم ، يفسر تاريخ نفسه مثل هذا التفسير ، أن يظل يعتبر النظريات العلمية وتفسيرها من بعض عمل الموظفين الحكوميين ، وأنهم في هذا كفاة جديرون ؟ إن هذا التاريخ الذي أشرت إليه تواءم ينص صراحة على أنه ما من حزب ثوري يستطيع أن يقبل مبدأ الوحدة المؤسسة على تباين (١) . إن حزبهم من أول أمره بنى على تجانس جامد لا مرونة فيه ، نيل اعتسافاً بقطع دابر كل من لا يفقه « علم تنشئة المجتمع » على الصورة التي صورتها له نظرية ماركس ولينين .

إنه لا دليل على أن من في يدهم متاليد أمور هذا الحزب هم اليوم أقل صرامة ممن سبقوهم . إن النظريات العلمية التي لا تأتلف والمادية

(١) هي الوحدة التي في الدول الديمقراطية ، تلك التي تأتي أخيراً بالانسجام عند التنفيذ ، ولكن من بعد اختلاف الناس واختلاف الأحزاب فيما يرون من آراء ، وهي غير الوحدة الأخرى المؤسسة على فرض الرأي الواحد على الناس ، يأتي من عل ، فلا يأذن لهم باختلاف .

المنطقية^(١) هي عندهم هرطقة لاشك فيها . ويعتق علماءهم هذا، ممن كانوا أول الأمر على رأى غير هذا، فيقومون يعلنون في الناس خطأ ما سبق أن زعموا وهذه ظاهرة قد يصعب على أهل الغرب فهمها ولكن مما يسهل عليهم فهمها أن ينظروا إلى ظاهرة أخرى مثلها ، جرت في التاريخ كثيراً : رجال ذوو ولاء للكنيسة ، يرون رأياً ، ثم هم تحت تأثير الكنيسة يعودون فينكرونه ويحسدونه .

إن النتائج التي تخرج في الحقل البيولوجي قد تتصل بالكليات الكبرى للوراثة وبذلك يكون لها أثر في النظريات السياسية والاجتماعية ، وهذه الحقيقة قد تغرى بالالتفات إلى هذا النوع من العلم والاهتمام بالذي يجرى فيه من نقاش . ولكن من الممتع أن يلاحظ المرء أن الجريدة الرسمية ، بإرفادها ، قد نشرت مقالا واحداً على الأقل خصصته لنتقد الفزياء النظرية الحديثة نقداً طويلاً مفصلاً ذا استعراق ، وهو موضوع لا يتصل بهم ٣٣٣ في المائة من السياسين ولو مساً عابراً ، في الديمقراطيات الغربية ، ولكنه يلقي في الاتحاد السوفيتي كل هذا الاهتمام .

قد يقول المرء إن المراسيم التي يخرجها الشيوعيون فيبطلون بها من علم الوراثة ما يبطلون ، تدلنا على أن رجالاً ، يجمعون إلى الجهل النسبي قسوة لا حد لها ، هم القائمون اليوم يخطون سياسة الحزب في الحقل العلمي . ولكن أليس الحال في كل نظم الحكم ، تلك التي بناءها على الأمر ينزل من أعلى ، والطاعة تأتي من أسفل ، أن يقوم منها رجال ، بكل ما بهم

(١) هي مادية كارل ماركس ، وقد شرحنا بهامش صفحة ٣٦٩ .

من ضعف إنساني ، فيعلمون في الناس من عام لعام أى المبادئ هو الصادق وأيها هو الكاذب ؟ وتتدخل السياسة ، وهي على الأكثر من أدنا وأحط السياسات الشخصية ، فتؤثر فيما يصوبون وفيما يبطلون . إن معتنق المادية المنطقية ، في كل الأرض ، يضعون العلوم الفيزيائية من التقدير في الموضوع العالى ، ويتحدثون في ذلاقة وفي ثقة عن المنهج العلمى . ولكن عند ما يؤخذ نص خاص من نصوص هذا المذهب الفلسفى فيحوّل إلى مبدأ رسمى من مبادئ حزب لا يأذن لذى رأى مخالف أن يقوم إلى جانبه ، عندئذ لا يمكن أن يكون للعلم استقلال ولا للفكر حرية . وليس معنى هذا أن البحث العلمى لا يشجع . إنه يشجع بقوة ، في مساحات واسعة ، وتشجع التكنولوجيا . وإنما الذى أسأل عنه الحرية العلمية الحقيقية ، أبقى منها شيء في مجتمع يجب على كل ما ينشأ به من آراء فلسفية أن ينسجم مع ما يتخذ الحزب من مبادئ ؟ إن هذا السؤال ينشأ غصباً ما أمعن الرجل منا النظر في تاريخ الحزب الشيوعى .

في مقال عنوانه « لينين والمسائل الفلسفية التى بالفيزياء الحديثة » ، نُشر في براغدا في مايو عام ١٩٤٩ ، كتب س . ا . فايلوف ، رئيس أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفيتى يقول :

« إن الفيزياء السوفيتى ، كالعلم السوفيتى ، دخلا فى حياة الدولة من زمن بعيد ، ووجهها كل قواهما إلى خدمة بلدنا هذا ، لاستيفاء كل الحاجات اللازمة لبناء مجتمع شيوعى » .

« والفيزياء الشيوعية تبنى عملها على ما اعتنق العالم من المادية المنطقية ، تلك التى رفع من أمرها تأليف لينين وستالين ، وهي تأليف أمدتهم

العبقرية فيها بروح منها . ولكننا لا يمكن أن نُغفل حقيقة واقعة ، تلك أن بعضاً من فزيائينا لا زال عندهم بقايا من آراء من المذهب التصوري Idealism اكتسبوها من قراءة غير نقّادة لما ينشر القوم في الأمم الرأسمالية .

« إن من أخطر الواجبات علينا أن نحارب هذه البقايا من ذلك المذهب المتقرض ، بالتقيد الذي لا يرحم ، نقد لغيرنا ونقد لأنفسنا . إن خطر هذه البقايا خطر عظيم . وعلى الفزيائيين أن يكونوا أكثر نشاطاً في محاربتها . . . »

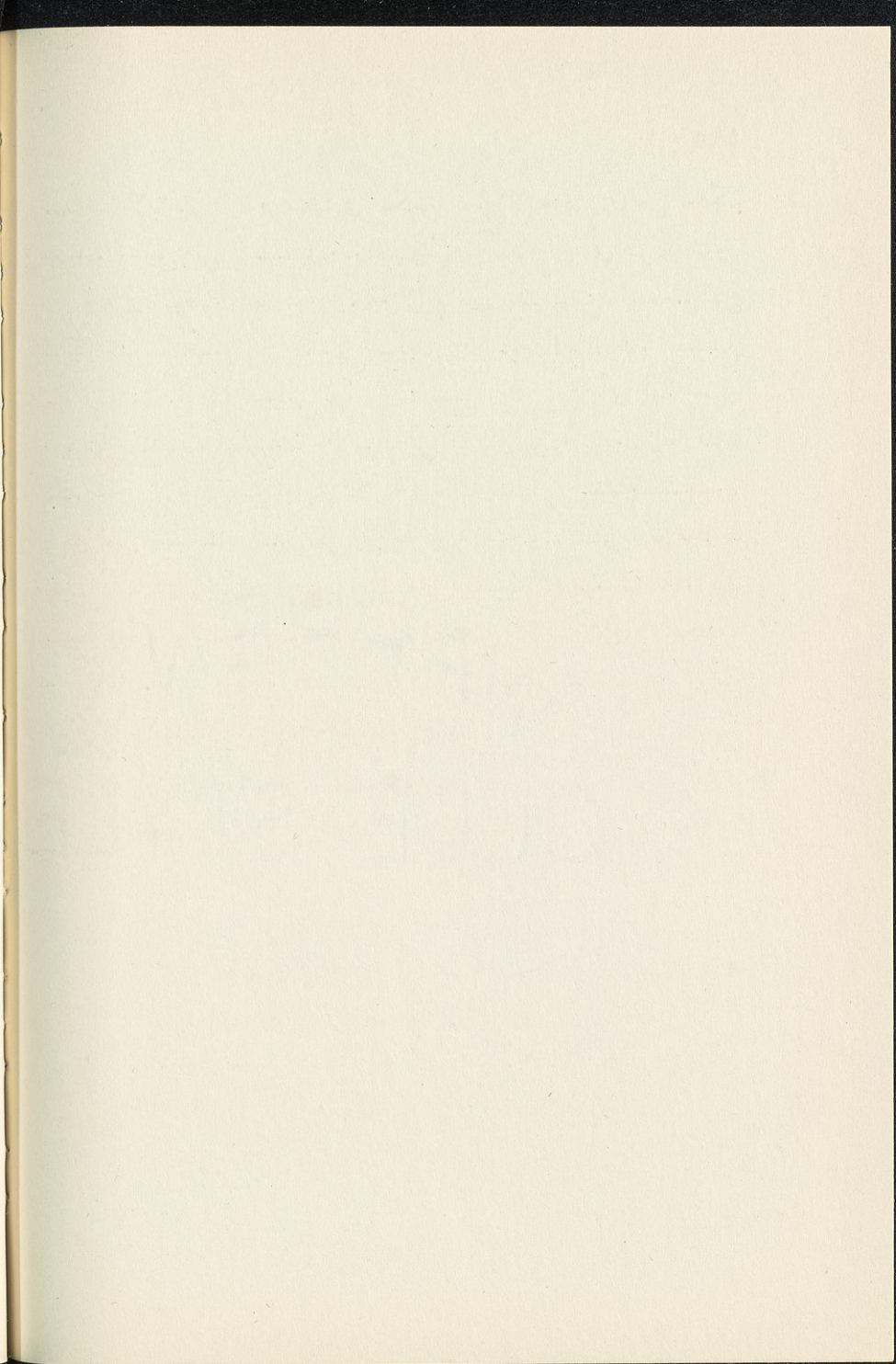
ولعل من أشد ما يكشف عن الموقف اليوم عند السوفييت ما جاء في مقال نشرته المجلة الأسبوعية الإنجليزية ، ناشر Nature ، في مايو عام ١٩٥٠ . وهو لعضو من معهد علم الوراثة التابع لأكاديمية العلوم بموسكو . وفيه يردّ على كلمة كتبها هكسلي يقول فيها : « إن أمة في العلم عظيمة قد أنكرت صفة العلم الكلية وصفته الدولية » . قال العالم الروسي إن هذه دعوى باطلة . واستمر يقول : « إن العلم السوفيتي لم يقبل هذه الآراء الرجعية يوماً حتى يجحدها » . ثم هو يقول : « إننا أعلننا مراراً ولا نزال نعلن أن العلم ، وإذاً فالعلم السوفيتي ، إنما هو علم حزبيّ ، علم طبقيّ . . . إن الطبقات المتوسطة ومن يصيغون لها مذاهبها ، سواء كانوا بيولوجيين أو غير بيولوجيين ، كانوا دائماً في خوف أن يقرّوا صفة العلم الحزبية . . . وكل هذا الكلام القارغ ، من كليّة العلم ، ودوليّة العلم ، لا يستخدمه هكسلي إلا لخدمة أهدافه » .

إن الرجل منا عند ما يقرأ كلاماً كهذا ، ويعلم أنه جاء من عالم

روسى فى عام ١٩٥٠ ، لا يكاد يخال أنه يقرأ شيئاً مما ألف فوق هذه الأرض . إن العلم ، كما وصفته ، وكما عرفته ، ليس هو العلم الذى يراه تابع لحزب أنه العلم . إن كل ما ارتآه العلماء جميعاً ، فلم يكاد يشذ منهم فيه أحد ، فى أمر العلم ، قد جحدوه وسخر منه القابجون وراء الستار الحديدى . وبهذا انقطع ما بين الطائفتين من العلماء ، علماء ما أمام الستار وما وراءه . وكل تعاون يأتى به القدر بينهما ، وكل تبادل لمعلومات ، سيكون من قبيل الحادث السعيد غير المنتظر . واختصاراً كل العلم الذى عليه أن ينسجم وأوامر تصادها اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعى لا بد من أن ننظر إليه بحسبانه ظاهرة اجتماعية جديدة . فليست المقالات العلمية بموسكو هى وحدها التى عليها رقابة بحسبانه قد تتضمن أسراراً حربية ، ولكن نفس الكتاب عليهم ضغط اجتماعى خاص كبير .

وإن كانت الأحوال هى هكذا تجرى ، أفيكون من ذلك أن نكفر بالرأى الذى يقول إن تقدم العلم عمل دولى من شأن كل الأمم ؟ لا ، أبداً . إنما الذى نصنعه أن نترك فى شىء كثير من التردد أمر هؤلاء العلماء فيما وراء الستار الحديدى ، بحسبان أنهم فئة خاصة غير فئات سائر العلماء . إنهم يخافون سائر العلماء فيما يعتقدون ، فهذا السائر عنده أن العلم لا تقف به حدود أمة أو حدود دولة . ولكن ما دام أن طوائف العلماء فى الأمم الحرة قد فقدت إلى حين ولاء علماء ما وراء الستار الحديدى ، فعلى هذه الطوائف أن تزيد فى حرية العلم ، وترفع عنه السرية ، وتكسبه تلك الصفة الدولية التى وجبت أن تكون له دائماً . حتى لو أدى الأمر إلى أن النتائج العلمية تسير من الأمم الحرة ، إلى الأمم القابجة وراء

الستار ، ولا تسير نتائج مثلها في عكس هذا الاتجاه . إن من الحكمة مع هذا أن نُبقي على التقليد بإباحة العلم يجرى في الأمم في أى طريق شاء . إنه في المنافسة الصناعية القائمة اليوم بين الشركات ، ستجد كل شركة تطالب التتقدم أن كسبها سيكون في تقدم العلم . لهذا تستطيع الولايات المتحدة ، بحسبانها أمة ، أن تنتفع أكثر من أى أمة أخرى باستمرار البحوث العلمية ، والإبقاء على ما بها من حيوية . إننا لدينا الكفاية من الرجال ومن الجهاز اللازم للبحث التطبيقي والنشئة الهندسية . ونحن على استعداد لتقبل كل ما يخرج من جانيه النظريات وجانيه المكتشفات في إبان خروجها من معامل البحوث العلمية البحتة ، وأن ننتفع بها أكبر انتفاع . لهذا وجب علينا تشجيع العلم ، وتشجيع البحث ، وحرية النقاش ، وحرية النشر ، ولا نبالي بالذى قد تصنعه أى أمة أخرى ، ولا بالذى قد يأتي به الزمان من شدة .



الفهرس الأبجدى

<p>٣٠٤ أرسطو</p> <p>٣١ أرشيمدس</p> <p>٣٨٨ الأرض ، علم</p> <p>٣٩٩ الأرض ، عمر</p> <p>٣٩٥ الأرضية ، الطبيعة</p> <p>١٧٣ الأزوت ، كثافة</p> <p>١٧٧ اسبكتروسكوب</p> <p>١٩٨٠٤٨ استاتيككا</p> <p>١٨٦٠٨٣٠٨٢ الاستدلال الاستنتاجى</p> <p>١٨٦ الاستدلال الرياضى</p> <p>١٩٨ استيفن</p> <p>٤٢٢ إسمين ، جون</p> <p>٣٤٥ اشيلنزافى</p> <p>٧١ إشيبنوزا</p> <p>٣٨٩ أشر</p> <p>٤٠٤٠٣٩٧ الاشعاعى ، النشاط</p> <p>١٧٠ الأشعة السينية</p> <p>١٧١ الأشعة الكاثودية</p> <p>١٦١ إفلين ، جرن</p> <p>٢٩٢٠٢٨٥ أفوجادرو</p> <p>٢٣٣ إقليدس</p>	<p style="text-align: center;">(١)</p> <p>٨٤ آراء استطلاعية</p> <p>٣٥٧٠٣٤٦ أبرت</p> <p>٤٨٣ أبقراط</p> <p>٤٨٩ الاتحاد السوفيتى</p> <p>٣٩ أتلانتمس الجديدة</p> <p>٧٧٠٢٠ أجرومية العلم</p> <p>٦٤ أجرىكولا</p> <p>٤٣٩ احتكار حكومى ، للبحث</p> <p>٤٠٨٠٢٩٤ الأحياء الحية</p> <p>٣٢٩ الأحياء ، علم</p> <p>٩٤ الاختبار الفطرى</p> <p>٢٩٧٠١٠٠٠٩٩ الاختبارية</p> <p>٤٣٨٠٢٩٨ الاختراع</p> <p>٤٤٦١٠٤٢٨٠٤٤</p> <p>٤٦٤٠٤٦٣</p> <p>٢٥٨ الأخطاء العرضية</p> <p>١٩٢٠١٨٧٠١٨٦٠١١٧ ادروستاتيككا</p> <p>٣١ آراسمس</p> <p>١٧٨٠١٧٦٠١٧٥ الأرجون</p>
---	--

٤٧٤، ٤٧٣	البحوث العلمية والرقابة عليها
٤٧١	البحوث الموجهة
٢٢٥، ٧٤	البخارية ، الآلة
١٢٤، ٦٤	بدوا ، جامعة
٥٥	بردرجان
٣٠٦، ٢٩٠، ٢٨٨	برزيليوس
٦٦	بروتون
٢٩، ٢٨	برونيليشى ، فيليبو
١٢٠، ١١٩، ١١٧	بريار
٣٣٤، ١٢٦، ١٢٢	
٢٥٦، ٢٥٢، ٢٤٠	بريستلى
٢٧٧، ٢٧٤، ٢٦٧	
٤٤١، ٣٥٦، ٣١٨	بستور
٣٤٩	بستييان ، هنرى
١٤٤، ١١٩، ١١٦	بسكال ، بليز
٣٠٢، ٢٠٨، ١٨٩	
١٦٨، ١٦٥	البطارية الكهربية
٤٤٢	البطاطس ، آفة
٣٦٦	البكتريا ، علم
٤٢٨، ٤٢٧	بل ، اسكندر جراهام
٤٢٥	بلطن
٣١٩	البلورة
٣٦٦	البليستولوجيا ، علم
٣٢٥	بوختر
٤٧٠	بوش ، فانيفاز
٣٥٦، ٣٤٨	بوشيه

٤٠	أكاديمية دى لنسى
١٣٢، ١٢٦، ٤٠	أكاديمية شيمنتو
٣٣١، ٢٢٢، ١٥١	
٣٨	أكاديمية العلوم
٢٦٤	الأكسجين ، اكتشاف
٢٦٩	أكسيد النترىك
٧١	أكويناس ، توماس
٤٨٠، ٤١٨	الإنسان ، علم
٢٠٧، ٧٣	أينشتين

(ب)

١٦٠، ١٥٨	بايين ، حلقة
٣٠٩، ٢٩٧	باتس ، مارستن
٢١٨، ١٣٢، ١٢٧، ١١٥	بارومتر
١٢٥، ٣٩	باكون ، فرنسيس
٣٠	بترارك
٣٦٥	بترفيلد
٤٤٥	البحث ببرنامح
٤٦٦، ٤٣٠	البحث الصناعى
٤٤٥	البحث الطليق
٤٥٧، ٤٥٤، ١٢	البحث العلمى
١٢	البحث العلمى والمال
٤٤٩	البحث ، ميزانية
١٤٧	بحوث تجريبية
٤٥٣	البحوث العلمية الصناعية

٣٠٠	التخليقية ، الكيمياء	٣٤٣	بوفون ، الكونت دي
٣١٨	التخمير	٣٠	بوكاشيو
١٨٣	التدليل الرياضى	١٦٢	بولونيا ، جامعة
٢٢٢،٢٢١	الترمومتر	١٢٩،١٢٤،٢٩	بوريل ، روبرت
٣٨٤	تستل ، كارل فون	١٥٨،١٥١،١٣٩	
٤٦٥،٤٦٤،٤٤٤	تسجيل المخترعات	٢٠٨،١٩١،١٨٩	
٤٦٦		٨٦،٨١،٧٧،٢٠	بيرسن ، كارل
٨٤،٥٠	التصور الذهني	٢٤٣	بيشر
٨٤،٦٠	التصورية ، المشروعات	٣٥٠	بيو
٦٤	التعدين	١٢٥	البيوريتانية
٣٥٩	التعقيم	٢٩٦	البيولوجيا
٣٤٦	التعليب		
١٨٥	التفاضل والتكامل		
٨٤،٨١	التفكير الاستطاعى	(ت)	
٢٥٩	التكليس	٣٧٨،٣٧٧،٣٧٦	التاريخ
٤١٠	التمثيل الضوئى	٣٩٤،٣٨٢،٣٨١	
٣٦٠،٢٩٨	تندال ، جون	٣٠٩،٢٩٤	التاريخ الطبيعى
٣٨٢،٣٠٩	التنسيق ، علم الحياة	٣٢٩،١٤٦،٢٣	التجربة
٤٤٣،٤٣٢،٤٣١	التنشئة الصناعية	٣٣٣	تجربة المقارنة
٤٤٠،٤٣٥		٣٢٩،٩٣،٨٧	التجريب
٤٣٩	تنظيم البحوث	١٨٣	التجريب الكي
١١٨،١١٦،١١٤	تورتشلى	٨١،٨٠،٦١	التجريبى ، العلم
١٣٥،١٢٦،١٢٤		١٤٧،٩٤	
٢٠٨،١٨٣،١٤٤		٣٠٩،٢٩٤	التجريبى ، علم الأحياء
٣٢٩،٣١٦،٣٠٣	التولد الذاتى	١٤٧	التجريبية ، البحوث
٣٤٣		٤٢١	التجريبية ، الفلسفة

١٣٢، ١٢٧	جوركه ، أوتوفون
٣٦٧، ٣١٧	الجين
٣٩٦	الجيو فيزيقا
٤٠٢	جيكي ، أرشبلد
٣٩٣، ٣٨٣، ٣٨١	الجيولوجيا
٣٩٧، ٣٩٥، ٣٩٤	
٤٠٢، ٤٠١، ٤٠٠	

(ح)

٣٢٣، ٣٢١	حامض اللبن
٤٢٢	الحديد ، صناعة
٢٣١، ٢٢٤، ٢٢١	الحرارة الكاهنة
٢٢٨، ٢٢٤، ٢٢١	الحرارة النوعية
٢٣٠	
٢٩٢	الحركية ، النظرية
٤٢٠	الحرية في العلم
٤٩٠	الحزب الشيوعي
٣٩٨، ٣٩٥، ٣٧٧	الحفريات ، علم
١٥	الحقائق العلمية
٦٧، ٦٦	الحقيقة
٤٦٧، ٤٦٦	الحكومات والبحث العلمي
٤٨٦	
٣٦٠، ١٦٠	حلة بابين
١٥٩	الحوض الهوائي
٤١٣	الحياة ، أصل

٣١٢	تولستوى
-----	---------

(ث)

٣٦٥	الثورة الدروينية
٤٦٣	الثورة الصناعية
٣٦٥	الثورة الكوبرنيكية
٢٣٦	الثورة الكيماوية
٣٦٥	الثورة النيوتونية

(ج)

٢٩٠، ٢٧٠، ٢٤٠، ٢٢	جاليليو
١١٠، ٧٠، ٤٠	
٣٠٤	جالينوس
٤٥٢	الجامعات
١٦١	جامعة بولونيا
١١٨	جبل بوى دى دوم
٣٥٥	جراثيم
١٦٨	جرة ليدن
٢٨٦	الجزئية، النظرية الذرية
١٦٣، ١٦٢، ١٦١	جلفاني
١٦٤	
٤٢، ٣٨، ٢٢	الجمعيات العلمية
٣٨٥	الجمعية الجيولوجية
١٦١، ٤٢، ٣٨	الجمعية الملكية
٣٠٠، ١٦٨	

٤٠١ الذرة ، تفجير
٤٣٧ الذرية ، القنابل
٢٨٠ الذرية ، النظرية
٤٣٣ الذرى ، الوقود

(ر)

٣١ رابيليه
٤٣١ الراديو ، صناعة
١٨٠٠١٧٦٠١٧٢ رالى ، اللورد
٢٥٦٠٢٤٧ راى ، جان
١٩٠ رذرفورد
٧٠ رمبرنت
١٧٨٠١٧٥ رمزى ، ولم
٤٢٤ رمفورد
١٧٠ رنتجن
١٤٤٠١١٢ رييتشى
٣٤٣٠٣٣٧٠٣٣٠٠٣٠٣ ريدي

(ز)

٣٩٦ الزلزالية ، الموجات
١٥٧٠١٤٩٠١٤٨٠١٤٥ زنبك الهواء
٤٠٨٠٤٠٦٠٤٠٥ زيت البترول

(س)

٢١٣ السائل الكامل

٣٨٢ الحياة ، علم
٣٢٠٢٣٠٢٠ الحيدة فى العلم

(خ)

٣٠٥٠٢٩٨٠٢٩٧ الخبرة الفطرية
٢٥٨ الخطأ العرضى

(د)

٧٩ دارون
٤٤٧٠٤٤٢ دافى
٧٠ دافى
٣٦٧ الدبها
١٠٠٠٩٩ الدرجة الاختبارية
٣٦٥ الدروينية ، الثورة
٤٦٨ الدفاع القومى والعلم
٤٦٢ الدفاع ، مؤسسة
٢٨٧٠٢٨٣٠٨٦ دلتن

٤٦١ الدولة والعلم والاختراع

٢٨ دوناتو

١٣٩٠١٣٧ ديكرات

٥١٠٤٩ الديناميكية ، النظرية

(ذ)

٣٢٩٠٣٠٣ الذاقى ، التولد

٣٣٥ الذباب

الصنعة ٣١٥٠١٦٧

(ض)

الضغط البخارى ١٥٨
الضغط الجوى ١١٥٠١٠٦
الضوء ٥٩٠٥٨
الضوء المستقطب ٣٢٠

(ط)

الطاقة الذرية ، وكالة ٤٧٢
الطب ٤٤١
الطبقات الأرضية ، علم ٣٩٦
الطبيعة ٣٧٠
الطحالب ٤٠٧
طريقة العمل (الصنعة) ١٥٤
الطيف الضوئى ٤٥١٠٤٤٤

(ع)

العامل المتغير ٣٤٧
العرفان المتراكم ٧٢٠٦٩
العلاج الكيماوى ، علم ٤٤٣
العلة والمعلول ٣٤٠
العلم ٤٦١٠٤٧٠١٤
علم الاجتماع ٤٨٣٠٤١٨

الستار الحديدى ٤٩٤

السرطان ، بحوث ٤٧٧

سرية البحوث ٤٨٩٠٤٨٧

سفامر دام ١٦٣

سلاح الحرب ، إنتاجه ٤٧١٠٤٧٠٠٤٦٩

السلسلة الصناعية ٤٦٨٠٤٥١

سميث ، ه . د . ٤٣٣

سميث ، ولیم ٣٩٧٠٣٨٧

سنجر ، شارلس ٢٩

السياسة والعلم ٤٧٨

سيمنز ٤٢٥

(ش)

شارل الثانی ٣٨

شتال ، جورج ٢٤٣

(ص)

الصحة العامة ٤٤١

الصناعات الكهربائية ٤٢٤

الصناعات الكيماوية ٤٢٩٠٤٢٤

صناعة الراديو ٤٣١

الصناعة الهندسية ٤٢٩

الصناعة والعلم ٤٢٩

الصناعى ، البحث ٤٣٠

الصناعية ، السلسلة ٤٥١

علم الوراثة	٣١٧،٣٠٧	علم الأحياء ، بالملاحظة	٣٢٩،٢٩٦
	٤٩١،٤١٤	علم الأحياء التجريبي	٣٠٩،٢٩٤
العلمى ، البحث	٤٥٧،٤٥٤		٣٢٩،٣١٨
عمر الأرض	٣٩٩	علم الأحياء التنسيقي	٣٠٧،٢٩٦
عمر الطبقات الأرضية	٣٩٨		٣٨٢،٣٠٩
عمود فلتا	١٦٩	علم الادروستاتيكنا	٢٠٢
العناصر المتماكنة	١٧٥	علم الأرض	٣٨٨،٣٧٧،٣٦٦
		علم الإنسان والأجناس	٤١٨،٧٥
(غ)		العلم البحث	٤٤
الغازات ، صعوبة التجريب بها	٢٥١	علم البكتريا	٣٦٠
الغاز الضحاك	٢٧٠	علم البلينتولوجيا	٣٦٦
		علم تتابع طبقات الأرض	٣٩٦
(ف)		العلم التجريبي	٨١،٨٠،٦١
فاسارى	٢٨	العلم التطبيقي	٤٤
فبريشيوس	٣٠٥،٣٠١	علم الجيولوجيا	٣٦٦
الفراغ	١١٢،١٠٨	علم الحفريات	٣٩٥،٣٧٧
فرداى	١٩٠	العلم السوفيتيى	٤٩٣
الفرض التصورى	١٢٠	علم الظواهر الجوية	٣٩٦
الفروض التمهيدية	٩٠،٨٤	علم العلاج الكيماوى	٤٤٣
فروض علمية	٣٠٢،٦٣	علم الفسيولوجيا	٣١٨
فلتا	١٦٧،١٦٦،١٦١	علم الفلك	٣٩٥
الفلوجستون	٢٧٣،٢٣٩،١٥٦	علم الكون	٣٦٦
فلورة	١٧١	علم الكيمياء الحيوية	٣٦١
الفن الصناعى (تكنولوجيا)	١٠٣	علم النفس	٤١٨
فوركروى	٢٣٩	العلم والتكنولوجيا	١٠٣

٢٥٨٠٢٥٤٠٢٣٦	لافوازيه	(ق)	
٢٧١٠٢٦٨٠٢٦٥			
٣٧٢٠٣٧٠٠٣٦٦	اللاهوت	٢٠٨	قانون بوييل
٤٣٦	لدينة	٢٥٨	القياسات الكمية
٣١٥	لوفن هوك	٢٢١	القياس ، أدوات
٧١	لوك		
٤٢٦٠٣٥١٠٣٢٢	ليبيج	(ك)	
١٣٣	لينوس ، فرانسسكس	٢٧٤٠٢٢٤٠١٧٦	كافندش
٤٩٢٠٤٨٩	لينين	٢٨٥	كانيزارو
٣٨٥	ليل ، شارلس	١٢٢	الكثافة
		١٢٩	كرة مجلدى برج
(م)		١٢٥٠٣٩	كر ومول
١٤٠	المائع الخفى	١٥٠	كريسى
٤٦٢	مؤسسة الدفاع القومى	٣٩	كلبير
٤٧٦	مؤسسة العلوم القومية	٢٤٩٠٢٤٢	كلس
٣٦٩	ماخ	٢٧٢٠٢٦٤	
٤١٩	ماركس	١٨٠	كلفن
٣٤٢	مبدأ لايقين مع الطبيعة	٤٨٥	الكلمية ، النظم
٤٤٠٤٣	المجلات العلمية	٧١	كنت ، أوجست
٤٤٠٤٣	المجلات العلمية	١٦٢	الكهربية الاستاتيكية
٤٧٢	مجلس الأبحاث والتنشئة	١٨٦٠٢٤	كويرنيكس
٣١٥٠٣٠٨	المجهر	٧١	كيتس
٤٤٣	المحطات التجريبية		
٣٣	المختبرات	(ل)	
٤٠٣٠٣٩١	مذهب اطراد القوى	٣٦٦٠٦٥	اللاأدرين

٧٧٠٢٠٠١٩	المنهج العلمي	٤٩٣٠٣٧٠	المذهب التصوري
٨٠٠٧٨		٣٧٠	مذهب الشكاك
١١	المواطن والعلم	٤٨٩	مذهب المادية
٥٦	الموجية ، النظرية	٤٩٠٠٣٦٩	مذهب المادية المنطقية
٢٠٦	مورلى	٢٧	مربكة ، وليم
٨٩	موليير	٨٤٠٦٠٠٥٠	مشروع تصورى
٤٠	ميدتشى	١٦١	المصادفات
٢٦٦	الميزان	١٢٧	المضخة الفراغية
٤٤٩٠١٢	ميزانية للبحث	١١٠٠١٠٨	المضخة الماصة
٤٠٣٠٤٤٨	ميس ، الدكتور	١٧٧	المطيف
٧٠	ميكل أنجلو	٤٤٨	المعامل الصناعية
٢٠٧	ميكلسن	٤٠٤٠٣٠٥٠٤٢	المعدنيات ، علم
		٤٨٩	المعسكر الشرقى والغربى
		٣٣	المعمل
		٤٤٧	المعهد الملكى
		٤٧٨	مكتب المعايير
		٤٠٤٠٣١٥٠٣٠٨	المكروسكوب
		٤٤٢	المكرووى ، علم الأحياء
		١٩٠	مكسويل
		٤٥٩٠٤٣١	مكلورن
		١٦٣	المكنة الكهربائية
		٣٠	مكيافالى
		٦٥	الملاحظة
		٣٢٩٠٢٣	الملاحظة
		٧١٠٣٠	ملتن
		٣١	منتانى
	(ن)		
٤١٦٠٣٨٥	النتونيون		
٦٧	نتر وقات		
٢٠٧٠٥٣	النسبية		
٣٩٧	النشاط الإشعاعى		
٤٨٨	النشر الحر		
٤١٥٠٣١٤	النشوء ، نظرية		
٤٠٣	النشويون		
٢٩٠	نظرية برزليوس		
٢٩٢٠١٤٤	النظرية الحركية		
٥٦	نظرية الدقائق		
٢٨٦٠٢٨٠	النظرية الذرية		

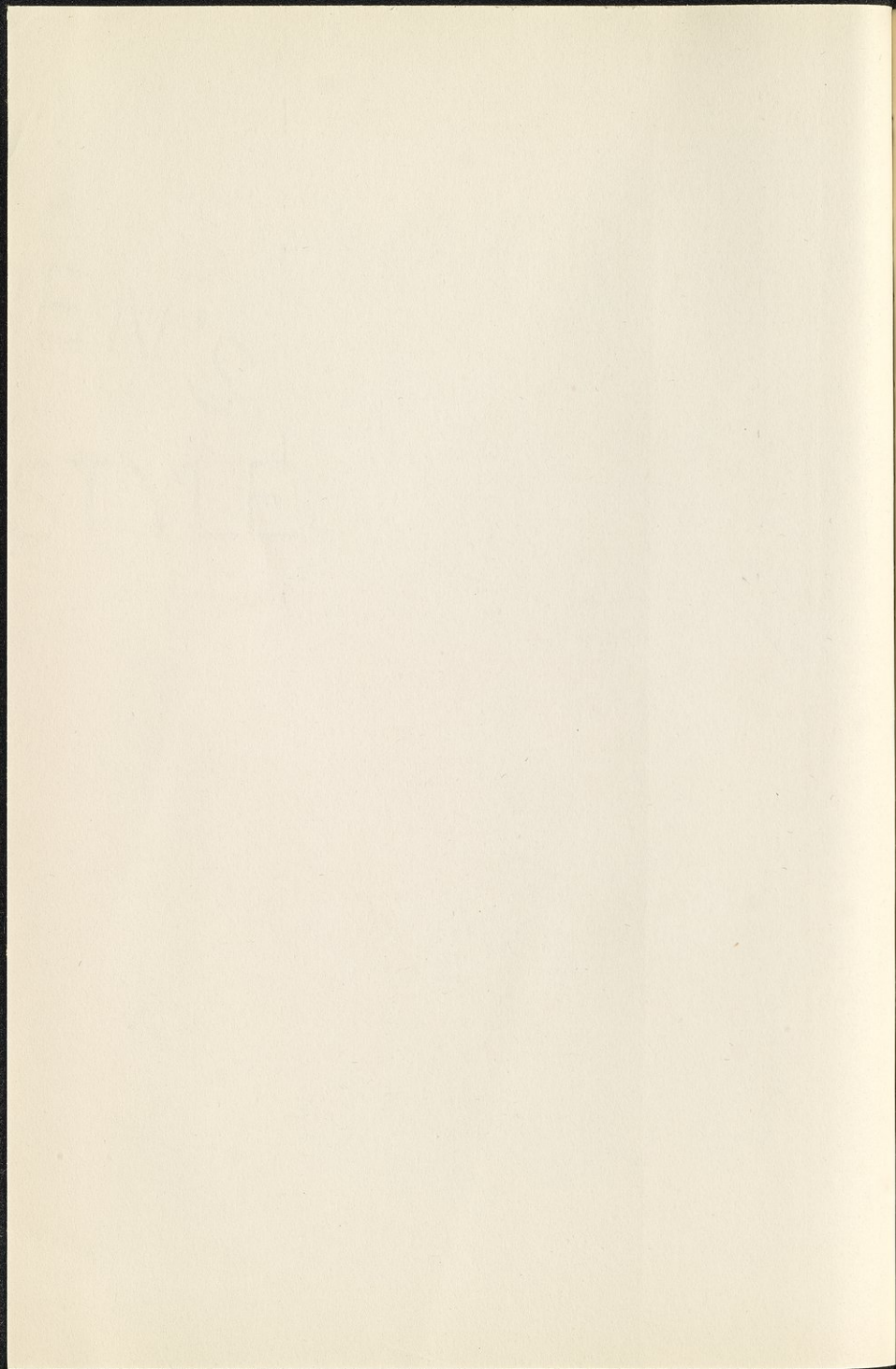
٤١٤٠٣١٨٠٢٢	هكسلي ، جوليان
١٧٨	هلبرانڊ
٢٥٢	هلمنت ، فان
١٧٨	هليوم
٧٤	هندرسن . ل . ج .
٢٣٣	الهندسة الإقليدية
٤٣١	الهندسية ، الخدمة
٤٢٩	الهندسية ، الصناعة
١٢٣	هواة
٤٦٠	هوارد . ف . ا .
١٣٨٠١٣٢	هوبز ، توماس
٢٥٠	هوك ، روبرت
٣٦٦	هويت ، أندرو
٣٦٥٠٣٣٠	هويت هد
٢٧	هيو الإسكندرية

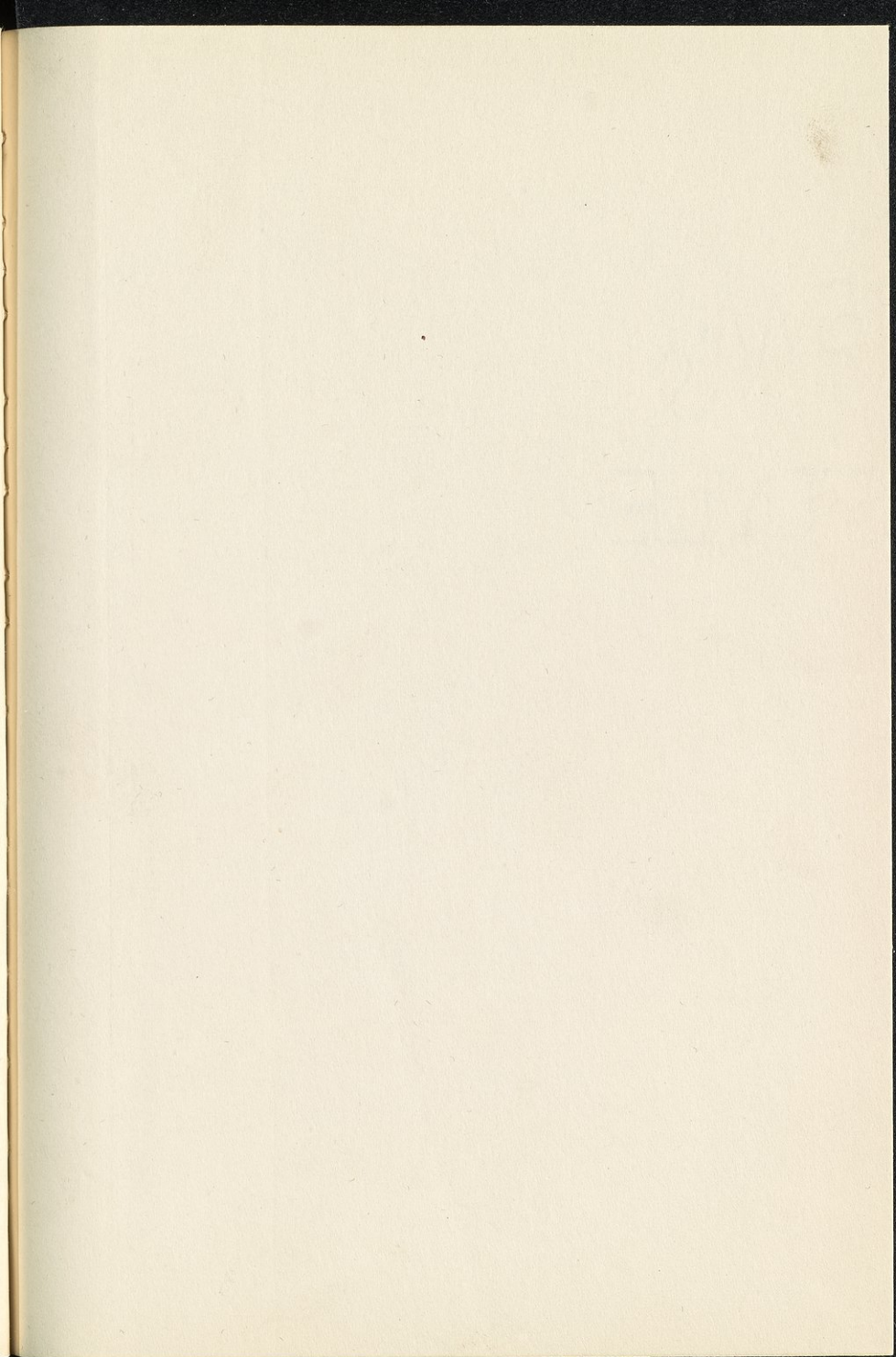
٢٦٠٠٢٤١	النظرية الفلوجستونية
٢٧٩٠٢٧٢	
٥٤	النظرية القنطامية
٥٤	النظرية الكمية
٢٣٤ ٧٣٠٥٤	نظرية الكوانتم
٢٩٠	النظرية الكيماوية الكهربائية
٥٦	النظرية الموجية
٢٣٤٠٢٠٧٠٥٣	النظرية النسبية
٧٩	نظرية النشوء
٤٠٣	النكباتيون
٢٠٧	نكلسن
٤٣١	النماذج المصنعية
٣١	النهضة ، عصر
١٨٥٠٧٨٠٧٣٠٧٠	نيوتن ، أيزاك
٣٦٥	النيوتونية ، الثورة

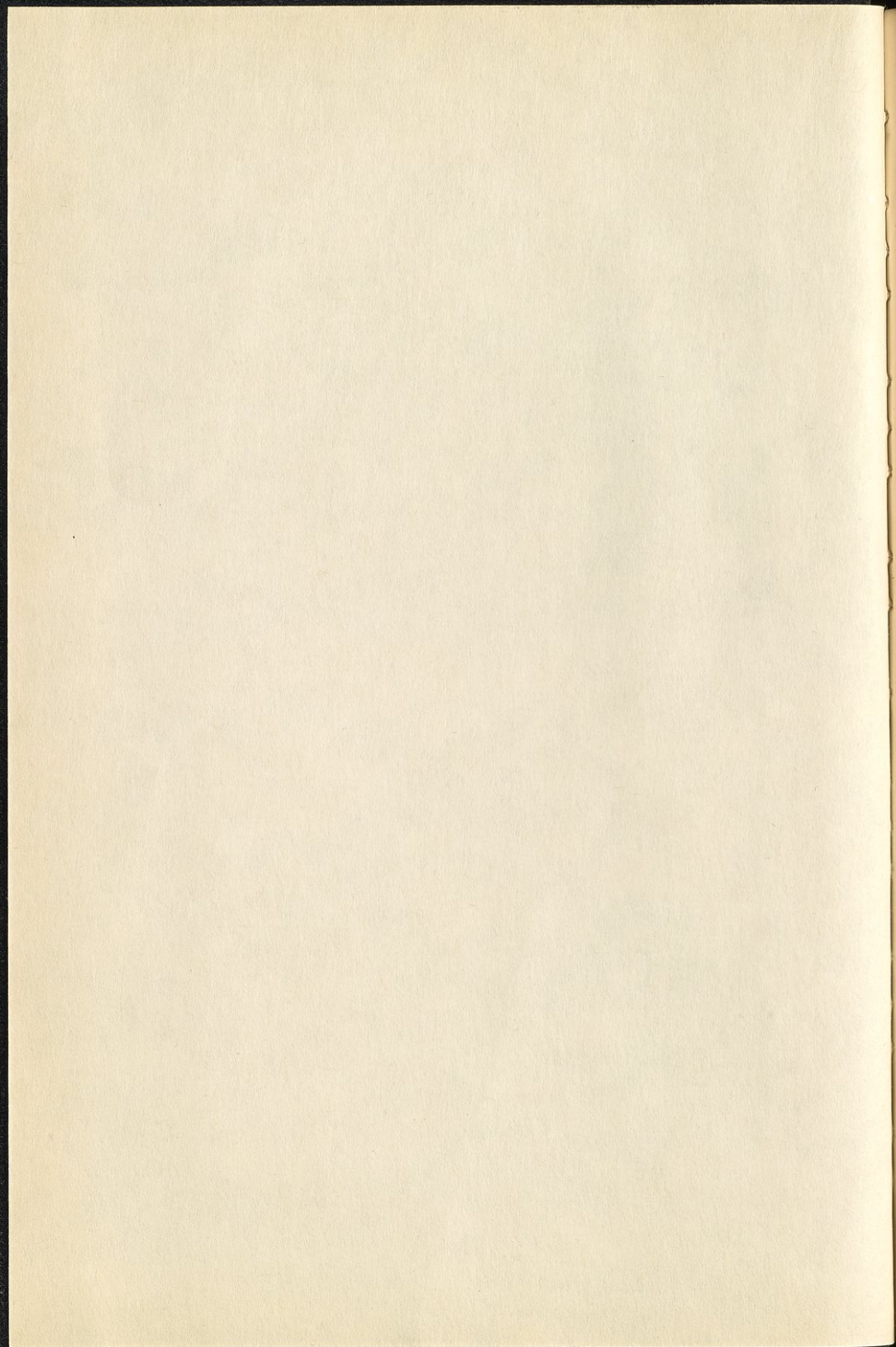
(ه)

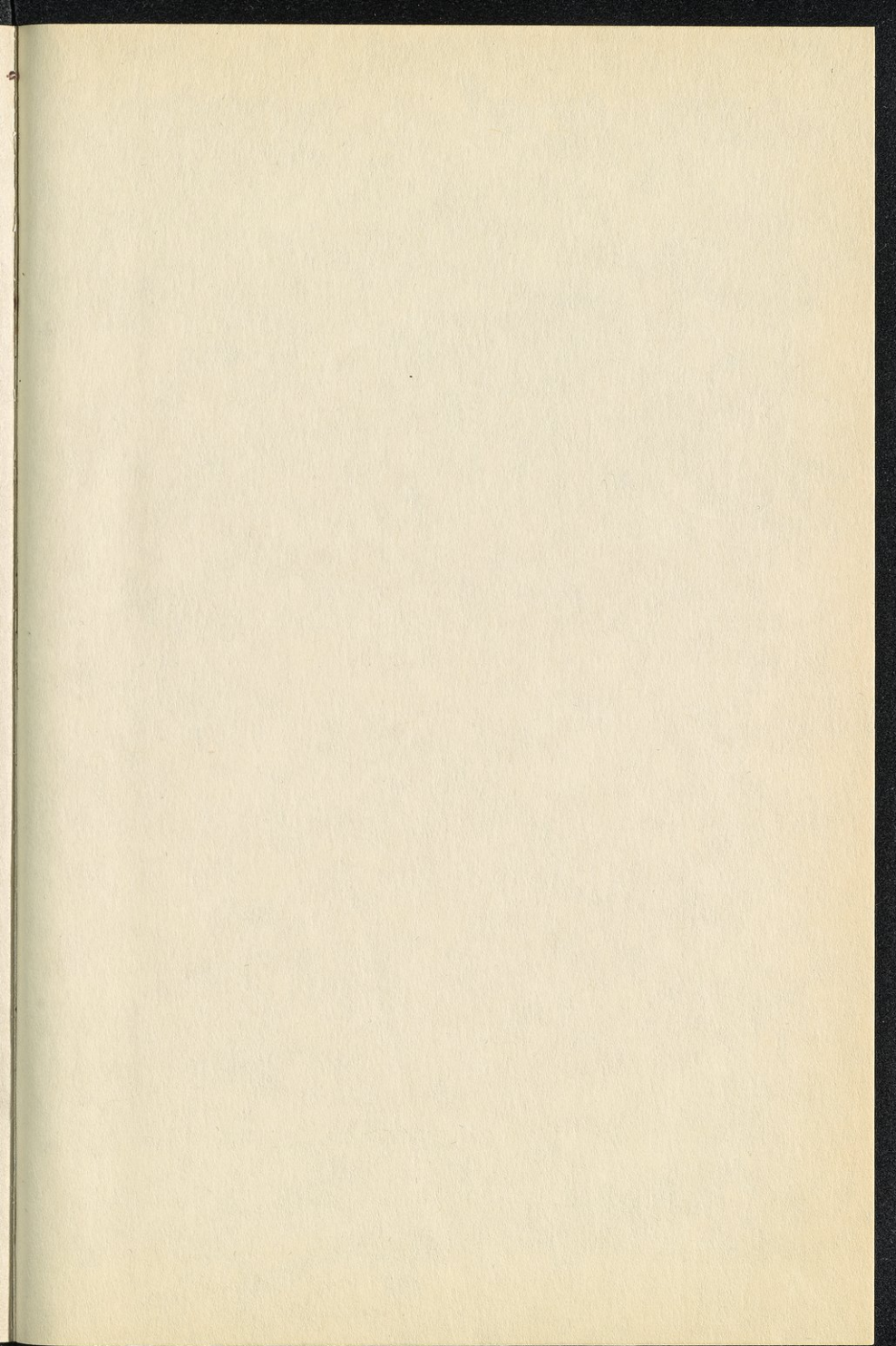
(و)	
٤١٤٠٣٠٧	الوراثة ، علم
٠٢٢٥٠١٠٤	وط ، جيمز
٤٢٥٠٢٧٤	
٢٤٥	وليمز ، صمويل

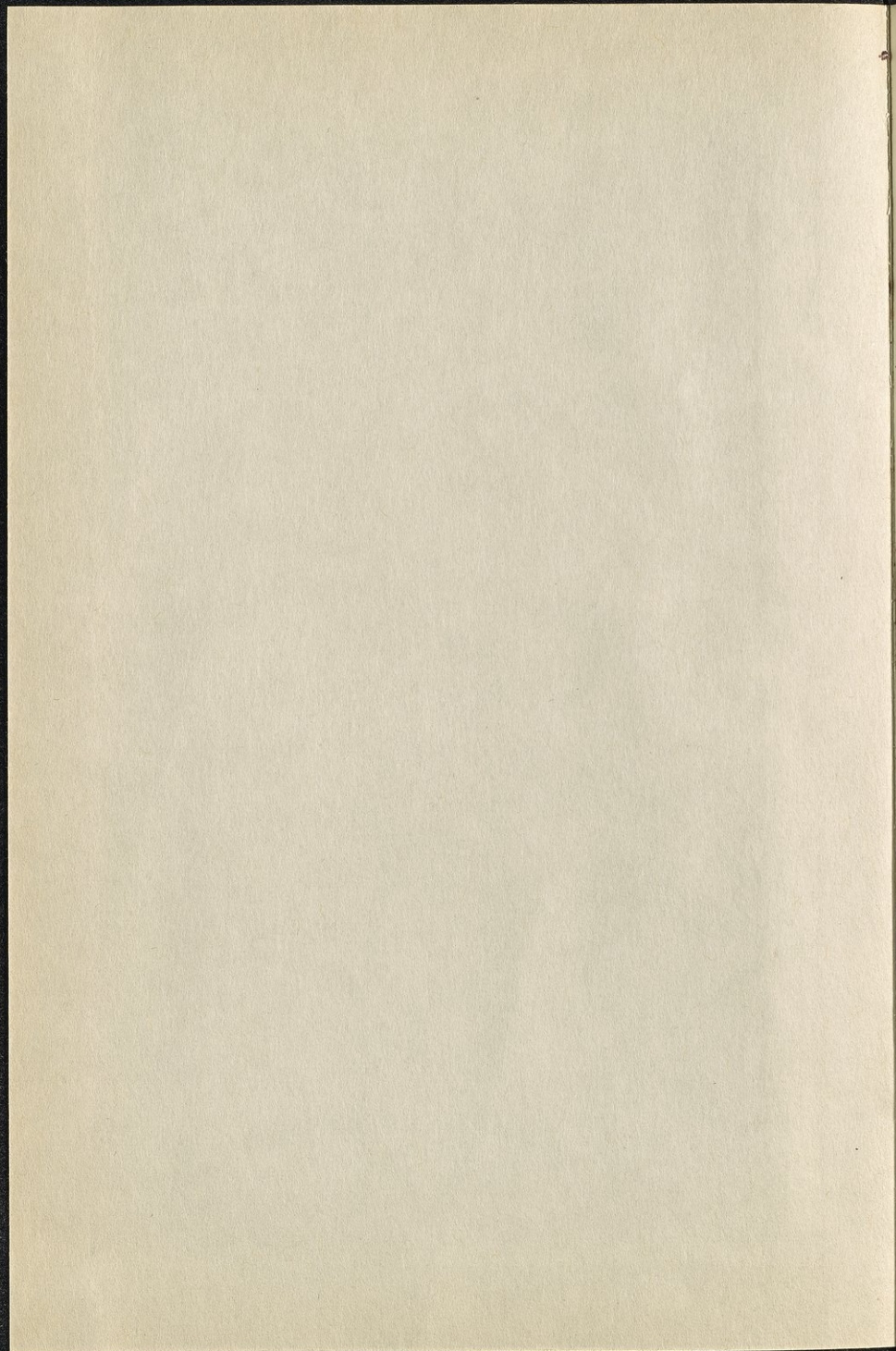
٣٩١	هاتون
٢٥٠	هالز ، استيفن
٥٦	هرفرد ، جامعة
٣٠١٠٧٠	هرقي ، وليم
٤٢	هكسلي ، توماس

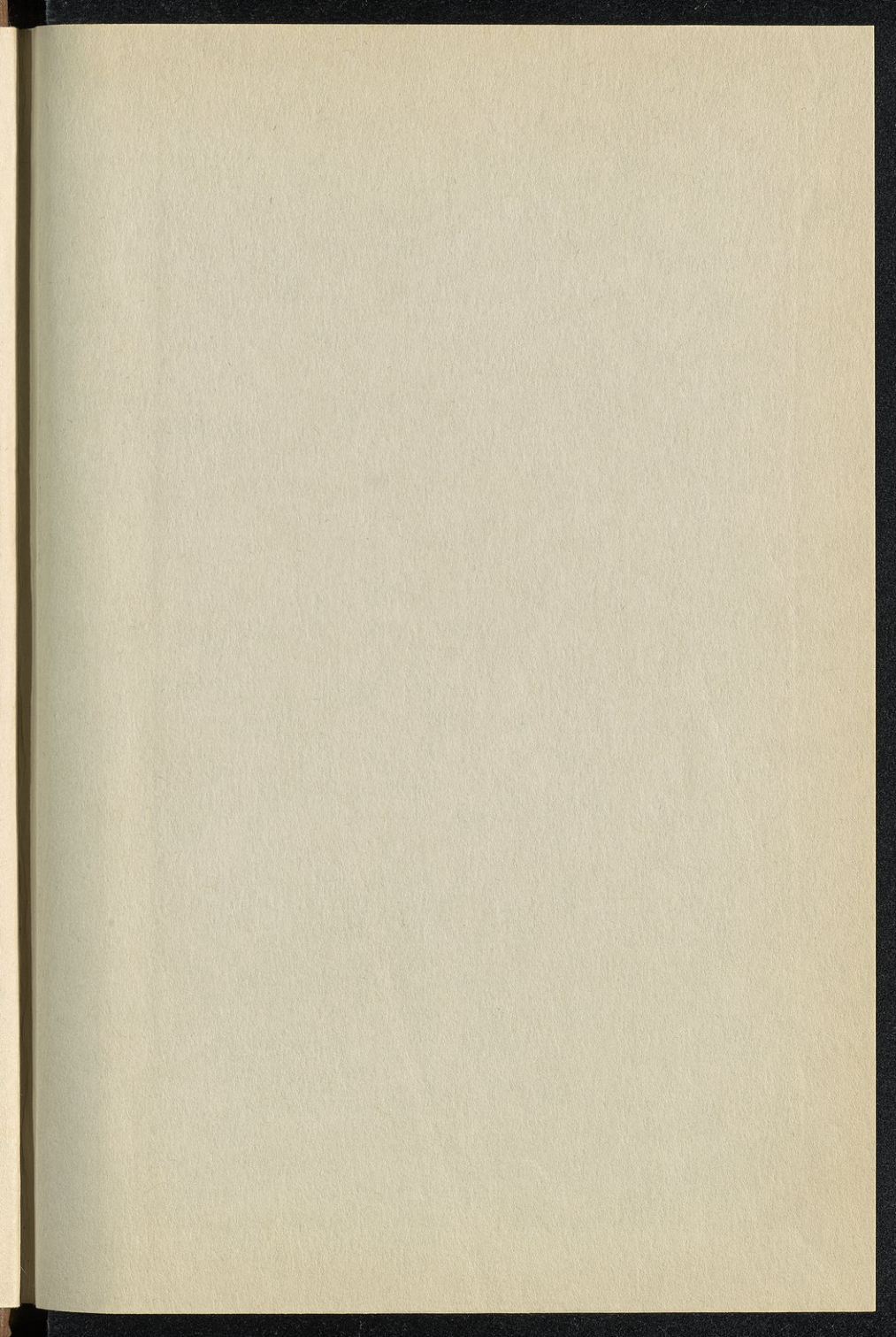












893.785
C74

BOUND

DEC 9 1955

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58891390

893.785 C74

Mawaqif hasima fi ta